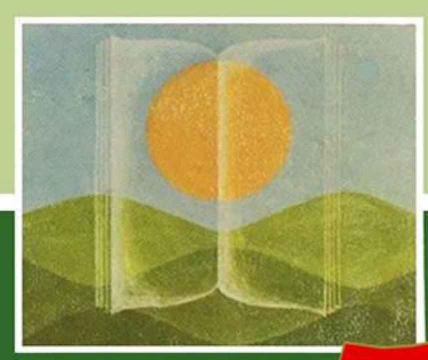
في الفكر السياسي

ف. كورنونوف

# صراع الأفكار

## في العالم الحديث



ترجمة: حنا عبود






موافقة رقم ٨٠٩٩ تاريخ ٢٠/١/١٩٨١

طبعة أولى ٢٠٠٠ / ١٠ / ١٩٨١

العنوان الاصلي للكتـاب :

**V. KORTUNOV**

**The Battle of Ideas in The Modern World**

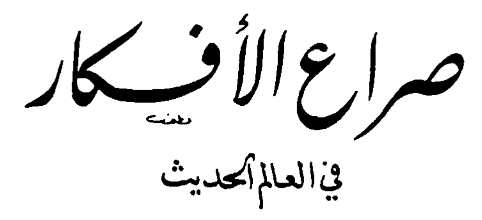
صادر عن دار التقدم ـ موسكو ١٩٧٩



دمشق ـ شارع بور سعيد هاتف ١١١٠٢٢ ـ ١١١٠٤٨
بيروت ـ شارع سوريا بناية صمدي وصالحة

ف. كورتونوف






ترجمة: حنا عبود



## كلمة الى القارئ

لا عصر ، ولا حتى الفترات العصيبة في تاريخ العديد من الاقطار ، كعصر التنوير ، يمكن ان يقارن بعصرنا من حيث عمق معركة الافكار واحتدامها . ان اتساع الصراع الايديولوجي الحالي هو انعكاس للتغيرات السياسية والاجتماعية الجارية في أيامنا . انها نابعة من المواجهة التاريخية بين الراسمالية والاشتراكية ، يرفدها في مرحلتها الحاضرة التداخل المعقد للثورات التكنولوجية والعلمية والاجتماعية .

ان المهمة التي القاها الكاتب على عاتقه في هذه الكراسة كانت تقصّي ، انطلاقا من المواقف الماركسية ـ اللينينية ، المراحل الرئيسية للصراع الايديولوجي بين الراسمالية والاشتراكية . هذه المهمة وسمت هذا الكتاب بالسمة النقاشية ، فحتى يدافع المؤلف عن هذه الوجهة او تلك ، مضطر ان يقدم تحليلا نقديا لعدد من المفاهيم السياسية والايديولوجية السائدة .

واذ يدرس المؤلف دراسة كاملة القضايا التي يطرحها الكتاب ، فإنه حاول اختيارها من زاوية تطورها على مسار التاريخ في الماضي . وهذا ينطبق خصوصا ، على مسالة الحرب والسلم ، ومنشأ الصراع بين النظريات العالمية للشيوعية والمناوئة للشيوعية . وفي كل الاحوال جهد المؤلف ان يقوم بتحليل شامل للقضايا القائمة ، وكشف العلائق المنطقية المستمرة فيما بينها . ان الخطوط الفاصلة بين فقرات هذه الدراسة ، هي بنيويا ، جائزة الى حد ما ، بيد ان التقسيمات تهتدي بمنطق معين .

في الفصول الاولى ، تحليل للصراع الايديولوجي ، على اساس المسح التاريخي ، من بدايات الحركة الشيوعية حتى اليوم ، وثمة اختبار مواز لقيمة النظريات الرئيسية المناوئة للشيوعية ، المشروطة بتطور الثورات التكنولوجية والعلمية والاجتماعية .

والفصول اللاحقة تتبع اجابات متنوعة عن القضايا القائمة في الاعوام الحالية ، التي يطرحها الفكر البرجوازي في أكثر النظريات الايديولوجية

شعبية . وقد تم ذلك انطلاقا من مواقف ماركسية ابرزتها تجربة السياسة الداخلية والخارجية للاشتراكية .

وفي الفصول الختامية ، التي هي تركيب للفصول السابقة ، حاول المؤلف ان ينظر في مجتمع المستقبل ، ويمحص بحث الانسان عن طرق مستقبلية للتطور الاجتماعي والقضايا التي تواجهه في مطلع الالف الثالثة .

وهكذا يتناول الجزء الاول من الكتاب الماضي القريب ، والجزء الثاني الحاضر ، والجزء الثالث المستقبل : العلاقة المتداخلة جدليا للعمليات حسب نموذج الماضي واليوم وغدا ، على اعتبار ان ذلك يمكن أن يقدم صورة لما يجري .

في يومنا هذا ، اي كتاب عن الموضوع الاجتماعي ـ السياسي ، اللهم ان كان هدفه فهم الواقع موضوعيا ، هو الى حد ما تركيب يتكون من دراسات المؤلف الخاصة ، وآراء زملائه ، كثمرة لمقارنة الآراء المختلفة ، ونتيجة لملاحظاته واتصالاته وتبادله الافكار .

والكتاب هذا يعرض ايضا خلاصة للقاءات المؤلف مع جمهور المستمعين من السوفييت او الاجانب . وبهذا الخصوص فان المؤلف يعبر عن امتنانه العميق لكل اولئك الذين ، من خلال مناقشة هذا السؤال او ذاك ، ساعدوه في البحث عن اجابات ، سواء بالمشورة ام بالنقد .

طبعا لا يدعي هذا الكتاب انه يضع اجابات نهائية عن المسائل الايديولوجية القائمة . انه ليس اكثر من محاولة لتقديم المسائل كما هي قائمة اليوم ، ومناقشتها ، ومن المحتمل للقارىء ، وخاصة ذاك الذي في الغرب ، ان يناقش ، او لا يوافق على بعض الاشياء في الكتاب ، او يرفض وجهة نظر المؤلف بالكامل . وسيان فالكتاب سيكون قد ادى غرضه ، لان من احد اهدافه اثارة الاهتمام بالقضايا التي ناقشها . انه لا يقدم ابدا صيغة جاهزة او محاولة لفرض وجهة نظر المؤلف على الآخرين . انه ، بالاحرى ، دعوة للمناقشة والمجادلة حول قضايا تواجه الجيل الحالي . وبهذه الروح ادفع به حتى يحكم عليه القارىء .

نيسان ١٩٧٧

## مقدمة

كل جيل يجد المسوغات لاعتبار عصره فترة خاصة في تاريخ الحضارة ؛ ويعزو له سمات فريدة واستثنائية . وللجيل الحالي ذرائع كثيرة لادعاء ذلك .

الباحثون والكتاب وعلماء الاجتماع والسياسة ؛ اذ يحاولون تحديد جوهر القرن العشرين واضفاء شرح علمي عليه ، يستخدمون بلا حدود الفاظا قوية وتعابير مجلجلة ، وينساقون وراء تماثلات تاريخية ، ولا يجدون سوى السمات والمفارقات المتضاربة . ولكن لنعرج على بعضهم .

الباحث السياسي الاميركي هانز موجنتو يذهب الى ان العصر الذري فتح باب مرحلة جديدة في التاريخ ، وهي مرحلة مختلفة عن العصور السابقة ، اختلاف القرن الحالي عن القرون الوسطى ، او اختلاف القرون الوسطى عن العصور القديمة .

ويقول الاقتصادي الفرنسي جان ـ جاك سيرفان ـ شريبر الامين العام للحزب الجموري الراديكالي والاشتراكية الراديكالية : « ... ان مجتمع عام ٢٠٠٠ في بعض اجزاء العام الصناعي سوف يكون مختلفا عما نعرفه اليوم ، كاختلاف مجتمعنا اليوم عن نيجيريا او مصر » (١) .

س ـ و ـ سيرام ، صحفي الماني غربي ، ومؤلف الكتاب الشهير « آلهة وقبور وباحثون » يقول : « اننا ، ونحن في القرن العشرين ، نجتاز عصرا للبشرية بطول خمسة آلاف سنة ... اننا لسنا كما قال شبنجلر مثل وضع روما لدى بداية الغرب المسيحي ، بل في وضع يسبق الميلاد بثلاثة آلاف سنة » (٢) .

ويقول عالم الاجتماع الاميركي الفين توفلر : « الحقيقة ان ثمة رايا شائعا

---

(١) جان ـ جاك سيرفان ـ شريبر « المجز الاميركي » باريس ١٩٦٩ ص ٤٤ .

(٢) ماخوذة من « صدمة المستقبل » الفين توفلر ، نيويورك ١٩٧١ الصفحة ١٥ .

يؤكد ان المرحلة الحالية لا تمثل سوى الانقسام الكبير الثاني في التاريخ البشري ، يقارن بعظمته مع أول خطوة كبيرة في استمرارية التاريخ ، وهي الانتقال من البربرية الى الحضارة » (٣) .

للوهلة الاولى يمكن ان تبدو هذه الاطلاقات المتشابهة مبالغا فيها ؛ ولكن مما لا شك فيه أن شيئا من الحقيقة كامن فيها .

الحقيقة ان القرن العشرين أعظم قرن ثوري في تاريخ البشري . لقد اتسمت بدايته بتغيرات اجتماعية عميقة جدا ، وذلك بالمشاركة الفعالة التي لم يسبق لها مثيل من قبل الجماهير الشعبية في التطور التاريخي ، وبالتقدم الهائل جدا في الميدان الثقافي . وهذا ما جعل التاريخ يزيد من تسارعه في طريق التقدم الاجتماعي بصورة لم يسبق لها مثيل . ان مرحلة جديدة من التاريخ قد بدات ، مضمونها ، كما يقول لينين ، هو « الاجهاز على الراسمالية وبقاياها ، واقامة اسس النظام الشيوعي » (٤) . وبكلمة أخرى ، وحسب سياق المضمون ، فان زمننا هو عصر الانتقال من التشكيلة الراسمالية الاقتصادية والاجتماعية الى الاشتراكية .

على اية حال ، لا يكفي ان نصف العصر الحالي بانه فقط خط فصل بين تشكيلتين . هذه الظاهرة ، اذا اخذت منفردة ، غير كافية للحكم على العصر بانه مرحلة استثنائية فلو كانت التغييرات في التشكيلات هي القاعدة الاساسية فقط ، فان قرننا لن يختلف ابدا عن القرون الاخرى التي حلت فيها طريقة انتاج محل طريقة أخرى . في مثالنا هذا ، على اية حال . المسألة هي **مسالة الانتقال الى تشكيلة جديدة نوعيا** ، تشكيلة تلغي استثمار الانسان للانسان . هذا هو السبب في أن مرحلتنا ، كما تنبأ انجلز . لا تمثل فقط احلال تشكيلة محل تشكيلة أخرى ، وانما ايضا تمثل « ارتقاء الانسان من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية » (٥) .

برغم التاكيد على الانتقال الثوري كطبيعة لمرحلتنا الحالية ، لا شيء ، كما يقول كتاب غربيون ، يؤكد أن الاشتراكية هي التي ستحل محل النظام القديم ، وانما سوف يحل محله شيء من التعديل الجديد للراسمالية ، وقد

---

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

(٤) لينين «الصراع داخل الحزب الاشتراكي الايطالي» المؤلفات الكاملة جـ ٢١ ص ٣٩٢ .

(٥) انجلز « انتي دوهرنغ » موسكو ١٩٧٥ ص ٢٣٦ .

انتقلت تحت تأثير التكنيكية والعلمية الى مجتمع « صناعي » أو مجتمع « ما بعد الصناعي » ويدعون ان التقدم التكنيكي والعلمي سيزيل اوتوماتيكيا التضاد بين الراسمالية والاشتراكية ، بين البرجوازية والطبقة العاملة . وفي وصفهم لعالم ما بعد الصناعي الجديد الذي تفتحه حسب زعمهم الثورة التكنيكية العلمية بصورة عفوية تقريبا ، ثمة مظهر واحد ( مع التسليم انه مظهر هام جدا ) ـ وهو انتاج الثروة المادية ـ تجري المبالغة في تقديره ؛ بينما يجري تجاهل البناء الاجتماعي والسياسي للمجتمع بصورة أساسية . ومع ذلك فان ظهور وتطور تشكيلة اقتصادية ـ اجتماعية جديدة ـ هي المجتمع الشيوعي ـ لا يعني فقط زيادة في الثروة المادية . انه يعني اكثر من ذلك بكثير . انه يعني انعطافا اساسيا في الحياة الثقافية والروحية والاجتماعية والسياسية للشعب انعطافا كاملا . انه ينهي « التاريخ السابق للمجتمع البشري » ويظهر « التاريخ الحقيقي » (٦) .

من حيث الاهمية ، هذا الانتقال التاريخي العالمي العظيم في التاريخ ، هو في الحقيقة الذي يجب ان يقارن بالانتقال من البربرية الى الحضارة الاصلية . وفيما يتعلق بالثورة التكنولوجية العلمية الحديثة ؛ فباعتبارها نوعا من الانفجار ( بالطبع ليس فوريا ، بل طويل الامد ) وصعودا جبارا للقوى الانتاجية ، فان تأثيرا مباشرا على العلاقات الانتاجية . ان للتقدم التكنولوجي العلمي قيمة مستمرة قائمة بذاتها . وفي الوقت نفسه ، يعمل كحافز للعمليات الاجتماعية فيمدها بمحرضات جديدة فيجعل خطا الثورة الاجتماعية تتسارع . ان هذا المظهر الهام هو ما يعمد الباحثون البرجوازيون الى نسيانه في الاغلب .

ان نشأة الثورة التكنولوجية العلمية لثوراتنا الاجتماعية المعاصرة ترجع الى بداية هذا القرن . فالعلم ، بصورة عامة ، اعاد النظر باسسه الكلاسيكية النظرية ، فهجر عدة مفاهيم سابقة ، وفوق ذلك اعاد النظر بكل كيان الآراء التي تؤلف الفهم القائم للعالم . وقد اورت الزناد في هذه الثورة العلمية، حسبما نعرف ، منجزات في النظرية والتجربة منذ اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين مثل ظهور نظرية الكوانتم والنظرية النسبية والنموذج الذري واكتشاف ظاهرة النشاط الاشعاعي ، وهذا غيض من فيض . باختصار ، تلك المنجزات التي سماها التاريخ « ثورة في الفيزياء » قادت الى

---

(٦) ماركس ـ انجلز : المؤلفات المختارة المجلد الاول موسكو ١٩٧٢ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥ .

ثورة في وسائل العمل ، اي ادت الى الثورة العلمية التكنولوجية ( ثعت ) .

وكما سبق في الخطا المتسارعة ، فان التقدم التكنولوجي العلمي بدوره كشف ما يسمى نضج مجتمع قائم على الطريقة الراسمالية في الانتاج . وكما تظهر الممارسة ، فان منجزات عديدة للعلم الحديث والتكنولوجيا ، لا يمكنها ، ببساطة ، ان تحشر في سريرها البروكروستي ، انها لم تعد تلائم اطار النظام الاقتصادي الاحتكاري للدولة . ان مجهودات كهذه تذكر المرء كثيرا بالمحاولات الليبو ثانية لاحتذاء جزمة غاليفر .

ومن جهة اخرى ، ان الطبيعة الفعلية لمنجزات ( ثعت ) مرهونة بتطوير القوى الانتاجية الضخمة ، التي تدخل في صراع مكشوف مع مبادىء الملكية البرجوازية لوسائل الانتاج ، والقوانين الموروثة في مرحلة الراسمالية الاحتكارية . ومثل بذار الملك ايتيس (٧) ، فان مكتشفات الفكر التكنولوجي والعلمي زرعت في تربة غير صحية من العلاقات الانتاجية الراسمالية التي انقلبت ضد الزارع نفسه ، والمنجزات الجبارة للفكر انقلبت ضد الجنس البشري . وفي شروط فوضى الطريقة الراسمالية للانتاج ، لن تحوز (ثعت) الا على سمة بشعة ، والاغلب ان تكون سمة متسببة . واذ غدت الملكية راسمالية احتكارية ، فقد اعتادوا من فوائدها الخاصة ، ان يواجهوا البشرية بمعضلات لا حل لها ، بل أسوا من ذلك ، انهم يواجهونها بخطر الابادة .

وهكذا فان (ثعت) تجعل القضاء على الراسمالية ليس فقط الشرط المسبق لتقدم اكبر ، وانما شرط للحفاظ على الحضارة ذاتها . ان رسالة التقدم العلمي التكنولوجي هي التعجيل بالثورة الاجتماعية وخلق مثلها . وظهورها هكذا هو تداخل للعمليتين اللتين وان اختلفتا في طبيعتهما ترتبطان تاريخيا مع بعضهما وتقرران الطبيعة **الانتقالية** لعصرنا .

ان الانتقال من تشكيلة اقتصادية اجتماعية ـ الى اخرى لا يمكن طبعا ان يحدث من غير صراع وغير الم ، لانه ليس فقط احلال طريقة في الانتاج محل اخرى ، وانما ثورة اجتماعية وروحية عظيمة . لهذا فان النضال بين القديم والجديد ، بين المحتضر والوليد ، امر حتمي . وهذا بدوره ما يقرر معاناة النضال الايديولوجي ـ المنافسة بين النظرتين والفلسفتين ونظامي

---

(٧) حسب الاسطورة اليونانية ، فان ايتيس ، ملك كولخيس ، اختبر جيسون بالمهارة والشجاعة بان قدم له اسنان التنين ليبذرها . وعندما زرع جيسون الاسنان انشقت الارض من محصول من الرجال المسلحين الذين انقلبوا ضده .

القيم الروحية العالميين المتعارضين . وهذا هو سبب ان مرحلتنا الحالية نوق انها فترة انتقالية أخرى ، ترتبط بمواجهات ايديولوجية ، لان التحطيم الاجتماعي الاساسي ليس فقط تفتيت النظام الاقتصادي السياسي البرجوازي السابق ، بل ايضا تفتيت نماذجه الذهنية . ان ثورة في اذهان الشعب ، معركة افكار ، هي ثورة في التقدم . ان المجتمع الجديد سوف يظهر الى الوجود بالمزيد من المشقة ، كما قال لينين : « ليس مدهشا ان هذا العالم لا يظهر الى الوجود جاهز الصنع ، لا يندفع مثل منيرفا من راس جوبتر » (٨) .

ما من مرحلة من مراحل التاريخ شهدت كمرحلتنا مثل هذا التركيز في الازمات الوطنية والعالمية ، ولم يشهد قرن مثل هذا العدد الضخم من المهمات المعقدة المتداخلة مع بعضها في عقد متناقضة كما شهد القرن العشرون . والعديد من القضايا « الابدية » في النضال القديم للطبقات المستثمرة من اجل العدالة والحقوق المتساوية وجدت الآن حلا من مجرى الحياة العملية في تلك الامم التي باشرت طريق التحولات الاشتراكية .

ان الحياة اليومية تقدم دائما متطلبات جديدة . ان البشرية لم تواجه من قبل مسالة انبعاثها الحقيقي . واذا كان الناس اعتقدوا مرة ان النهاية المفجعة للعالم سوف تتحقق على يد قوة غيبية ، فان العالم الآن قد يتم تدمير كل ما هو حي فيه نتيجة افعال الناس انفسهم ، مثلا على شكل تفجير نووي انتحاري . ولم يتحقق أبناء الجنس البشري من قبل انهم ببساطة ركاب قارب واحد اسمه الارض . ولم يسبق ان جرى تعاون مبدئي بين انظمة اقتصادية ـ اجتماعية مختلفة . واخيرا ، لم يسبق للبشرية أن وصل مصيرها الى هذا السبيل المتازم .

السلم العالمي او ماساة الحرب النووية ، الآفاق الواسعة للتقدم الاجتماعي ، او الاضطهاد المتعاظم من قبل الاحتكارات ، الاستخدام الحكيم لسيادة الانسان على الطبيعة او استنزاف مصادرها ـ هذه وغيرها من المسائل الملحة تنقلب ، من غير مبالغة ، إلى مسالة حياة او موت الملايين الناس . باختصار ، ان البشرية وصلت في تاريخها الى نقطة بعدها لن تقفز الا الى رفاهيتها او دمارها .

---

(٨) لينين : « رسالة ابن العمال الاميركان » المؤلفات جـ ٢٨ ص ٧٤ .

ان القرن العشرين لمّا تنته دورته ، ومع ذلك فان القرن التالي سيرث بشكل مسبق تحديا من هذا القرن بكل قضاياه الشاملة : البيئة والطاقة والسكان .. الخ . ان المعضلة الكبرى لمهمات قرننا مرتطبة بظهور عالم اشتراكي جديد وبتطوره ، ومرتبطه بالنتائج الحقيقية لـ ث ت ع ووشائجها المعقدة المتشابكة مع الثورة الاجتماعية .

في عصر التنوير ، عشية ظهور النظام البرجوازي ، وهو فترة انتقالية ايضا ، جرى صراع ايديولوجي عنيف بين الدوائر الملكية الكليركية الاقطاعية من جهة وممثلي الطبقة الثالثة من جهة اخرى ، تلك الطبقة التي رفعت افكار المساواة والحرية والخير والعدالة ، ثم تم اعلان هذه الافكار بصراحة .

في النضال الايديولوجي الحديث بين الشيوعية والدعوة المناوئة لها تقاطعت السيوف نوعيا حول المسائل التي ترجع الى تحقيق هذه الافكار ، ولكن في وضع مختلف كل الاختلاف . ان الايديولوجيا البرجوازية ، المدافعة عن الطبقة الحاكمة في المجتمع الراسمالي ، تنطلق من فرضيات غامضة في اعلان افكار المساواة والانسانية ، كلما تحدثت عن الحرية « الصافية » والديمقراطية « الصافية » والحقوق الانسانية « الشاملة » ... وهلمجرا . ومقابل هذه البدع عن الخير والشر والاوهام الكثيرة الناجمة عنهما ، تأخذ الايديولوجية الشيوعية بالحسبان القوانين الموضوعية للعملية التاريخية . لقد اظهرت – بصورة مقنعة – ان المنحى الطبقي الى دراسة الظاهرة الاجتماعية يضع المقولات الانسانية الشاملة في مكانها الحقيقي ، ويقدم لها المضمون الحقيقي . فاذا حذفنا هذه الناحية ، فان الحرية والديمقراطية والمساواة والحقوق الانسانية وغيرها تغدو كلمات جوفاء بلا معنى .

اننا نؤمن ان الطريق الى تحقيق الافكار الانسانية الشاملة تحقيقا عمليا، المرتبطة تماما بالاستخدام العقلي لمنجزات التقدم العلمي التكنولوجي ، يكمن اولا وقبل كلّ شيء في انجاز الثورة الاجتماعية والانتقال من الراسمالية الى التشكيلة الشيوعية .

ان الشيوعيين يشعرون أن القضايا التي تواجه العالم يمكن ان تحل ، وان التحديات الكبرى للمستقبل يمكن ان تواجه . ان ايديولوجيتنا هي ايديولوجيا التفاؤل التاريخي .

# «صليبية» ضد الشيوعية

« الافكار تدوي في العالم اعلى من المدافع »
باكستون

**البنادق ضد الافكار ..**

لاكثر من مئة سنة والحركة الشيوعية واساسها النظري ، الماركسية اللينينية ، تمثل مركز الحياة الايديولوجية في العالم اجمع ، وتماس تأثيرا متعاظما في مصائر ملايين الناس .

واعتمادا على تغيرات في ميزان القوى الطبقية ، مر الصراع الايديولوجي بين الشيوعية ومناوئيها خلال هذه الفترة في ثلاث مراحل اساسية ، كل مرحلة تتوافق مع التغيرات في الحياة الايديولوجية والسياسية للبشرية .

بدات المرحلة **الاولى** بظهور حركة الطبقة العاملة ، أو بعبارة ادق ، عندما شرحت تجربتها السياسية نظريا وعممت في تعاليم ماركس ، انجلز ، لينين ، هذه التعاليم التي كانت سلاحا بيد الجماهير العاملة في نضالها التحرري ضد الراسمال .

والمرحلة**الثانية** بدات بانتصار ثورة اكتوبر ١٩١٧ في روسيا ، أول انتصار لثورة اشتراكية عالمية .

وترجع بدايات المرحلة **الثالثة** الى الحرب العالمية الثانية ، عندما انتصرت القوى الديمقراطية على الفاشية ، فخلق هذا النصر ظروفا مواتية لتشكيل المجموعة الاشتراكية ، ولانتفاضة قوية جديدة للحركة الشيوعية العالمية وحركة الطبقة العاملة ، والغاء نظام التبعية للامبريالية .

ان كل خطوة جديدة تساعد على امتداد الشيوعية العلمية وتدعيم مواقعها ، وتجبر خصمها على تعديل تكتيكهم التراجع الى مواقع دفاعية .

كان من السهل شن هجوم على المفاهيم الثورية للطبقة العاملة ، عندما كانت مجرد نظرية . ولكن الامر يختلف ، بعد ثورة اكتوبر ، عندما تجسدت هذه المفاهيم علمياً في بناء الاشتراكية ، كما ان الامر يختلف اختلافا كليا في ايامنا هذه ايضا ، عندما غدت مجموعة الاقطار الاشتراكية العنصر الحاسم في التطور العالمي ، وعندما احرز النضال التحرري للشعوب المكافحة امتدادا عالميا ، وعندما كشفت الازمة العامة للراسمالية جميع تناقضاتها التي بدت صارخة اكثر من اي وقت مضى .

ان مناواة الشيوعية مضطرة باستمرار الى تغيير مظهرها ، بحيث تبدو احيانا ، على شكل مناواة الماركسية ، واحيانا على شكل مناواة البلشفية او مناواة السوفييتية ، وفي بعض الاحيان تظهر كل هذه الاشكال واشكال اخرى مع بعضها . هذا التطور المناوىء للشيوعية يعكس النضال التحرري للطبقات الكادحة ، وهو مفيد جدا من حيث انه تجسيد عام للتطور الاجتماعي السياسي في المرحلة المعاصرة .

في البداية ، عندما كانت حركة العمال المنظمة في بواكيرها ، وطفقت الماركسية تستميل عقول العمال التقدميين ، كان تكتيك مناواة الشيوعية يقوم على رفض واقع الشيوعية العلمية . ان مناواة الشيوعية ظهرت ، عموما ، في اشكال بدائية فجة ، فقد اعتمد دعاتها على الجهل الايديولوجي . لمعظم الكادحين ، الذين كانوا في بداية خوض غمار الحياة السياسية . وكان جهابذة البرجوازية اما ان يتجاهلوا الماكسية او يعتبروها نظرة لا انسانية مؤذية تنافي منطق التطور التاريخي والطبيعة الانسانية ذاتها .

بعد ظهور **البيان الشيوعي** في ١٨٤٨ ؛ قال البرجوازيون ان الشيوعية تضليل وعدوة كل المجتمعات . في ذلك الوقت لم يكن المدافعون عن النظام البرجوازي يعتقدون انمن الضروري تحمل مشقة اختيار كلماتهم . على العكس ، كانوا يعتبرون استخدام لغة فجة اتهامية ضد الشيوعيين افضل طريقة لحماية الجماهير من تاثيرهم « المستشري » . وقد جرى تصوير الشيوعيين انهم مجموعة هزيلة من المتآمرين والمشاغبين لتدمير المجتمع ، وتكنيس الاخلاق ، ودفن اسس الحضارة .

باختصار ، كانت مناواة الشيوعية في تلك الفترة ان تنحي جانبا الماكسية ، وترفض التعاليم الشيوعية من غير تقديم اي شيء سوى النظام

البرجوازي . المبادرة الحرة كانت الحجة المعلنة على أنها القوة الدافعة الوحيدة للتقدم . ولم تكن الحضارة ينظر اليها الا على أساس المبدأ المقدس للملكية الخاصة . واعلنت المؤسسات الديمقراطية الليبرالية على انها اعلى منجزات التطور الاجتماعي .

في فجر حركة تطور الطبقة العاملة كانت البرجوازية تفضل استخدام وسائل العنف في الصراع ضد « المتآمرين » و « المشاغبين » الشيوعيين . وبتضيف المدافعين عن الافكار الشيوعية « مخربين مجرمين » شرعت الطغمة البرجوازية الحاكمة ضد الشيوعيين الملاحقات والنفي والحجر والطرد والارهاب . هذا التكتيك من الاضطهاد والقذر لـ « المنشق » الشيوعي ؛ اظهر وقتها السياسة العامة التي اتبعتها البرجوازية في محاربة حركة الطبقة العاملة ككل . ان الاعمال الاولى للبروليتاريا ـ انتفاضات ليون ١٣٨١ و ١٨٣٤ في فرانسا ، وتمردات النساجين السيليسيين ١٨٤٤ في المانيا ـ سحقت سحقا دمويا ، وكومونة باريس (١٨٧١) تحولت الى مذبحة .

اثناء التطور السلمي نسبيا للراسمالية الاوروبية ، الذي تلا الكومونة؛ توهمت الرجعية ان ملاحقة البوليس وحدها يمكن ان تنهي حركة العمال . وكما بدا وقتها ؛ لم يكن ثمة حاجة ملحة لمكابدة البحث عن أي نوع من انواع الايديولوجيا لمواجهة الشيوعية . بيد ان هذا الوهم سرعان ما تبخر .

واذ تطورت الراسمالية من المنافسة الحرة الى الراسمالية الاحتكارية ؛ تراكمت تناقضاتها وازدادت شدة . ان الاعمال الثورية للبروليتاريا حققت اتساعا واكتسبت اهمية سياسية . كانت افكار الماركسية تنتشر اكثر فاكثر في حركة الطبقة العاملة . وفي نهاية القرن ، عندما ازدادت الصراع الطبقي وضوحا وحدة ، طفقت الطغمة الحاكمة تبحث عن طرق جديدة للحفاظ على سيادتها . واضطرت اكثر فاكثر لتدعيم دفاعاتها الايديولوجية ضد الماركسية .

ان نطور الحركة البروليتارية وانتشار الماركسية في أوروبا غيرتا جذريا الاوضاع القائمة على الجبهة الايديولوجية . وربما كان التغير الرئيسي هو اضطرار جميع النظريات البرجوازية الاجتماعية ـ السياسية الى التركيز على القضايا الفعلية التي دفعتها الشيوعية العلمية الى الساحة. لقد غدا معادي الشيوعية ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، ياخذ بالحسبان

استنتاجات الشيوعية العلمية ويبتكر طرقا جديدة في محاولاته الدؤوبة لدحض تلك الاستنتاجات . ان من الجدير بالاهتمام ان ايديولوجيي البرجوازية الاحتكارية ، في مناهضتهم لانسانية مفكري برجوازية عصر الانوار ، اختاروا التشبث بفكرة انحطاط الانسان ، والتقليل من شأن الفكر ، وتقديس القوة اللاعقلية للغريزة . وبكلمة اخرى ، ان البرجوازية بفقدها المبادرة التاريخية ، فقدت مواقع الهجوم الايديولوجي . أن الفكر البرجوازي الاجتماعي ــ السياسي يجري الآن بتعاظم في قناة معاداة الماركسية ، طالما انها تسعى الى تشويه سمعة تعاليم الماركسية اللينينية ورفضها ، وعلى الاخص الفهم العلمي للعملية الاجتماعية ، والطبيعة الثورية لتطورها ، وقيمة المثل الاشتراكية .

## التحالف بين الانتهازية والمدافعين عن الراسمالية ..

بن الصعب الذهاب الى ان من المصادفة ان فلسفة آرثر شوبنهور المثالية عن الهلاك ، التي ترفض خضوع الطبيعة لقانون ، كما ترفض المعنى الحقيقي للوجود الانساني ، والتي كادت ان تنسى ، قد جددت حياتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ان الكرازة باللامعقولية كانت من اجل مواجهة النظر الماركسية في العملية التاريخية كواقع موضوعي . وذهب ادوارد فون هارتمان ، تلميذ شوبنهور ، ابعد من ذلك في فلسفته عن اللاوعي وباعتبارها ردة فعل مباشر على نظرية الشيوعية العلمية ، فقد عارضت المادية الديالكتيكية بمفهوم ارادي متشائم عن العالم ، الذي لا يخضع مصيره المحتوم لتأثير البشرية .

الفلاسفة البرجوازيون ، من الليبراليين الى الرجعيين المتطرفين ، نظروا الى قضايا بنية المجتمع الاجتماعية السياسية ايضا من مواقع اللاادرية واللامعقولية . هكذا كانت على سبيل المثال ــ الآراء التي لاقت يومها رواجا شعبيا ، كآراء النصير الشهير للوضعية الانجليزية هربرت سبنسر ، الذي انطلاقا من صيغته في التوازن التطوري ، يرفض بشكل قاطع اي تحولات ثورية ، ويعتبر الشيوعية تقهقرا .

ان التعاليم الاجتماعية ــ السياسية للفيلسوف الالماني فريدريك

نيتشه ، كانت تبريرا سافرا ومباشرا للبرجوازية الاحتكارية الوليدة ، وسياستها الرجعية ، ونزعتها العسكرية . كانت تدعو الى التغلب على تشاؤمية شوبنهور السلبية وتوحيد الاسياد الجدد للعالم ، العنصر المسيطر، والى صراع حاسم مرير ضد الحركة العاملة والاشتراكية . وليس من غير سبب بعد عدة عقود اعتبر الجزارون الفاشيست نيتشه معبودهم واعتبروا فلسفته دعما لـ « التبرير الاخلاقي » لسيادتهم على العالم .

في الوقت نفسه ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظهر دفاع جديد عن الراسمالية تدعمه تشويهات انتهازية لنظرية الطبقة العاملة الثورية . كتب لينين : « ان جدلية التاريخ تشير الى ان الانتصار النظري للماركسية دفع اعداءها الى **تمويه أنفسهم** كماركسيين . والليبرالية ــ وقد فسدت من الداخل ــ حاولت ان تجدد نفسها على هيئة انتهازية اشتراكية »(١) . منذ ذلك الوقت وما بعد ، كانت الانتهازية اكبر خادمة للبرجوازية في معركتها ضد التعاليم الثورية للطبقة العاملة . لقد دخل الراسمال الاحتكاري في حلف ضمني مع الانتهازية ، معتمدا عليها وداعما اياها . والانتهازية ، بدورها ، لم تعد مقصرة . لقد فتحت نوعا من « الجبهة الثانية » ضد الماركسية اللينينية في صفوف الحركة العمالية نفسها .

ان الصيغة السيئة للديمقراطي الاشتراكي الالماني ادوارد برنشتاين ــ الحركة هي كل شيء والهدف النهائي لا شيء ــ كانت المعارضة المباشرة للمنظور الاشتراكي لصراع البروليتاريا الطبقي .وقد غدت نوعا من الشعار الايديولوجي للتحريفية والانتهازية اللتين اصبحتا في نهاية القرن التاسع عشر ظاهرة عالمية .

ومن الناحية النظرية ، عارضت الانتهازية بشكل مبدئي الاطروحات الاساسية لتعاليم الماركسية . وفي لهيب المعارك ظهر انتقاد ماركس للراسمالية ، وفكرة دكتاتورية البروليتاريا والدور الريادي للطبقة العاملة ، وتعاليم لينين حول الامبريالية والثورة الاشتراكية . ومن اجل اثبات ان الراسمالية لم تستنفذ بعد امكاناتها ، وبالتالي ان الشروط المسبقة للثورة الاشتراكية لما تنضج ، فان قادة الجناح اليميني في الاشتراكية الديمقراطية، روجوا لمفاهيمهم العلمية الزائفة تحت عناوين شتى : «الراسمالية التقدمية» ( برنشتاين ) « العصر الاقتصادي الجديد للراسمال المالي » ( كونو ) « ما فوق الراسمالية » ( كاوتسكي ) « الراسمالية المنظمة » ( هلفرونغ ) .

---

(١) « المصير التاريخي لمذهب كارل ماركس » المؤلفات الكاملة جـ ١٨ ص ٥٨٤ .

على اي حال ، اتحدوا جميعا في استخدام «الراسمالية الانتقالية» ، والدفاع عن الديمقراطية البرجوازية كذريعة للدعوة الى « السلم الطبقي » ودفع البروليتاريا الى « الانسجام الاجتماعي » مع البرجوازية .

انتشرت هذه الافكار ، يومها ، في صفوف الطبقة العاملة الاوروبية . وبمرارة والم يفهمهما الماركسي والثوري ، كتب مرانز مهرنغ مؤخرا : « ان الديمقراطية الاشتراكية الالمانية السابقة بكل تكتيكها المختبر تمزقت واستلقت تحت عجلات عربة الامبريالية المنتصرة » . ويكمن القول ان احد الاسباب الرئيسية للتطور السلمي النسبي للعلاقات الطبقية خلال الثلث الاخير للقرن التاسع عشر كان سيادة التحريفية والانتهازية في حركة العمال .

كان قادة الاممية الثانية ، قبل كل شيء ، مسؤولين عن واقع انه عندما دخل العالم الراسمالي ازمة من اشد ازمات عمقا وقد دفعت الامم الى اتون الحرب الامبريالية ، كانت الطبقة العاملة غير مسلحة ايديولوجيا وتنظيميا ، عاجزة عن الاتيان بأعمال ثورية . واعتمادا على « ارستقراطية العمال » من جهة ، وتدفق فئات غير بروليتارية الى الطبقة العاملة من جهة ثانية ، افلح قادة الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية في دفع الحركة العاملة من الماركسية الى طريق التعاون الطبقي مع البرجوازية .

وهكذا ، في عشية الانفجارات الثورية للقرن الحالي ، التي كانت متوقعة ــ ربما بشكلها البدائي ، ولكنه شكل واضح ــ كان الخط العام الذي تبنيه الرجعية العالمية ضد ايديولوجيا الطبقة العاملة : المناجزة المكشوفة العنيفة لـ « التحريض الشيوعي » ، وفي الميدان الايديولوجي والسياسي ، تضافر المدافعين عن الراسمالية مع المحاولات التحريفية لانتزاع المضمون الثوري في الماركسية .

كانت التحريفية ، من بين هذين الاتجاهين ( ولا تزال ) الاتجاه الاشد خطرا على الحركة العمالية . انها مثل المرض الطفيلي ، تدفع العدوى الى الحركة ، مستخدمة التعابير الاشتراكية لحرف الكادحين من الهدف الاشتراكي الاصيل بحثا عن سبل « اسهل » و « اقل الما » . ان العديد من الماركسيين في تلك الايام ، مثل جورجي بليخانوف وديمتر بلاغوييف وفرانز مهرنغ وبول لافارغ وارثور ولابريولا وروزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت ،

لمسوا بوضوح خطر التحريفية وشنوا نضالا فعالا ضد برنشتاين والبرنشتاينية .

كشف لينين الجذور الاجتماعية للتحريفية وارتباطها بالسمات النوعية لمرحلة الاحتكار في الراسمالية . لقد تابع تعاليم ماركس وانجلز في رسم طريق الاشتراكية الوحيد والحقيقي أمام الكادحين . ودفاعا عن الماركسية وتطويرا لها فضح الدور الخياني للانتهازيين .

هذا الفضح للانتهازية والدفاع عن الماركسية الثورية كانا اكثر فعالية لا لانهما قاما على اساس تأملي ، بل لانهما قاما على اساس التجربة الملموسة لثلاث ثورات روسية كانت بشيرا للتغيرات الثورية في القرن العشرين . كتب لينين : « لقد حققت روسيا الماركسية ــ النظرية الثورية الصحيحة الوحيدة ــ من خلال **الالم** الذي عانته عبر نصف قرن من التضحية والعذاب الذي لا لا مثيل لهما ، من البطولة الثورية الفائقة ، والطاقة الفياضة والبحث الدؤوب والدراسة والممارسة اوظيبة والتحقق والمقارنة بالخبرة الاوروبية » (٢) .

ان بداية القرن العشرين دخلت تاريخ التحرر كفترة شهدت تفاقما حادا في الازمة العامة للراسمالية والانتفاضة الثورية الجبارة للحركة العاملة التي كللت بانتصار الثورة الاشتراكية الكبرى . ان الثورة غيرت جذريا النظام الاجتماعي والحياة وذهنية ملايين الناس في روسيا . واذ دفعت ملايين الناس في شتى اصقاع العالم للنضال من أجل الحرية والاستقلال الوطني والاشتراكية ، فقد فتحت عصرا جديدا في تاريخ البشرية ، عصر الاشتراكية . وفي اتون الثورة الاشتراكية حقق النضال الطبقي عالميا اعلى اشكاله ــ الثورة الاشتراكية .

ان الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية تخطت الآن ، بالاضافة الى المعارك الايديولوجية ، مجال العلاقات الداخلية وغدا عالميا . ان ثورة اوكتوبر جمعت في مجرى ثوري واحد الحركات المختلفة ، كالنضال الديمقراطي العام من أجل السلم ، ونضال الفلاحين من اجل الارض ، ونضال الشعوب المضطهدة من أجل المساواة القومية ، وبالطبع نضال البروليتاريا لاسقاط البرجوازية . واذ وحدت ثورة اوكتوبر هذه الحركات، فقد قدمت

(٢) لينين « الشيوعية اليسارية : مرض طفولي » المؤلفات جـ ٢١ ص ٢٥ ــ ٢٦ .

دفعا قويا وجديدا لتطور هذه الحركات على الصعيد العالمي .

## نزعة العداء للسوفييت ضد التقدم التاريخي ...

وجه انتصارا الثورة الاشتراكية في روسيا ضربة مدمرة لمعادي الشيوعية . ان على المدافعين عن النظام الراسمالي الآن ان يشنوا معركة على جبهتين . فمن جهة واجهوا القيام الفعلي للدولة البروليتارية ، ومن جهة اخرى يواجهون حركة عمالية مسلحة ايديولوجيا ، وهي اكثر نضجا وتنظيما من السابق بما لايقاس ، وقد انتشرت في كل الاقطار الراسمالية ، انتشارا فعليا .

ان الاسلوب السابق في « نبذ » الماركسية بات عديم الجدوى . واذ كانت نزعة معاداة الشيوعية قد جاءت ببعض الادعاءات السطحية من قبل ، مثل الزعم ان الراسمالية كانت النظام الاجتماعي الوحيد ؛ فان حقيقة قيام الدولة الاشتراكية الآن وعلى امتداد واسع قد قطع الطريق امام مثل تلك الادعاءات .

ان المضمون الرئيسي لمعاداة الشيوعية من تلك النقطة وما بعد هو معاداة السوفييتية . ان رد الفعل الاول للسياسيين البرجوازيين على ولادة الدولة الاشتراكية لا يعكس سوى موقفهم الطبقي المعتاد : انهم ، من غير ان يفهموا شيئا عن الثورة الروسية ، جهدوا بكل عناد الى خنقها . وهكذا اعلن عضو المحافظين الانكليز ونستون تشرشل حملة من ١٤ كتيبة ضد الجمهورية السوفييتية . والجنرال الالماني اريك فون لودندورف ، الساعد الايمن لهيدنبرغ ، والمساهم الفعال فيما بعد في الانقلاب النازي في ميونيخ ، دعا الى تسليح وتدريب عشرة آلاف رجل . وعين فوش لقيادتهم وقال انه في ظرف شهرين لن يكون ثمة اثر لموسكو او لروسيا السوفياتية .

ان الممثلين الرسميين للدوائر الغربية ، بتنظيمهم التدخل المباشر في الشؤون الداخلية للدولة السوفياتية ، لم يجدوا لزاما اخفاء رغبتهم في اعادة النظام الراسمالي الى روسيا . ففي مؤتمر عقد في باريس في اواخر كانون الاول ١٩١٧ طالبت وفود الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وايطاليا بكل صفاقة بالإطاحة بالسلطة السوفياتية كشرط مسبق للتفاوض مع روسيا (٢) .

---

(٢) « تاريخ العالم » موسكو ١٩٦١ ٨ ص ٦٤ ( بالروسية ) .

فيما بعد : في مؤتمر فرساي ( ١٩١٩ ) لبحث معاهدات السلام مع الاقطار المدحورة ، دفع « الاربعة الكبار » الذين يمثلون الاقطار نفسها ويلسون وكليمنصو ولويد جورج واورلاندو ، بالمسالة « الروسية » الى المقدمة ، وقد دارت حولها كل مناقشاتهم فعلا . وعلى اي حال لا يمكن حشر الجمهورية السوفياتية بين الاقطار المدحورة ، وبالطبع لا يمكن قبول مناقشة هذه المسالة حتى على المستوى غير الرسمي . ان موقف « صانعي السلام » في فرساي من روسيا السوفياتية يظهر بوضوح تام في القرار المتخذ في ٢٥ شباط ١٩١٩ ، من قبل مجلس المشاركين في مؤتمر السلام بالموافقة على اقتراح الجنرال فوش بأنالتدخل المعادي للسوفيت قد اتسع بانضمام اقطار اوروبا الشرقية اليه (٤) . ومع أن « المسالة الروسية » لم تكن موضوعة في جدول اعمال المؤتمر فقد استحوذت على عقول المشاركين ، الذين التقوا في ١٨ شباط ١٩١٩ في « غالاري دي غلاس » في قصر فرساي ، في القاعة ذاتها قبل ٤٨ عاما تماما وفي ١٨ شباط ١٨٧١ اعلن خلق الامبراطورية الالمانية بعد اندحار فرنسا في حربها ضد بروسيا . ان مؤتمر فرساي ومعاهدة السلام تعبران عن سياسة امبريالية اسبق فسحت المجال امام الحرب ، كان مشروع القوى الامبريالية لمواجهة التحدي الثوري لروسيا السوفياتية .

بالطبع كانت معاهدة فرساي امبريالية مجحفة وجائرة . لقد اتبعت فقط الممارسة المعتادة للمستثمرين عندما يسحق النصر الطرف الآخر ويفرض ارادته ، من دون أي اعتبار لمصالح الشعب . هذه هي الطريق التي كانت سائدة دائما من قبل .

في ظل معاهدة السلام الموافقة عام ١٨٧١ ، بعد اندحار القوات الفرنسية في سيدان لم يقاوم بسمارك اغراء اقتطاع الالزاس واللورين من فرنسا . والآن بعد اندحار المانيا ، لم تأخذ فرنسا فقط الالزاس واللورين استردادا ، بل وضعت يدها على مناجم الفحم في حوض السار .

لقد املي السلام وفرض على المعتدي الالماني : فقد تخلت المانيا ، كما نعرف عن $\frac{1}{8}$ من اراضيها و $\frac{1}{12}$ من سكانها وعن جميع مستعمراتها .

(٤) المرجع السابق ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

لقد عاملت الاقطار المتحالفة المانيا كما يقتنص الحيوان المفترس غريمه من ارض صيده .

لكن لفرساي هدفا آخر . ان اعادة التقسيم الامبريالي للعالم ظهر في وقت كانت فيه ثورة اكتوبر قد حققت أول خرق في النظام الراسمالي العالمي. واوقدت جذوة الثورة . وقد اكتوى بهذه الجذوة ملكيو النمسا وهنغاريا والمانيا ، بينما في باقي اوروبا ، في آسيا واميركا حركة عمل جماهيرية كانت قد طفقت تأخذ مكانها . في مثل هذه الشروط بحث السياسيون في فرساي اكثر من اعادة تقسيم العالم . انهم يريدون خلق نظام من العلاقات الدولية التي سوف توجه ضد روسيا السوفياتية .

ومع ان الجيوش الروسية لعبت دورا بارزا في مسرح العمليات العسكرية ، وثورة اكتوبر أجبرت الامبرياليين على وقف الحرب ، فان الجمهورية السوفياتية لم تدع الى المؤتمر . لقد تمت معاهدة فرساي بدونها . ومع ان المعاهدة لا تتضمن اي افعال ملموسة ضد الدوله السوفياتية ، فان هذا لا يخدع احدا : فمن حيث جوهرها كانت معاديه للسوفيات صراحة . كانت بالضبط تلك المحرضات التي دفعت ولسون ولويد جورج الى رفض اقتراح بوانكاريه في تقسيم المانيا . ان القوى الغربيه بحاجة الى المانيا قوية — ليس فقط كقوة موازية لفرنسا بل ، وقبل كل شيء ، كأداة معادية للسياسة السوفيات . وقد تقررت مسألة الحدود الالمانية على ضوء خطة الاقطار الغربية في معاداة السوفيت . وقد سجل مؤتمر باريس مباشرة « كان الاعتقاد ان من غير المرغوب فيه طلب تفتيت المانيا ... لانها يمكن ان تكون جدار حماية ضد البلشفية » . ومن جهة اخرى ، اثارتمعاهدة فرساي ، بوضعها المانيا في موضع المظلوم والضعيف ، السخط بين الشعب الالماني ، فزرعت بذلك بذور الانتقام التي استغلها هتلر فيما بعد .

وهكذا بدا يحاك عنصر قوي في نظام العلاقات الدولية . انه معاداة السوفييت من قبل الدوائر الرجعية في الغرب ، التي اعتبرت ان من « اولى مهماتها الاجهاز على البلشفية العالمية ، وخنق مركزها الرئيسي : الجمهورية السوفياتية الروسية » (٥) .

---

(٥) لينين : المؤتمر الاستثنائي السادس لسوفيتات العمال والفلاحين والقوزاق ومندوبي الجيش الاحمر لعموم روسيا » المؤلفات مجلد ٢٨ ص ١٦٠ — ١٦١ .

ان التدخل المسلح « والحجر الصحي » والحصار الاقتصادي والتضليل والاستفزازات ضد الجمهورية السوفياتية ؛ كل هذه الاعمال كانت حجة لا تدحض ان الامبريالية اعلنت حربا طبقية مريرة على النظام الاجتماعي الجديد ؛ وعلى الاخص باعتباره القوة الطليعية للتقدم التاريخي العالمي . لقد استنفرت الامبريالية جميع مصادرها لتلك المعارك . وفي الوقت نفسه ؛ كان الصراع المسلح ضد المجتمع الاشتراكي يحظى بالاسبقية والاولية .

بعد سنوات عديدة ، في اواسط الستينات ، لاحظ البروفسور جون تومبسون « المشابهة التامة » بين مبادىء معاداة السوفييت زمن التدخل ، ومبادىء الحرب الباردة في هذه الايام . كتب : «المدافعون عن الحرب الوقائية سوف يجدون موقف فوش ١٩١٩ معقولا ومقبولا . وانصار الحجر سوف يجدون آراء كليمنصو وآخرين مقبولة وعادية ، تلك الآراء التي كانت تفضل اقامة « مناطق قوة » كحجر صحي حول البلشفيك . وهؤلاء الذين لسنوات مضت حرضوا على « ردع » العدوان الشيوعي سوف يرون رؤيا العين مع تشرشل وآخرين في ١٩١٩ ، ان البلشفية يمكن ان ترتد وتنهزم تدريجيا على يد اولئك الذين يرفعون راية القومية ومعاداة البلشفية » (٦) . الواقع ان كل شيء تغير في هذا العالم ما عدا رغبة الرجعية في وقف التقدم الاجتماعي ؛ فقد ظلت عصية على التغيير .

**نسخة جديدة من معاداة الشيوعية :**

**الثورة « اصلاح متاخر » ..**

وهكذا اتخذ سبيلٌ تدمير الاشتراكية بالقوة المسلحة ، وسحق « شبح الشيوعية » ومكتسباته الاولى من الاجيال الحالية وربما اجيال المستقبل ايضا . كانت السياسة الخارجية للامبريالية ؛ لعدة سنوات خلت ، وحتى هذه الايام ، تتبع هذه الستراتيجية العامة .

ان التصرفات الايديولوجية تركزت وتتركز رئيسيا في الجهود التالية :

آ ـ عدم الايمان بالاشتراكية كنظام اجتماعي ( قبل كل شيء ، السعي لاثبات ان المجتمع الاشتراكي ليس منطقيا هو التطور العادي ، بل التطور

---

(٦) جون تومبسون : روسيا والبلشفية وسلام فرساي » . برنستون ـ نيوجرسي ـ ١٩٦٦ ص ٣٩٨ .

المصطنع ، غير الطبيعي العابر ) .

ب ـ اصلاح الراسمالية ، وقبل كل شيء باظهار ان حداثة العلاقة الراسمالية تغير طبيعة الانقسام الطبقي العدائية في المجتمع البرجوازي .

جـ ـ تفنيد السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي ؛ لتصوير الدولة السوفياتية كمعتد ، وعزلها دوليا ، وتحضير الراي العام لحرب ضد الاتحاد السوفياتي .

خلال السنوات الاولى لسلطة السوفيات ؛ سعى الايديولوجيون البرجوازيون فترة وجيزة بتراخ . واستمروا يرفضون الطبيعة النظامية للتطور الاشتراكي ؛ مدعين انه تطور غير شرعي ، وانه منعرج تاريخي عرضي وضع الاتحاد السوفياتي « خارج حدود الامم المتحضرة » ، وحاولوا اقناع الناس ان ثورة اكتوبر فرضت على الناس بالارادة الذاتية للبلشفيك ؛ وان النظام الاشتراكي الذي ظهر نتيجة لتلك الثورة « العرضية » كان نفسه عرضيا ، ولا يملك من وجهة نظر التاريخ اي امل . المؤرخ والدبلوماسي الاميركي جورج كينان قال على سبيل المثال : « ان التطويق البلشفي لقصر الشتاء تم بسبب تفكك المدافعين وترددهم ، وبسبب أن احدهم ترك الباب الخلفي مفتوحا » (٧) . ويوما بعد يوم ظلت الصحافة البرجوازية تتنبأ بالزوال الحتمي للسوفيات .

على اي حال ؛ عندما وضح للجميع ان لا اساس لهذه التنبؤات ؛ طفقوا يدعون ان الجمهورية السوفياتية ؛ التي ظهرت في الظروف النوعية لروسيا كظاهرة « روسية خالصة » لا يمكن ان تتكرر في اقطار اخرى . والواقع انهم يضيفون انه حتى روسيا لم يكن حدوث الثورة ضروريا ، لان الاصلاحات التي كانت قد بدات جعلت « التجربة البلشفية » نافلة بشكل مطلق . وكما يقول ماكفلاكوف ، ان شكلا في الدوما في وقته وفيما بعد يؤكد ان : « كل ثورة هي اصلاح متاخر لا اكثر ، ولانه متاخر يتخذ طريقة عاصفة ويتخطى هدفه » (٨) .

وثورة اكتوبر ، اذن ، « تجاوزت هدفها » ، هذا ما يقصده الايديولوجيون المناوئون للشيوعية . ولهذا ، يقولون ، بدلا من أن تكون نتيجة

---

(٧) جورج كينان « روسيا تعزف عن الحرب » برنستون نيوجرسي ١٩٥٦ ص ٦ .

(٨) « سلوفانيك ربنيو » مجلد ١١ رقم ٥ كانون الثاني ١٩٢٢ ص ٢٢٥ .

النشاط البناء والخلاق والقائم على العلم ، الذي تقوم به الطليعة العمالية ، كانت الخواء وتدمير كل الاصعدة الانتاجية والاجتماعية .

فدور الحزب البلشفي كان باطلا بحيث يشطبون الوحدة النظرية والتنظيمية لنضاله والتقليل من الاهمية التاريخية لقيادته في ثورة اوكتوبر . وقد صور البولشفيك كحفنة من المتآمرين الذين جعلوا الجماهير الشعبية آلة عمياء لمشاريعهم البونابرتية . ان الحزب ، كما يدعون ، قد استفاد من « السبات العقلي » للمجتمع الروسي ومن « خمول » الشعب الروسي ، الذي لم يمر بعد في مدرسة البرلمانية الغربية . وفي صفحات سلوفانيك ريفيو ، صحيفة المختصين البريطانيين بالامور السوفياتية ، يمكن للمرء ان يقرأ تقارير كالتالي : « البلشفية ليست ماركسية لا في تعاليمها ولا في تكتيكها . في البلشفية بعض عناصر ماركسية ، لكنها هي ليست سوى خليط من البلانكية والنقابية والفوضوية : انها تعزى الى باكونين اكثر من ماركس . انها استمرار للنهلستية الروسية .. النتاج ظاهرة روسية صرفة ؛ بيد ان ثمرة التطور المصطنع كانت بسبب تاثير اعظم الافكار الغربية راديكالية على النظرية السكونية للعالم التي طالما تمسكت بها الكنيسة الروسية . ان البلشفي هو الراهب الروسي ، وقد حرضته وشوشته مادية فيورباخ الحادية » (٩) .

اخيرا ، ان الايديولوجيين المعادين للسوفيات هذه الاعوام باتوا يتحدثون اكثر فاكثر حول الطاقة الجديدة للثورة المضادة . وبهذا الصدد ، لم ينصب اهتمامهم على البلشفيك ، القادة الحقيقيين لثورة اوكتوبر ، بقدر ما انصب على المرتدين ، اعداء الثورة المباشرين . فأخيرًا نجد آدم اولام ، استاذ حكومي في هارفارد ومساعد في مركز بحوثها الروسية ، يتساءل « كيف يمكن الا يحب المرء المنشفيك ، او يقاوم اغراء الهمس محذرا اياهم ان يفعلوا هذا او ذاك ، في هذه اللحظة او تلك ، في مسيرتهم الى « كومة نفاية التاريخ ... » اننا نزداد اعجابا او ضيقا بالكاديت ... وحتى تلك المجموعة غير المتجانسة ، الثوريون الاشتراكيون . وجدت مؤرخين متعاطفين معها . اننا نحيا ثانية معهم بطولات تردد سافنكوف وتشيرنوف » (١٠) .

على اي حال ، لا يهم فيما اذا كان ايديولوجيو البرجوازية يشتمون البلشفيك ويقرظون المنشفيك والاشتراكيين الثوريين ، فالحياة تاخذ

---

(٩) « سلوفانيك ريفيو » مجلد رقم ١ حزيران ١٩٢٢ ص ١٢ .

مجراها . ان نجاحات السوفييت في كل ميدان غدت مشرقة ورائعة ومؤكدة اكثر فاكثر . وفي مواجهة هذه الوقائع اصبحت الدعوى ان الاشتراكية ظاهرة حقنها الشيوعيون حقنا صناعيا في المجرى « الطبيعي » للتطور التاريخي ، اصبحت اقل قبولا . ولكن حتى هكذا ، استمرت نزعة العداء للشيوعية تستخدمها حتى ايامنا هذه . لقد اضطرت الى التخلي عن الفرضيات البدائية الحاقدة ، بيد ان الفكرة بحد ذاتها تحولت تدريجيا الى اتجاهين اثنين .

اولا ، معرفة نجاحات الجمهورية السوفييتية مرافقة عادة بالادعاء ان ثورة اكتوبر لم تفعل شيئا طالما ان هذه المنجزات « كانت متاصلة في المصادر والانسان والمادة ، ذلك ان روسيا كانت ستقدمها لاي حكومة ثورية ثانية » (١١) .

ثانيا ، الشرح الرئيسي الذي يقدم لهذه المنجزات كان اول الامر الادعاء المختلق ان المجتمع السوفياتي كان « اوتوقراطيا » ، وفيما بعد ، ادعاء سخيف آخر بانه كان « توتاليتاريا » . وذلك يعني ان المجتمع دخل الصناعة والزراعة التعاونية ، وباختصار دخل التقدم على الرغم من اغلبية السكان وبوسائل القسر .

وانطلاقا من هذه الفرضيات ، كما لوانها من منطق الاشياء ، كان اتجاه الى الحرب « الوقائية » ضد هذا « الجبار بقدمين من طين » . وكان هذا ضروريا ، كمايزعمون ، لتطويق « المخططات التوسعية » للبلشفية ضد الديمقراطية الغربية و « تحرير شعوب روسيا » وهذا سوف يعيد التطور التاريخي للبشرية الى حالته « الطبيعية » ومجراه الخاص .

### « العلاجات » الاقتصادية للراسمالية . . .

ان الاستقرار النسبي للراسمالية ( في فترة ١٩٢٤ – ١٩٢٩ ) فرز بعض العوامل الجديدة في تكتيك الايديولوجيين . فمن جهة ، نجم عن هذه الواقعة نفسها اوهام فيما يتعلق بالتوقعات المستقبلية للعالم البرجوازي .

---

(١٠) « حالة الدراسات السوفياتية » كامبردج ١٩٦٥ ص ١٨ .

(١١) روبرت دانيلز « اكتوبر الاحمر . ثورة البلشفيك ١٩١٧ » نيويورك ١٩٦٧ ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

ومن جهة أخرى حاول العلماء السياسيون البرجوازيون ، توكيدا للطعن على سلبيات الاشتراكية ، ان يصوروا الوضع بحيث يبدو الاختيار الراسمالي هو الطريق الوحيد . انهم يسعون الى ان يغرسوا في ذهن الشعب فكرة ان الثورة الاشتراكية الحقيقية كانت تحدث في المجتمع البرجوازي ، وان هذا الاخير ، وليس الاشتراكية ، كان يضع البذور التي كانت ستعطي الثمار للكادحين .

ونكرر بان القضية المركزية كانت توزيع الثروة التي من ايام دافيد ريكاردو وآدم سميث ، كانت عقبة كاداء بالنسبة الى الاقتصاد السياسي البرجوازي .

في بداية القرن التاسع عشر ، قدم الاقتصادي الفرنسي جان بابتيست ساي هذه القضية بتفسير مبتذل ( وبالاصح من وجهة نظر برجوازية ) . لقد افرد ثلاثة عوامل للانتاج ، سماها « قوى الطبيعة » ـ العمل ، الراسمال ، الارض ـ واشكال توزيع الثروة التي تتناسب مع هذه العوامل هي : الاجور والربح والريع . وعلى اي حال ، بعد ان كشفت الماركسية السمة الطبقية لتوزيع الثروة ، طفق الاقتصاديون البرجوازيون يبحثون بدقة عن نظرية جديدة ؛ ومرة اخرى اخفوا بعناية الشيء الرئيسي ـ المظهر الاجتماعي لهذه المشكلة الطبقية العميقة .

وتوماس كارفر استاذ الاقتصاد السياسي في جامعة هارفرد ( وشارح نظرية الانتاجية الاحتياطية التي خرج بها الاقتصادي الاميركي كلارك ) (١٢) في كتابه الذي يحمل عنوانا متباهيا « الثورة الاقتصادية الراهنة في الولايات المتحدة » ( ١٩٢٦ ) راى هذه الثورة في المزيد من تركيز الانتاج وانتشار اشكال المساهمة في الراسمال . « التنظيم المشترك » لدى كارفر يغير من حيث الاساس الجوهر الفعلي للراسمالية بحيث ان المالكين يكفون عن ان يكونوا مالكين ، ويكف العمال عن ان يكونوا عمالا . كتب : « ان الشكل الحديث للتنظيم المشترك يجعل من الممكن لآلاف الاشخاص ان يشاركوا في ملكية الصناعة ، سواء مالكو السندات او مالكو الاسهم » (١٣) .

---

(١٢) النظرية التسويفية ، انتشرت في مطلع القرن العشرين ، ووجدت انصارا عدة بين الاقتصاديين البرجوازيين .

(١٣) توماس نكسون كارفر « الثورة الاقتصادية الراهنة في الولايات المتحدة » بوسطن ١٩٢٦ ص ١١٥ .

« اكتشاف » كارفر هذا ليس جديدا . اشكال المشاركة في الملكية معروفة تماما منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وقد وجه بليخانوف ولينين من قبل نقدا مريرا لمحاولات برنشتين وبقية المحرفين الاوربيين لتصوير هذه الوسائل الخفية بمهارة في خداع الطبقة العاملة كشيء يمثل « ديمقراطية راس المال » .

وكما لاحظ بحق وليم فوستر في زمنه ، ان واقع اميركا الراسمالية يفضح اسطورة « الراسمالية المشتركة » . فمثلا في العشرينات فقط ٣٪ من سكان الولايات المتحدة صاروا اصحاب اسهم ، فاذا قورنوا بالعمال فلا اهمية لهذه الفئة . وبالفعل فانهم لا يستطيعون ممارسة اي تاثير على الحياة الاجتماعية والانتاجية للبلد ، ولا حاجة الى القول انهم لا يستطيعون تغيير طبيعة العلاقات الراسمالية . ان ايديولوجيي الامبريالية ، وليس في يدهم افضل مما قدموا ، لا يالون جهدا في الدعاية لهذه النسخة من الراسمالية ؛ ويجعلونها بديلا عن الاشتراكية . « انه ( التنظيم المشترك ) ثورة » هكذا قال كارفر « بحيث يزيل التمايز بين العمال والراسماليين بجعل العمال راسماليهم الخاصين وباجبار **معظم الراسماليين ان يصبحوا عمالا** ( شارة التاكيد مني ـ المؤلف ) بطريقة او باخرى ، لان ليس العديد منهم يمكنه ان يعيش من عائدات راس المال وحده . وهذا شيء جديد في تاريخ العالم » (١٤) .

على اي حال ، هذه الحماسة من البروفسور الاميركي تعاني من نقص اساسي جدا : انها لا علاقة لها بالحياة الواقعية . ولا اهمية لما كابده كارفر في اظهار ان « الثورة الاقتصادية » في الولايات المتحدة الاميركية آخذة بتغيير كل البنية الاجتماعية للمجتمع الاميركي ، ان كل شيء يسير كما كان من قبل : ظل العمال عمالا ، واسوأ من قبل ، وظل الراسماليون راسماليين ، الا انهم اغتنوا اكثر من استغلالهم .

نظريا لا اساس لنظرية كارفر ، ولم تتقدم خطوة مع العصر ـ ماعدا انها عكست عواطف الجمهور الاميركي المناوئة للاحتكار . فليس من الصدف انه في العشرينات اثار المدافعون عن الراسمالية مسائل تمركز الملكية والسلطة الاقتصادية ، وجعلوها في المقدمة مع اجاباتهم عنها . لانه عندئذ بالضبط كانوا بحاجة الى تدعيم سمعة مؤسسة المشاريع الخاصة ، وقد قوضت هذا

(١٤) المرجع السابق ٩ ـ ١٠ .

الاسلوب تجربة الدولة السوفياتية . وفي الوقت ذاته ، اضطروا الى تخفيف المعارضة القومية الواسعة لتعاظم تمركز السلطة الاقتصادية والسياسية في ايدي الاحتكاريين . ان مفهوم اشكال « التشارك » للراسمال يؤلف واحدا من أمثال هذه المحاولة .

في الوقت نفسه ، كان الدفاع المباشر عن الراسمالية يحظى خلال العشرينات والثلاثينات بدعم النظريات البرجوازية التي كانت نقدية بصورة سطحية ، كما كانت غالبا على تخوم النزعة الاصلاحية . كانت هذه محاولة لرد اعتبار الراسمالية عن طريق نقد بعض اخطائها . هذا الاتجاه وجد تعبيره في العشرينات ، بصورة خاصة ، في ما يسمى المؤسساتية . ونبي هذا التيار هو عالم الاجتماع والاقتصادي الاميركي تورشتاين فبلن ، وهو نوع من برودون القرن العشرين . ان « الكلمة الجديدة » التي خلقت لفبلن شعبية مرموقة كانت انه بدلا من العقيدة البرجوازية التقليدية في « التوازن الاجتماعي » و « تناغم المصالح » طرح مسالة دراسة سلوك التجمعات الاجتماعية وتفكيرها ، وتحليل آلية الراسمالية الحديثة وتطور اشكالها الاقتصا ـ تكنيكية والاجتماعية ـ السياسية ومؤسساتها ( ومن هنا اسم المؤسساتية ) (١٥) .

في مجرى هذا التطور ، يقر انصار المؤسساتية ، حتى انهم يعترفون ببعض التناقضات الحتمية ، مثلا ، بين الانتاج والعمل ، على اي حال راوا ان اسباب هذه التناقضات ليس في الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا ، وانما في « تضارب المصالح » بين الشعب من المقاولين والعمال المرتبطين بالتكنولوجيا وتنظيم الانتاج ، من جهة ، ورجال الاعمال الماليين العاملين في مجال الدورة الراسمالية من جهة ثانية . بيد أن المؤسساتيين راوا الحل لهذا « الصراع » في انتقال السلطة من المالكين الى المهندسين ، في ما يسمى « ثورة المهندسين » ، وفي خلق « الهيئة العامة » للمهندسين والتكتيكيين القادرين على معالجة الاقتصاد الوطني . اي اختلاف بين هذه البدعة و « القيمة التاسيسية عند برودون ، وهي الجوهر الحقيقي الذي فضحه ماركس في كتابه « بؤس الفلسفة » ؟

مثل بقية المدافعين عن الراسمالية الذين ناوروا لرد اعتبار النظام

---

(١٥) انظر ـ مثلا ـ فبلن « المهندسون ونظام الاسعار » نيويورك ١٩٣٦ .

البرجوازي تحت قناع نقد بعض مظاهرها ، حاول فبلن استبدال التناقض الرئيسي للراسمالية بتناقضات ثانوية . وهذا هو السبب في انه قدم مخططا مشوشا بدلا من الصورة الحقيقية للواقع .

ولكن ما ان اقام فبلن نظريته في المؤسساتية وغرق كارفر في مدائح اشكال « التشارك » للراسمال حتى نشبت الازمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣ . كانت ازمة لا سابق لها في حدتها ، فقد قذفت بأعداد من الاقطار الراسمالية الى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، من اضطراب الانتاج ودفع اعداد ضخمة من الكادحين الى الخراب ، وانتزاع ثلاثين مليون شخص من عملهم بصورة نهائية . ما الخير الذي قدمته مؤسسات فبلن ، او الراسمال « التشاركي » الذي طلع به كارفر ؟ ان وصفات هذه النظريات اثبتت بجلاء عدم ملاءمتها لجماهير العاطلين والشعب البائس المدمر . وبعد الارتفاع الذي احدثته ازمة ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣ ، فان اعدادا كبيرة من الشعب الكادح من شتى الطبقات الاجتماعية تدفقت لترى الوجه الحقيقي للراسمالية كرمز للتأرجح الاقتصادي ، والبطالة وفقدان الامن .

ان ايديولوجيي الامبريالية يودون لواجتازوا هذه الجائحات ، ولكن ليس في الامكان واذا انطلقوا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من فرضية ان النظام الراسمالي ليس منغلقا على نفسه ، وانه « منظم ذاتيا » ، فان حجر الزاوية في دعايتهم اليوم كان اطروحة ان الراسمالية تتعصرن عن طريق تنظيم الدولة . وقد حلت النظريات المدققة عن المجتمع البرجوازي « المتكامل » محل الدفاعات المبتذلة .

ربما كانت آراء الاقتصادي الانكليزي جون مينارد كينز اكثر انتشارا في هذا الخصوص . وكتابه **النظرية العامة في التوظيف والفائدة والنقد** المنشور ١٩٣٦ ترك تأثيرا فعالا ، وعاد على المؤلف بلقب النبي ومصلح الاقتصاد السياسي البرجوازي . وبعد الازمة الاقتصادية بقليل ، وفي وقت ظهرت في الاتحاد السوفياتي مزايا النظام السوفياتي في التخطيط ظهرت نظرية كينز ، فحظيت بالاعتبار من بين غيرها . والواقع انها تعتمد على بعض المعتقدات القديمة في الاقتصاد السياسي البرجوازي المبتذل ، بما في ذلك بعض الاقسام من النظرية التي اشرنا اليها من قبل وهي نظرية الانتاج الاحتياطي ، وفوق ذلك انطلقت نظرية كينز من واقع ان الراسمالية حملت تناقضاتها التي لا تحل بنفسها ، وان « اللعب الحر » بقوى السوق لا يمكن

ان يجنب الازمة . وبكلمة اخرى اقر كينز ان آلية التوازن والاستقرار العفويين للاقتصاد الراسمالي كنظام ينظم نفسه ذاتيا ، ، لم تعد تفعل ـ وهي النقطة التي انطلق منها الاقتصاد السياسي البرجوازي الكلاسيكي .

على اي حال لم يكن كينز الاقتصادي البرجوازي الذي تمنى ولا كان قادرا على رسم النتائج الخاصة الناجمة من هذه الحقيقة . واذ اقر مبدئيا بما لا يمكن رفضه الآن ، فقد تصدى ليثبت ان هذه الظواهر غير السارة يمكن التغلب عليها بتحسين مؤسسات المجتمع البرجوازي . ان هذا لا يمكن تنفيذه نوعيا الا من قبل تنظيم احتكار الدولة للارصدة والدورة النقدية وخلال اعمال عامة ممولة حكوميا . ومثل بقية الاقتصاديين البرجوازيين ، حاول كينز تجاوز الجوهر الطبقي لقوانين الراسمالية الاقتصادية ، متحدثا ، بدلا من ذلك ، عن قوانين سيكولوجية اساسية .

اقتراحات كينز فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية للدولة البرجوازية هي التوسع في ارصدة الميزانية وتمويل رجال الاعمال ، وتشجيع ، توظيف الراسمال الخاص في الاقتصاد واستخدام عملية التضخم « المنضبطة » لـ « تنظيم » الاجور وقضايا اخرى ( وجدت تطبيقا واسعا في الخطة الجديدة التي تبناها الرئيس فرانكلين روزفلت ) ـ كانت في الواقع تهدف الى تقوية **راسمالية احتكار الدولة** ، على حساب الجماهير العاملة . لذلك لا شيء يدهش في ان الكينزية ( وفيما بعد الكينزية الجديدة التي تشكل انصارها من هاردر وروبنسون والفن هانسن وآخرين ) مجدت في الاقطار الراسمالية ، فهي حتى يومنا هذا من الاتجاهات الهامة في الاقتصاد السياسي البرجوازي .

من مثال الكينزية يمكن ان نرى ان الفكر الاجتماعي البرجوازي للثلاثينات والاربعينات بعض السمات الجديدة الهامة . طفق يحسب حساب التغيرات الحقيقية الجارية في العالم ، وحيث يمكن ان يتقنع بقناع الموضوعية . من قبل كانت الاشتراكية مرفوضة رفضا قاطعا ، من غير اي برهان او اثبات ، وكانها شر من الشرور ، بينما كانت الراسمالية مقبولة كليا ومن غير اي تعديل كخلاصة لكل الفضائل المعقولة وغير المعقولة . الآن اضطر الايديولوجيون البرجوازيون الى الاقرار ببعض المظاهر الايجابية في تجربة النظام الاقتصادي الاشتراكي ـ معدل التطور السريع للانتاج ونجاحات الاقتصاد والمخطط والسياسة الاجتماعية . لقد وجدوا ان من الضروري الى

حد ما خفض نغمة تقريظ الراسمالية .

لا حاجة الى القول ان مجاراة الوقائع جرت فقط لان هذه الوقائع لم تدع خيارا للمدافعين عن النظام البرجوازي . بيد ان المحاولات الفعلية لايجاد خطوات اخرى اكثر مرونة في دعاية مناواة الشيوعية اعادت شاهد ان التغيرات في الراي العام لصالح الاشتراكية كان جوهريا بحيث كان من المستحيل تجاهلها .

في هذا الاطار ، الذي عكس العلاقة المتداخلة للقوى بين الاشتراكية والراسمالية عشية الحرب العالمية الثانية ، يمكن اعتبار الاتجاهات الاساسية لنزعة معاداة الشيوعية المعاصرة : محاولات حذف الاشتراكية من المواقع الموضوعية لـ « القيم الانسانية » العامة ، والدفاع عن الراسمالية على اساس « تحولاتها » ، وسعي لتثبيط الصراع الطبقي بنداءات ديماغوجية من اجل « المشاركة الطبقية » ، ومحاولات لطمس الفاصل الاساسي بين الراسمالية والاشتراكية . ومهما كان فان هذه الاتجاهات الخاصة ستتطور فيما بعد ، عندما تضع التغيرات التاريخية الجديدة لصالح الاشتراكية « الطريق الذري المسدود » حدا لكل امل في تصفية الاشتراكية بالوسائل العسكرية ، على الاقل في نظر الشخصيات السياسية ذات التفكير الواقعي في الغرب . في الفترة التي نتناولها كان التأكيد الرئيسي في الستراتيجية العامة للامبريالية لا يزال يتجه الى تحطيم الاشتراكية عسكريا . وكانت الوسائل الايديولوجية تعتبر مقدمة لهذه المهمة .

### الوجه الحقيقي لمعاداة الشيوعية ..

تركزت كراهية الاشتراكية والخوف منها بالفاشية ، وهي الخلاصة الدموية للرجعية الامبريالية ، التي مثلت مجهودا يائسا لطبقة انفصلت عن المرحلة التاريخية لتوقف تطور المجتمع البشري وتعيده الى الوراء . وبظهور الفاشية على المسرح العالمي اتخذت معاداة الشيوعية مظهرا جديدا ، وهو الدكتاتورية الارهابية الصريحة لـ « عناصر الراسمال المالي الاشد امبريالية وشوفينية ورجعية » (١٦) . ارتكزت سياسة هتلر الخارجية على فكرة « المجال الحيوي » التي دفعت المانيا وحلفائها الفاشست الى الغزو في

---

(١٦) « الطريق الى الشيوعية » موسكو ١٩٦٢ ص ٤٩٦ .

الشرق ، اي الخلاص من الاتحاد السوفياتي . السلطات الغربية ـ اميركا ، انكلترا ، فرانسا ـ شجعت ومدت فعلا هذه المغامرة بكل وسيلة . وقد كان الترتيب محددا تماما : تقوم المانيا النازية بدور « فصيلة الاجتياح » في المعركة ضد الاشتراكية ، وتقوم السلطات الغربية بتأمين مناطق المؤخرة . بعد صعود هتلر الى السلطة ، غدت كل السياسة الاوروبية تابعة لهذه الاهداف . ان حرب الفاشية ضد الاتحاد السوفياتي مقررة سلفا . لقد قامت بها السلطات الغربية على عدة جبهات في الوقت نفسه .

جرى التحضير للحرب **اقتصاديا** . وهذا معنى انشاء صناعات الفولاذ والحديد كصناعات حربية في الرور الالماني وتطويرها . وقد تم هذا بمعونة كبيرة من الاحتكارات الاميركية والبريطانية بعد اقرار خطة داوز في التعويض . فاسحة الطريق لتدفق الراسمال الاجنبي الكبير ، وخاصة الاميركي ، الى الصناعة الالمانية . « ان المطر الذهبي للدولارات الاميركية احيا الصناعة الثقيلة لالمانيا الهتلرية وبشكل خاص الصناعة الحربية . تلك المليارات من الدولارات الاميركية التي وظفتها احتكارات ما وراء البحار في الاقتصاد العسكري لالمانيا الهتلرية انعشت القدرة الحربية الالمانية ووضعت في يد الحكم الهتلري الاسلحة الضرورية لتحضير عدوانها » (١٧) .

جرى التحضير للحرب **سياسيا** ، فكان من الضروري تدمير نظام الحد الموضوع على نمو القوى المسلحة لالمانيا ، الذي وضعته معاهدة فرساي . وتقسيم صفوف المدافعين عن الامن الجماعي في اوروبا ، وتجاهل المواصفات التي تلجم العدوان . وقامت بهذا ايضا الدوائر الحاكمة في بريطانيا وفرانسا ، التي تمسكت ب « سياسة التهدئة » تجاه المعتدي . « كانت هذه السياسة بالضبط للدوائر الانكلو ـ فرنسية ، التي تجلت في رفض الامن الجماعي ، ورفض لجم العدوان الالماني ، والرضوخ لمطالب المانيا الهتلرية التي ادت الى الحرب العالمية الثانية » (١٨) . وكان اوج « سياسة التهدئة » كما نعلم اتفاقية ميونيخ التي لم تضع السوديت التشيكية تحت اقدام هتلر فقط ، بل كانت ايضا اعطاء الشارة الخضراء للتوجه نحو موسكو . ان الميونيخيين انفسهم لم يخفوا في الحقيقة هذا ، فقد كتبت الصحيفة الفرنسية « لوجور ايكودي باريس » : « ان الفائدة الاولى للقاء ميونيخ هو أن روسيا استبعدت منها . ان كل شيء

---

(١٧) انظر اباطيل التاريخ . مرجع تاريخي ، موسكو ١٩٥٢ ص ١٢ ( بالروسية ) .

(١٨) المرجع السابق ص ١٣ .

يجب أن يفصل لابعاد روسيا عن أوروبا ، ودفعها الى آسيا ، والى صراعاتها الداخلية . ان الاسلاك الشائكة التي طالما حلم بها كليمنصو العجوز جاهزة دائما للاستعمال فلتستخدم » (١٩) . وهكذا فان التحضير السياسي للحرب لم يكن فقط مسرعا ، بل اتخذ شكل التنظيم المباشر للحملة المعادية للسوفيات .

اخيرا ، جرى التحضير للحرب **ايديولوجيا** ، اي كان من الضروري خلق جو نفسي مناسب لتفتيت قوى السلام وعزل الاتحاد السوفياتي . وبهذا الصدد ، لم تكن خدمة الديمقراطيات الغربية للنازية بالخدمة القليلة . لان هتلر كان ولا شك اول من يتهم الاتحاد السوفياتي بـ « النشاطات الهدامة » ضد الغرب ، والتحضير «لمؤامرة شيوعية عالمية » و « تصدير الثورة » وما شابه ذلك . ان الفوهرر استخدم هذه الادوات الدعائية في شكلها الجاهز . يضاف الى ذلك ، بالطبع ، ان الفاشية جعلت معاداة الشيوعية ومعاداة السوفياتية سياستها الرسمية واعلنت الحرب صراحة ضد الاتحاد السوفياتي كهدف لها . ان هتلر من غير مساعدة من السلطات الغربية ، طرح اسطورة «الخطر الشيوعي » حتى درجة هستريا الجماهير . كان هذا في الواقع شعارا تضليليا لمؤامرة الاحتكارات العالمية ضد الشعب . وفيما بعد ، فان احد ممثلي الامم المتحدة في محاكمة نورمبرغ ، الدكتور روبرت كبنر قال « ان هذا الخطر الشيوعي كان ذريعة ، وكان احد الاشياء التي قاد الى الحرب العالمية الثانية » (٢٠) .

كنتيجة مباشرة ، وفي الوقت نفسه كتعبير عن ازمة المجتمع البرجوازي الاجتماعية والسياسية والروحية العميقة ، ولدت الفاشية في جو من التوتر . وهذا ما ساعد على توطيد عبارة العنف والعسكرية والتوسع . الرجعية الشديدة والرعب هما جوهر النازية الفعلي . الا ان الداعية التشيكي يوليوس فوتشيك ، وهو نفسه ضحية النازيين ، كان على حق كل الحق عندما قال : « ان الفاشية ليست فقط سجونا ومعسكرات اعتقال ومشانق ورعبا وموتا ولا تدميرا جسديا للناس . انها أيضا تدمير الآراء والافكار والمعتقدات التي تشكل خطرا على النظام الفاشي . . . » ويتابع : « ان العنف وحده لا يكفي

---

(١٩) مقتبسة من جان بومير « هتلر وترومان » باريس ١٩٥٠ ص ٢١ .

(٢٠) محاكمة مجرمي الحرب امام المحكمة العسكرية الدولية . مجلد ٥ نورمبرغ ١٩٤٧ ص ٣٥٧ .

للاحتفاظ بسلطة الاقلية على الاكثرية . من الضروري افساد الاكثرية افسادها ايديولوجيا ، وبعد اضعافها بهذه الطريقة ، تجري عدواها بالايديولوجيا التي تخدم الاقلية » (٢١) .

لقد دمرت الايديولوجيا النازية كل ما هو انساني في الفرد ، وايقظت اخس الغرائز فيه ، وحولته الى قاتل وسادي لا يفكر . العنصرية والشوفينية والعسكرية وعبادة الزعيم هي المثال الاعلى في المانيا . وسقطت المؤسسات الاجتماعية ـ الاسرة والمدرسة والثقافة الشعبية ـ تحت السيطرة التامة للدولة بحيث خضعت للخطط البربرية النازية . ان تاريخ البشرية بأسره اعيد النظر فيه من مواقع « العرق المتفوق » من اجل تصوير « رايخ الالف عام » على انه قمة التطور الاجتماعي . ان قوانين فيرماخت وضعت لنشر « النظام الجديد » عبر العالم .

بعد استيلاء النازية على السلطة في المانيا انحدرت أوروبا نحو الحرب . ولم يكن الاتحاد السوفياتي وبقية القوى الديمقراطية يملكون الوسائل الكافية لوقف آلة العدوان التي جهزتها الرجعية العالمية للعمل . الا ان الطريقة التي ابتدأت بها الحرب العالمية الثانية ، ولا نقول كيف انتهت ، لم تكن كما خطط لها البنكنوتيون وكبار الصناعيين العسكريين والجنرالات والدبلوماسيون في برلين وواشنطن ولندن وباريس . ان هتلر ومن سانده قام بتحضير سيناريو يختلف تماما عن ذاك الذي جرى تمثيله فعلا . لقد فكروا بتسعير نشاطهم تحت راية معاداة السوفيات لشن حملة معادية للشيوعية لتوحيد القوى الرجعية في جميع الاقطار الغربية او على الاقل في قسم من العالم . ويلاحظ مؤرخ الحرب دزلبي انه : « في منطق الاشياء ، كانت الحرب العالمية الثانية صليبية « الحضارة الغربية » ضد روسيا الحمراء ، بقيادة هتلر وبمعونة او مشاركة ، مباشرة او غير مباشرة ، من السلطات الغربية » (٢٢) . كانت هذه الصليبية ، حسب تقدير الستراتيجيين ، لانهاء الاتحاد السوفياتي بضربة ساحقة وتوطيد سيطرة الاحتكارات الراسمالية في العالم . هذا هو السيناريو الذي كان قد وضعه هتلر وتلك القوى التي اعتمدت على الفاشية في وقف التقدم الاجتماعي للبشرية ووقف اتجاهه نحو الاشتراكية .

---

(٢١) انسترانايا ليتراتورا ١٩٧٤ رقم ١١ ص ٢١٠ ( بالروسية ) .

(٢٢) « سر.تشرشل » باريس ١٩٧٢ ص ٩ .

**شعوب العالم ضد الفاشية ...**

لكن الاشياء جرت بشكل مغاير . ان نضال الاتحاد السوفياتي ضد الفاشية وحد القوى التقدمية في العالم . وادى الى خلق تجمع معاد لهتلر والى دحر المانيا الهتلرية وحلفائها . وفي التحليل الاخير ، فقد انتهت الحرب الى تعميق الازمة العامة للراسمالية وادت الى تقوية الاشتراكية أكثر فاكثر . واذ قدمت شهادة ناصعة للانتصار التاريخي للقوى التقدمية ، فقد ادى التغلب على الفاشية الى نهوض نضال الطبقة العاملة من أجل التحرر الاجتماعي والنضال التحرري القومي للشعوب ، والحركة الديمقراطية ضد الامبريالية الى مستويات جديدة نوعيا .

كيف امكن ان تنقلب الاحداث على هذا الشكل ؟ ان العامل الذي ادى الى هذا كان قوة الاتحاد السوفياتي وجهد الشعب السوفياتي الذي لا مثيل له فقد تحمل العبءالاكبر للنضال ضد الفاشية ، ومهارة الدبلوماسية السوفياتية ، التي استطاعت تقسيم جبهة القوى الامبريالية المعادية للسوفيات .

ولكن كان اندحار الفاشية ، من جهة اخرى ، مرتبطا بتوزيع جديد للقوى الاجتماعية السياسية في العالم ، التي ظهرت في سنوات ما قبل الحرب واصبحت محددة بعد نهاية الحرب . والفضل هنا يرجع الى تحالف القوى الديمقراطية — من فلاحين وفنانين ومثقفين — مع الطبقة العاملة تحت راية النضال ضد الامبريالية . ان انتزاع الفاشية للسلطة في المانيا والتهديد بحرب عالمية جديدة عجل بهذه العملية .

وكان الشيوعيون على راس حركة تضامن القوى الديمقراطية . وقد ساهم في هذا ، بشكل خاص ، المؤتمر السابع للاممية الدولية ( تموز — آب ١٩٣٥ ) الذي أوضح الخط الستراتيجي والتكتيكي للاحزاب الشيوعية في حربها ضد تقدم الفاشية والتحضيرات الجارية لحرب عالمية جديدة . كان منارة سياسية لكل الطبقة العاملة ، والكادحين وكل الديمقراطيين في اشد لحظات التاريخ البشري خطورة وتعقيدا ، وقد وحد هذه القوى التي ادت في النهاية الى الانتصار على الفاشية .

اشار المؤتمر السابع للكومنترن الى انه بدخول المانيا عهد الدكتاتورية

الارهابية الصريحة لراس المال الاحتكاري ، وفي مواجهة خطر حرب عالمية ، فان تواشجا جديدا من العلاقة بين مهمات الطبقة العاملة التحررية ( اي الاشتراكية ) والمهمات الديمقراطية قد اخذ يتشكل . وخلال فترة الانتفاضة الثورية بين ١٩١٧ و ١٩٢٣ كان الخيار الذي يواجه الكادحين هو بين الديمقراطية البرجوازية والاشتراكية ،ا ما في ظروف ازمة الثلاثينات فقد أصبحت المسألة : الفاشية ام الديمقراطية البراجوازية . وعلى ضوء هذا التغير قدم المؤتمر تكتيكا للجبهة الشعبية وجبهة العمال المتحدين ؛ موضحا « لا شروط للاتحاد والعمل سوى شرط واحد ـ وذاك الشرط يوافق عليه جميع العمال . . . وهو ان وحدة العمل يجب أن توجه ضد الفاشية ، ضد عدوانية راس المال ، ضد التهديد بحرب . . . »(٢٢) .

ان تكتيك الجبهة الشعبية يعني ، **داخليا** ، توحيد ملايين الكادحين والطبقة الوسطى حول الطبقة العاملة لدرء عدوان الرجعية الاحتكارية والدفاع عن المكاسب الديمقراطية للكادحين . **وعالميا** يعني توحيد كل قوى السلم والديمقراطية حول الاتحاد السوفياتي قلعة لحرية والديمقراطية ، بهدف منع الحرب الامبريالية .

ليس في هذا التكتيك اي تراجع للبروليتاريا عن مواقعها الطبقية واهدافها البعيدة . واستجابة للواقع الجديد ، كان يهدف الى حل القضايا الاشد الحاحا ، وفي الوقت نفسه ، يشكل حول الطبقة العاملة وطليعتها الشيوعية جبهة ضخمة معادية للامبريالية .

ليس هذا التكتيك مما أملته مصالح اللحظة الراهنة ، اي العمل ضد صعود الفاشية الى مسرح الحرب . انه ينبثق من مفهوم لينين حول التواشج بين النضال من اجل الديمقراطية والنضال من اجل الاشتراكية ، ويجسد تلاقي وتداخل الاهداف الديمقراطية العامة والاهداف الأشتركية . لذلك فتح الآفاق امام خلق جبهة شعبية او خلق جبهة من الانظمة الديمقراطية المعادية للفاشية ، للانتقال الى المرحلة الاشتراكية في النضال .

ان الخطوط الاستراتيجية العامة للحركة الشيوعية العالمية وحركة العمال التي وضعها المؤتمر السابع للكومنترن حددت التطورات اللاحقة ، في سنوات ما قبل الحرب ، لم يجعل انتصار الجبهة الشعبية في عدة اقطاره

---

(٢٢) ديمتروف . المؤلفات المختارة مجلد ٢ صوفيا ١٩٧٢ ص ٢٨ .

الفاشية تتقهقر ، بل جعل في الامكان اجراء اصلاحات تقدمية . وساعدت في تقديم رؤيا عريضة لحركة المقاومة ، التي كانت ، في جوهرها ، نضالا مزدوجا : من اجل التحرر الوطني من الغزاة الفاشست ، ومن أجل اقامة انظمة ديمقراطية مع اتجاه نحو الاشتراكية . وقد حارب باسم هذه الافكار النبيلة وطنيو اليونان ويوغوسلافيا ووطنيو ماكيز وبولاندا ، وابطال الانتفاضة السلوفاكية ، وانتفاضة براغ ، والمقاتلون الوطنيون في الدانمرك والنروج والمناضلون ضد الفاشية في امانيا ذاتها .

انتشرت المقاومة ضد النازية . انها قبل كل شيء ضد الغزاة الفاشيين، وكافحت في الوقت ذاته من أجل التحولات الديمقراطية والتقدم الاجتماعي . وفي الاقطار التابعة والمستقلة كافحت الحركة من أجل التحرر من الامبريالية والتبعية ومع بداية الحرب الوطنية الكبرى في الاتحاد السوفياتي ؛ اتسع اتجاه معاداة الامبريالية واغتنى المضمون الاجتماعي لحركات المقاومة . وقد تحولت ، في عدد من الاقطار ، كما نعلم ، الى ثورات ديمقراطية شعبية .

في سنوات ما بعد الحرب كانت افكار الجبهة الشعبية اداة لتوطيد « الديمقراطية الشعبية » في عدة اقطار خاصمت النظام الراسمالي . ولا تزال حتى ايامنا هذه هداية للاحزاب الشيوعية والطبقة العاملة في نضالها من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية .

# الفصل الثاني

## مرحلة جديدة ...

## في معركة الافكار

**هزيمة الفاشية :**

**دروس وتحذيرات ..**

ان التغيرات العالمية الواسعة لصالح الاشتراكية في اعقاب الحرب العالمية الثانية ترافقت مع مرحلة جديدة في الصراع بين الشيوعية ومناواة الشيوعية .

« ان الانتصار على الفاشية اظهر انه لا توجد قوة في العالم يمكن ان ترجع الى الوراء تيار التحولات الثورية العظيم الذي افتتحته ثورة اوكتوبر الاشتراكية . ان هزيمة المانيا الفاشية ، قلعة الامبريالية ، هدد تطور العالم بعد الحرب . لقد غدا هذا الانتصار منعطفا جديدا لانتفاضة ثورية قوية جديدة : ادت الى افلاس الراسمالية في عدة اقطار كبيرة في الغرب والشرق. لقد سجل هذا الانتصار بداية التغيرات العميقة في السياسة العالمية وفي الاقتصاد والايديولوجيا ، وفي ذهنية ملايين البشر » (١) .

ان عقود ما بعد الحرب سجلت تطورات تاريخية : ولادة النظام الاشتراكي العالمي ، تعاظم الحركات العمالية والشيوعية ، اتساع ثورات التحرر الوطني ، الحركة العالمية الواسعة من اجل السلم وضد حرب ذرية عالمية .

ان التصادم التراجيدي الفاجع مع الفاشية ترك تاثيرا عميقا في اذهان الناس . لقد اثرت الحرب مباشرة في حياة الملايين ، وكانت فاجعة مريعة بالنسبة للبشرية . لقد عرت الوجه الحقيقي للاحزاب السياسية والقيمة الحقيقية لشعاراتها وبرامجها ، لقد كشفت النوابض الخفية للسياسة العالمية والاهداف الفعلية للقوى التي خاضت اصراع . لقد هزت الحرب العالم

---

(١) بريجنيف « على طريق لينين » المجلد الاول موسكو ١٩٧٠ ص ١٤٤ ( بالروسية ) .

برمته ؛ وحرضت حياته الايديولوجية والسياسية ، وقدمت دفعة جديدة للحركة الديمقراطية .

اظهر الانتصار على المانيا الهتلرية بوضوح القوة الوطيدة للاشتراكية ، وبنتيجة الحرب كان ثمة بعض الاطروحات المعادية للشيوعية يمكن ان تسمع حتى ذلك الوقت ، فظهرت اليوم بالية .

كررت الدعاية البرجوازية ، لعدة سنوات ، ان الاشتراكية لم تكن شيئا سوى « حادث عرضي تاريخي » ، وبناء المجتمع الجديد ليس اكثر من « تجربة بلشفية » سوف تفشل حتما . اظهرت الحرب ، على اية حال ، ان الاتحاد السوفياتي كان قوة حصينة والوحيد القادر على قيادة الحركة الديمقراطية لانقاذ العالم من بربرية الفاشية . واظهرت ان مصدر هذه القوة هو الاشتراكية . ان الاتحاد السوفياتي لم يصطدم مع الفاشية بقواه المسلحة وطاقته الصناعية فقط ، وانما بنظرته العالمية الانسانية الثورية ؛ وبقوة الشعب الذي وحدته المثل الاجتماعية النبيلة .

ان الحرب فضحت الفاشية اخلاقيا كمذهب ايديولوجي وسياسي للجناح الرجعي في الراسمال الاحتكاري . ان الجرائم الفظيعة ضد البشرية التي حضرتها النازية اظهرت للعالم عمق الهوة التي كانت الامبريالية تدفعه اليها . تعلمت الجماهير الشعبية كثيرا من التجربة الطويلة والمريرة لـ « النظام الجديد » الذي شمل اوروبا . لقد راوا كيف ان المؤسسات الديمقراطية الليبرالية في المجتمع البرجوازي قد نحيت جانبا علانية ، فاضحة جوهر سيطرة الدوائر اليمينية للراسمال الاحتكاري .

كشفت اعوام الفاشية القاتمة بوضوح صلب معاداة الشيوعية ، فهي من اجل مصالح الاوليغارشية المالية مستعدة لمحو جميع الامم وتحويل العالم كله الى معسكر . ان المذهب الايدولوجي والسياسي والاعمال المجرمة للفاشية تعبير عن الاتجاه العام للامبريالية نحو السيطرة العالمية ؛ نحو بتر الديمقراطية ؛ نحو الرجعية في كل مجال . ان هتلر ذهب فقط في هذا الاتجاه ولكن ابعد من اي فرد ظهر قبله . ولكنه بعمله هذا لم يتبع اي ايديولوجيا متفردة ، او ارشادات سياسية ، وانما الاشياء ذاتها التي استخدمتها الرجعية الاحتكارية في العالم .

ان مستند الايديولوجيا الفاشية هو معاداة الشيوعية . ولا يهم الزي المعاصر الذي ترتديه معاداة الشيوعية ، ولا عبرة اللاقنعة التي يمكن ان تقتنع بها بعد هتلر ؛ فقد اظهرت الخبرة بوضوح كاف اين سيدفعون العالم . وعليهم الا ينسوا ان وراءهم المصير المحتوم لاشباح « ابطال » نورمبرغ الاشقياء .

ان انتصار الاتحاد السوفياتي وحلفائه في الحرب العالمية الثانية لا يعني فقط الاندحار العسكري والسياسي لطليعة الامبريالية وانما ايضا الاندحار العالمي لايديولوجيا الجناح الرجعي والمتطرف للبرجوازية ، بصورة عامة .

ان كراهية المؤسسات الديمقراطية للدفاع عن « القيم » البرجوازية . وضعفها ودمارها على يد الفصيل السفاح للرجعية ، جعلت هذه المؤسسات تكبر في عين ورثة تقاليد الليبرالية البرجوازية ، بصورة جدية . وهذا ما قوض الاساس الايديولوجي والسياسي للسياسة المزدوجة التي اتبعتها البرجوازية دائما تجاه الكادحين : خط شديد يعتمد على القسر المباشر والارهاب ، يرافقه خط من سياسة المناورة تحت ستار الليبرالية .

من الطبيعي ان تغير كل هذه العوامل تحالف القوى في الجبهة الايديولوجية والسياسية فجعلتها اكثر تعقيدا في معاداة الشيوعية للدفاع عن النظام الراسمالي .

### من بوتسدام الى الحرب الباردة ...

انهيار الفاشية وتطور الثورات الاجتماعية في اوروبا وآسيا خلال الحرب العالمية الثانية وفي اعقابهامباشرة قربتا المرحلة الاولى من الازمة العامة للراسمالية . ولو رحنا نحاول وصف الاتجاهات الايديولوجية والسياسية الرئيسية في تلك الفترة وصفا عاما ، لبدت الصورة على الوجه التالي . ان ستراتيجيي الامبريالية ، بتكرار الاخطاء التي تقترفها الطبقات المحتضرة دائما في المواقف المتشابهة ، كانوا عاجزين في ان يحددوا تحديدا دقيقا قابلية الاشتراكية للحياة أو جوهر التحولات الاجتماعية السياسية العميقة التي برزت في الساحة العالمية نتيجة ثورة اكتوبر . ان اعظم السياسيين سفسطة في الغرب ؛ من « مبدعي فرساي » ولوسون ولويد جورج وكليمنصو الى

« صانعي سلام » ميونيخ ، شامبرلين ودالادير ، وحلفائهم وراء البحار ـ الذين مثلوا حسا عاما معتبرا ، وحدة ذهن في مواقف اخرى ـ اثبتوا جميعا انهم مفلسون في اي شيء يتعلق بالدولة السوفياتية ، وتقدير قوتها الحقيقية .

السبب انهم كانو يستخدمون المقاييس القديمة لقياس المجتمع الجديد . يمكن للسياسيين البرجوازيين ان يحسبوا بالضبط المصادر المادية للجمهورية السوفياتية ، وان يحددوا قواه العسكرية والاقتصادية ، وان يقارنوا مختلف المؤشرات الكمية ، ولكنهم دائما يسقطون شيئا رئيسيا من حسابهم ـ وهو الطبيعة الجديدة للنظام الاشتراكي ، والقوانين المختلفة نوعيا والتي تسود حياته وتتضمنها ايديولوجيته .

ولذا فان استنتاجاتهم التي لا اساس لها وحساباتهم الخاطئة سببت اكثر من مرة لقادة الراسمالية اندحارات مؤلمة .

ان سراب الانتصار السهل على الاشتراكية الذي جعل ايديولوجيي الامبريالية ينتشون ، حال بينهم وبين رؤية الاشياء كما هي في الواقع . ان المفاهيم الايديولوجية والسياسية المناوئة للشيوعية في هذه السنوات ـ البدائية البليدة المهاوشة ـ نجمت بالضبط من البدعة . وبالاستفادة من التطويق الراسمالي للمجتمع الجديد بذل قادة الغرب كل ما هو ممكن لعزل الدولة الاشتراكية . وفي الميدان الايديولوجي بذلك الامبريالية اعظم مجهوداتها لاقامة ما سمي « الستار الحديدي » لتطويق الاشتراكية من الانتشار بين بقية عمال العالم حتى لا يعلموا شيئا عن حقيقة الاتحاد السوفياتي . ان ايديولوجي الامبريالية لا يفضلون الدخول في مناقشة مع الشيوعيين ، بقدر ما يفضلون استئصال الاشتراكية من العالم ، وتحجيم « التجربة » البلشفية وجعلها محلية قدر الامكان ، ونشر كل انواع القصص المختلفة عن الاشتراكية لاخافة الراي العام الغربي .

من حيث الاساس ، تكتيك المقاطعة نفسه استخدم في مجال السياسة السوفييتية الخارجية . فقد اعيقت المساعي العالمية للاتحاد السوفياتي ، ورفضت مقترحاته السلمية بدون اي اعتبار ، ولم يؤخذ بعين الجدية برنامجه لاقامة نظام ديمقراطي في العلاقات الدولية .

ان تكتيك النبذ ذاته ، وقد مزج بديماغوجية اجتماعية ، استخدم لمعارضة التاثير المتعاظم للاحزاب الشيوعية في الاقطار الراسمالية ذاتها . عزل الشيوعيين باعتبارهم « عملاء موسكو » وتخليص الجبهة المعادية للامبريالية والقوى الديمقراطية من قيادتها واسلحتها ــ ذاك هو الخط السياسي الرئيسي الذي تتخذه الرجعية في هذه السنوات . وفي مواجهة المنجزات التاريخية للاتحاد السوفياتي ونجاحات حركة التحرر في العالم ، وتعميق الازمة العامة للراسمالية ، عندما لم يعد هذا الخطر كافيا ، مالت الرجعية الى دفع الفاشية الى صدارة الحياة السياسية .

من هذا المنطلق ، كانت سياسة الامبريالية تهدف ، والآن تهدف بصراحة ، الى الاعتماد على التدمير العسكري للمجتمع الاشتراكي ، والمهمة الملقاة على عاتق ايديولوجيها هي « تبرير » هذه الطريقة العدوانية . وقد قام الايديولوجيون بهذه المهمة بطريقتين : بشحن النفوس بالتهديد العسكري المزعوم من قبل موسكو ، وبالتهجم على الاتحاد السوفياتي والادعاء أن « الشعب المستعبد » هناك ينتظر بفارغ الصبر ساعة التحرير .

وهكذا ، خلال تلك المرحلة ــ ولا نزال في الفترة الاولى من الازمة العامة للراسمالية ــ كان الاعتماد غالبا على الوسائل العسكرية والعنيفة في النضال ضد المجتمع الاشتراكي ، والاعتماد على الايديولوجيا ، باعتبار ان الوقت كان سلاحا مساعدا .

هذه الستراتيجية العنيدة المتطرفة ذاتها ــ مثل ستراتيجية كاتو الاكبر الذي كان ينهي كل خطاب له في مجلس الشيوخ الروماني بقوله : « يجب تدمير قرطاجة » ــ تابعها المناوئون للشيوعية بشدة في سنوات ما بعد الحرب ايضا . ان الدوائر الامبريالية في الغرب باشرت الاستعدادات التكنولوجية والايديولوجية لحرب عالمية جديدة . وقد دفع هذا بالعلم والاقتصاد الى عسكرتهما التي لم يسبق لها مثيل ، فجرى تخويف الراي العام بذريعة « الخطر الاحمر » ، واثارة التوتر الدولي ــ باختصار كل ما يمكن تسميته « الحرب الباردة » .

لا شك ان التحضير لمحرقة عالمية جديدة ليس ، بشكل من الاشكال ، تطورا عرضيا في تكتيك مناواة الشيوعية . ان الدوائر الغربية الامبرالية لم تكن سعيدة بحصيلة الحرب العالمية الثانية ، لانها سجلت نصرا للقرى

الديمقراطية المعادية للامبريالية ، وفي الوقت نفسه سجلت دمارا للخطط الستراتيجية للرجعية الامبريالية . ان السلطات الغربية ، التي ارغمتها الظروف القاهرة على الاتحاد مع الاتحاد السوفياتي في النضال المشترك ضد المانيا الهتلرية ، تسعى الآن الى خنق ذلك التحالف .

عقب الحرب ظهرت التناقضات في قلب التجمع المعادي لهتلر ذاته بقوة متجددة . فراى الاتحاد السوفياتي في ذاك التجمع تجسيدا عمليا لافكار الردع الجماعي للمعتدي ، وهو ما عملت من اجله الدبلوماسية السوفياتية بمواظبة عشية الحرب . فقد شعرت بأهميته العظمى بحيث تجب متابعته من اجل تامين السلام . والسلطات الغربية اولت هذا الخط اهتماما رسميا في قرارات المؤتمرات التحالفية والاتفاقيات المتبادلة ، مثل اتفاقيات يالطا وبوتسدام ، وميثاق الامم المتحدة . وكما نعلم ، فان هذه الوثائق ووثائق اخرى لتلك الفترة لخصت الخطوط العامة لنظام ما بعد الحرب في العلاقات الدولية .

على اي حال ، سرعان ما اتضح ان التحالفات في التجمع المعادي لهتلر ذات مفاهيم تختلف عن تنظيم العالم عقب الحرب . بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي كانت يالطا وبوتسدام ، واقامة منظمة الامم المتحدة في سان فرانسيسكو استمرارا مباشراً لسياسة الامن الجماعي ، وكان من الطبيعي ان يبحث في تجسيد هذا الخط في الاتفاقات الدولية التي سوف تقرر تنظيم عالم ما بعد الحرب . وبالنسبة الى السلطة الغربية كانت هذه الاتفاقات الدولية تجري ضد السياسة السابقة تجاه الاشتراكية . وكذلك فان مسألة اي طريق سوف يسلك العالم بعد أن غيرت هزيمة الفاشية من التوازن : فيما اذا كانت القوى التقدمية قادرة على تحقيق النتائج الايجابية للحرب ضد الفاشية ، او ان الرجعية الدولية سوف تقلب تطور الاحداث .

تصدرت الامبريالية الاميركية اليوم ، وبشكل مباشر ، الخط الامامي لسياسة معاداة السوفيات . وباحتلال الامبريالية الاميركية الفراغ الذي تركته طليعة الرجعية العالمية وورثت شعاراتها بشتى الطرق ، سعت لاحباط انتصار قوى التقدم في الحرب العالمية الثانية ، وفرض سطوتها على البشرية . وما كاد العالم يحرر نفسه من تهديد المانيا الهتلرية بالعبودية حتى واجه خطر الوقوع على اقدام أصحاب المصارف في الوول ستريت .

كان هذا عندما كانت الرجعية العالمية لا تزال تعيش في وهم ملاحقة سياسة « من مركز القوة » تجاه الاتحاد السوفياتي وحركة التحرر . ان الراسمال الاحتكاري الاميركي ، وقد اخذ على عاتقه مهمة الدركي العالمي والحامل النموذجي لمعاداة الشيوعية ، كان يحاول توحيد الاقطار الراسمالية تحت حمايتها ؛ وعزل الاتحاد السوفياتي واجباره على التنازلات والاستسلام ؛ ومنع ظهور الاسرة الاشتراكية ، وخنق حركات التحرر الوطنية . وباختصار لتقليص ما انجزته البشرية حتى العدم .

**« من مركز القوة » :**

**خطط وافلاس ...**

آراء شتى يمكن أن نجدها في الادبيات التاريخية الاميركية حول بداية الحرب الباردة . بعض المؤرخين يجعلونها تبدأ في ١٩٤٧ ، ابان اعلان مبدا ترومان ومشروع مارشال ، وآخرون يقولون انها بدأت مع خطاب تشرشل في فولتون آذار ١٩٤٦ . ولا يزال آخرون يشعرون انها بدأت فعلا بعد موت فرانكلين روزفلت تماما في نيسان ١٩٤٥ . بيد ان جميع المؤرخين الاميركان السالكين سبيل عداء الشيوعية يسعون الى اثبات ان مسؤولية الحرب الباردة لا تقع على الامبريالية الاميركية واتباعها في اوروبا ، وانما تقع هذه المسؤولية على الاتحاد السوفياتي . ويدعون ان الاتحاد السوفياتي خرق الوعود التي قطعها في التسوية التي اعقبت الحرب ، مخططا لعدوان شيوعي ضد اقطار « العالم الحر » . ولدعم مزاعمهم لا يستندون الى وقائع ، بل الى مداولاتهم العادية حول « الجوهر العدواني » للشيوعية ، التي يعتقدون انها بطبيعتها تشكل تهديدا لـ « العالم الحر » .

على اي حال فان الوقائع معروفة تماما . فبعد وفاة فرانكلين روزفلت بالضبط اقر رئيس الولايات المتحدة الجديد ، هاري ترومان ضرب المدينتين اليابانيتين : هيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية . ان في معرض ذكرى هيروشيما ساعة توقفت لحظة الانفجار ــ في ٦ آب ١٩٤٥ الساعة الثامنة

والربع قبل الظهر . هل يمكن محو تلك الدقيقة المرعبة من التاريخ ؟ (٢) . ومهما كانت الاطوال ، فان التدمير البربري للمدن اليابانية ، على ضوء الاحداث التالية ، الذي لا تستوجبه أي ضرورة عسكرية أو غير عسكرية ، يبدو كأول عملية في الحرب الباردة . كان محاولة من الامبريالية الاميركية لارهاب العالم ، لتهديده بالسلاح الذري ، لجعل كلمتها هي العليا .

بعد ستة اشهر بقليل نقل القطار الرئاسي الخاص كلا من هاري ترومان ورئيس وزراء بريطانيا السابق ونستون تشرشل من واشنطن الى مدينة اميركية صغيرة هي فولتون . وهناك وضع تشرشل البرنامج المعادي صراحة للسوفيات « حلف شمال الاطلسي » . وفي الخطاب الذي القي في ٥ آذار ١٩٤٦ في مدينة اميركية وبحضور الرئيس الاميركي ، قال تشرشل : « من ستيتن في البلطيق وحتى تريست في الادرياتيك ، انزل ستار حديدي عبر القارة » (٣) ان نواة ذلك الجزء من الخطاب لخصها أحد الكتاب الاميركيين كالتالي : « ينقسم العالم اليوم الى معسكرين : راسمالي وشيوعي . وحتى نوقف امتداد المعسكر الشيوعي فان على الشعوب المتحدثة بالانكليزية ان

(٢) الوصف التالي للحادث موجود في « سباق الى النسيان » كتاب لعالم اميركي شهير هو هربرت يورك ، الذي ساهم في خلق الانظمة الجديدة للاسلحة ، بما في ذلك القنبلة الذرية ، وله مطلق الحق في ان يضع عنوانا هامشيا هو « نظرة مساهم في سباق التسلح » : « القنبلة الذرية الاولى القيت على المدينة اليابانية هيروشيما في ٦ آب ١٩٤٥ ، فسقط ٦٦٫٠٠٠ نسمة على الفور كنتيجة مباشرة للانفجار والعاصفة النارية التي لبعثه . عشرات الآلاف ماتوا من الآثار التالية . ودمرت ٨٪ من بيوت هيروشيما وابنيتها ، وتضعضع معظم الباقي . كانت القنبلة تزن ٩ آلاف بوند وطولها ٢٨ انشا في القطر . والمادة المتفجرة التي فيها هي معدن اليورانيوم المشبع جدا بالنظير النادر ٢٣٥ . وتمت العمليات الفيزيائية للانفجار النووي بأقل من واحد على مليون من الثانية . وتقدر كمية الطاقة التي فجرت بما يعادل اربعة عشر الف طن من مادة ت.ن.ت . وقد قامت الطائرة ب ــ ٢٩ بنقل القنبلة من جزيرة تانيسان في الماريانا ، حوالي الف وخمسمائة ميل من الهدف . وفجرت قبل الوصول الى الارض ببضعة آلاف قدم لتغطية اكبر مساحة ممكنة وتعطي اعظم الامواج الضاغطة والاشعاع الحار » ( هربرت يورك « سباق الى النسيان : نظرة مساهم في سباق التسلح » نيويورك ١٩٧١ ص ٢٧ ) .

(٣) « الخطب الكاملة لونستون تشرشل » ١٨٩٧ ــ ١٩٦٣ نشر روبرت رودس جيمس . المجلد ٧ ١٩٤٣ ــ ١٩٤٩ نشر شلزي هاوس بالتعاون مع شركة بوكر . نيويورك ولندن ١٩٧٤ ، ص ٧٢٩٠ .

تشكل اتحادا عاجلا ام آجلا . عليهم ان يقيموا حلفا وان يجمعوا المؤسسات العسكرية . عليهم ان يقودوا الحضارة « المسيحية » في حرب صليبية ضد الشيوعية » (٤) .

الشيء الوحيد الذي يمكن ان يضاف الى هذا هو ان الدعوة المضحكة لرئيس الوزراء البريطاني السابق الى حرب صليبية ضد الشيوعية ليست سوى صياغةلسياسة كانت تمارس في ذلك الوقت . فليس عبثا ان تشرشل حظي بتأييد مباشر من وزير الدولة الديمقراطي جيمس بيرنز ومن السفير الاميركي في بريطانيا ( وزير دولة فيما بعد ) والجمهوري جون فوستر دالاس. وهكذا كانت الحرب الباردة ، كسياسة خارجية رسمية لواشنطن ، في جوهرها مقبولة من الحزبين الرئيسيين .

لا شك ان مما هو اكثر اهمية من الاتفاق الحزبي لصانعي السياسة الخارجية الاميركية كان تعاونهم مع اصحاب الاعمال الكبيرة ، وعلى الاخص مع تلك الدوائر التي لها ارتباط مباشر مع الصناعة الحربية . ولبعض تلك الشخصيات ايضا ارتباطات مع شركات التسلح الالمانية . دالاس ، مثلا ، الذي برز كمتعصب حقيقي للحرب الباردة ، كان في الوقت نفسه مشتركا بشركة سلفيان وكروموبل التي مولت الحزب النازي عن طريق شركة شرويدر بانكهوس الالمانية . وبكلمة اخرى كان واحدا من الشخصيات الاميركية التي تعمل بنفسها باعتبارها منظمة للحرب الصليبية ضد الشيوعية .

كان ما القاه تشرشل في فولتون كان نوعا من التحضير الايديولوجي للاعلان الرسمي عن الحرب الباردة التي ظهرت بعد عام في واشنطن باسم الحكومة الاميركية . تلك كانت رسالة ترومان الى الكونغرس في ١٢ آذار ١٩٤٧ ، وفيها لخص برنامج « المساعدة » لليونان وتركيا وأعلن طرحه ان الامن الوطني للولايات المتحدة يقتضي الاعلان ان السياسة الخارجية الاميركية هي القضاء على « التهديد » الشيوعي حيثما ظهر (٥) . تلك الرسالة صاغت برنامج السياسة الخارجية الطويلة الامد للامبرالية الاميركية التي كانت تخفي وراء غطاء دخان معاداة الشيوعية رغبتها في السيطرة العالمية .

---

(٤) « الولايات المتحدة في عالم متغير : تحليل تاريخي للسياسة الاميركية الخارجية » جيمس ووبرغ ١٩٥٤ ص ٤١٦ .

(٥) عقد من السياسة الخارجية الاميركية . الوثائق الاساسية ١٩٤١ – ١٩٤٩ واشنطن ١٩٥٠ ص ١٢٥٣ – ١٢٥٤ .

في تحليل سياسة « الكبح » ، فرانز شيرمان ، استاذ التاريخ والاجتماع في جامعتي كاليفورنيا وبيركلي ، يلفت النظر الى حقيقة ان تلك السياسة تعكس قبل كل شيء تلك المطامح التوسعية بعد ان سقطت المبادرة الامبريالية من يد بريطانيا العظمى الضعيفة . وبتطوير هذه الفرضية يقول : « ليس من الضروري ان تكون روسيا توسعية اولا تكون حتى نفهم لماذا ظهر تيار سياسة الكبح الخارجية الجديدة . ان الاعمال التي يديرها خبراء امثال جورج كينان اظهرت الحاجة القائمة عند واشنطن .. حاجة بيروقراطية الامن الوطني المتحلقة حول البيت الابيض الى نظرة الى العالم تناسب السياسات التي طفقوا يطورونها » (٦) .

مبدأ ترومان ومشروع مارشال وسياسة «كبح» الشيوعية او «دحروها» الراسمال الاميركي نفسه في ذلك الوقت « انعاش الاقتصاد الفعال في العالم بحيث يسمح لظهور ظروف اجتماعية وسياسية يمكن ان تنشأ فيها المؤسسات الحرة » (٧) . وفي الميدان العسكري جرى تدعيم ذلك عن طريق سياسة « كبح » الشيوعية أو « دحرها » .

مبدأ ترومان ومشروع مارشال وسياسة « كبح » الشيوعيةاو«دحرها» كانت الادوات الاساسية لسياسة الحرب الباردة الامبريالية . خول مبدا ترومان الامبريالية الاميركية حق التدخل في الشؤون الداخلية لاي قطر يتعرض فيه النظام الراسمالي للتهديد . لقد تابع مشروع مارشال تحت السيطرة الاميركية هدف تقوية الاقتصاد الراسمالي لاوروبا الغربية بغرض اضعاف النضال الاجتماعي هناك . ان مبدا كبح الشيوعية اتخذ منحى معاديا للسوفيات .

مظهر آخر لسياسة الحرب الباردة هو المعالجة الشاملة للقضايا الاقتصادية الاميركية . فقد شعر المسؤولون الحكوميون انهم وجدوا صيغة سحرية لكل الازمان . لقد بدؤوا ، يعجبون فيما اذا كان بالامكان اقامة شيء يشبه الآلية ذاتية الحركة . كانت الحرب الباردة حافزا ودعما اقتصاديا اوتوماتيكيا . بادارة الزر يطلب الراي العام نفقات جديدة للتسلح . وبادارة

(٦) « منطق السلطة العالمية ، بحث في منشأ السياسة العالمية ، تياراتها وتناقضاتها » فرانزشيرمان ، نيويورك ١٩٧٤ ص ٦٢ .

(٧) صحيفة نيويورك تايمز ٦ حزيران ١٩٤٧ .

زر آخر ينتهي الطلب . ان ثقة ترومان ورضاه الذاتي نابعان من هذه « الصيغة الترومانية » .

وهكذا بدت الحرب الباردة علاجا عجائبيا ينقذ في الوقت نفسه الاقتصاد الاميركي ويثبت الوضع الداخلي في البلاد ، ويحل قضايا السياسة الخارجية . وكل هذا كان بسيطا واوتوماتيكيا بشكل مدهش . لو ان فولتير كان حيا لقال المثل المشهور : « لو ان الحرب الباردة لم تكن موجودة لوجب اختلاقها » ، بحيث ان كهنة الاحتكارات يمكن ان يعيدوا ذاك الصنم ويقدموا الاضاحي من اجله .

وبما ان قادة الولايات المتحدة الاميركية يبحثون عن أعظم الصيغ ملاءمة ليغلفوا بها سياستهم في السيطرة العالمية ، سعى الايديولوجيون الاميركيون الى وضع اساس نظري لخدمتها . فمثلا البروفسور جيمس بيرنهام شرح في كتابه « الصراع من أجل العالم » الراي القائل انه في العصر الذري تنبذ مبادىء القانون الدولي مثل السيادة وعدم التدخل والحقوق المتساوية للامم .. الخ نبذا أوتوماتيكيا . « وبقدر ما تؤثر الامور في العلاقات الدولية ، تكون العملية تدخلا سريعا ثابتاً بصورة كافية ، وليس عدم تدخل »(٨) .

يجيب الدكتور هارولد يوري ، محرز جائزة نوبل في الكيمياء ، عن هذه المسائل ، وما الاشكال التي يمكن أن يتخذها التدخل ، وكيف يمكن أن تسير الاحداث اللاحقة في العالم لو تابع البنتاغون احتكار السلاح الذري ؛ فيقول البروفسور الاميركي بصراحة : « اما ان تؤمن الولايات المتحدة السيطرة على الحرب سيطرة كاملة ، واما ان نبدأ الاستعدادات فورا من أجل حرب عالمية ثالثة ، حيث ستستخدم فيها القنابل الذرية » (٩) .

وحتى « تثبت » نظرة كهذه لابد من برهان جاهز دائما ، وقد ظهر البرهان بسرعة على شكل استشهادات بالتهديد القديم ذاته بالعدوان الشيوعي . وبما ان هذا البرهان بعيد عن النسخة الجديدة فقد جرى دعمه الآن بـ « اثباتات » اضافية .

ان تعاظم سمعة الاتحاد اسوفياتي الدولية ، واختيار شعوب عدة

---

(٨) جيمس بيرنهام « الصراع من اجل العالم » نيويورك ١٩٤٧ ص ١٧٧ .

(٩) يونايتد ستيتس نيوز ٣٠ آب ١٩٤٦ ص ٥٢ .

اقطار الاشتراكية طريقا للتطوير ، وارتفاع دور الاحزاب الشيوعية ، وقوة الحركة الديمقراطية العالمية ككل جميع هذه التغيرات التقدمية بعد الحرب صورها ايديولوجيو الامبريالية على انها « مكائد موسكو » التي على الولايات المتحدة وحلفائها « كبحها » طالما تهدد « العالم الحر » .

لقد وضعت الشيوعية « التوتاليتارية » و « العدوانية » في حقيبة واحدة مع الفاشية . لقد ليمت لاتساع سباق التسلح . كانوا يخيفون باستمرار الانسان العادي بقصص عن « التوسيع الشيوعي » . لقد كتب جورج كينان ان الاتحاد السوفياتي « يستسلم بتعصب الى ذلك الاعتقاد بانه لا يمكن ان يكون ثمة طريقة للحياة مع الولايات المتحدة ، وبانه من الضروري ان يشوش انسجامنا الداخلي وان تتحطم طريقتنا التقليدية في الحياة ، وان تكسر سلطة دولتنا عالميا . . . » (١٠) وهكذا .

وحتى تقرع طبل الدعاية ضد الشيوعية بذلت الامبريالية جهدا كبيرا للحط من العمل الفذ للشعب السوفياتي في الحرب العالمية الثانية . وقد ذهب المؤرخون الرجعيون الغربيون الى الاخذ بالرواية النازية أن حرب المانيا ضد السوفييت كانت حربا وقائية (١١) وباحياء اسطورة « التهديد السوفياتي » شوهت الدعاية الامبريالية المجرى الواقعي للاحداث ، نظفت سجلات المثيرين الحقيقيين للحرب ، واتهمت الاتحاد السوفياتي ثانية بـ : « النوايا العدوانية » .

ان سياسة الحرب الباردة كلفت البشرية كثيرا . فقد انتقلت الولايات المتحدة الى المكارتية وفي المسرح الدولي ، قدمت رايتها السوداء الى المحاربين ضد الحركات الثورية والديمقراطية وكانت النتيجة المباشرة لهذه السياسة

---

(١٠) جورج كينان . ذكريات ١٩٢٥ ـ ١٩٥٠ بوسطن ١٩٦٧ ص ٥٥٧ .

(١١) استخدمت الدعاية النازية هذه الخرافة للتحضير للهجوم على الاتحاد السوفياتي الذي كانت تبيته ، ومن ثم خلال الحرب وقد اعترف هانز فريتش ، وهو ضابط كبير في وزارة غوبلز ، لدى محاكمته في نورمبرغ انه « بعد الهجوم على الاتحاد السوفياتي كانت المهمة الرئيسية للدعاية الالمانية تبرير هذا الهجوم ، لذلك كنا نؤكد المرة تلو الاخرى اننا لا نفعل شيئا سوى احباط الهجوم السوفياتي » ( محاكمة كبار مجرمي الحرب امام المحكمة العسكرية الدولية ، نورمبرغ مجلد ١٧ ١٩٤٨ ، ص ٢٢٦ ) .

سلسلة من الاعمال العدوانية والحروب المحلية والمؤامرات العسكرية والاستفزازات في كل قارة ، من كوريا الى برلين ، ومن كوبا الى فيتنام ، ومن الكونغو الى الشرق الاوسط ، بالاضافة الى خلق نظام كامل من المؤسسات العدوانية الدولية . وبالطبع كان حصيلة كل هذا ذلك الجو من التوتر العالمي وانعدام الثقة والحرب النفسية . ان سياسة الحرب الباردة التهمت الكثير من المصادر المادية والثقافية التي انفقت على سباق لتسلح والنشاطات ان الاقتصاد والقوة العسكرية المتعاظمين للاتحاد السوفياتي كانا عاملا ذا ان هذه السياسة كان لا بد ، في النهاية ، من ان تفشل .

كان مكتوبا لها الفشل : قبل كل شيء ، في هدفها الرئيسي وهو اقامة دفاع معاكس ستراتيجي ضد الاشتراكية . لقد اظهرت الاشتراكية ، بعد الحرب تفوقها الواضح على الراسمالية . واذ عانى الاتحاد السوفياتي في ميادين القتال اكثر من الاقطار الاخرى فقد اعاد بسرعة وبصورة مستقلة بناء اقتصاده الوطني وحقق قفزة جبارة في التطور الاقتصادي والعلم والتكنولوجيا ، بما في ذلك التكنولوجيا العسكرية . هذه الحقيقة وحدها تقلب كل ستراتيجية منظمي الحرب الباردة وخططهم في « دحر الشيوعية ». ان الاقتصاد والقوة العسكرية المتعاظمين للاتحاد السوفياتي كانا عاملا ذي اهمية عظمى في اختيار طريق التطور الاشتراكي لشعوب عدة اقطار في اوروبا وآسيا وظهور وتدعيم المجموعة الاشتراكية ككل . وفي الوقت نفسه فان انهيار النظام الكولونيالي وواقع ان اكثر الامم سارت على طريق الاستقلال والتقدم ، وجه ضربة قوية الى مؤخرة الامبريالية .

وبما أن الاوهام حول امكانية متابعة سياسة « من مركز القوة » مع الاتحاد السوفياتي وحركة التحرر العالمي قد نبذت تدريجيا ، فقد سحب البساط من تحت مبدأ « كبح » و « وتحرير » و « دحر الشيوعية » . لقد كانت الزمرة الامبريالية الحاكمة مضطرة الى وضعه على الرف .

هذا المنعطف بات واضحا تماما في نهاية الخمسينات وبداية الستينات وفي الميدان السياسي تميز بفشل الثورة المضادة في المجر ، وانهيار مغامرة السويس في مصر ، وانتصار الثورة الكوبية ، وارتفاع دور الطبقة العاملة والاحزاب الشيوعية في الاقطار الراسمالية . ان بيان لقاء ممثلي الاحزاب الشيوعية والعمالية في ١٩٦٠ اشار الى ان : « النتيجة الرئيسية لهذه

السنوات هي النمو السريع والتاثير القوي العالمي لنظام الاشتراكية في العالم ، وعملية تفتيت النظام الكولونيالي تحت ضربات حركة التحرر الوطني، واتساع الصراعات الطبقية في العالم الراسمالي ، وانحطاط النظام الراسمالي العالمي وتفسخه . ان تفوق قوى الاشتراكية على قوى الامبريالية ، وتفوق قوى السلم على قوى الحرب ، هو ما يسم المسرح العالمي »(١٢) ، هذا الاتجاه العام للتغيرات في ميزان القوى لصالح الاشتراكية تطور سريعا في السنوات اللاحقة ايضا : فلا الهجومات المعاكسة ولا اخطاء ولا العقبات في النضال التحرري ، ولا حتى النواقص التراجيدية وخيانة قضية الاممية البروليتارية من قبل قادة بكين يمكن ان يغير شيئا .

## « البعد الرابع » في تطبيق السياسة الخارجية

نظرا لتعثر سياسة « س موقف القوة » ، اضطرت الدوائر الامبريالية الغربية الى نقل ثقل الصراع ضد الاشتراكية الى ميدان الايديولوجيا . وارتفع النضال الايديولوجي تدريجيا الى مستوى « البعد الرابع » للسياسة الخارجية بالاضافة الى الابعاد الاخرى : الدبلوماسية والاقتصادوالعسكرية. واذا كان البعد الايديولوجي هاما من قبل فقد اعطي مجالا واسعا .

في تشرين الاول ١٩٥٧ عندما طار القمر الصناعي السوفياتي فوق رؤوس ستراتيجيي الحرب الباردة الاميركان بات واضحا تماما ان سياسة « مركز القوة » قد فشلت . ان وزير الدولة السابق للقوى الجوية الاميركية توماس فنلتر ابرز هذا الحادث من وجهة العواقب المحتملة لاميركا على الوجه التالي : « هكذا بين ليلة وضحاها انتقلنا من حالة ان حربا عامة لا تهدد الولايات المتحدة ، الى حالة توقع فيها الحرب اعظم الدمار ، فتخرب المدن بالعشرات وتقتل وتجرح الاميركيين بعشرات الملايين .

« انا لا اعرف حادثا غير الى الاسوأ منذ الثورة الروسية ١٩١٧ ، امن قطرنا ومركز قوتها مثل هذا الحادث »(١٣) .

لا حاجة الى القول ان هذا مما يحدو الى اعادة النظر في السياسة

---

(١٢) النضال من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية ص ٢٧ ــ ٢٨ .

(١٣) توماس فنلتر « السياسة الخارجية ، الوجه الثاني » نيويورك ١٩٥٨ ص ٢٢ .

الخارجية للولايات المتحدة . ذاك هو سبب انه في اواخر الخمسينات ظهرت جملة « من عصر المواجهة الى عصر المفاوضات » في لغة الشخصيات السياسية الاميركية عندما ناقشت آفاق تطور العلاقات الاميركية ـ السوفياتية . وتشخيصا للاتجاه الاساسي لتلك الجهود ، كتب ريشارد نكسون ، ولم يكن رئيسا للولايات المتحدة في تلك الايام ، في كتابه « ست ازمات » ( الطبعة الاولى ١٩٦٠ ) : « القوة العسكرية حيوية ولكنها ان لم تدعم ببرامج اقتصادية وسياسية ودعائية ، فانها ليست كافية ابدا »(١٤) . وبعد عدة سنوات ، كان نكسون اول رئيس جاهورية للولايات المتحدة يقوم بزيارة رسمية الى موسكو .

واقتناعا ان الخط المتصلب السابق مع الاتحاد السوفياتي والمجموعة الاشتراكية وحركة التحرر ليس غير مجد فحسب ، بل انه خط خطر ، طفق ستراتيجيو الامبريالية اليوم يبحثون عما يجب ان ياخذوه بالحسبان كبديل واقعي . لقد انتقلوا من المبدا الخطر « الانتقام الجبار » الى مبدا «الاستجابة المرنة » ؛ من التفرقة السياسة والاقتصادية ضد الاقطار الاشتراكية الى تكتيك « نصب الجسور » ، من القمع المباشر لحركات التحرر والنضال الديمقراطي للطبقة العاملة الى المناورة الاجتماعية والسياسية .

وفي خط مع هذا ، شرعت الامبريالية تخطط دعاية جديدة تقترب من القضايا الكبرك للعصر وتأخذ بالحسبان التغيرات في ميزان القوى بين الاشتراكية والراسمالية . وبكلمة اخرى ، لقد وضعوا بعين الاعتبار تطور الميزان بين الطبقة العاملة والبرجوازية على الصعيد العالمي ، وعلى صعيد الاقطار الراسمالية منفردة ، وايضا بعض الظواهر الجديدة التي فرزتها تطورات اشكال احتكارية الدولة في الراسمالية وتطور الثورة العلمية التكنولوجية .

في تلك النقطة ، وفي المنعطف بين الخمسينات والستينات ، ادرك قادة الاقطار الراسمالية والقادة السياسيين الايديولوجيين ، وربما للمرة الاولى ، الاهمية الكبرى للمباراة التاريخية مع الاشتراكية . وقد أدى ذلك الى اعادة تنظيم بصورة اساسية في النشاطات الايديولوجية الامبريالية ، او بتعبير اكثر دقة ، في النظام العام للدفاع الايديولوجي ، بالمعنى العريض للكلمة . العنصر الجديد هنا كان الصراع الايديولوجي ضد الشيوعية ، وكانت البرجوازية

---

(١٤) ريشارد نكسون « ست ازمات » نيويورك ١٩٦٢ ص ٢٨٦ .

تستخدم شتى الطرق لدعمه في الاقتصاد والسياسة والميادين العسكرية ، اصبح جبهة مستقلة ذات اهمية اساسية .

« الحرب النفسية » ضد الاشتراكية والحركة الديمقراطية في العالم غدت الآن جزءا لا ينفصل من سياسة القوى الامبريالية .

احد طلاب هذه القضايا ، ويلسون ديزراد لاحظ مع مكتب المعلومات الاميركي في بداية الستينات انه : « ما لم تقم حرب نووية جارفة فان ميزان القوى بيننا وبين الشيوعية سوف يتقرر بشكل اوسع في مسرح الراي العالمي »(١٥) .

وبمثل هذا الوضوح كان راي الدبلوماسي الاميركي جورج آلن الذي قال في خطاب في جامعة دوك انالدعاية حول الميزانالمتعاظم كانت تتوقف هنا، وان التقدم التكنولوجي يمكن ان يجعل ذلك مهما للدبلوماسية اهمية اختراع البارود للجيش .

واذ يضع الامبرياليون ذلك في تفكيرهم ، وفي طليعتهم الولايات المتحدة ، يولون الآن عناية لم يسبق لها مثيل للدعاية في السياسة الخارجية ، وشكلوا جهازا للصراع الايديولوجي ، باحثين حثيثا عن اشكال من النشاط الدعائي اكثر تأثيرا ، مهتمين أكثر فاكثر بدراسة طرائقه . وكنتيجة فان تغيرات من مثل هذا الثقل برزت في هذا الميدان في الستينات والسبعينات بحيث انهناك مبررا للقول انها مرحلة جديدة للصراع الايديولوجي في الصعيد العالمي . واتسمت هذه المرحلة بالتطورات الهامة في تنظيم دعاية السياسة الخارجية للامبريالية ، في كل من الطرائق التكتيكية المتبعة ، وفي مضمون بعض المفاهيم الايديولوجية .

## اعادة تنظيم وكالات الدعاية الايديولوجية

حالما اصبح هذا الحقل محط اهتمام الدوائر العليا الاحتكارية الدولة في الاقطار الراسمالية ، اكتسب سمات تنظيمية هامة جديدة . وكوظيفة خاصة من وظائف الدولة البرجوازية ، فان اتجاه الصراع الايديولوجي يعكس

---

(١٥) ويلسون ديزارد « ستراتيجية الحقيقة . قصة مكتب المعلومات الاميركي » واشنطن ١٩٦١ ص ١٨٦ .

بصورة مميزة سمات المرحلة الحالية للراسمالية . لقد استخدم ، بشكل خاص ؛ نمو بنية احتكارية الدولة والتكامل الداخلي ومنجزات التقدم العلمي والتكنولوجي . كل هذا امتد الى حقل « الحرب النفسية » . وفوق ذلك ، كلما ازدادت تبعية الدولة البرجوازية للاحتكارات ، فان اتجاها نحو توحيد جبهة الاحتكارات المتعددة الجنسية ضد الاشتراكية ، ومجهودات لاستخدام المنجزات الحديثة في العلم والتكنولوجيا لصالح الامبريالية ، قد اتضحت في هذا الميدان ربما بوضوح اكثر من اي ميدان آخر .

ان تطويب الحرب النفسية كوظيفة دولة للقوى الامبريالية نجم قبل شيء من المركزية الشديدة لمصالح الامبريالية الايديولوجية . وهذا ما يسمح للزمرة الحاكمة أن تولي هذا النشاط اهتماما لم يسبق له مثيل ، فيشمل ، الى جانب المنظمات الدعائية ، الهيئات الحكومية والجيش والمصالح الثقافية بفروعها خارج القطر . وفي السنوات الراهنة انشئت انظمة كاملة لمؤسسات الدعاية الخارجية في الاقطار الامبريالية . انها تتألف من « مدارج » متداخلة عديدة .

في قمة جبل « الاولمب الايديولوجي » تقبع حفنة صغيرة من النظريين الذين حشروا انفسهم في دور الرعاة الروحيين للبشرية المعاصرة . مهمتهم الامداد بالافكار « الجديدة » والعمل على تحديث المفاهيم وتجديد البراهين المهجورة ؛ واعادة التناغم في الميدان الايديولوجي .

وفي المدرج « الوسط » تخاط هذه الافكار ( وعادة بطريقة سفسطائية جدا ) لتلائم مصالح ومتطلبات جمهور النظارة المختلط . فهنا فرضيات عامة البست اشكالا شعبية وزينت بوقائع مختارة ، مع تشديدات ضرورية توضع في الاماكن المعينة .

واخيرا هناك دعاية ضخمة . وكل الروابط في هذا النظام المتفرع لـ ( المدارج ) تتبع التقسيمات المتناسبة للكهنوت الحكومي .

جميع الاقطار الراسمالية ساهمت في عمليات الدعاية ضد الشيوعية . ولكن الولايات المتحدة تلعب دور القيادة . ولهذا السبب تنفق هناك اموالا طائلة لهذه الاغراض ، حيث معظم اجهزة الدعاية للسياسة الخارجية اقيمت هناك ، وحيث تمركزت اعداد هائلة من المنظمات التي تعمل في هذا الميدان — من جمعيات الدعاية الكبرى الى كل انواع المؤسسات والمراكز والمجموعات

التي تعمل باشكال وطرق واساليب جديدة في الصراع الايديولوجي . ولذلك هناك تنتج مادة الدعاية المعادية للشيوعية بكميات هائلة ، ويوضع اللحن لجميع افراد « كورس » الدعاية المناوئة للشيوعية .

بنيت آلة الدعاية في الولايات المتحدة على مبادىء شديدة التركيزوتبعية كهنوتية دقيقة . ان كبار السعاة يوضعون في العمل تحت الاشراف المباشر للبيت الابيض وادارةالدولة والبنتاغونووكالة الاستخبارات المركزية (سيا).

ان الاتجاه نحو مركزية احتكار الدولة في الايديولوجيا والدعاية يلاحظ بوضوح ودقة في الحياة السياسية للولايات المتحدة والسلطات الامبريالية الاخرى ، مما يؤدي الى نتائج لاحقة اساسية جدا . انها تمكن الطبقة الحاكمة في الدرجة الاولى ؛ من الحاق نشاط وفعالية اي وكالة حكومية بمهمات معاداة الشيوعية ، وفي الدرجة الثانية ، تمكنها من تمويل اجهزة الدعاية الخارجية الباهظة جدا على نفقة الدولة ، اي بأموال دافعي الضرائب ، وفي الدرجة الثالثة ، من تامين التبعية الدولية لمجهوداتها في هذا الميدان على الصعيد الحكومي الداخلي .

ان العمليات الكبرى في الصراع الايديولوجي لا يخطط لها الآن من قبل مؤسسات دعائية خاصة ، كما في الماضي ، بل من قبل الوكالات الحكومية ، مع ترابط وثيق بين كل فروع آلية الدولة والمؤسسات العلمية والاجهزة الدعائية . ولكن هذه ليست متساوية كلها في الاعمال ، وانما ـ كقاعدة ـ تقوم بالتجهيز والتحضير بعناية لحملات ايديولوجية هادفة ، وغالبا ما تكون على الصعيد العالمي .

باستخدام وسائل سلطة الدولة ، بصورة موسعة، بما في ذلك المشرفون على التنظيم المالي ، تنسق حكومات الاقطار الراسمالية بعناية بين شتى اقنية الدعاية وتحدد مضمونها .

ان صناعة جديدة متعددة القطاعات ظهرت في العالم ؛ في السنوات الاخيرة ـ وهي وسائل الاعلام الجماهيرية . ان ملايين اللايين من الدولارات توظف في هذه الصناعة . وباعتبارها حقلا حققت فيه الراسمالية اعظم تقدم علمي تكنولوجي ، فانه ياتي في الدرجة الثانية من وسائل التدمير الجماهيرية .

لقد غدا الاعلام في هذه الايام سلعة ضرورية اجتماعيا ومادة لعمل

ضخم . ان الاحتكاريين الكبار ، من ملوك النشر والتلفزيون والراديو حققوا أرباحا هائلة منها . ومن جهة اخرى فان عدة مؤسسات دعائية ، وخصوصا في الخارج ، باتت باهظة التكاليف ولا تحقق ربحا . وتفضل الاحتكارات ان تدير الدولة مثل هذه المؤسسات موكلين اليها مهمة ضبطها والتوسع بالقنالات الباهظة للتأثير الايديولوجي على الجماهير ، وبالطبع فان تغطية كل هذه النفقات انما يكون من جيوب دافعي الضرائب . ولهذا فان ثمة اتحادا بين الاحتكارات الراسمالية والدولة البرجوازية ، او بدقة اشد : المزيد من تبعية المصالح الحكومية لصالح الاحتكارات .

ان مركزة الدعاية للسياسة الخارجية تمكن الامبرياليين من تحقيق التفاهم فيما بينهم حول المسائل التي تكون في سياق العلاقات الدولية المتداخلة . وكما ان السلطات الغربية اتحدت ضد الاشتراكية في حقل التخطيط العسكري ، واخذت تشكل مجموعات اقتصادية متقاربة ، كذلك وحدت مجهوداتها ايضا في حقل الدعاية المناوئة للشيوعية واقامت نوعا من الاتفاقات الايديولوجية العالمية .

فمثلا داخل اطار الناتو يوجد مركز دعائي فعال ، يدعى رسميا « مكتب شؤون الاعلام والثقافة الدولي » ولكنه اشتهر باسم آخر هو « لجنة تنسيق العمليات النفسية » . شكليا : مصلحة الاعلام في ايفر ( مركز قيادة الناتو ) تعالج مهمة شرح الاهداف « الدفاعية » لحلف شمالي الاطلسي ونشاطه « الثقافي » . عمليا ، تثير الحرب النفسية وتسعى لتبرير سباق التسلح تحت شعار معاداة الشيوعية . ومن خلال التقسيمات في الدول الاعضاء ، فان مصلحة دعاية الناتو تقوم بوضع خطط غسل الادمغة ايديولوجيا ، وتوسع نشاطاتها : بالاعتماد على جهاز الدعاية لكل المشتركين في المعسكر ، الى ما وراء حدود المعسكر .

وثمة وحدات دعائية على الصعيد الحكومي الداخلي تعمل ايضا داخل الجمعيات السياسية العسكرية والاقتصادية للسلطات الغربية . وبازدياد نشاطها المنظم المنسق داخل الدولة ، فانها جزء هام من الرداء الخارجي للامبريالية في نظام الدعاية الخارجية . وتتالف آليتها في كل قطر تقريبا من الخطوط التالية : مصالح حكومية خاصة ، وسائل اعلام جماهيرية ذات ملكية خاصة ، وشتى انواع المراكز المختلطة . ولكل خط مهماته النوعية . فاذا كان لسبب ما ان من المفيد للطبقة الحاكمة ان تعمل وكالة حكومية تحت ستار

الملكية الخاصة او العكس بالعكس ، فانها تعمل. ان اي تقسيم هنا هو نسبي، وفوق ذلك فانه عادة يستخدم لتغطية مصلحة او اخرى في نظام الامبريالية في الدعاية الداخلية ، وعلى الاخص في الدعاية العالمية .

في الولايات المتحدة مثلا الوكالة الرئيسية الحكومية للدعاية السياسية الخارجية هي وكالة الاعلام الامريكية ( وإا ) واحدة من اكبر المنشآت من نوعها . مبدأها العام هو مركزة كل القنالات الرئيسية لدعاية السياسة الخارجية . وبالتالي فان آلتها الدعائية الضخمة ، بما في ذلك وسائل الاعلام الجماهيرية والوسائل الاخرى ذات التاثير السيكولوجي على الجماهير ، يمكن ان تندفع الى العمل بكل جاهزية .

ان الوكالة الامريكية للاتصالات الدولية اقيمت على اساس ( و إ ا ) ومكتب التربية والثقافة لادارة الدولة الامريكية يتابع هدف التسرب الايديولوجي الى الاتحاد السوفياتي . ان الوكالة الامريكية تعتبر الاتحاد السوفياتي ودول اوروبا الشرقية اهم الاهداف لدى الاذاعة الامريكية . وبالتاكيد فان الدعاية الكبيرة لنمط الحياة الامريكية يبقى في راس المفكرة . ان جهاز الدعاية المتفرعة للبنتاغون ، الذي يمتلك لحسابه الخاص محطات اذاعة ودور نشر وما شابهها في الاقطار الاجنبيةمنهمك هو الآخر في نشاطات مماثلة. ايضا السيا وعدة مؤسسات اخرى لها قطاعاتها الخاصة للنشاطات ضد الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى .

هذه المهمات تحققها في بريطانيا ( ب ب س ) محطة الاذاعة البريطانية ، التي تقوم بدعاية اذاعية وتلفزيونية ، وكذلك نشاطات في النشر خارج بريطانيا ، والمجلس البريطاني الذي له ممثلوه في العديد من الاقطار حول العالم ، ويقوم بمهمة تنظيم المكتبات والمعارض الدعائية ، وعروض الافلام وتعليم الانكليزية ... الخ .

وتتحقق هذه المهمات في المانيا الفدرالية عن طريق دار النشر الفدرالية والقسم الاعلامي الذي تعمل تحت اشرافه محطة الاذاعة الحكومية دوتشلاند فونك ودوتش فيلا المعادية للسوفييت . وهناك للعمل في البلدان النامية معهد غوته للثقافة ، وللمراقبة الايديولوجية هناك المعهد المشهور اوستفورشونغ .

العمل الدعائي في فرنسا موكول الى وكالة الصحافة الفرنسية «الحرة»

( وصف ) والاذاعة الفرنسية والادارة التلفزيونية ، الى جانب منظمات اخـــرى .

وهكذا فان الادارات الايديولوجية للدول البرجوازية وضعت الدعاية المعادية للاشتراكية والمناوئة للسوفييت على نطاق واسع .

## وسائل الاعلام الخاصة : موضوعية زائفة واهداف واقعية

مهما كانت ضخامة الجهاز الحكومي للنضال الدعائي الايديولوجي ضد الشيوعية ، فانه لا يعدو ان يكون سلاحا واحدا من القوى التي تحارب على الجبهة الايديولوجية . هناك سلاح آخر لا يقل قوة يشمل وسائل الاعلام ذات الملكية الخاصة التي تعود مباشرة الى الاحتكارات. هذه الوسائل تتضمن وكالات البرق العالميـة الجبـارة والتروستات الصحفية وشركات الافلام وشبكات الاذاعـة . . . الـخ . ان اتساع الوظائـف الايديـولوجية للدولة البرجوازية الحديثة لم يكن عائقا ، بل بالعكس سهل مركزة وسائل الاعلام في ايـدي الاحتكارات .

لا بد ان نذكر في هـذا الصدد ان الـدوائر الاعلاميـة تستخدم وضـع « الصحافة الخاصة » لتخدر الراي العام بـ « استقلالها » الـزائف ، وتحت هذا القناع تقوم فعلا بتشويه الاعلام .

ان الوضع في الاقطـار الراسمالية يختلف عـن الوضـع في الاقطـار الاشتراكية ، حيث كل وسائل الاعلام تعود الى الدولة والحـزب والمنظمات الشعبية ، حيث لا يمكن بأي شكل من الاشكال للصحف ، مثلا ، او الاذاعات ان تقدم شيئا لايكون احدمسؤولا عنهتجاه الشعب. وليست حكومات الدول البرجوازية وحدها التي لا تملـك هيئات صحفية رسمية ، بـل ايضا عـدة احزاب برجوازية . وبدلا من ذلـك يستخدمون هيئـات تعود الـى ملكيات شخصية للشركات التي تسمى « حرة » ، وهي في الواقـع مرتشية ، ودور النشر التي ليس لديها اي مسؤولية اخلاقية .

وبسوء استخدام وضع مراكز الاعلام « الحرة » ، الذي يؤدي عمليا الى التلاعب بالراي العام ، تصبح هذه المراكز اشد خطورة كلمـا ازدادت رقعـة ميدانها . ولذلك فان جهود الطبقة الحاكمـة في المجتمع البرجوازي لمركـزة

مصادر الاعلام ووسائله تعتبر محاولة لتمنع وصول اي آراء « مهرطقة » الى الصحافة وامواج الاثير والتلفزيون . ان احتكارات وسائل الاعلام « الحرة » تبحث لابعاد كل مصادر الاعلام الاخرى ، وتحتكر كل الاعلام ، بحيث تكون قادرة على حرفه حيثما تريد .

النظام في الولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، على النحو التالي . ان الشرايين الرئيسية التي تغذي هيئات الاعلام في الداخل والخارج بالمواد الجاهزة ، اي بمواد جرى تجهيزها تخدم الاغراض المعنية ، هي وكالتا الانباء الرئيسيتان الضخمتان اسوشيتدبرس ويونايتدبرس الدوليتان . ان الاخبار اليومية ، المحلية والدولية ، تستخدم كدليل هداية لكل مؤسسات الاعلام الاميركية .

المحرر الاميركي جاك اندرسون دعا مرة الاسوشيتدبرس بانها عيون قراء الصحيفة وآذانهم في جميع انحاء العالم . ومع ان هذا التقريظ مبالغ فيه الى حد ما ، فانه على الرغم من ذلك يشمل شيئًا من الحقيقة . يمكن القول ، على وجه التحديد ، انه حيث توزع مواد الاحتكارات الاعلامية فان الراي العام يشكل نظرته عن الاحداث وفقا لتفسيرها .

ربما كانت في مثل هذا النوع من الاهميةصحيفة « نيويورك تايمز » التي من خلال مؤسستها وبقية القنالات ترسل ايضا خلاصة عن اهم التقارير وقائمة بالمقالات التي تقدم للصفحة الاولى . وفي الراديو والتلفزيون تقوم بهذا الدور « شركة اذاعة كولومبيا » و « شركة الاذاعة الاميركية » و « شركة الاذاعة الوطنية » . ان تأثير شركات الصحف والاذاعة والتلفزيون هذه يفسره صلتها الحميمة بالحكام الحقيقيين لاميركا ، وحقيقة انها تمثل بالضبط مصالح زمرة احتكارية الدولة .

في الاجزاء الاخرى من العالم البرجوازي ، الدور ذاته تلعبه اعمدة الدعاية البرجوازية مثل « التايمز » اللندنية ، و « لوموند » الباريسية ، ومؤسسة النشر الضخمة « سبرتجر » في المانيا الغربية .

كل هذه التروستات الدعائية الضخمة تتبع النموذج ذاته : بادعائها « الاستقلال التام » وعدم التحيز فانها تسد حاجة النظام الاجتماعي للطبقة السائدة وتصون مصالحه . والواقع أن بعض هذه التروستات يتخذ مواقف رجعية متطرفة ، اكثر يمينية من الموقف الرئيسي لحكومتها .

المؤسسات التي توجهنشاطاتها مباشرة ضد الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى أيضا تمارس عملها عادة تحت قناع مراكز الاعلام « غير الحكومية » . ومن هذه المراكز محطتا الاذاعة « ليبرتي » و « أوروبا الحرة »، على سبيل المثال . وقد كتب وليم فولبرايت ، الذي تراس مرة لجنةالعلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ، عن نشاط هاتين الاذاعتين : « لعدة سنوات ومحطتا « أوروبا الحرة » و « ليبرتي » تخدعان الشعب الاميركي بالادعاء انهما مؤسستان تعتمدان على المساهمة الخاصة وتقومان ببث « الحقيقة » الى شعوب أوروبا الشرقية . وفي الواقع فانهما تتسلمان مئات الملايين من الدولارات من وكالة الاستخبارات المركزية . . . »(١٦) .

بعد سلسلة من الفضائح لم يعد بالامكان رفض ان محطتي ليبرتي واوروبا الحرة كانتا تمارسان نشاطهما تحت الاشراف المباشر للسيا . ومعنى ذلك ان الدعاية المتوجهة ضد الاتحاد السوفياتي واقطار اوروبا الاشتراكية كانت تدار من قبل المنظمة ذاتها التي شاركت في الاعداد لمحاولات اغتيال وزراء كوبا فيدل كاسترو ورئيس الجمهورية العربية المصرية جمال عبد الناصر ، والتي كان فيها اول رئيس حكومة للكونغو باتريس لومبا ، وصانع انقلاب حكومة الوحدة الشعبية برئاسة سلفادور الندي في تشيلي . هذه الوقائع التي لم يعد بالامكان طمسها بانت منتشرة في صفوف الشعب ، بل حتى لجنة الكونغرس الاميركية . ولا نظن ان هناك حاجة الى البرهان اكثر من هذا على تلك المراكز المخربة التي تقوم بالدعاية للحرة الباردة .

وفي الوقت نفسه ، وفي مجرى فضائح ليبرتي وأوروبا الحرة بات ظاهرا بوضوح تداخل جميع مثيري الحرب الباردة ـ الاستخبارات والدعاية والحكومات والاحتكارات . وقد بات واضحا ان يقف خلفهم ، بالاضافة الى السيا ؛ كبرى الشركات الاميركية ( جنرال موتور ووستنخهوس وفورد وشركات اخرى ) التي لها مصلحة كبيرة في سباق التسلح والتوتر الدولي . ان الامور المفضوحة للمراكز التجريبية المعادية للشيوعية كشفت بصورة رسمية نموذج الارتباط بين الدولة الامبريالية والاحتكارات في تنظيم الدعاية التخريبية ضد الاشتراكية .

ولكن هناك ما هو اكثر تسترا وهو ادارة احتكارية الدولة لعدد من

---

(١٦) فولبرايت « المارد التعيد ، سياسة الولايات المتحدة الخارجية ونتائجها المحلية » نيويورك ١٩٧٢ ص ٢٤ .

مراكز الابحاث يضم هذا النظام عشرات المراكز الضخمة المختصة ( مؤسسة هوفر للحرب والثورة والسلم في كاليفورنيا ، والمؤسسة الروسية في جامعة كولومبيا في نيويورك ، ومركز الابحاث الروسية في جامعة هارفرد ، ومؤسسة جورج كينان التي انشئت عام ١٩٧٦ في واشنطن ، ومراكز ومؤسسات اخرى ... ) وعدة اقسام جامعية ودور نشر معادية للشيوعية .. الخ . وكما لاحظ حقا البرفسور الاميركي انه يوجد في اميركا ، اضافة الى المركب العسكري الصناعي ، مركب اكاديمي في القضايا السياسية ، يمتد تأثيره الى العديد من مؤسسات الابحاث في القطر .

## « النظـام الاجتماعي » للعقائد المناوئة للشيوعية

وهكذا عقب الحرب العالمية الثانية ، وخصوصا في الخمسينات والستينات ، اتمت الدوائر الحاكمة في الاقطار الامبريالية أجهزة الدعاية الضخمة في وجه النجاحات الجديدة التي حققتها الاشتراكية وحركة التحرر العالمية . هذا النظام المعقد لغسل ادمغة الجماهير يشتمل على حشد من الوحدات المدعوة الى تبرير النظام الراسمالي بشتى الطرق .

النظام متنوع . انه يؤيد الاعمال السياسية ضد الاشتراكية والحركة الشيوعية والقوى الديمقراطية . انه يضم حقولا عريضة للدعاية البرجوازية العالمية ، التي تعمل في ترويج « الثقافة الجماهيرية » الموجهة ضد ايديولوجيا واخلاق المجتمع الاشتراكي . انه يعكس رغبة الايديولوجيين البرجوازيين ـ التي جوبهت بقدر عمقها ـ لايجاد او تشكيل البديل الاجتماعي الفلسفي لنظرية الماركسية اللينينية في العملية الاجتماعية .

لم يسبق من قبل ان أولت البرجوازية مثل هذا الاهتمام للدفاع الايديولوجي ، او وصلت الى هذه الجبهة ، الى هذا « البعد الرابع » للسياسة الخارجية ، كما توليه الآن . ان هـذا يعكس السمات الهامة للمبادرة القائمة في الصراع التاريخي بين البروليتاريا والبرجوازية ، بين النظامين الاجتماعيين السياسيين ، في ظروف المرحلة الثالثة لأزمة الراسمالية العامة. لكن هذه المرحلة لم تبدأ مع الحرب العالمية ، كالمرحلتين السابقتين ، بل في ظروف السلم ( اي في الوضع التاريخي الملموس الذي لا تستطيع الامبريالية فيه اعادة المخاطرة بحرب عالمية جديدة لحل تناقضاتها ) وهي تتطور اعمق

فأعمق واشمل من الازمات الثلاث السابقة .

ان الامبريالية اعجز من ان تمنع المجموعة الاشتراكية من ان تصبح قوة حاسمة في التطور العالمي . انها لا تستطيع أن تمنع تفكك النظام الكولونيالي وان توقف تفاقم التزعزع الاقتصادي والسياسي في الاقطار الراسمالية .

ان الامبريالية اعجز من ان تحبط المسيرة السلمية للاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى . ان هذه المسيرة ، في الوضع السياسي العالمي ، أدت الى انفراج التوتر الدولي ، وادت ، حسب تطور الصراع الطبقي في العالم ، الى تلاحم اهداف الطبقة العاملة الديمقراطية والتحررية . ان ظهور المأزق النووي ، الذي جعل أي حرب عالمية جديدة مجرد حماقة ، يسم هذه التغيرات التاريخية المتزايدة .

ان هذه التغيرات جعلت الامبريالية تعدل تكتيكها في صراعها الايديولوجي ضد الشيوعية . ان ظهور الماركسية كشف البهتان العلمي للايدلولوجيا البرجوازية ، وانتزعت ثورة أوكتوبر وبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي زمام المبادرة التاريخية من الراسمالية .

ان انتصار الاتحاد السوفياتي والقوى الديمقراطية في الحرب العالمية الثانية ، وهزيمة الفاشية واندحارها الاخلاقي والسياسي والتحولات اللاحقة في ميزان القوى لصالح الاشتراكية أجبر الامبريالية مرة أخرى على اعادة النظر فعلا بكامل نظامها الايديولوجي .

وبشكل عام ، عكس هذا أيضا التغيرات اللاحقة في تكتيك الامبريالية تجاه الاتحاد السوفياتي والمجموعة الاشتراكية وانتقالها من « عهد المواجهة الى عهد المفاوضة » .

لم يكن هذا الانتقال بلا الم ولا تناقضات . فكما أن الرجعية الامبريالية رفضت لعدة سنوات تكييف نفسها مع الوضع الجديد الذي ظهر في العالم بعد ثورة اكتوبر ، وقاطعت الدولة السوفياتية بكل عناد ، كذلك الآن تجنبت استخلاص نتائج خاصة من اندحارها في الحرب العالمية الثانية . لقد مرت سنوات والبرهان الساطع على تعاظم قوة الاشتراكية يتضح أمام الدوائر

الحاكمة في العالم الرأسمالي ، ويثبت أن التغيرات الحتمية قد تمت . ولكن قبل حدوث ذلك ، استمرار البحث الدؤب الطويل عن مفاهيم ايدلوجية يمكن استخدامها كدعم دعائي لسلسة من المبادىء العسكرية الستراتيجية التي ولدت في صقيع الحرب الباردة ـ الحرب الوقائية ( ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ ) والكبح أو دحر الشيوعية ( تماما حتى ١٩٧٥ ) الحروب المحدودة ( ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠ ) .

لقد اتخذ النظام الدعائي الايديولوجي من خلال الممارسة شكله اثناء الحرب الباردة . وهناك من يذكرنا بهذا دائما ، اذ ان هذا النظام وقد تشكل في الجو المسموم للمواجهة الحادة بين العالمين ، فبنيته التظيمية وطرائقيته ومفاهيمه الايدلولوجية ، مشبعة بروح افكار الحرب « الباردة » .

ولا اهمية ، في الوقت ذاته ، للتعديلات التي طرات على تكتيك معاداة الشيوعية ، فستراتيجيتها العامة ، بما في ذلك طبعا جوهر طروحاتها الايديولوجية ، ظلت من غير تغيير . ان الطرق والوسائل المستخدمة لغسل دماغ الجماهير تختلف تماما في ايامنا : فالحملات الايديولوجية المجهزة تماما والمصحوبة بالمشاعر المتأججة والاعلام الواقعي حلت محل المناورات العابثة والاعلام السيء المباشر . ان الدعاية الايدلولوجية تتحقق بعدة اشكال : من المؤلفات العلمية الزائفة وحتى المساخر الفجة ، من المحاضرات الجامعية وحتى الخدع الاعلانية الرخيصة ، من برامج الحزب وحتى الروايات البوليسية .

ولكن مع كل هذا التنوع في الاشكال والطرائق فان السياسة المناوئة والايديولوجيا المعادية للشيوعية ، تظلان في جوهرهما ، معاديتين للسوفييت ، وهما معدتان لطمس « نظام اجتماعي » معين ـ اعاقةنمو الاشتراكية ، وحشد القوى الثورية في تيار عالمي واحد ، لحرف نضالها الثوري وشل النضال ضد الامبريالية .

في كل مكان ـ في الاقطار الراسمالية ، وفي مناطق حركة التحرر الوطني ، وفي الاقطار الاشتراكية ـ تستخدم المصالح الدعائية للامبريالية كل وسيلة ممكنة لزرع المشاعر التشاؤمية والتشكيك بامكانات التقدم الاجتماعي ، وتقييد عقلية الكادحين داخل عالم ضيق من الاهواء الاجتماعية والقومية والعرقية والاستهلاكية ، والاهواء الاخرى .

في الغرب ، تولى اهمية خاصة الى تثقيف الناس العاديين بمفاهيم خاصة عن الاحداث ، والانعكاس الايديولوجي المشروط ، وتطوير جهاز القوالب العقلية التي تصنع المناعة ضد الشيوعية . وباستمرار ، يوما بعد يوم ، عن طريق الصحافة والراديو والتلفزيون والسينما وكل الوسائل التي تسمى وسائل ثقافية ، يجري السعي لترك الطباع عند الشخص العادي ان :

ـ الشيوعية ركام آثام من كل صنف . ايديولوجيتها التي « لا تؤمن بالله » و « التوتاليتارية » تتنافى مع الطبيعة الانسانية . الشيوعيون يريدون انتزاع ملكية الناس وحرياتهم وحقوقهم ، وتحويلهم الى ادوات تعمل وفق مخططاتهم « العدوانية » . انهم يزرعون الخلاف ويشعلون السخط في كل مكان . واذا كان الشيوعيون قد احرزوا فعلا بعض النتائج في التطور الاقتصادي والسياسي ، فان ذلك تم على حساب مستوى حياة الشعب . ان المهمات الجديدة التي تواجهها البشرية في المستوى الحديث لتطور الانتاج والعلم والتكنولوجيا تتعارض كليا مع الاشتراكية وسوف تجبر الشيوعيين ، ان عاجلا أم أجلا ، على رفض مبادئهم « الدغماطية » .

ـ ان عالم المشاريع الخاصة « الحر » هو مجتمع « الفرص المتكافئة». نظامه الاقتصادي ومؤسساته السياسية تؤمن أعلى درجة من فعالية العمل والديمقراطية والمبادرة الفردية ، والفرية والحرية الشخصية . ان امام كل انسان فرصة للنجاح ( مثل البطولة الفاصلة في قصة حول « اليس المسكينة» التي اصبحت اميرة نتيجة لكدها وتوفيرها ) كل شيء ، كما يقولون ،يعتمد عليك انت . فاذا كنت حتى الآن لم تصبح مليونيرا فاللوم يقع عليك وحدك ، أو ان الحظ ، بكل بساطة ، لم يكن يحالفك . ان الثورة العلمية والتكنيكية العصرية قد فتحت كل الامكانات المغرية من اجل عالم حر ، وسوف ينقله ـ بذاته ومن غير صراع طبقي ـ الى عصر رائع من الوفرة الاستهلاكية والازدهار الشامل .

ـ استغلال الانسان للانسان ، الصراع الطبقي ، سيطرة الاحتكارات ـ كل ذلك ليس سوى « تلفيقات » الشيوعيين . واذا كان يوجد بعض الاساس لهذه المفاهيم في الماضي ، فانها غير موجودة الآن . ان الراسمالي في هذه الايام هو رجل كادح . واي عامل يشتري اسهما يصبح مساهما . ان « الياقات البيضاء » سوف تحل محل « الياقات الزرقاء » في كل مكان .

الطبقات بدورها سوف تختفي والصراع الطبقي عموما لا معنى له ومضر طالما انه يعوق الحركة العضوية للمجتمع الصناعي نحو الازدها .

ـ ان امراض العالم العصري وتهديد مستقبله ليس الا من المكائد الآثمة للشيوعيين او من الظواهرالسيئة للطبيعةالبشرية ولا معقولية غرائزها. انها ناجمة من الانفجار السكاني ، واتساع المدن وتلوث البيئة والسيئات الاخرى التي سقطت بالصدفة على الجنس البشري . وطبعا ، لا تتحمل الراسمالية اي مسؤولية عن ذلك . وللتغلب على هذه المصائب علينا أيضا أن ننسى الصراع الطبقي وان نركز على تلك القضايا العالمية .

وفي داب أيديولوجيي الامبريالية لاشاعة هذه الافكار وأفكار مماثلة ، يستخدمون من جهة شتى طرق التاثير العاطفي والنفسي على الشعب . انهم لا يناشدون العقل ، بل يناشدون المشاعر والعادات النابعة من طريقة الحياة في المجتمع البرجوازي ، أو عندما يتعلق الامر بالاقطار الاشتراكية يلجؤون الى بقايا الماضي في ذهنية الشعب . ومن جهة أخرى ، يحاول أيديولوجيو الراسمالية الحديثة ، معارضة الشيوعية ببراهين نظرية يمكن ان تقدم اجابات مقنعة ، من مواقف الطبقة البرجوازية ، عن المسائل التي تطرحها الحياة . ولكن الحياة نفسها تظهر ان امثال هذه المحاولات هي محاولات عقيمة .

# الفصل الثالث

## إعادة النظر.. في القيم

### البحث عن أساطير ايديولوجية جديدة

بما ان الرجعية الامبريالية لم تتمكن من احتلال معاقل الاشتراكية عن طريق الاعتداء ووقف العملية الثورية العالمية، فقد لجأت الى الحصار الطويل للاقطار الاشتراكية، في محاولة للالتفاف من اي زاوية. لقد عمدت الى تمزيق الاقطار الاشتراكية وفصلها عن الاتحاد السوفياتي، والتسلل بين صفوف حركة التحرر لتمزيقها من الداخل.

تجلى هذا سياسيا في تكتيك «نصب الجسور»، مع استغلال بعض الصعوبات في الاقطار الاشتراكية، هذه الصعوبات المتعلقة بالعملية المعقدة لظهور التشكيلة الاجتماعية الجديدة وتطورها.

هذا الخط السياسي دعمته في الميدان الثقافي المجهودات المناوئة للشيوعية لطمس الجوهر الطبقي للصراع الايديولوجي. انهم يصورون الامور بطريقة يجعلونها تبدو كأن الاقحام الايديولوجي في الاقطار الاشتراكية تابع لحكمها التوتاليتاري غير الديمقراطي، بينما براغماطية المجتمع البرجوازي، على العكس، متحررة من «العقائد الايديولوجية»، وتفتح الطريق امام الازدهار.

منذ عشية ثورة اكتوبر لاحظ لينين: «بدلا من شن نضال صريح مبدئي ومباشر ضد كل العقائد الاساسية للاشتراكية دفاعا عن الملكية الخاصة المقدسة، وحرية المنافسة فان برجوازية اوروبا وامريكا، كما تمثلت بايديولوجيتها وقادتها السياسيين، طفقت تدافع عما يسمى الاصلاحات الاجتماعية للوقوف في وجه فكرة الثورة الاجتماعية. ليس الليبرالية ضد الاشتراكية هي صيغة البرجوازية المثقفة «المتقدمة» بل الاصلاحية ضد

الثورة الاشتراكية »(١) .

تجلت هذه النتيجة في الستينات والسبعينات قبل كل شيء على شكل « اللا ادلجة » اي نهاية الايديولوجيا . هذا المبدا الذي يمتد بجذوره الى الموضوعية البرجوازية ، ظهر الآن بأشكال مختلفة .

للتأثير بأعمق ما يكون في الناس يستخدم ايديولوجيو الامبريالية مفاهيم مختلفة يتوجهون بها الى انواعمختلفة من السكان . بعضها يخاطب البرجوازية الصغيرة التي وان كانت تحتل مكانا ضد الاحتكار ، قد تؤخذ بالاوهامالرجعية حول امكانية العودة الى ايام المنافسة الحرة . وبعضها يتجه الى قطاعات معينة من عالم الطلبة والجامعات الذين اخذوا بالثورة العلمية التكنولوجية ، فهم معادون موضوعيا للراسمال الاحتكاري لكنهم لم يجدوا بعد مكانهم في النضال ضد الامبريالية . وبعضها الآخر لا يزال يتجه الى مجموعات معينة في قلب الطبقة العاملة ، ليسمم افكارها بالاوهام الانتهازية واشكال اخرى تتجه خصيصا نحو البلدان المستقلة حديثا ، التي ترفض السيطرة الامبريالية ، لكنها ليست دائما قادرة ان تميز اصدقاءها من اعدائها . ويولى الاهتمام ايضا الى المجموعات غير التابعة في قلب الاقطار الاشتراكية ، التي تميل الى معارضة المصالح الوطنية والاممية .

لحرف هذه القوى المتنوعة وتحويلها عن الماركسية اللينينية ، تحرك الامبريالية اي نوع من الحركات المعادية للشيوعية ، من اليمين الانتهازي حتى اليسار المتطرف ، وتستخدم اي مفهوم يمكن ان يعارض الماركسية اللينينية ايديولوجيا الطبقة العاملة . وفوق ذلك فان الرجعية تخاف توحيد التيارات كلها في حركة التحرر ، فلا تالو جهدا في ابقاء العزلة والضعف والاخطاء في مختلف القطاعات . انها تستغل اي امكانية لتحول دون عمل توحيدي ولتضعف كل تيار على حدة .

وتعتمد الرجعية الامبريالية في صراعها ضد الاقطار الاشتراكية ، على بعض المجموعات الصغيرة عدديا التي يتثاقل وعيها الاجتماعي خلف وجودها الاجتماعي ، وتحاول استخدام الملكية الخاصة وبقايا القومية التي خلفتها الراسمالية . انها تحاول استغلال الاختلافات في التطور الاقتصادي لشتى الاقطار التي اختارت الاشتراكية طريقا فتضرم القومية وبذلك تغض من

---

(١) لينين المؤلفات الكاملة مجلد ١٧ ص ٢٢٩ « الاصلاحية في الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية » .

مبادىء الاممية البروليتارية ووحدة المجموعة الاشتراكية .

لقد استخدم ايديولوجيو البرجوازية النمو الاقتصادي في الاقطار الراسمالية المتطورة في الستينات ، والظواهر الجديدة في البنية الاجتماعية للراسمالية المرتبطة بالثورة العلمية التكنولوجية ، والتوسع في اتجاهات احتكارية الدولة وتكامل الانتاج الراسمالي والسوق الراسمالية . ان موضوعيتهم هي اشاعة بدعة ان المجتمع البرجوازي قد تحول ، بحيث تغلب على تناحراته الاجتماعية ، وبحيث أن الصراع الطبقي والحركة العمالية قد انتهتا . ان رسل الامبريالية يدركون التركيب الطبقي المختلط للحركات الديمقراطية الشعبية ، التي تضم بشكل عفوي عناصر برجوازية صغيرة (مع ميلها نحو المساومة غير المبدئية او المغامرات اليسارية المتطرفة ) فيعزون سبب الضعف الى الدور الطليعي للطبقة العاملة .

ومن جملة الجهود المبذولة لخنق حركة التحرر الوطني استغلال عدم استقرار البرجوازية الوطنية ، والصعوبات العديدة ، والاهواء العنصرية والقبلية ، وكذلك استقلال اعتماد الدول المستقلة حديثا على نظام الاقتصاد الراسمالي العالمي ، وعلى روابطها الاقتصادية والثقافية التقليدية مع الاقطار المتروبوليتية . ان الموضوعية هي اعاقة التقدم والعملية التاريخية المحتومة للنضال الوطني التحرري وتطوره الى حركة معادية للامبريالية .

في الاقطار الراسمالية ، من اواسط الخمسينات وعلى الاخص في النصف الاول من الستينات ، حفزت الدولة النمو الاقتصادي وابتدا التقدم العلمي التكنيكي بشكل لم يسبق له مثيل في المجتمع البرجوازي . وقد عكست هذه المقاييس رغبة الراسمالية الحديثة في التلاؤم مع الوضع العالمي الجديد ، فتقابل التحدي الاشتراكي ، وفي الوقت نفسه تحاول أن تلطف من الصعود العنيف الاجتماعي والاقتصادي في الاقطار الراسمالية . وبالطبع تدعم هذا الخط بدعم ايديولوجي مطابق .

لا حاجة الى دعم حقيقة انه بمساعدة التقدم العلمي التكنولوجي قد رفعت الامبريالية كفاية الانتاج الاجتماعي لفترة من الوقت . على اي حال ، استخلص ايديولوجيو البرجوازية نتيجة هي ان الراسمالية انتقلت الى مجتمع جديد يعرف كيف يحل تناقضاته من غير تصادمات وبطرق برغماطية خالصة . وعلى هذا الاساس سارعوا الى الخلاص من « الدغماطية » الماركسية .

هذا هو السبب في ان مفهوم اللا ادلجة احتل الصدارة . وقد تفاعل مع النظريات الاخرى التي استخدمتها الدعاية البرجوازية في الستينات ـ نظريات « المجتمع الصناعي » و « تقارب النظامين » . جميعها نشات من التربة ذاتها ، ولذلك تداخلت مثل غصون شجرة واحدة . واذ وضعت لتنفيذ المهمة ذاتها ـ الدفاع عن ، واثبات قابلية راسمالية احتكار الدولة ـ فقد انتعشت كلها وساندت كل واحدة الاخرى .

ان نظرية اللا ادلجة ، او « نهاية الايديولوجيا » بادعائها انها « الاساس الفلسفي للمبادىء النظرية الاخرى ، ليست فقط مفهوما نظريا ؛ بل طريقة في التفكير البرجوازي . لقد اعدت لتعارض التحليل الطبقي الماركسي اللينيني للواقع بتفسير لا طبقي ( لا ايديولوجي ) لاعادة تقويم الاحداث والتطورات .

هذا التفسير العام انتشر على نطاق واسع في اشكال وطرائق الدعاية البرجوازية والاصلاحية كما انتشر ، وبشكل رئيسي ، مفهوم لا ادلجة الحياة الاجتماعية .

يحاول ايديولوجيو الامبريالية اثبات ان العالم الحديث يتطور داخل اطار الثورة العلمية التكنولوجية ، فالايديولوجيا ـ باعتبارها نظاما من الافكار تحدد المثل الاجتماعية لشتى الطبقات والمجموعات الاجتماعية ، ونظرتها العالمية وافعالها السياسية ـ تفقد دورها ويجب في النهاية ان تتنحى .

ان البرغماطي البرجوازي يترك صراع الميول الايديولوجية لـ «المجتمعات غير الناضجة» ، التي ، كما يقول ، ليست قادرة بعد ، بسبب تخلفها الاقتصادي وتدنيها السياسي ، ان تتغلب بطريقة « مشروعة » على التناحرات التي تنشأ من وقت الى آخر . وتذهب هذه الحجة ابعد من ذلك فتقول ، لكن الحاجة الى الصراع الايديولوجي تختفي من تلقاء نفسها في الاقطار الصناعية المتميزة ببنية اجتماعية وسياسية ثابتة ، فهي قادرة ان تتغلب على القضايا الجارية بالطريقة «الديمقراطية» المالوفة . هنا تحل التجربة العملية محل العقيدة النظرية ، والبحث الاساسي العلمي يحل محل الافعال الاختيارية . وبدلا من الايديولوجي يصبح الاداري الشخصية الرئيسية ، والايديولوجيا نفسها تفسح المجال للبراغماطية .

هذا التفسير لظاهرات الحياة الاجتماعية جذاب جدا لايديولوجيي الراسمال الاحتكاري . ففي اعتقادهم ان نظرية اللاادلجة تستفيد من نوع من المفهوم الشامل المعادي للشيوعية . انها توضح سبيل اي منعطف في الستراتيجية السياسية والتعديلات في التكتيك المعادي للشيوعية . ان الاهواء القديمة قدم المجتمع البرجوازي نفسه ، من القومية وحتى آخر التغيرات « نصب الجسور » قد وضعت موضع التنفيذ . فاللاادلجة اعدت لتدعيم وتبرير أي شيء يرمي الى مناهضة التفسير الطبقي لنضال الكادحين .

يبرز مبدا اللاادلجة ، باعتباره المبدأ الرسمي للعالم الحر ، من جهة رغبة ايديولوجيي الامبريالية لاستخدام كل الترسانة ضد الشيوعية ، ومن جهة اخرى يعكس عمق الازمة الروحية للراسمالية . وبسبب نشاة اللاادلجة من هذه الازمة الفعلية فمن الطبيعي ان تعكس اكثر سماتها الجوهرية ، بالاضافة الى انها تفتح فجوة بين التفكير البرجوازي وواقع العصر الحديث .

ان الايديولوجيا موجودة سواء جرى الاعتراف بها أم لم يعترف بها . ومعاداة الايديولوجيا ليست سوى رغبة ذاتية للمدافعين عن الراسمالية ، لابطال تاثير الافكار الشيوعية في الجماهير . ان غرض موجة اللاادلجة « إبطال » الماركسية اللينينية ، وفي الوقت نفسه حماية النظام الراسمالي .

ثمة مؤشر اليوم في العالم البرجوازي هو ان رغبة الطبقات الحاكمة في لاادلجة الجماهير تفسح الطريق لاعادة أدلجتها ، اي بعث ايديولوجيا في شكلها المطلوب . والدليل على ذلك هو شرح جميع المفاهيم الايديولوجية الجديدة وغرسها في اذهان الناس وتحديث التسهيلات الدعائية بالنظر للصراع الايديولوجي المتزايد على الصعيد العالمي .

بيد ان مفاهيم اللاادلجة لم توضع على الرف في الغرب ، بل استخدمت على نطاق واسع في دعايته الموجهة الى الاقطار الاشتراكية .

في الظروف الحالية ، اللاادلجة هي محاولة من الغرب لتعديل تكتيكه في النضال ضد الاشتراكية العلمية . رفض الادلجة واعادة التأدلج من جديد ليسا اتجاهين متناقضين ، انهما ليسا اكثر من طريقتين مختلفتين وظفتا في الصراع ضد الافكار الشيوعية .

ان الحملة الدعائية في « الدفاع عن حقوق الانسان » مثال نموذجي لجهود الايديولوجيين الغربيين لامتطاء موجة الهجوم ضد الاشتراكية تحت

شعار اعادة الادلجة .

انصار هذه الدعاية يفضلون ، في حملاتهم على الاشتراكية ، ان يتعاملوا مع امثال هذه الانواع كالديمقراطية والحرية وحقوق الانسان . وواضح انهم يؤمنون ان هذه الانواع من المقولات تقدم لهم فائدة معينة في نشاطهم الدعائي طالما انهم لا يستطيعون التعبير بالوقائع والاشكال الملموسة ، لكن هذا مفهوم مغلوط . ففي الحقيقة ان الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان ظواهر ملموسة ، مثلها مثل بقية ظواهر الحياة الاجتماعية .

كلما علا في الغرب الضجيج حول حقوق الانسان ، اتضح اكثر ان العالم الراسمالي غير مستعد للدخول في مناقشة جادة وملموسة حول هذه القضية. ومع الوقت فان الهدف الحقيقي لهذه الحملة ينسجم مع مصلحة الغرب الخاصة . المقصود من الحملة قلب المناقشة حول حقوق الانسان الى موضوع للتاملات السياسية الزائفة ، او بصراحة جعلها معادية للسوفييت . لقد بات واضحا ان سياسيي الغرب ، عندما يتحدثون عن الاقطار التي يظنون ان من الضروري « صيانة » الحرية والديمقراطية فيها ، لا يضعون في ذهنهم سوى الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى . هناك ملايين الناس في العالم الاشتراكي ، بيد ان هؤلاء السياسيين لا يابهون الا بحفنة ممن يسمون منشقين ، واذ ينظرون الى الحريات فانهم يوجهونها الى نشاط معاد للاشتراكية .

بعض الناس في الغرب صدقوا ان مثل هذا التفسير ذو فائدة سياسية. لاول وهلة بدا انه يمكنهم من مقاربة موضوعات غير مستحبة ، فيلزمون الصمت حول حقيقة الاضطهاد المضحك لحقوق الانسان الاولية في المجتمع البرجوازي ، ويتجنبون المقارنة بين ما تقدمه الاشتراكية للانسان وما تنتزعه الراسمالية منه . لكن هذا وضع لا يمكن الدفاع عنه فيلجؤون الى الجعجعة الفارغة بدلا من اتخاذ الخطوات العملية لحل القضايا الحيوية .

في الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى تعتبر حقوق الانسان جزءا من الحياة اليومية . ان الشعب السوفياتي يؤمن بثبات ان التفاصح حول الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان لا شيء سوى حديث فارغ اذا لم يجر ضمانها . اننا نرى ان حقوق الانسان مفهوم اجتماعي في الدرجة الاولى يشتمل على مجال واسع من الضمانات ، فيحدد مكانة الانسان

في النشاط الانتاجي والسياسي ، وفرصه الفعلية في التمتع بالفوائد المادية والثقافية ومشاركته في الشؤون العامة . ان ما يحظى باكبر اهمية في هــذا الصدد هو كمية القيم المادية والروحية ونوعيتها الموضوعة تحت تصرف المجتمع ، من يخلق هذه القيم وكيف ، ما طريقة توزيعها بين افراد المجتمع ، وبالطبع : باي طريقة يسهم هــذا التوزيع في تطـور الفرد وصيانـة حريتـه وكرامته المدنيـة .

الى اي مدى يمكن لاي من النظامين الاجتماعيين القائمين الآن في العالـم ان يلبي تلك المتطلبات الحاسمة ؟

ان الراسمالية ، عبر قرون من حكمها ، طورت فعلا القوى الانتاجيـة للبشرية . ولكن في الوقت نفسه ، يثبت تاريخها بصورة مؤكدة انه مهما كانت ثروة المجتمع البرجوازي ضخمة ، تظل عبارة عن نظام من الاستغلال وعـدم المساواة والتناحرات الطبقية المستعصية . ويدل على ذلك ملايين العاطلـين عن العمل في الاقطار الراسمالية وجماهير الناس الذين حرموا مـن الثقافة ، والعناية الطبية ، وملايين الملايين من الكادحين الذين يلاحقون بسبب لـون بشرتهم ، أو بسبب قوميتهم او معتقداتهم في الولايات المتحدة واوروباالغربية، في تشيلي ونيكاراغوا ، في لبنان وجنوب افريقيا .

فقط المجتمع الذي لا يكتفي بالاعلان ، بل باتخاذ خطوات عملية لتحقيق الهدف الاعلى في تأمين المتطلبات المادية والروحية للشعب ، هـو المخـول في التحدث عن حقوق الانسان . هذا المجتمع هـو الاشتراكيـة . ان الاتحاد السوفياتي بوراثته قوى انتاج متخلفة ، وبمواجهته ظروفا تاريخيـة صعبة ، لم يستطع لسنوات عدة ان يلبي كل حاجات الشعب السوفياتي مـع انـه يناضل من اجل انجاز ذلك . ولكن لا احد يجادل في حقيقة انه يتحرك فياتجاه هذا الهدف بخطا واسعة جدا .

لقد قضى الاتحاد السوفياتي على البطالة والى الابد ، وبذلـك ضمـن مشاركة كل مواطن في ميـدان الانتاج المـادي ، الميـدان الرئيسي للفعاليـة الانسانية ، مع ضمانة الاجرة المتساوية للعمـل المتساوي . وبوضـع حـد للتفاوت الاجتماعي والسياسي والقومي ، والافتقار الى الحقوق الاخـرى ، جعل الاتحاد السوفياتي بالامكان لكل مواطنيه أن يشاركوا في شؤون الدولـة والشؤون العامة في كل المستويات . وفيما يتعلق بصحة الشعب السوفياتي وترقية ثقافته ونشاطه السياسي ، وتأمين متطلباته الثقافية ، فهـي حجـر

الزاوية في نشاط الدولة والمؤسسات الشعبية في القطر . فلاول مرة في التاريخ نجد ارتفاع المستوى المادي والثقافي للشعب ، وبالتالي توسيع حقوق الانسان ، يعتمد مباشرة على نمو القدرة المادية والثقافية لكل المجتمع .

## « نهاية الايديولوجيا » : المصادر الاجتماعية والسمة العلمية الزائفة

في ضوء حدة التناقضات الطبقية الايدلوجية التي لم يسبق لها مثيل ، والتي ظهرت على الصعيد العالمي ، وفي داخل كل قطر راسمالي ؛ من السخف كما يبدو ؛ الادعاء ان « عصر الايديولوجيا » قد انتهى . بيد ان هذا لا يزعج نظريي اللاادلجة ، على الاقل . وعلى الرغم من كل الوقائع ، فانهم يطرحون بضاعتهم من الخدع الديماغوجية لجعل براهينهم الزائفة علميا تبدو مقنعة لغير الخبير .

ومثل بقية المبادىء الدعائية ، تبدو نظرية اللاادلجة في واقعها انها تعكس التغيرات الجارية فعلا في العالم الحديث . والمقصود هنا هو التغيرات في آلية الانتاج الصناعي الضخم ، التي يرغب جهابذة البرجوازية في نقلها الى الحياة الاجتماعية ككل ، بما في ذلك حل المشكلات الاجتماعية . والاطروحة التي يقدمونها عادة هي ان الالية المعقدة لادارة المجتمع الصناعي — بغض النظر عن طبيعته الاجتماعية — لا تتطلب قرارات سياسية نابعة من البواعث الايديولوجية ، وانما حسابات تكنيكية قائمة على معطيات عملية دقيقة .

في كتاب الاقتصادي المشهور ، والمعروف على الصعيد العام بين الدوائر اللبرالية في البرجوازية الاميركية ، جون كينيث غالبريث « الدولة الصناعية الجديدة » نقرأ : « ضرورات التكنولوجيا والمؤسسة هي التي تقرر شكل المجتمع الصناعي ، وليس **تصورات الايديولوجيا** » ( اشارة التاكيد من قبلنا — ف — ك )(٢) .

لا شك ، ان الفرص التي يقدمها العلم تجد ، بصورة متزايدة ، تطبيقا عمليا واسعا في كل من الاقطار الراسمالية والاشتراكية . على اي حال انطلاقا من هذه الحقيقة الصحيحة ، يذهب انصار نظرية اللاادلجة الى حد الشعوذة الواضحة للتطابق مع اهدافهم السياسية . واذ يتوسعون ببعض المظاهر

(٢) جون كينيث غالبريث « الدولة الصناعية الجديدة » بوسطن ١٩٦٧ ص ٧ .

النوعية لعمل المديرين في الانتاج الى كل ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية بما في ذلك العلاقات الاجتماعية ، فانهم يجعلونهـا مقياسا عامـا في معالجتهم لاي قضية تخص « المجتمع الصناعي » .

في رأي العالم الاميركي دانيال بل ، تصبح الوظيفة الاجتماعيـة للادارة حاسمة بالنسبة الى مؤسسـة الانتاج . ان المجتمع الصناعي اقـرب تكنيكيا الى الفعالية الطبيعية والانسانية .

وعلى العكس من الوقائع المعروفة جيدا ، فان الدوافع الايديولوجية ، وبالتالي الطبقية جـرى تجاهلهـا في هـذه الصيغة للمسالـة . ان الدولـة البرجوازية تبدو مثل « رب اسرة » كريم وغير منحاز ، متجرد من كل الاهواء السياسية ، عمله في كل قضية فردية هـو ايجاد اعظـم القـرارات معقولية لصالح كـل المجتمع .

ان التفسير « التكنيكي » لطبيعة الدولة الراسمالية وفعاليتها ، معـد ليحل محل التحليل الملموس لاشكال الملكية الخاصة ، وليستخدم كاساس في تنظيم الانتاج والادارة ، ويؤخذ مقياسا في حقل التشريع الاجتماعي ، ويطبق كطرائق في تنظيم الدولة . ووظيفته لا تفسر من خلال التناقضات الاقتصادية والاجتماعية الواقعية الناشئة من عملية الصراع السياسي ، بل العودة الـى التقدم التكنولوجي ، الذي يفترضون انه يخلق اشكالا جديدة من العلاقـات الاجتماعية من تلقاء نفسـه . ان كل شيء مبني على فكرة التبـرير البرغماطي المتضخمة ، التي يفترض ان تشق طريقها عبر التجربة العملية .

ومن هنا يشتقون الميزة الوهمية بانه في المجتمع الراسمالي لا يمكـن أن تكون ثمة صيغة ( قل لن يكون ثمة حـل ) لمعظم القضايا الاجتماعية خـارج اطار الوقائع التجريبية . وعلى الرغم من ذلك ثمة طلب ملح لتحليل العمليـة الاجتماعية ككـل .

ليس من الصعب ان نستخلص مايرمي اليه علماء الاجتماع البرجوازيون. أنهم يرمون الى حذف النزاع التاريخي بين المضطهِدين والمضطهَدين ، بـين الراسمالية والاشتراكية ، وتوزيعه على قضايا « برغماطية » منفصلة ، وبهذا تتحول جماهير العمال عن الماركسية اللينينية والقضايـا الاساسية للصـراع الطبقي . ان جميع المستغلين يحلمون دائما بابعاد الجماهير عن افكار الثـورة

الاشتراكية . ويقول علماء البرجوازية لجماهير الكادحين ، من يحتاج الى الثورة طالما ان المجتمع الذي تعيش فيه يجد الحلول الصحيحة للقضايا الملحة بطريقة برغماطية خالصة ؟

يدعون انه في الماضي كان يمكن أن تتطور التصادمات الاجتماعية الى شكل من الصراع الطبقي ، كما كانت الحالة ، مثلا ، في الشروط النوعية لروسيا في بداية القرن العشرين . كان للايديولوجيا وقتها مبرر وجودها . ولكن الآن ، ولمصلحة المجتمع الراسمالي يمكن ان توضع على الرف . ويدعون أن السبب هو أن الدولة البرجوازية الحديثة قد وجدت السبيل لمعالجة القضايا الناجمة ، من خلال التكامل التدريجي لمؤسساتها .

في الحقيقة ، كما يؤكدون ، ان الطبيعة الفعلية لتلك القضايا قد تغيرت اليوم تغيرا أساسيا . يكتب غالبريت : « عندما كان الراسمال مفتاح النجاح الاقتصادي ، كان التناحر الاجتماعي بين الغني والفقير .. في العصر الحديث اصبحت الثقافة هي التي تميز ذاك الانقسام ... والسياسة ايضا تعكس الانقسام الجديد . في الولايات المتحدة لم يعد الارتياب او السخط ينصب فقط على الراسماليين او الاغنياء . ان المثقفين هم الذين ينظر اليهم بعين حمراء »(٢) .

وهكذا « رفضت » تعاليم الماركسية اللينينية في الصراع الطبقي .

يحاول المدافعون عن الامبريالية اقناع الكادحين أن ايام المعارك الطبقية والصراع الايديولوجي قد انتهت ، وانه الآن ، عشية « العصر التكنواوجي » ( وخاصة في الولايات المتحدة ) طفقت التناحرات الطبقية والايديولوجية تختفي كشيء لم تعد ثمة ضرورة له .

وفي محاولة محو الدور الثوري للطبقة العاملة وايديولوجيتها تحاول الدعاية البرجوازية سحب الادلجة من تعاليم ماركس نفسه . وهكذا يكتب سدني هوك ، استاذ الفلسفة في جامعة نيويورك : « المؤرخ الذكي للمستقبل سوف يواجه ظاهرة غريبة في النصف الاخير للقرن العشرين — هي المجيء الثاني لكارل ماركس . في المجيء الثاني لن يظهر بسترة الاقتصادي المغبرة ، كمؤلف « راس المال » ، ولا كمتطرف ثوري وكاتب محرض في « البيان

---

(٢) المرجع المذكور لجون كينيث غالبريث ص ٢٤٤ ، ٢٤٥

الشيوعي » . سوف ياتي بمسحة الفيلسوف ونبي اخلاقي مع انباء سارة عن حقيقة الحرية الانسانية وراء الاطر الضيقة للطبقة او الحزب او الزمرة . وفي موكبه لن يكون الرعاع هم العمال الصناعيين في العالـم ، بـل سيكون المثقفون ادبيا هم العمال . . . ليس البروليتاريا بل عناصر مـن البروفيسوريين . . . ليس المنخلعين اجتماعيا ، بل المغتربون نفسيا ، وانساق شتى مـن الكتـاب والفنانـين » (٤) .

اولا ، هذا السخر المرير يشـرح ، بصـورة متعسفة ، مفهوم هربـرت ماركوز المشهور جـدا ، وفي الوقت ذاتـه يشوه تعاليـم الماركسية تشويهـا كاريكاتوريا . ثانيا ، ان هوك ، عفوا ام تقصدا ، يقلب كل شيء راسا علـى عقب ويحاول أن يبين كما لو أن تعاليم ماركس في ايامنـا اصبحت مهجورة ، وفقدت قيمتها الثورية ، ويمكن أن تشرح على انها طريقة قديمة . الى جانب ذلك . انها احدى أحابيل العيارين المفضلة لتجاهل الماركسية .

انه وضع ملائم جدا لمحاولة الاستخفاف بالشيوعية العلمية : فمن غـير رفض واضح لمعنى الافكار الماركسية القائمـة في عصرنـا ، لا يزال جوهـرها الرئيسي يرفض ـ وهو تعاليمها عن الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية .

على أن مفهوم الثورة الاشتراكية لا يرفض نهائيا ، بـل يحرف بـروح البراغماطية المبتذلة . ان مركب التحولات الكبرى المـؤثر في كـل مظهر مـن الحياة الاجتماعية استعيض عنه ، مثـلا ، بمهمـة الوصول الـى الاهـداف الاقتصادية الصرفة . وأي ثورة ـ برجوازية كانت ام اشتراكية ـ لا تفسـر الا على انها « حالة خاصة » من عملية أوسع لتبـدل المجتمع تبدلا عاما عبـر طريـق التصنيع .

ان المعادين للشيوعية يستخلصون من هذه المقدمات « النظرية » عـددا من النتائج تستهدف مناواة تعاليم الماركسية اللينينية وتجربة بناء الاشتراكية . ان الاشتراكية ، نظريتها وتطبيقها ، تتميز بانها احد الاشكال المختلفة الممكنة والعديدة للتطور الاجتماعي التي تتلاءم ، كما يدعون ، مع البلـدان المتخلفة اقتصاديا . والاحزاب الشيوعية تصور على انها صوت مصالح الطبقة العاملة في المراحل المبكرة من الراسمالية فقط . وطالما ان العصرنة تدل علـى الطلب

---

(٤) نيويورك تايمز بول ريفيو . ٢٢ ايـار ١٩٦٦ ص ٢ .

الرئيسي للعملية الاجتماعية فان اهداف التحول الاجتماعي تحل محلها مهمة « ضبط » الآلية الاقتصادية القادرة على اكتشاف التغيرات العلمية والتكنولوجية في الوقت المناسبة والتاثير فيها .

يتضح من هذا أن المدافعين عن الراسمالية بحاجة الى نظرية اللاادلجة قبل كل شيء لاعلان الحرمان على ايديولوجيا الشيوعية العلمية تحت قناع « نهاية الايديولوجيا » .

كما انه لا توجد فلسفة على أنها فلسفة فقط ، وكما ان الانتهازية ليست فقط بحاجة الى مبدأ ، وانما الى سيطرة المبادىء الانتهازية هكذا اللاادلجة ، فهي سلاح ايديولوجي . اننا امام محاولة أخرى يقوم بها العلم البرجوازي الرسمي لـ « تدمير » الماركسية اللينينية .

وراء الحديث الزائف عن انخفاض الصراع الايديولوجي ثمة موقف طبقي محدد وملموس لمؤيدي النظام الراسمالي ، اذ أي تضاؤل للصراع الايديولوجي لا يفيد الا البرجوازية . وكما كتب لينين : « الاختيار الوحيد هو : اما الايديولوجيا البرجوازية أو الايديولوجيا الاشتراكية ولا يوجد طريق وسط ( لان البشرية لم تبدع بعد ايديولوجيا « ثالثة » ، وفوق ذلك ، في مجتمع تمزقه التناقضات الطبقية لا يمكن أن توجد ايديولوجيا لا طبقية او فوق الطبقات ) »(٥) .

تكشف هذه الاطروحة ، بتطبيقها على العصر الحديث ، بصورة جلية الجوهر الحقيقي لمفهوم اللاادلجة . ولا اهمية للاشكال العلمية الزائفة التي يمكن أن يقدمها الدعائيون ، ولا للازياء الديمقراطية الليبرالية التي يلفونها عليها ، ولا للحذلقة الاكاديمية المجردة التي يمكن أن يستخدموها ، انها في الواقع سلاح فعال عنيف ضد الشيوعية . وبالاضافة الى ذلك تحقق المهمة السياسية النوعية في النضال ضد الاشتراكية .

ولكن على الرغم من ان نظرية اللا ادلجة متحيزة ولا أساس لها ، فانها مثل بقية النظريات المرتبطة بها ، غدت منتشرة في الغرب . والسبب في شعبيتها النسبية هو انها في ظروف الازمة العميقة للفكر الاجتماعي

---

(٥) لينين « ما العمل » المؤلفات الكاملة المجلد ٥ ص ٣٨٤ .

البرجوازي ككل ، فتطابق مع الممارسة الاجتماعية ومصالح فئات سياسية معينة واتجاهات سياسية في المجتمع البرجوازي المعاصر .

وهذا ينطبق قبل كل شيء على البرجوازية الليبرالية التي شهدت في العقود الاخيرة الانهيار المفضوح للايديولوجيا التوتاليتارية الفاشية ، والازمة الداخلية العميقة للايديولوجيا اللبرالية التقليدية .

ان غزو الاحتكارات لميادين الحياة حطم الروابط القديمة لمرحلة المنافسة الحرة ، ودمر البدع المالوفة ، وباختصار انهى الاسس التقليدية لليبرالية البرجوازية وايديولوجيتها . وهذا هو السبب في ان العديد من النظريين البرجوازيين يرجعون افلاس الايديولوجيا البرجوازية لا الى ازمتها ، بل الى « نهاية الايديولوجيا » بوجه عام .

ان نظرية اللاادلجة يستخدمها الاصلاحيون ، الذين يضحون بالمنظور الاشتراكي من اجل مساومات غير مبدئية مع البرجوازية . وبتجاهل التعاليم الثورية للطبقة العاملة يرى قادة الجناح اليميني من الاشتراكيين الديمقراطيين والشخصيات الاصلاحية الاخرى ، في نظرية اللاادلجة تبريرا لاسترضائهم لراسمال الضخم . هذه العوامل ذاتها هي التي دفعت مبدئيا المتطرفين « اليساريين » والمحرفين الى نظرية اللاادلجة .

لاحظ لينين مرة ان تكتيك البرجوازية المتعرج يقوي التحريفية داخل حركة العمال الى درجة الانقسام الكلي(٦) . وهذا هو ما حدث . فالانتهازيون من كل لون يتميزون بسرعة تفسيرهم لاحابيل التكتيك البرجوازي على انها دلائل لتغيرات جذرية في النظام الراسمالي ، وركونهم للاصلاحات الجزئية الفردية بدلا من الاشتراكية الحقيقية .

بالطبع ، المحرفون المعاصرون يستخدمون بصورة عامة تفسيرا اكثر سفسطائية من اسلافهم . وبشكل مخالف للبرنشتاينية في بداية هذا القرن ، التي وضعت نفسها صراحة ضد حركة العمال الثورية ، فان التحريفية المعاصرة تتبدى « في ثياب اشتراكية » ، وتقوم بدور الطابور الخامس لتفتيت الحركة المعادية للاحتكار من الداخل . هذا التكتيك اخطر شيء في انه يندمج مع بعض الظاهرات الجديدة في النشاط العملي للانتهازية المعاصرة . نشأ هذا

---

(٦) لينين « خلافات في الحركة العمالية الاوربية » المؤلفات الكاملة مجلد ص ٣٥١

في الستينات ويشكل الآن السمات البارزة لكل المرحلة الحالية من النضال الايديولوجي . ويمكن اختصارها كالتالي :

أولا ، المعاداة الصريحة للسوفييت تلون كل المفاهيم الانتهازية ، بلا استثناء ، اكثر من السابق .

ثانيا ، الاساس القومي البرجوازي مشترك بين شتى الوان الانتهازية، والتصادم مع الاممية البروليتارية باعتبارها عاملا رئيسيا في اعاقة نظرية الاشتراكية العلمية وممارستها .

ثالثا ، الدمج الفعلي على هذا الاساس بين الانتهازية اليمينية « واليسارية » اللتين ترتبطان وتتداخلان معا في كثير من الحالات .

هذه السمات وسمات اخرى غيرها واضحة تماما . واذ يسعى الانتهازيون والتحريفيون الى لا ادلجة التطبيق الاجتماعي للاشتراكية ، فانهم يتفنون في اختراع كل انواع الموديلات « المحسنة » و « المثالية » للاشتراكية، مثل الاشتراكية « الديمقراطية » و « الليبرالية » و « الانسانية » أو « الاشتراكية ذات الوجه الانساني » وهلمجرا وكل هذه الاشكال متعارضة مع الاشتراكية القائمة فعليا في الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى . ان ثمة مغالطة كبيرة في كل هذا : فبينما يرفض مروجو هذه المفاهيم الزائفة ، السمة الشمولية للماركسية اللينينية وتجربة التحولات الاشتراكية ، يقدمون موديلاتهم المصنعة على انها ضرورية لكل الاقطار الاشتراكية . انهم يقدمون هذه الموديلات بشكل ليس سوى صيغ « شاملة » تصلح لكل البشرية .

وهكذا على عكس تحريفية مطلع القرن العشرين ، التي جاهرت بمناهضتها لنظرية الاشتراكية العلمية والصراع الطبقي البروليتاري ــ وبالتالي ضد هدفهما البعيد للاشترا كية ــ يشن المحرفون المعاصرون نضالا ضد الاشتراكية القائمة بالفعل ، وضد تطبيق البناء الاشتراكي .

ان الاتجاه الرئيسي لنشاطهم التخريبي ضد السوفييت . وكما يلاحظ الفيلسوف الماركسي الالماني الشهير الفرد كوسنغ « نضال التحريفية المعاصرة ضد اللينينية اكثر من الصراع حول اللاادلجة . انه ضربة موجهة ضد حركة العمال العالمية ، بهدف انتزاعها من الحصيلة الثورية ، النظرية والعملية ، في

الستين سنة الاخيرة . انه محاولة لاعادة حركة العمال العالمية الى مستوى مرحلة ما قبل ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى(٧) .

شدد لينين دائما على ان الانتهازية ، في حين تبدأ ب « تعديلات » فردية على ماركس ، تنتهي حتما برفض كامل للماركسية الثورية . ان التاريخ يؤكد هذه النتيجة تماما : ان الايديولوجيين الاصلاحيين اليمينيين والمحرفين ، باتباعهم الدعاية البرجوازية ، يصرحون بهجر الماركسية ، وتمجيد اللاادلجة ، وكرازة « الراسمالية الشعبية » ... الخ . انهم يعلنون بنقاب طوباوي ان التطور العفوي يحل التصادمات الاجتماعية والسياسية . وفي كل المسائل الاساسية في الصراع الايديولوجي لزماننا يؤيدون بتردد الخط المعادي للشيوعية ويخدمون في الواقع النتائج التي ينتهي اليها .

اما المتطرفون « اليساريون » فيعملون بطريقة مختلفة الى حد ما . انهم اشد اعداء الاحتكارات ، واشد المدافعين عن الصراع الثوري ، باللفظ فقط . اما بالافعال فلا احد من الفروع المختلفة لمتطرفي البرجوازية الصغيرة الثوريين — من فوضويين وتروتسكيين جدد و « يسار جديد » الذي يروج لنظرية هربرت ماركوز ، والفروع المختلفة لليسارية ( يلاحظ بوضوح تأثير النظرية التكنولوجية البرجوازية ) — بعيد عن المفاهيم الاشتراكية الديمقراطية المحافظة . ان الابنية الايديولوجية للاثنين هي في جوهرها تجميع متنوع للعناصر نفسها . والتحريفيون « اليساريون » ، مثل الاصلاحيين اليمينيين يخفون تعاليم الماركسية اللينينية في الثورة الاشتراكية ، ويحذفون قوانين الصراع الطبقي ، ومسالة الدور القائد للطبقة العاملة — وأيضا قيادة النظام العالمي للاشتراكية — في حركة التحرر المعاصر . وباختصار ان نظرية اللاادلجة تتناسب مع عواطفهم في كل سماتها الرئيسية .

لذلك ليس من المدهش انه في النضال الايديولوجي ضد الاشتراكية في الستينات ( التي احتدمت باحداث تشيكوسلوفاكيا ١٩٦٨ ) التقى الاشتراكيون الديمقراطيون اليمينيون والمتطرفون اليساريون في خندق طبقي واحد — مع الرجعية الامبريالية .

---

(٧) الفرد كوسنغ « هل ارنست نيشر ماركسي عصري ؟ » برلين ١٩٧٠ مقطع ١٤٥

## وهم « تقارب » النظامين

نظرية تقارب النظامين هي نوع من استمرارية نظرية اللاادلجة . فانطلاقا من الاطروحة نفسها القائلة ان الصراع الطبقي الايديولوجي يتلاشى ، تستخلص كل خبرةالديماغوجية التي راكمتها البرجوازيةفي العقود الحديثة. والى جانب ذلك تلاحق هدف التطابق مع الظروف الجديدة في حين ترفض الشيوعية جملة ، وتدافع صراحة عن النظام البرجوازي من غير اشارة الى اي كفة سترجح .

كل من المدافعين عن معاداة الشيوعية والايديولوجين متحرري الاذهان من البرجوازية يحاولون كرة اخرى ايجاد مرسى في فكرة « النمط المتكامل » للمجتمع التي تجتمع فيه الاشتراكية والراسمالية . ايضا ايديولوجيو الامبريالية والاصلاحيون والمحرفون لا يخرجون عن دائرة هذه الساحة .

يحاول انصار التقارب دفع الطبقة العاملة الى الايمان ان الفروق الاجتماعية السياسية بين المجتمعات الراسمالية والاشتراكية آخذة بالامحاء نتيجة للتطور الصناعي وخصوصا في عصر الثورة التكنولوجية . يقولون ان الاشتراكية اقل شيوعية ، والراسمالية اقل برجوازية ، وكنتيجة لذلك يتقاربان تدريجيا ، وهي عملية سوف تبلغ ذروتها في تشكيلة من نوع « المجتمع المهجن » بسمات اقتصادية واجتماعية متشابهة .

الاختلافات بين نمطي المجتمع الصناعي سوف تتلاشى ، هذا ما يدعيه انصار نظرية التقارب . وعندما يصل كل من نمطي المجتمع الى مستوى واحد من الحياة ، سوف يكون فيهما ، كما تدعي النظرية ، تنظيم واحد .

ان البرهان على هذه الفكرة ابعد ما يكون عن العلمية ، بعد مؤلفيها عن اي رغبة في الاقتراب من الواقع الجاري . وعلى عادتهم ينفرون من اختبار عقدة القضايا ككل ، وعلى الاخص يتهربون من اعتبار تلك « الهوامش » اختلافات اساسية بين المجتمع الاشتراكي ، الخالي من استغلال الانسان للانسان ، ومجتمع قائم على استغلال العمل المأجور . وهم بالتالي لا يولون اهتماما بالابنية الطبقية والعلاقات الانتاجية واغراض الانتاج ... وهلمجرا المتعارضة تعارضا كاملا . يفضل هؤلاء النظريون معالجة السمات السطحية التي تميز المجتمعات المتقدمةصناعيا، فيشوهون بذلكحقائق الواقع الجاري.

اهم البراهين التي يقدمونها لصالح التقارب هي أولا وقبل غيرها تلك التي تقوم على التكنولوجانية المبتذلة ، اي عندما تكون كل وظائف الحياة الاجتماعية نابعة مباشرة وبشكل ميكانيكي من مستوى التكنولوجيا . ويركزون الاهتمام على بعض الظواهر المشابهة في اقتصاد النظامين ـ نمو حصة الصناعة في الاقتصاد القومي والصناعة الثقيلة في ميدان الصناعة ككل ، وتطور الصناعات الجديدة وانتاج الاتمتة والآلية الذاتية وهكذا . باختصار يتركز التاكيد على التطور التكنولوجي ، ولكن هناك صمتا مطبقا حول المظهر الثاني والرئيسي للمسالة : من يملك هذه التكنولوجيا ، ولصالح من تعمل ، ومن يجني الارباح منها وبكلمة اخرى ، يطمسون التناقض الطبقي الرئيسي للعصر اي الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج هي المقابل للملكية الخاصة .

وعندها تستشهد نظرية التقارب بالتغيرات البنوية في المجتمعات المتطورة صناعيا : تزايد حصة الشغيلة ، نمو في الثقافة والمهارة لدى القوة العاملة ، الانتقال الى سيطرة الآلات . . . وهكذا . كل هذه العمليات الحقيقية التي قدمت بغض النظر عن علاقتها بالاساس الطبقي والنظام الاجتماعي المعين ، اسيء شرحها تماما من قبل انصار نظرية التقارب كدليل على المستوى الواحد للحياة الاجتماعية في ظل الراسمالية والاشتراكية ـ وبالاضافة فان مؤيدي النظرية لا يقولون شيئا البتة عن الاختلافات الاساسية في الجوهر الحقيقي لهذه الظواهر والخلافات المتشابهة سطحيا . ان الخلافات تنبع من حقيقة أن الطبيعة الاجتماعية للراسمالية متعارضة تماما مع الطبيعة الاجتماعية للاشتراكية .

اخيرا ، في مجالات ابطال التطور التقاربي تحتل الاعتبارات ذات الطبيعة العاطفية والاخلاقية مكانة . فهناك حديث كثير حول اطروحة ان ارتفاع مستوى الحياة في الاقطار الاشتراكية سوف يؤدي الى تكوين النفسية الاستهلاكية بين الناس هناك ، وهذا ما سيجبر الاشتراكية على الالتقاء مع مجتمع « الاستهلاك الضخم » البرجوازي في منتصف الطريق . وما جرى تجنبه بعناية هو حقيقة ان الذهنية الاستهلاكية الفجة التي تزرع بأي طريقة في المجتمع البرجوازي ، لا علاقة لها بالمثل الاشتراكية . ان الازدهار العظيم بالنسبة الى الاشتراكية ، مع انه هام بحد ذاته ، الا انه أساسا وسيلة لتحقيق التقدم الاجتماعي ، والتطور الشامل للفرد .

ان انصار نظرية التقارب يتظاهرون بانهم لم يلاحظوا تلك الخلافات

الاساسية . لم يبق في مجال رؤيتهم غير السمات المتشابهة للنظامين فقط . وإذ يركز الصحفي الفرنسي ريمون آرون على هذا المظهر فانه يسأل : « ... انطلاقا من قوى الانتاج ذاتها ( وقوى الانتاج والعلم والتكنولوجيا متشابهة في كل المجتمعات المتطورة ) الى اي مدى يمكن لعلاقات الانتاج والمؤسسات الاجتماعية أن تختلف ؟ »(٨) .

اليست هذه في الواقع طريقة فعلية في طرح القضية ؟

صحيح أن قوى الانتاج الحديثة ، وعلى الاخص في تطورها البعيد ، لا يمكن أن توجد الى الابد ضمن اطار الاشكال الاجتماعية الاقتصادية المختلفة. عاجلا أم آجلا ستندمج في اقتصاد عالمي واحد . ولكن حالما يتم هذا الاندماج فانه لا يتم بالطريقة التي يرغبها آرون ، ولا من خلال اندماج الراسمالية بالاشتراكية مع المواقف الطبقية الاساسية للاخيرة ، ولا كنتيجة الارتداد الى النظام البرجوازي . على العكس ، اذ سوف يتم نتيجة لانتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية .

بالطبع هذا النوع منالاستنتاج لا يمكن ان يناسب الاساتذةالبرجوازيين ان وظيفتهم هي أن يثبتوا العكس تماما . لذلك فان اجابتهم عن هذه المسالة الاساسية ـ ماذا يشبه هذا المجتمع « المختلط » الموهوم ـ تخونهم تماما .

انصار نظرية التقارب غالبا ما يصورون الاشياء بطريقة توحي ان المجتمع الهجين المتكامل سوف يرث اعظم ما انجزته الراسمالية والاشتراكية، اي سيتحرر من مواطن الضعف وسيحوز على فضائل النظامين : « ان المجتمع الصناعي الحر . . . يختلف جدا عما يمكن أن نعتبره عادة «راسمالية». انه يختلف ايضا مما يمكن أن نعتبره « الاشتراكية » . ان المجتمع الصناعي هو وراء الراسمالية والاشتراكية . انه مجتمع جديد يتجاوز النظامين(٩) .

تقديم هذا الالتفاف على الموضوع يبين أن الاساتذة البرجوازيين يبحثون عن اكمل اشكال الحياة الاجتماعية واجدها . وهذا يسمح لهم بالعزوف عن طرح الاحكام الموضوعية والحيادية للنظامين .

---

(٨) ريمون اورون « زوال اوهام التقدم » باريس ١٩٦٩ ص ٢٥١

(٩) بيتر دروكر « المجتمع الجديد ، تشريح النظام الصناعي » نيويورك ١٩٦٢ ص ٢٥١ .

وبالفعل ، لماذا لا نشير الى كل ما هو ايجابي حققته الاشتراكية والراسمالية ونبني من هذه العناصر نظاما اجتماعيا ارقى من الاثنين ، لكن الاساتذة البرجوازيين ليسوا من السذاجة بحيث لا يتحققون ان الاشتراكية والراسمالية تتطوران كل حسب قوانينه الموضوعية ، وان هناك مؤسسات اجتماعية غير متطابقة مثلما ان الاسس الاجتماعية الطبقية متضادة .

كل هذا الحديث حول تشكيلة النمط « الهجين » للمجتمع كان قد طرح بهدف حرف الجماهير عن النتيجة التي تقول ان انتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية امر محتوم . ولا يهم ما يسهب فيه انصار التقارب من ان السمات السيئة للراسمالية والاشتراكية سوف تزول ، وان السمات الجيدة سوف تبقى وتتطور ، ودائما يشار الى ان « المجتمع الهجين » يحتفظ بالسمات الرئيسية للنظام البرجوازي ـ الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وسيادة راس المال . ابحث ما استطعت ، حتى في مرآة سحرية ، فلن تجد ذرة من الاشتراكية في هذا المجتمع .

ان انصار التقارب « يقرون » ، من حيث الاساس ، للاشتراكية بحقها في الوجود فقط الى الحد الذي يجعلها تتطور الى مجتمع صناعي بعد الموديل الراسمالي . ان الاستاذ الاميركي ولتر بوكنفهام « جونيوز » ، مثلا ، يوضح هذا تماما عندما يصل الى النتيجة التالية « .. ثلاث او اربع اسس من الراسمالية ... تبدو وكانها جاءت من الراسمالية الصرفة واندمجت في النظام الاقتصادي الوحيد حديثا . اولا الملكية الخاصة يمكنها في المصانع والتجهيزات الرئيسية ان تتنامى على شكل صناعة تتوسع في البضائع والخدمات الاستهلاكية ، مع ان هذا يمكن تعويضه بتوسيع ابعد للقوى العامة خدمات النقل . ثانيا ، الحوافز الاقتصادية وباعث الربح يمكن ان تتوطد ، وتبدو سياسة الضرائب المستقبلية انها في صالحها والى جانب تدعيمها . ثالثا ، يؤكد نظام السوق نفسه في كل مكان على انه الميكانيكية الامامية للسيطرة لتوزيع البضائع والخدمات » (١٠) .

اما زيغنيو بريجنسكي وصموئيل هنتفتون فاكثر صراحة : « في

---

(١٠) ولتر بوكنفهام « جبونيو » « الانظمة الاقتصادية النظرية : تحليل مقارن » نيويورك ١٩٥٨ ص ٤٨٥ .

الغرب ... تفترض نظرية التقارب الذائعة الصيت أن المظاهر الهامة الاساسية للنظام الديمقراطي سوف تبقى بعد « التقارب » الاميركي الروسي في المستقبل منعطفا تاريخيا غير محدد .. وهكذا فالاختبار عن كثب يكشف أن معظم ما يسمى نظريات التقارب لا تفترض في الواقع التقارب بل اختفاء النظام الآخر » (١١) .

واخيرا يعبر ماير ، مدير مركز الابحاث الروسية في جامعة ميشغان عن الجوهر الفعلي للمسألة « تتنبأ نظرية التقارب بتآكل الدكتاتورية ( يقصد النظام السياسي في الاقطار الاشتراكية ف ـ ك ) والايديولوجيا » ( أي الماركسية اللينية ف ـ ك ) .

على أي حال ليس جميع علماء الاجتماع البرجوازيين بمثل هذه الصراحة . على العكس معظمهم يحاول أخفاء المعنى الحقيقي لنظرية التقارب، حتى انهم يعرضون فكرة تطور التقارب بين النظامين على انه نوع من التنازل للاشتراكية . انهم يتقولون على منجزات التقدم العلمي والتكنولوجي وحقيقة ان تطور القوى الانتاجية لاتولد فعلا قضايا متشابهة . وفي الوقت نفسه ، حين يظلون صامتين عن الخلافات الطبقية الاساسية بين النظامين ، يستغلون فكرة ان الاشتراكية والراسمالية يقتربان اكثر فاكثر عبر خطوط مختلفة .

ان الهدف الاخير هو ضد الاشتراكية . فما دام نقاد الاشتراكية البرجوازيون لا يستطيعون انكار لامنجزات الاتحاد السوفياتي ولا الاقطار الاشتراكية الاخرى ، فانهم يتخذون سبيلا آخر . انهم ينكرون ان تكون هذه المنجزات قائمة على العلاقات الاجتماعية الاشتراكية ، ويصورون تجربة الاشتراكية على انها تعديل خاص على التطور الصناعي بشكل عام . انالتطور الصناعي هو شيء واحد ، أو انه واحد بالنسبة للنظامين الاشتراكي والراسمالي . انهم يقولون ان الفروق بين الاشتراكية والراسمالية يجب ان يجري البحث عنها ليس في النظامين ، بل فقط في مراحل التطور . وبما ان الاشتراكية « تلحق » بالراسمالية في مستوى الانتاج فان هذه الفروق سوف تتلاشى تدريجيا .

وفي الوقت نفسه ، وعن طريق التشويه والتزييف ، تسعى الدعاية

---

(١١) « السلطة السياسية : الاتحاد السوفياتي واميركا » نيويورك ص ٤١٩ .

البرجوازية الى دفعنا الى نتيجة انه مع ان الاشتراكية ليست سوى واحد من المجتمعين المختلفين فانها لا تزال اقل استجابة للتقدم العلمي التكنولوجي من الراسمالية . وفوق ذلك ، في مقارنة شتى المؤشرات التكنيكية والاقتصادية للاقطار ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة ، فان خصومنا يلزمون الصمت حول حقيقة أن المستوى التكنولوجي والعلمي العالي الذي تقدمه الاقطار الراسمالية هو ، في المجال الاقتصادي ، نتيجة قرون من التطور والاستغلال المجحف للكادحين والنهب الضاري للاقطار الاخرى . ان الاشتراكية بتطوير مصادرها الداخلية الخاصة ، لا تتعدى العقود الستة بعدها ( اذا اخذنا بالحسبان الدولة الاشتراكية الاولى في العالم ) . وفوق ذلك فان عدة سنوات مريرة خلال الفترة قد التهمتها الحرب الاهلية ، ودحر التدخل الخارجي ، والدمار الذي سببته الحرب العالمية الثانية واعادة بناء الاقتصاد الوطني .

ان علماء الاجتماع الاقتصاديين الغربيين يشوهون بعناية حقيقة انه في عدد من الدول ، بما فيها الاتحاد السوفياتي، انتصرت فيها الثورة الاشتراكية في الظروف الراسمالية غير المتطورة . وبسبب هذا فان الاشتراكية ، في عدة حقول ـ تنفيذ التصنيع ، تشكيل الطبقة العاملة والانتلجنسيا ، وتقديم الثقافة الشاملة . . وهلمجرا ـ كان عليها أن تقوم بـ « وظيفة الراسمالية » . وبكلمة اخرى عليها ان تنهي ( طبعا بطرائقها الخاصة وبخطوة في منتهى السرعة ) ما انهاه المجتمع البرجوازي تحت ظروف مختلفة .

ومن جهة اخرى ، فان ايديولوجيي البرجوازية استخدموا بكثرة نظرية التقارب للدفاع عن الراسمالية . ان قيمة هذه النظرية عند البرجوازية الاحتكارية تكمن في حقيقة انها قدمت فرصة فصل نفسها عن الآثام الراسمالية « القديمة » التي كانت تعرضها للفضيحة امام الجماهير الكادحة . ولذلك تلجأ الدعاية البرجوازية الى خدعة ساذجة : فبما انها تلعب دور الوسيط الموضوعي ، فانها تقف ظاهريا ضد الاخطاء من الطرفين : الاشتراكية والراسمالية بدرجة متساوية . والنتيجة هي رفض النظامين . بينما كل الخدعة هي ان ما يرفض من الاشتراكية تيارها الجاري في عملية التطبيق ، بينما في مجال الراسمالية لا ترفض مرحلة احتكارية الدولة الحالية ، وانما ترفض مرحلة ما قبل الاحتكار .

يظهر الاساتذة البرجوازيون غضبهم ضد الراسمالية الكلاسيكية ويخفون انها باتت مهجورة . لكنهم يصلون الى هذه النتيجة الوقحة فقط

ليعارضوا « الراسمالية التقليدية » القديمة بمرحلتها الحديثة التي يعلنون ان لا علاقة لها بالمرحلة السابقة . اما بالنسبة الى المجتمع البرجوازي الحديث ؛ فان ايديولوجييه بكل تضليل يعلنون انه يتقدم بثبات لمصلحة الطبقة العاملة ، وهو قادر على استيعاب اعظم مظاهر الاشتراكية ، حتى افضل من الاشتراكية نفسها ، كما يدعون .

تقدم كل هذه الافكار بطرق مختلفة ؛ بالاعتماد على حرية الكلام . وبالنسبة الى الكادحين في الاقطار الراسمالية ، تظهر غالبا على شكل بحث حول « المجتمع الصناعي » داعيا الى الاعتماد الكلي على التكنولوجيا . والفكرة ترمي ان تاجيل حل التناقض الرئيسي بين العمل وراس المال ، من اجل « تجنب » تهديد الحرب العالمية . ومع ذلك يبدو تقارب النظامين كما لو كان البديل الوحيد للمواجهة العسكرية بينهما .

هذه الافكار ظهرت في طبعة من كتاب مخصص للاقطار المتطورة ، في مظهر الاشتراكية « الافريقية » او « الآسيوية » التي تناشد اطروحاتها عواطف الفئات البرجوازية الصغيرة في اقطار العالم الثالث التي ركبتها الاوهام حول امكانية تحقيق مهمتين متبادلتين حصرا في الوقت نفسه ـ تدعيم الملكية الخاصة والخلاص من نير الراسمال الكبير .

في الطبعات التي ارسلت الى سكان **الاقطار الاشتراكية** ظهرت هذه الافكار على شكل تعديلات « ديمقراطية » « لبرالية » « انسانية » على الاشتراكية ، وكل هذا بغية القضاء على المجتمع الاشتراكي من الداخل تحت حجة تحسينه .

غالبا ما تهدف ـ الدعاية ـ وخصوصا فيما يخص الاقطار الاشتراكية والاحزاب الشيوعية ـ الى ان لا ادلجة الحياة الاجتماعية مرتبطة بمحاولات بعث القومية بأي وسيلة .

ان الامبريالية ، باضطرارها الى اعادة النظر بكل تكتيكاتها تجاه العالم الاشتراكي ، ادخلت عدة تصحيحات على مختلف مظاهر النشاط المعادي للشيوعية . لقد نادت عدة شخصيات سياسية غربية بضرورة اتباع طريقة سياسية جديدة اكثر مرونة .

في كتاب « ستراتيجية السلام » نشره الرئيس جون كندي ، يرجع الى الستينات ، جرى التعبير عن هذه الفكرة بجلاء اكثر : « في بولونيا ــ وفي اي صدع يظهر في الستار الحديدي ــ يمكن ان نبدأ العمل عندئذ تدريجيا وبعناية وبطريقة سلمية لاقامة علاقة اوثق لانعاش بذور الحرية »(١٢) . وخليفة كندي لندن جونسون ، كان اكثر وضوحا في هذا الميدان . لقد قدم مفهوم « التوريط السلمي » او « بناء الجسور » وهومبدأ السياسة الخارجية الراسمالية للولايات المتحدة ، وسعى لفرضه كسياسة مشتركة لكل السلطات الغربية تجاه الاقطار الاشتراكية ككل . في حديث جونسون في المؤسسة العسكرية في فرجينيا في أيار ١٩٦٤ قال : « سوف نتابع بناء الجسور عبر الخليج الذي فصلنا عن اوروبا الشرقية . سوف تكون جسورا لمزيد من التجارة والافكار والزوار ذات اهداف انسانية »(١٣) ان التفسير الذي قدم لهذه الاطروحة لم يكن غير ما توقعه المرء لراسمال الولايات المتحدة الاحتكاري وقد ثبت ذلك من الممارسة العملية .

ومع ان هذا البرنامج كان قد عدل اكثر من مرة ، فانه يبقى في خصائصه الرئيسية حتى يومنا نوعا من الهداية لما يسمى السياسة الشرقية للسلطات الامبريالية . اما بالنسبة الى المظهر الايديولوجي لهذه السياسة ، فلا تزال اهميته تتعاظم . لقد تحركت الادارات الايديولوجية الى المقدمة لنشر الافكار اللبرالية الزائفة ، وخداع الراي العام بهدف تفتيت النظرة الاشتراكية العالمية .

لقد قامت اعنف الهجمات ضد النقاط الحيوية بالنسبة لوحدة المجموعة الاشتراكية والحركة الشيوعية العالمية : الماركسية اللينينية باعتبارها الاساس القوي في الوحدة الايديولوجية بين شيوعيي جميع البلدان . والدور القيادي للطبقة العاملة وحزبها ــ حامل فكرة الاممية البروليتارية ، والاهمية الشاملة لتجربة المجموعة الاشتراكية . كل هذه العناصر اصبحت اهدافا يجري عليها التصويب الايديولوجي الذي لا يكل .

ولكن اذا كانت الراسمالية غير قادرة على ضرب الاشتراكية في الصراع التاريخي بين النظامين ، فانها تبذل كل جهودها لتقوية دفاعها الايديولوجي .

---

(٢١) جون كندي « ستراتيجية السلام » نيويورك ١٩٦٠ ص ١٨ .

)١٣( نيويورك تايمز ٢٤ ايار ١٩٦٤ .

ويترافق هذا مع المحاولات الملحة لفصل تحليل العمليات الاجتماعية عن المعنى الطبقي والايديولوجي .

صحيح انه من وقت الى وقت ، وخاصة حديثا، يمكن ان نسمع دعوات ملحة في الغرب للعودة الى « الايديولوجيا » و « استعادتها » الى الذهنيه البرجوازية ، لمعارضة النظرية الايجابية في التطور الاجتماعية للماركسية اللينينية .

اننا نفهم ، بالطبع ، هذه الدعوات . انها تفسير برغماطي صرف للصراع الايديولوجي الذي لم يكن قادرا ابدا على تامين وضع فعال . في وجه الهزات العالمية التي عاناها العالم الراسمالي في السنوات الحديثة ( حدة التناقضات الاجتماعية السياسية ، واندحار اميركا في فيتنام ، ازمة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ وهلمجرا ) تبين بوضوح ان « الحلول التكنيكية » لا تحل شيئا . في ظروف الانتفاضة القوية للقوى الثورية لزمننا ، يفشل مفهوم لا أدلجة الحياة الاجتماعية اكثر فاكثر ، بل احيانا يعطي مفعولا عكسيا في ايديولوجيي الامبريالية انفسهم . لم يستطع تحريك الجماهير او حتى كسب ادنى ولائها.

ولهذا فان الدعوات الى اللاادلجة كانت تستدعي دائما الحاجة الى البحث عن مثل واهداف عليا . ان الصحيفة البريطانية « نيوستيسمان » كتبت في نهاية ١٩٧٥ : « ان عالم ١٩٧٦ يدخل مرحلة حرجة وخطرة . وما طفقت سياسة الوفرة تترنح ، وبدلا من ذلك علينا ان نفضح باستمرار سياسة العوز ، وهذا سيكون له تاثير عميق قوميا وعالميا . علينا ان نعترف اننا قد نكون نقترب من نهاية العصر الصناعي . تلزمنا الشجاعة والتخيل والحل لنتاكد ان انتقالنا الى نمط من المجتمع الاكثر بعثا ، سوف يكون نهوضا هادئا وليس رؤيويا حالما .

« اننا بحاجة الى رؤية جديدة للتاريخ : اننا نحتاج الضمانة ان نمط المستقبل المرتقب سوف يمدنا بالقناعة مثلما يدمنا بالتحدي »(١٤) .

لا جديد في امثال هذه الدعوات . لا شك انها ستبقى من نفس نوع الرغائب الطيبة غير المثمرة كما كان الامر دائما في الماضي . لان ايديولوجيي البرجوازية لا يستطيعون التقدم باي افكار الا اذا كانت تدافع عن الراسمالية.

---

(١٤) نيوستيتسمان المجلد ٩٠ رقم ٢٣٣٦ ك٢ ١٩٧٥ ص ٨٠٩ .

سطحيا يبدو كان تفسيرا للايديولوجيا حل محل آخر . في الواقع ان رفض دور الايديولوجيا ( اللا ادلجة ) والاقرار باهميتها ( اعادة التادلج ) وجهان لشيء واحد هو معاداة الشيوعية . كلاهما محاولة لتحريك كامل جهاز التاثير الايديولوجي على الجماهير ، من اجل نضال قوي ضد الايديولوجيا الشيوعية ، وللدعاية لمبادىء ايديولوجية معارضة لايديولوجيا الطبقة العاملة، وتعاليم الماركسية اللينينية حول الصراع الطبقي والثورة الاشتراكة . ان من السهل أن نرى ذلك اذا اختبرنا بعض النظريات الايديولوجيا الاكثر شعبة ، التي قدمها الاساتذة البرجوازيون في الستيات والسبعينات .

## المراهنة على القومية ؟

طبقا لنصيحة نموذجية جدا لاحد « الخبراء » حول الشيوعية ، وهو البروفسور الاميركي غوردن سكلنغ « الموقف من الشيوعية يجب ان يكون دقيقا ورادعا ، فيتجنب الدعاية الجعجاعة والتهديدات بالتدخل ، ويشجع **الثورة السلمية للشيوعية القومية داخل المعسكر الشيوعي** » ( اشارة التاكيد مني ــ ف.ك )(١٥) .

ولاحظ الماركسي الالماني غونتر روس : « الهدف الستراتيجي لـ « الهجوم الايديولوجي » ضد الاقطار الاشتراكية الاوروبية هو التعجيل بالتغيرات في الميدان الايديولوجي التي وفقا لنظرية التقارب ، تحدث عفويا بين الناس بسبب الثورة التكنولوجية ، فتدفعهم في الاتجاه المتوخى ، اللا ادلجة ... تلك المجهودات تحاول ادخال فكرة ان تحول الاشتراكية المزعوم نحو الراسمالية هو عملية موضوعية للثورة التكنولوجية ، ويجب ان تشجع وتؤيد اكثر مما تكبح ... والكفاح من اجل الليونة الداخلية ( للاقطار الاشتراكية ــ ف.ك ) تجد دعمها في السياسة الخارجية على شكل توجه الى بقايا الاتجاهات القومية »(١٦) .

والنقطة الاخيرة تتطلب اهتماما خاصا على اعتبار انها تتجه الى تقويض المبدأ الاساسي في الحركة الشيوعية : الاممية البروليتارية . وقد لاحظ

---

(١٥) غوردن سكلنغ « الشيوعية القومية والشيوعية الدولية » تورونتو ١٩٦٤ ص ١٦١

(١٦) « الماركسيون الاجانب في النضال ضد الايديولوجيا البرجوازية » موسكو ١٩٧١ ص ٢٠٦ ( بالروسية ) .

ليونيد بريجنيف في اللقــاء الامـي للاحــزاب الشـيوعيــة والعماليــة : « ان الامبرياليين يحذرون قوة التضامن البروليتاري العالمي . وهذا هــو السبب في انهم يراهنون على القومية في محاربة القوى الاشتراكية والحركة الثورية . ولهذا توقعوا ان يقسموا ويشقوا الحركة الشيوعيــة ويشغلــوا الاطــراف الثوريــة ، الواحد ضد الآخر »(١٧) .

القومية البرجوازية في كل اشكالها ــ شوفينية الدولة الكبرى ، القومية المحلية ، العنصريــة ، الكوسموبوليتية ... وهلمجرا ــ هي ســلاح في يــد الرجعية دائما . وكما كتب لينين : « القومية البرجوازية والامية البروليتارية ــ هذا الشعاران المتعاديان عداء لا يقبل المصالحة والمعبــران عــن معسكرين طبقيين كبيرين ــ خرجا من العالم الراسمالي ليعبرا عن سياستين ( لا ، بــل عن نظرتين عالميتين ) في المسالة القومية »(١٨) . وفي الــسنين الاخيرة ركــزت الرجعية الامبريالية جهودها لتاريث القومية فجعلتها في النظام الشامل لمعاداة الشيوعية ومناواة السوفياتية . والواقع هي محاولة لابراز نوع مــن مركب مفهوم اللاادلجة والقومية البرجوازية .

ان الاساتذة البرجوازيين يرون في القومية قضية لا يتعطاها التحليــل الطبقي ، او الاجتماعي ــ الاقتصادي ، او المادي التاريخي . انهم يجرفــون كل الاسس الاجتماعية السياسية في حزمة واحدة ، او يشوهونها . انهــم يعارضون الامية بالوطنية ، والمركزية الديمقراطية بالحكم الذاتي الــوطني ، ويحلون الكوسموبوليتيه محل الامية والقومية محل الوطنية ... الخ وحتى يثبتوا ان التناحرات القومية ابدية ولا يمكن حلها ، يقدمــون اسبابا نفسية تنبع من الانانية المغروسة في الطبيعة البشريــة ، او الغــرائز اللاواعيــة او التقاليد النوعية التــي تستوعب ، والتــي لا تخضــع للسيطرة او التحليــل الاجتماعــي .

لماذا تضع الدعاية البرجوازية مسالة القوميات في اطار اللاادلجة يمكــن تفسيره تماما : ان هذا يكشف الوضع المناسب الذي فيه تهاجم تلك السمات الجديدة التــي اخضعتها الماركسية اللينينية للتحليل والحــل وهي اعظــم قضايــا عصرنــا تعقيداً .

---

(١٧) اللقاء العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية موسكو ١٩٦٩ براغ ١٩٦٩ ص ٧٤ .

(١٨) لينين « ملاحظات انتقادية على المسالة القومية » المؤلفات الكاملة مجلد ٢٠ ص٢٦

كما تظهر الحياة نفسها ، فان الجمع بين القومي والاممي ، النوعي والعام ، لا يفقد أهميته ابدا ، بل على العكس يتخذ ظلالا جديدة عديدة كلما قطعت البشرية اشواطا من الراسمالية الاشتراكية . هذه المسائل في راس مفكرة النضال العملي لشتى اطراف الكادحين ، ولكل فرع من حركات التحرر والديمقراطية . وبالفعل لا يمكن ان يكون غير ذلك ، اذا اخذنا بالاعتبار حقيقة انه يوجد كمية من المواد المشتعلة في الراسمالية ، وفروق في المستوى الاجتماعي السياسي بين البلدان والشعوب في كل حالة تبرز فيها السمات القوميــة النوعيــة .

وكنتيجة ، فان عملية حل مسالة القوميات من جهة اغناء لتجربة الجماهير الثورية ، ومن جهة اخرى ، كثيرا ما يؤدي الى ظهور اخطاء وتشويهات ذاتية خطيرة نابعة من طبيعة البرجوازية الصغيرة .

**في الماضي** ، وخلال حقبة تاريخية كاملة ، لم تتخط مسالة القوميات اطار الاصلاحات الديمقراطية العامة . وطبيعي تماما ان الجماهير الكادحة تظهر بين تلك الروابط المتعددة البدع التي تستدعيها طبيعة المرحلة البرجوازية الديمقراطيــة .

**في العصر الراهن** ، حل مسالة القوميات في تطورها الجدلي يتخطى الحدود السابقة . انها تشغل مكانا نوعيا في العملية العامة لحركة البشريةمن الراسمالية الى الاشتراكية بكل تنوعات اشكالها العابرة والوسيطة .

ان المضمون الجديد لمسالة القوميات يتطلب تفسيرها تفسيرات جديدة. وحيث ان الجزء الطليعي للطبقة العاملة ، الذي يسير خلف الشيوعيين،يتبع تلك التغيرات التي ترصدها الماركسية اللينينية ، فان قسما آخر ، وهو الذي ما زال اسيرا لتقاليد البرجوازية والبرجوازية الصغيرة ، ما زال فريسة ايديولوجيي الامبريالية وعملائهم المحرفين . ان مسالة القوميات هي ميدان لصراع ايديولوجي حاد بين الاشتراكية والراسمالية ، نضال الماركسية اللينينية ضد الايديولوجيا البرجوازية والتحريفية .

واذ يتناول الايديولوجيون البرجوازيون والتحريفيون مسالة القوميات المعقدة ، يسارعون الى القول انه لا يمكن حلها عن طريق الحركة الشيوعية . ان علماء السياسة من كل نوع يذهبون الى أن الاخطاء الذاتية وارتداد بعض

الشخصيات السياسية عن الاممية البروليتارية سمة طبيعية وحتمية من سمات الحركة الاجتماعية . ومن هنا يستخلصون النتيجة التالية : وهي ان المبادىء النظرية للشيوعيين في هذا الميدان لا يمكن الدفاع عنها . أما فيما يتعلق بالتجربة العملية للاشتراكية في حل مسالة القوميات ، فغالبا ما يجري تجاهلها بكل بساطة .

وبهذا الصدد ، يركز أيديولوجيو الامبريالية والتحريفية المعاصرة جهودهم الرئيسية على لا ادلجة هذه القضية قدر الامكان . انهم يحاولون فصل الكادحين عن النتيجة الماركسية اللينينية بأن النضال من اجل الحرية القومية ، حق تقرير المصير القومي ، تعزيز وتطور الاستقلال القومي ، ليس قضية منعزلة ، بل جزء متمم للنضال ضد الامبريالية العالمية . وكما وضع لينين المسالة : « ان المطالب المنفصلة للديمقراطية ، بما فيها حق تقرير المصير ليست مطلقة ، انها ليست سوى **جزء صغير** من الحركة العالمية الديمقراطية العامة ( الآن : الاشتراكية العامة ) »(١٩) . ان الحل الاساسي والشامل لمسالةالقوميات ، اي القضاءالتامعلى التمييز القومي واقامة المساواةالتامةبين الامم ، امر ممكن فقط تحت قيادة الطبقة العاملة . هذه الاسس تم الوصول اليها نتيجة الوحدة العالمية لعمال كل الاقطار ، الذين اندمجوا في نضال لا يلين ضد الامبرالية .

أما ايديلوجيو الامبريالية فانهم يحاربون هذه الفرضيات . ولهذا السبب تسير القومية البرجوازية يدا بيد مع نزعة معاداة السوفيات ، والمؤسسات المناوئة للسوفيات ، مرتدية الثياب القومية . هذه ايضا احدى الوسائل المستخدمة لمحاولة خنق الاشتراكية .

ولكن مهما شجعت الرجعية الامبريالية الاتجاهات القومية ، ومهما صرخ ايديولوجيوها عاليا حول « استقلال » الوحدات الفردية لحركة التحرر ، او حول « الشيوعية القومية » ، فان كل هذا لن يخدع احدا . الرجعية دائما تستخدم القومية البرجوازية ـ والآن اكثر من قبل ـ كوسيلة سهلة لاضعاف المجموعة الاشتراكية والحركة الشيوعية العالمية وتاثير الاتحاد السوفياتي .

---

(١٩) لينين « خلاصة المناقشة حول حرية تقرير المصير » المؤلفات الكاملة مجلد ٢٢ ص ٣٤١ .

# الفصل الرابع

## طوباويات ...

## الحتمية التكنولوجية

**« حتما كنت ساهلك لو لم يكن الامر متعلقا بقوة يدي . فبانتزاع ضفيرتي سحبت نفسي وسحبت مهري ، الذي احكمت عليه وثاق ركبتي ، خارج المستنقع » .**

**ج ـ بورجر « مغامرات بارون منشهاوزن المذهلة » .**

### التفسير « التكنولوجي » للظواهر الاجتماعية

ان اكثر الانواع الايديولوجية شعبية ضد الشيوعية في الستينات والسبعينات ، تستند الى مجموعة من الافكار التي تعرف بالنزعة « الصناعية » او « الحتمية التكنولوجية » . وهذا يعني بشكل رئيسي اعطاء الاولية للتطور الصناعي والعوامل التكنولوجية في ظل الراسمالية على العوامل الاجتماعية وكل العوامل الاخرى . والاطروحة الاساسية هي ان تطور الانتاج الحديث ـ وبالتالي المؤسسات الاجتماعية السياسية سوف تؤدي الى تجديد الراسمالية تجديدا اساسيا . وهذا ما سوف يدفع البشرية ، التي ستتجنب الاشتراكية ، الى مجتمع صناعي شامل واحد ، وبعدها الى مجتمع « ما فوق الصناعي » سوف يكون ، حسب النظرية ، حرا تماما من التناحرات الطبقية والتناقضات الاجتماعية .

وتدعيما لهذه البدعة ، تقدم الاساتذة الغربيون من كل لون ببراهين علمية زائفة عديدة تدعي انها تدحض الماركسية وتتجاوزها . لقد ركزوا جهدهم الرئيسي على شتى مظاهر الثورة العلمية التكنولوجية ( ثعت ) . وبوحي من روح الفكرة العامة للادلجة ، يدعون ان الثورة **العلمية والتكنولوجية** تحقق وظائف **الثورة الاجتماعية** ، وبذلك تغني عن الاخيرة . انهم يعارضون

العلم والتكنولوجيا بالمنتجين المباشرين ، الجماهير الكادحة ، ويعلنون ان الصراع الطبقي انتهى ولا ضرورة له ، وان تعاليم الماركسية اللينينية باتت نافلة .

لقد تضخمت هذه الجهود في السنوات الاخيرة بشكل خاص وليس بطريق الصدفة فقد تعاظمت مع تعاظم الصراع الطبقي ضد سيطرة راس المال ، ومع عمليات التفتيت الجديدة في داخل البناء الفعلي للراسمالية التي تقابلها بمحن جدية متزايدة . وبما ان الراسمالية فقدت مبادرتها التاريخية فلم يعد لايديولوجييها ـ وهذا نموذجي ـ ان يشغلوا مركزا رابحا في الصراع الايديولوجي . انهم مجبرون على خوض المعركة في النقطة التي تكون فيها توقعات قيام مجتمع برجوازي مضيئة على الاطلاق ، اي في النقطة الحرجة لنتائج الثورة العلمية التكنيكية الحديثة وتفسيرهم المناسب . وهو مركز حساس جدا بالنسبة الى الراسمالية ، لان الانفجار القوي في تطور قوى الانتاج ـ نتيجة الثورة العلمية التكنولوجية ـ هي في الوقت نفسه **عملية اجتماعية** عميقة، وسوف تقوض حتما الاساسات الفعلية للمجتمع الراسمالي.

تقول احدى اطروحات ماركس : « بحصول قوى منتجة جديدة ، على الناس ان يغيروا طريقتهم في الانتاج ، ومع طريقة انتاجهم ، كل العلاقات الاقتصادية التي ليست سوى العلاقات المناسبة لطريقة انتاج خاصة »(١) فاذا طبقنا هذه الفرضية على عصرنا الحالي فلن يكون لها سوى معنى واحد فقط ـ ان الثورة العلمية التكنولوجية ليومنا هي العامل الاكبر في احلال العلاقات الاشتراكية محل العلاقات الراسمالية .

ان وثيقة اللقاء العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية ( ١٩٦٩) لاحظ ان « الثورة العلمية التكنولوجية تدفع البشرية الى امكانات لم يسبق لها مثيل لاعادة صنع الطبيعة ، ولانتاج وفرة ضخمة من الثروة ، والى تعدد امكانيات الانسان الخلاقة » . تقول الوثيقة اكثر من ذلك وهو ان « الراسمالية تستخدم الثورة العلمية والتكنولوجية لتزيد ارباحها وتوسع استغلالها للكادحين ... ليس فقط التناقضات المزمنة للراسمالية هي التي تفاقمت بل التناقضات الجديدة التي ظهرت ايضا »(٢) . لا حاجة الى القول ان التناقض بين الطبيعة

---

(١) ماركس ـ انجلز « المراسلات المختارة » موسكو ١٩٧٥ ص ٣١ .

(٢) اللقاء العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية . موسكو ١٩٦٩ ص ١٩ .

الاجتماعية للانتاج وطبيعة احتكارية الدولة لتنظيمه يظل فعالا . ان هذا ليس مصحوبا فقط بتصاعد الصدامات بين العمل والراسمال وانما بتعميق الصراع بين مصالح الاغلبية العظمى للامم والطغمة المالية . وقد اقرت هذه النتائج في المؤتمرين الرابع والعشرين (١٩٧١) والخامس والعشرين (١٩٧٦) للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي . ان الثورة العلمية التكنولوجية الحديثة ، التي تجلت في الاقطار الاشتراكية والاقطار الراسمالية ، ادت الى نتائج مختلفة على الطبقة العاملة في النظامين . في اقطار المجموعة الاشتراكية تخدم مباشرة مصالح الجماهير الكادحة وهي وسيلة هامة جدا لخلق الاساس المادي والتكنيكي للشيوعية . في الاقطار الراسمالية ، تستخدم الثورة العلمية التكنولوجية لصالح الاحتكارات الخاصة . وكنتيجة لذلك فان ثروة الراسمال الاحتكاري تتزايد في حين لا تلبى الحاجات الاجتماعية للطبقة العاملة . ان هذا يزيد التناقضات الطبقية في المجتمع البرجوازي حدة ، ويهيىء ، في النهاية ، الطبقة العاملة للثورة الاشتراكية . ولذا فان القفزة الثورية في تطور قوى الانتاج الحديثة ليست شيئا آخر غير تشكيل الاساس المادي لطريقة الانتاج الشيوعية على الصعيد العالمي .

ولكن القوى القائمة في العالم الراسمالي لا يمكن ، طبعا ، أن تبقى مكتوفة الايدي تجاه هذا النوع من التطورات . يبذل الايديولوجيون جهدهم لمعارضة هذا التوقع بمفاهيم علمية زائفة عديدة . والفكرة التي تقبع خلف كل هذه المفاهيم ليست سوى رفض تعاليم الماركسية اللينينية حول الامبريالية والثورة الاشتراكية وتفسيرها للعملية التاريخية .

يبدو التقدم العلمي والتكنولوجي ، كما صوره الايديولوجيون البرجوازيون ، اما بوجه المخلص او بوجه شيطاني . ويقولون ان الانسان يمكن أن يؤمن انعتاقه الخاص :

ـ اما على حساب تبعيته لتطور العلم والتكنولوجيا ( وعلى الاخص الشخص الذي يعمل بهما ، والمدراء التكنيكيون في نظرية المجتمع «الصناعي» او « ما فوق الصناعي » التي قدمها روستو وغالبريت وبل . وبريجنسكي وتوفلر ) .

ـ او بوقف مصطنع لتطور العلم والتكنولوجيا ( اعضاء نادي روما ) .

ـ او ـ اخيرا ـ بالبحث عن « ميزان قيم » مختلف كليا ، وتحسين « نوعية الحياة » .

إن وظيفتهم هي ان يثبتوا العكس تماما . لذلك فان اجابتهم عن هــذه هذه النظريات تقترب من بعضها كثيرا ، واحيانا تتداخــل . وفي الوقت نفسه ، من وجهة نظر التطور العام للفكر البرجوازي ـ تعاني تغيرا واضحا ـ من التفاؤلية المتطرفة الى التشاؤمية المتطرفة في تقدير الوضع في العالم الراسمالي وتوقعات تطوره . هذا التغير عرضي وتعليمي .

سيطر التيار التفاؤلي في الستينات بـين الاساتـذة البرجـوازيين في تقديرهم لتطور الراسمالية . الوضع الاقتصادي المناسب الذي اتخذ شكله في الاقطار الراسمالية بعد عقود من الحرب العالمية الثانية بدا انــه يخلق جــوا ملائمــا لذلــك .

تجديد الراسمال الثابت تجديدا هائلا اكثر من اي وقت مضى في القرن الحالي ، واستخدام التقدم العلمي والتكنولوجي لاغراض توسيع العمل وتطوير اشكال جديدة في استغلال الكادحين ، والطرق الكولونيالية الجديدة لسرقة « العالم الثالث » وتوسيع تنظيم احتكار الدولة للاقتصاد كل هذا حرض على نمو القطاع الصناعي للاقتصاد الراسمالي العالمـي لعدة سنوات . وحرضت المنافسة مع الاشتراكية الطغمة الحاكمة للاقطار الراسمالية اكثر فاكثـــر فحركت كل الاحتياطيات الممكنة في المجتمع البرجوازي . وكنتيجة لذلك حققت بعض قطاعات العالم الراسمالي لفترة تزايدا في الكفاية الانتاجية ، وانعطافــا اقتصاديا وارتفاعا معينا في مستوى الحياة .

سارع ايديولوجيو الامبرياليـــة الى رسم نتائج بعيدة باسمة . كانوا مستعدين لان يعلنوا أن هذا التقدم من العهد الجديد للراسمالية لم يكـــن يدور بخلد الماركسية . ان أساس هذه النقاهة العجائبية يظهر انه « الموجة الصاعقة » للتصنيع التي انتشرت في العالم كله . وبمقارنتها بالثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، يعلنون انها أمدت الراسمالية بقوة حيــاة جديــدة . ونتيجة للنمو المفاجيء في العلم والتكنولوجيا ، قدمت الراسمالية الفرصـــة لنمو ابعد ، على العكس من نظرية لينين . واذ استردت انفاسها ثانية فقــد استخدمت هذه الرافعة لتقضي على كل اخطائها المورونة ولتطور تدريجيـــا المجتمع الى « الازدهار الشامل » . وطبقا لمنطق هذه النظرية ، لا يمكن ، اذا ما تحدثنا بدقة ، ان نعتبر ذلك راسمالية اطلاقا .

هذا المخطط يعارض تماما الماركسية اللينينية . ان الثورة الصناعية دفعت العالم الى مجرى التصنيع الذي لا يقاوم . وقد سوت هذه الثورة ببساطة كل اختلافات المجتمع الحديث وتناقضاته الاجتماعية السياسية ، وقد قادت بشكل عفوي البشرية الى ازدهار « الاستهلاك الضخم » . ويبدا الطريق الى هذا المستقبل الرائع من اصعدة مختلفة ، طالما ان « موديلات » التصنيع مختلفة . وسوف يقود كل ذلك بشكل مطلق الى المجتمع الواحد مثل دولة « الازدهار الشامل » التي سبق ووجدت في الولايات المتحدة . وهذه « العقائد الايديولوجية » السيئة السمعة ليست سوى عائق الآن لهذه الحركة الصاعدة ، لان اندفاعات « الالزام الصناعي » يمكن ان يحققها ليس الايديولوجيين او السياسيين ، بل « النخبة التكنوقراطية » التي تقف خارج الايديولوجيا وخارج السياسة .

وفوق ذلك صور التصنيع على انه نوع من القوة المندفعة ذاتيا ، فتحدد اوتوماتيكيا حل كل التناقضات الاجتماعية للراسمالية . وكما اكد مؤلفو كتاب عن النزعة الصناعية وعواقبها ، في مطلع الستينات ـ وهذا نموذجي ـ ان « العالم يدخل عصراً جديدا » ـ عصر التصنيع الكامل . . . في زمننا ليس شبح الشيوعية هو الذي يجتاح اوروبا ، بل بالاحرى التصنيع بعدةاشكال هو الذي يواجه العالم باسره . ان مارد التصنيع يهز الارض ، **مغيرا تقريبا كل معالم المجتمعات التقليدية والقديمة** » ( اشارة التاكيد من قبلنا ـ ف . ك ) .

اما فيما يتعلق بمضمون « العصر الجديد » فتصوره كتاب مختلفون باشكال مختلفة : بعضهم مثلا ( عالم الاجتماع الفرنسي ريمون آرون ) يسميه « المجتمع الصناعي » . آخرون ( العالم السياسي الاميركي روستو ) يدعونه « عصر الاستهلاك الضخم » ولا يزال آخرون ( التحريفي الفرنسي غارودي ) يدعونه « اشتراكية » . ولكنهم جميعا يتفقون في التاكيد على انه تحت ضغط التقدم العلمي والتكنيكي تتغير طبيعة الراسمالية وتنتهي تناحراتها الطبقية . والاشتراكية ايضا تتغير ، فتصعد الى الراسمالية . وبالتدريج فان كلا من النظامين الاجتماعيين سوف يندمجان في اطار « المجتمع الصناعي » الواحد .

من هذه الفرضيات ـ المستخدمة اداة للاطاحة نظريا بالماركسية اللينينية تحت حجةتصحيحهاواكمالها او «ضبط» تفسيرها ـ تنتشر كالفطور مجموعة من النظريات ، جميعها معادية للشيوعية من حيث الجوهر . انها تطمح الى

ان تدحض الشيوعية العلميـــة في المرحلـــة الراهنـــة مـــن العمليـــة الثوريـــة العالميـــة .

يود ايديولوجيو الراسمالية الحديثة ان يدحضوا الاطروحة الاساسية لتعاليم الماركسية اللينينيـــة بصدد التغير المحتوم للتشكيلات الاجتمـاعية السياسية . هذه هي مهمة كل الهجومات . وانه لدور القوى الانتاجيـــة في تطور العلاقات الاجتماعية ، ما يريدون تشويهه قبل غـيره ، والاغلب ان يكون من مواقع اللاادلجة ، أو « المادية الاقتصادية » المبتذلة . انهم بالاساس يرجعون تعقيد العملية الاجتماعية الى عوامل تكنولوجيا الانتاج ومستـــوى الاستهلاك . انهم يشوهون بفظاظة ديالكتيك العلاقة بين القوى المنتجـــــة ( ومن هنا يحذفون العنصر الرئيسي ـ المنتجين أنفسهم ، اي العمـــــال والجماهير الكادحة ) وعلاقات الانتاج . انهم يصطنعون فصم وحـدة قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ويستخلصون التطور الاجتماعي ، الذي فرغوه بهذا من مضمونه الطبقي ، من التقدم التكنولوجي مباشرة .

هذا التفسير نموذج الى حد ما لجميع ممثلي التيار التكنولوجي ، وفي طليعتهم العلماء السياسيـــون الاميركان امثال روستو ، وغالبريت ، وبل وتوفلر وآخرون . ان النظريات التي خرجوا بها في الستينات والسبعينات ، قد تعرضت لتحليل نقدي مفصل في عدد من مؤلفات الكتاب السوفيات ، بما في ذلك كتاب في ثلاثة أجزاء كتبه الاساتذة السوفيات تحت عنوان «صراع الافكار في العالم الحديث »(٣) ، وكذلك في كتـاب « الايديولوجيا والسياسة »(٤) ، ولكن من زاوية مختلفة .

* من المناسب ، على اي حال ، ان نلقي نظرة اخرى عليها لرؤية الاتجـاه العام في تطور الفكر الاجتماعي البرجوازي في السنوات الاخيرة ( مع الاخـذ بالحسبان المؤلفات والتقارير الجديدة ، والاغلب ان يكـون المؤلفون هـم ذاتهم ) .

---

(٣) « صراع الافكار في العالم الحديث » في ثلاثة اجزاء موسكو ١٩٧٦ ( بالروسية ) .

(٤) كورتونوف « الايديولوجيا والسياسة ، صراع الافكار وتطور المفاهيم الايديولوجية المادية للشيوعية في ١٩٥٠ – ١٩٧٠ موسكو ١٩٧٤ ( بالروسية ) » .

## « المجتمع الاقتصادي » آمال بلا اساس

يعتبر روستو مؤسس نظرية المجتمع الصناعي . انه ، على وجه الدقة ، لم يكتشف هذه الفكرة « المنقذة » . فبعض الفرضيات يمكن ان نجدها في مؤلفات الكتاب البرجوازيين والاصلاحيين في النصف الاول من القرن العشرين، بل حتى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ــ هربرت سبنسر واوغست كونـــت والكســي دي توكفيل وماكس فيبر ورودولف هلفردنغ وجون كينز وجيمس بيرنهاهم وآخرون . ولكن نظرية المجتمع الصناعي اخذت شكلهـا النهائي على يد روستو في كتابه «مراحل النمو الاقتصادي . بيان غير شيوعي» الذي طبع اول مرة في ١٩٦٠ . ما هو هام على وجـه الخصوص انــه في ذلك الزمن استخدم من قبل الدعاية البرجوازية كوسيلة من الوسائل الايديولوجية الرئيسـية في مناواة الشيوعية . وطبعا لم يكن بلا سبب أن روستو وضــع عنوانا ثانويا « بيان غير شيوعي » . انه يلح على انه في الظروف الحالية ستحل محل النظريـــة الماركســية اللينينية نظرية اخرى في التطور الاجتماعـــي « اكثر عصرية » .

عارض روستو بمخططه الخاص عن تطور المجتمع الانســاني تعـــاليم الماركسية اللينينية حول تبدل التشكيلات الاجتماعية السياسية . يقـول : « من الممكن ان نوحد المجتمعات ، في ابعادها الاقتصادية ، كما تكمن في احــدى المقولات الخمس : المجتمع التقليدي ــ الشروط المسبقة للحسم ( ويسميها ايضا الفترة الانتقالية للمجتمع ــ ف . ك ) الحسم ــ الاقتراب من النضج ــ مرحلة الاستهلاك الضخم العالي » (٥) هذه التعليمات غدت مشهورة وغرست في الفكر العام ، ودخلت معظم المراجع ... وهلمجرا .

اما النموذجي هنا فهو : كل شيء ، حسب نظرية روستو ، يبلغ الذروة في مرحلة « الاستهلاك الضخم العالي » حيث كل المجتمعات الصنــاعية عالية التطور سوف تندمج تدريجيا مع بعضها.إنه المرحلة التي ابتدأ منها الاميركان بالاندماج ، وبدات أوروبا الغربيةواليابانتسبرذلك،واهتم الاتحاد السوفياتي بمغازلتهــا (٦) .

---

(٥) روستو « مراحل النمو الاقتصادي . بيان غير شيوعي » كامبردج ١٩٦٧ ص ٤ .

(٦) مرجع سابق ص ١٠ .

وهكذا فان مستقبل الولايات المتحدة واوربا الغربية واليابان لا يقلق بال روستو على الاقل ، ففي كل من تلك الاقطار هبطت السماء على الارض على شكل مجتمع الاستهلاك الضخم العالي . الا أنه يشعر بشيء ما حول مصير الاتحاد السوفياتي . انه يرى ان ثمة عائقا امام وصول المجتمع السوفياتي مملكة الوفرة الضخمة . والعائق هو الشيوعية . فمن جهة يذهب روستو الى انه « الآن الاتحاد السوفياتي مستعد تكنيكيا لمرحلة الاستهلاك الضخم العالي . وبنيويا جاهز من حيث ثقافة القوة العاملة ومهارتها ... » ومن جهة ثانية يعتقد أن العوامل التي هيأت الاقطار الراسمالية للاستهلاك الضخم لم توضع موضع الاستخدام المقصود في العالم الاشتراكي . وينوح مدعينا ان السبب هو ان الشيوعية شكل المجتمع «يتناسب فقط مع الجانب الامدادي لقضية النمو ».ولكن ليس الى مستوى جانب النمو الاستهلاكي (٧) ، والنتيجة هي : على الاتحاد السوفياتي حتى يتجنب السير في تطوره خلف الدول الصناعية في عصر الثورة العلمية التكنولوجية ، أن يتخلى عن أيديولوجيته ومؤسسته السياسية .

وبكلمة أخرى ان « الألزام النوعي » للتقدم التكنولوجي الذي يحدده مجرى التطور ، يعمل بضمانة تامة فقط في الراسمالية الجاهزة اتوماتيكيا لتلقي النتائج الملائمة . اما بالنسبة لبعض الاقطار الاشتراكية ، فمع انها ذات مستوى عال من التطور الصناعي ، فان ذلك ليس كافيا لها . وحتى تلحق بركب التصنيع عليها أن تدخل بعض مبادىء راسمالية احتكار الدولة .

واذ ينكشف الدفاع عن الراسمالية في استنتاجات روستو ، فانه ينتقل الى محاولة الدفاع عن البديل النظري للشيوعية العلمية في الوقت الذي غدا فيه النقد التكنولوجي حقلا للنزاع المباشر بين النظامين . ومن هذه النقطة تبدو نظرية روستو انها تحاول حل **القضايا الثلاث** دفعة واحدة : ١) اثبات ان التقدم التكنولوجي ينهي ضرورة لجوء الجماهير الى الصراع الطبقي ضد الراسمالية ٢) اسقاط التجربة السوفياتية ٣) اعتلان الطريقة الاميركية في الحياة انها ذروة التطور الاجتماعي العالمي .

في كتاب « **المجتمع الصناعي الجديد** » ( ١٩٦٧ ) يحاول جون كينيث غالبريث انطلاقا من مواقف الحتمية التكنولوجية تأييد الاساس الاقتصادي

---

(٧) مرجع سابق ص ١٢٢ .

لنظرية « الصناعة ، النصف الثاني من هذا القرن » . وبالمناسبة فـان هذا يذكرنا بنماذج جون كينز في العلاقات البرجوازيـة للدولـة الاحتكارية ، في النصفِ الاول من هـذا القـرن ( في كتابه « النظريـة العـامة للتوظيـف والفائدة والنقـد » ) .

ان الحتمية التكنولوجية هي نقطة انطلاق غالبريث لاستخلاص البنيـة الاقتصادية للمجتمع « الصنـــاعي » . ويمكن ان نستعيد هذه الاطروحة : « بالنظر في التركيب المعقد للتغيير الاقتصادي ، فان التكنولوجيا ، التي لهـا مبادرتها الخاصة ، هي النقطة المنطقية التي يجب اقتحامها. ولكن التكنولوجيا لا تسبب فقط التغير ، بل تستجيب له » (٨) . ان الاطروحة الرئيسيـــة لغالبريث هي أن التقدم العلمي والتكنولوجي بحد ذاته يحدد مسبقـا تطـور المبادىء المخططة في اقتصاد « الدولة الصناعية » . ونتيجة ذلك ينشا نـوع من التوازن المثالي ـ بتداخل الاحتكارات الكبرى والنقابات والدولة ـ يعكس مصالح كل المجتمع . ان التعاون الناضج القادر على الغاء المنافسة واحـلال الاقتصاد المبرمج محل الاقتصاد السوقي يغدو العنصر الرئيسي .

حسب غالبريث ، المحرك الاساسي للانتاج الراسمالي ليس الحـد الاعلى من الربح ، بل متطلبات التكنولوجيا والتخطيط . واذا أخذنا بعـين الاعتبار الاوضاع السائدة في الاقتصاد ، فانها سوف تنتقل من المالكـين الشرعيين الى الاجهزة التكنيكية والادارية المدربة بشكل شامل . وكنتيجـة فان المقاول الكلاسيكي ، الذي تكون مصلحته في الارباح المتزايدة ، سوف يخلي مكانه في لائحة السيطرة على الانتاج لمجموعة مجهولة من التكنوقراطيـين ( البنية التقنية ) التي تكمن مصلحتها ليس في الربح بل في الاحتفاظ بسلطتها. انهم يبحثون ، كما تذهب النظرية ، عن « المصلحة المشتركة » ـ التزايـد التدريجي لكتلة الانتاج واتساع السوق عن طريق تخفيض الاسعار لصـالح ابناء الشعب .

هذا البناء التعسفي هو ابعد ما يكون عن الواقع . ومثل نظرية روستـو العلمية الزائفة ، يقيم غالبريث طوباوية ( تقوم فعلا على بعض الظواهـر القائمة للراسمالية الحديثة كظهور عناصر التخطيط وارتفاع دور المديرين ،

(٨) جون كينيث غالبريث « الدولة الصناعية الجديدة » ص ٢٠ .

ورجحـان كفة الاشكال التعاونية للملكية التي لا خصوصية لهـا ) تتجـاهل الشيء الرئيسي وهو القوانين الموضوعية للانتاج الراسمالي . هذه القوانين تواجه الراسمال الخاص بصراع تنافسي حاد ، في سباق ، كل رجـال اعمال مضطر فيه الى ان يكافـــح من اجل اقصى درجة من الارباح . .فلا تنبؤات طلبات السوق ولا « الثورة الادارية » حتى مع وجود تعـاونيات « ناضجـة » يمكن ان تغير هذا الوضع .

ان كل المدافعين عن الحتمية التكنولوجية ، في بحوثهم النظرية يعتمدون على فكرةاستعاروها من ماركس وهيان تطور القوى المنتجة هو اساسالتقدم التاريخي . والواقع انهم يشوهون تماما هذه الفكرة بفصلهم القوى المنتجـة عن علاقات الانتاج ومناقشة كل شيء على حدة ، بعيدا عن التشكيلـــة الاجتماعية السياسية هذه او تلك . انهم يتجاهلون القاعدة الاجتماعيـــة الاقتصادية الحاسمة مثل طبيعة الملكية والعلاقات الاجتماعية وميزان القوى الطبقية وهلمجرا ، واستبدال كل هذا بمؤشرات كمية كنسبة الاستهـــلاك من قبل بعض قطاعات السكان .

لا نكران ان التقدم العلمي والتكنولوجي ومستـــوى الاستهلاك مؤشران مهمان جدا لتطور المجتمع . ولكنهما على اي حال جزء من كل . فهل يمكن لاحد ان يقوم بتحليل علمي فعلي للانتاج الراسمالي الحديث تاركا سماتـه الجوهرية ـ التي يرتبط هو نفسه بها مهما كانت موضوعيته ومهما كانـــت المصالح التي يقدمها ؟ وهل صحيح ان نقيس الرفاهية المادية للطبقة العاملة بمستوى الاستهلاك وحده متجاهلين عوامل مهمة مثل توسيـع العمـــل والتكاليف المتزايدة لانتاج القوة العاملة ، وتزايد حـاجات الانسان الحديث بشكل عام ، وهلمجرا ؟

هذا هو الطريق الذي سلكه روستو وغالبريث وابطال آخرون من اصحاب النزعة « الصناعية » . وبدلا من التحليل الشامل للعملية الاجتماعيـــة ينظرون في بضع ظواهر مختارة بشكل مبتسر ، وعلى هذا الاساس يجـــري رسم الصورة الموهومة لواقع الراسمالية في الولايات المتحدة وكل العــــالم البرجوازي ، ويجري التنبؤ بالمستقبل . يحاول الاساتذة البرجـوازيون في هذه التخطيطات المرة تلو المرة ان يحلـــوا القضية التي تشبه تربيع الدائرة لجعل غير المتساوق متساوقا . في مجتمع « الازدهار الشامل »الذي يعتقدون انه اقيم في الولايات المتحدة في بداية قرنها الثالث ، يعدون العمل بمزيد مـــن

الارباح ، والطبقة العاملة بمزيد من الاستهلاك . ولكن مهما كانت هذه الانشودة مغرية ، فانها ستظل طوباوية : فلا احد ينكر ان قوانين الراسمالية وممارستها اليومية تفصح عن توقع من هذا النوع . ان تاريخ المجتمع البرجوازي ، بما في ذلك الاميركي ، يثبت ذلك .

وبالصدفة ، كان ذلك في ١٧٧٦ ، السنة التي اعلنت فيها الولايات المتحدة استقلالها ، حيث طبع البروفسور السكوتلاندي آدم سميث كتابه الشهير « بحث في طبيعة ثروة الامم واسبابها » مقدما أكمل عرض في ذلك الوقت لنظرية الاقتصاد السياسي البرجوازي .

كان ابو التفكير الاقتصادي البرجوازي مقتنعا تماما انه تحت التاثير المفيد للمنافسة على تطور العلاقات الراسمالية سيكون بالتاكيد صراعا بين المساهمين لتقديم افضل السلع بارخص الاسعار ، وبذلك يتأكد نهوض ثابت في رفاهية الجمهور العام . واذ يعتقد ان المنافسة تفسح مجال الحرية غير المحدودة كشيء ينبع من طبيعة الاشياء ذاتها ، يتنبأ بتفاؤل في « كتابه المقدس » عن الوفرة ، بانتعاش الانتاج الضخم ، وانسجام كل المصالح الخاصة ، وتامين حياة سعيدة للجميع .

وهكذا كان مجتمع « الاستهلاك الضخم » قد أعلن عنه منذ قرنين ، تماما عندما كانت الولايات المتحدة تسير على طريق خلق ما اعتبرته نموذج دولة « المشروع الحر » .

المدافعون عن النظام الراسمالي يرجعون الآن تدريجيا الى مصادر الاقتصاد السياسي البرجوازي . انهم يحصرون انفسهم ، على غير عادة الكلاسيكيين ، داخل اطار الدفاع المباشر عن الراسمال الاحتكاري . ولا اهمية للدوافع الذاتية التي يمكن ان تشيد اسطورة حول « المجتمع الصناعي » او « مجتمع ما فوق الصناعي » . ان كل انواعه مختلفة ، في جوهرها ، محاولات لابراز راسمالية احتكار الدولة الحديثة ، سواء بنمو الاستهلاك الضخم او التكنولوجيا والتكنيك المتقدم ، او الطرق الجديدة في ادارة الانتاج ، وبذلك يطيلون امد الراسمالية ولكن ، كما يقول المثل ، تحت الوان مزيفة .

ان هذه المحاولات اثبتت فقط حقيقة انه في ايامنا ، اي مجهود لاعادة اعتبار الراسمالية هو اكثر تعقيدا واقل تاثيرا من السابق . ان التوقعات

المشرقة عن مجتمع « الاستهلاك الضخم » المزدهر ، الـذي قدمتـه اساطـير الدعاية لم يجتز بعد تجربة العصـر . لقد تجـاوزت الحياة هـذه الانشودة الوردية . وفوق ذلك فقد جعل العالم الراسمالي يجابه تركيبا جديدا مـن التناقضات التي تشمل كل مظهر من وظائفها. في السبعينات بحث ايديولوجيو البرجوازية عن نظريات اخرى يمكنها أن تقـدم وصفات جـديدة لامـراض الراسمالية المزمنة . يوم كان العالم الراسمالي قد اخـذ ينزلـق في مرحلـة المظاهر التصارعية ، اخذوا على عاتقهـم المهمة الشاقة البسيطة المعقـدة في مصالحة المثل الاجتماعية للكادحين مع واقـع الراسمالية . بعضهم لا يـزال يعلق آماله على التطور العفوي للتكنولوجيا ، وآخرون ، على العكس ، راوها سببا لكل المشـاكل ، بل معظمهم لم يكن راغبا في المشاركة بالتفسير التكنولوجي وتجنب بحذر المظاهر الاجتماعية والطبقية للراسمالية الحديثة .

ان الآمال في مستقبل افضل ، وفي الوقت نفسه ، ملامة الورطة القائمة، كلاهما معلقان على التقدم العلمي التكنولوجي . ان التقرير التالي من قبـل مؤرخ امريكي مشهور هو ارثر شليـسنجر ، هو تقرير نموذجي في هذا الصدد: « اذا كانت الازمة في هذه الايام تبدو في الولايات المتحدة اكثر حـدة مـن اي مكان آخر ، فليس بسبب سمة نظامنا الاقتصادي ، وانما بسبب الثـورات التي خطها العلم والتكنولوجيا ، فقطعت هنا شوطا اكثر من اي مكان آخر . وباعتبار اميركا أمة في الحد الاقصى من التطور التكنولوجي ، فقـد كانت اول من تلقى الصدمة العنيفة وتضخم التغير المتسارع . ان الازمات التي تعانيها هي ازمات الحداثة . وكل امة تباشر السعي لتصل الى دولة لاتضاهى في التطور التكنيكي ، سوف تعاني ازمات لاتضاهي ايضا(٩) . وهكذا فان ازمة المجتمع الصناعي لا ترفض ، ولكنها تفسر على انها ثمن محتوم للتقدم . امـا بالنسبة الى الآمال المتعلق بمستقبل افضل ، فقلما فكروا بـه ، وهـم الآن يتعاونون ليس من اجل مجتمع اليوم الصناعي ، بقـدر ما يفكرون بالنظـام الاجتماعي الـذي سيحل محلـه .

## هل « المجتمع فوق الصناعي » انعتاق ؟

مفهوم المجتمع فـوق الصناعي الجديد الـذي قامت الضجة حولـه ، انشاه عالم الاجتماع الاميركي دانييل بل . باحثـون آخرون ، منهم هرمـان

(٩) نيوزويك ٦ تموز ١٩٧٠ ص ٢٩ ــ ٣٠

كاهن وزيغنيو بريجنسكي وجون غالبريث وريمون آرون وادولف بيرل وجان فوراستي ، سعوا ايضا جاهدين لتطوير هـذا المفهوم ، ولكنه عرض عرضـا كاملا في كتاب بل « مجتمع ما فـوق الصناعي القـادم . مغامـرة في التنبؤ الاجتماعي . طبع في نيويورك ١٩٧٤ . ومثل مفهوم مجتمع الاستهلاك الضخم، كذلك فكرة المجتمع فوق الصناعي ليست في العديد من مظاهرها سوى ترداد للآراء التي عبر عنها من قبل اساتذة برجوازيون . ففي حالـة الحالة فانهـا جزئيا مسالة مؤلفات تورشين فبلن ، ولكن قبل كل شيء كتـابا البروفسور الامريكي جيمس برنهام « الثورة الادارية » و « ما الـذي يجري في العالـم » الذي ظهر اولا في نيويورك منذ ١٩٤١ . ان برنهام ، وهو مدافـع صريح عـن النظام الراسمالي ، صاغ في تلك السنوات المبادىء الاساسية لمجتمع ما فوق الصناعي . واذ يبالغ في الحدود المعقولة للدور الذي تلعبه بيروقراطية الانتاج، ويرفض الدور الثوري للطبقة العاملـة ، فانـه يستخلص النتيجة التاليـة : ما ياتي بعد الراسمالية ليس الاشتراكية بل تنظيم اجتماعي آخر للمجتمع .

وعلى اساس هذه الفرضيات يقدم بل نموذج المجتمـع فوق الصناعي ويحدد ابعاده الخمسة : اولا ، الانتقال مـن انتاج البضائـع الى اقتصـاد الخدمات . ثانيا ، ضخامة الطبقة المختصة والتكنيكية . ثالثا ، تمركز المعرفة النظرية باعتبارها مصدر تجديد وصانعة لسياسة المجتمع . رابعا ، سيطرة التقويم التكنولوجي والتكنولوجيا . خامسا ، خلق « تكنولوجيا مثقفة »(١٠).

يولي بل العلم المكانة الرئيسية في هذا النظام . انه يكتب « كما ان شركة العمل كانت مفتاح المؤسسة في مئة السنة الماضية ... فـان الجامعة ـ او شكل آخر لمؤسـسة المعرفة ـ سوف تصبح المؤسـسة المركزية في مئـة السنة القادمة بسبب دورها كمصدر جديد للتجدد والمعرفة »(١١) . ويلاحظ ابعـد من ذلك : « ان جذور المجتمع فوق الصناعي تكمن في تاثير العلم على طرائق الانتاج ... والعلم باعتباره قوةمستقلة تقريبا ، يمتدالى ما وراء الراسمالية. وبهذا الرمز ، يمكن للمرء ان يقول ان الطبقة العلمية ـ قلبا وقالبـا ـ هـي الوحدة الاساسية (الموناد) التي تحمل فيداخلها صورة مجتمع المستقبل»(١٢).

---

(١٠) بل « المجتمع فوق الصناعي القادم : مغامـرة في التنبؤ الاجتماعي » نيويـورك ١٩٧٣ ص ١٤ .

(١١) المرجع السابق ص ٣٤٤ .

(١٢) المرجع السابق ص ٣٧٨ .

ان كل تاريخ البشرية ، كما يراه بل ، هو تغير من عامل انتاجي الى آخر ، من الزراعة الى الصناعة ، ومن الصناعة الى اقتصاد الخدمات . وكل مرحلة لها توزيعها في السلطة واعلاء المؤسسات الاجتماعية . وفي المجتمع فوق الصناعي سوف تكون الكلمة الاخيرة للعلماء والمختصين المتفوقين ـ حملة المعرفة ـ وفي قمة الهرم سوف تكون الجامعات والمراكز الاكاديمية . والنخبة المختارة من « المديرين السياسيين » ( ميريتوقراطي ) سوف ترشد المجتمع بحكمة وعدالة .

اما بالنسبة الى اتساع الطبقات المتناحرة للبرجوازيين والعمال ، فانها سوف تتكامل في المجتمع فوق الصناعي ، تماما مثلما تيار العقلانية في الانتاج « يحل » الراسمالية نفسها . فالبرجوازية سوف تندمج بالتدريج في الطبقة العلمية ، تماما مثلما اندمج الارستقراطيون بالبرجوازية من قبل ، بينما البروليتاريا تنقلب الى مفارقة تاريخية ، اي ان مصيرها سيكون مثل طبقة الفلاحين في المجتمع الصناعي . ونجد ان بل يبعد بكل بساطة نوع علاقات الانتاج ، وبالتالي الصراع الطبقي ، من تحليله للمجتمع الصناعي حتى المجتمع فوق الصناعي .

كيف يعاد توزيع السلطة على المديرين السياسيين ، الذين احتلوا مكانهم في الممارسة العملية ؟ ان بل لا يستطيع ان يتناسى حقيقة ان الفكر العلمي والتكنولوجي في المجتمع الحالي للراسمالية وظف في خدمة المطالب البراغماطية الصرفة للاحتكارات . كان خائفا من هذا التناقض . وفوق ذلك ينتقد فبلن الذي منذ نصف قرن اعتمد على التنظيم التكنولوجي وحده . كتب بل : « الفكرة النقابية القائلة ان الثورة في القرن العشرين لا يمكن الا ان تكون انعطافا صناعيا » تبين لنا الخطأ في تفكير فبلن . فكما عرفنا ، لا اهمية لما يمكن ان تكون العمليات الاجتماعية التكنولوجية ، ان النقاط الانعطافية الحاسمة في مجتمع ما تحدث في الشكل السياسي . فليس التكنوقراطي هو الذي يستلم السلطة بل السياسي »(١٣) . وهكذا يظهر عنصران آخران ـ البنية السياسية والبنية الثقافية ـ في نزاعات مؤلف « المجتمع الصناعي القادم » عبر بنيته الاجتماعية . ولكنه بقسمة المجتمع فوق الصناعي الى هذه الميادين الثلاثة ، التي كل منها يعمل باستقلال ذاتي ، لا يوضح شيئا . وتعلقه بالقدرة الذاتية للمديرين السياسيين « ميرتوقراطي » للحصول على

---

(١٣) سيرفي ، شتاء ١٩٧١ مجلد ١٦ رقم ١ ص ١٩ .

قيادة سياسية في التحول الكبير ، غير مقتنع تماما ، ان لم تكن فكرة فارغة . ان المرء ليظن ان ناقد فبلن نفسه وقع في اسر « الفكرة النقابية » التي دحضها.

يظهر بل درجة من الحذر على الاخص في تنبؤه بالمستقبل ، فيتجنب اي نتائج يمكن ان توجد في المقولات . وليس زميله بريجنسكي مثله ، فهو يعتمد على المقولات في دفاعه عن المجتمع فوق الصناعي . انه ــ مثل بل ــ يرى العملية الاجتماعية وظواهرها التاريخية انطلاقا من التكنولوجيا والمعرفة ويحاول ان يستبدل مفهوم المجتمع فوق الصناعي بتعبير جديد هو « العصر التكنوكهربي » . ومع ان اكتشافه ليس اكثر من نسخة مموهة للفرضيات التي قدمها بل وغالبريث وروستو وانصار « الحتمية التكنولوجية » الآخرين يدعي بريجنسكي انه قدم تفسيرا جديدا للقضية . انه يذهب الى أن التحالف بين التكنولوجيا والالكترونيك هو القوة الحاسمة لتطور البشرية . هذا الحلف ، لا يحول الاقتصاد وحده فقط ، وانما المظاهر الاجتماعية والثقافية والنفسية للحياة البشرية .

مثل هذا التفسير يمكن المؤلف من أن يضفي على مفهومه مظهرا من الجدة ، ومن ان يوحي بأن فكرة « العصر التكنولوجي » هي طباق لفكرة « المجتمع الصناعي » وان انتصار « العصر التكنوكهربي » ( الذي بدات الولايات المتحدة فيه ؛ كما يدعي ) يحمل مرحلة جديدة ، تختلف اساسا عن كل المراحل السابقة في التاريخ البشري.ان المؤلف ، كما هو واضح ، يعتقدان مثل هذا التقديم للمسالة يعفيه من تحليل واقع الراسمالية الحالي بحيث يغرق في التاملات المتسامية حول مستقبل « العصر التكنوكهربي » . اما بالنسبة الى الصراعات الجارية ، فان المؤلف يصورها على انها آلام متنامية ، وهي حتمية خلال الانتقال العالمي للبشرية الى درجة اعلى من التطور . وهي لا اهمية لها اذا ما قورنت بالقضايا التي تواجه المرحلة التالية .

وبكلمة اخرى ، احب بريجنسكي ان يثبت ان التشويش الحالي يعزى الى المرحلة الانتقالية التي تمر بها البشرية ، وليس الى الراسمالية . وحالما تصل هذهالمرحلة الىنهايتهاالسعيدة ، فانكل شيء سوف يتغير الىالافضل.

في المجتمع التكنوكهربي ، المعرفة العلمية والتكنيكية ، بالاضافة الى قدرات الانتاج المتنامية ، سرعان ما تؤثر في كل مظاهر الحياة ، بصورة مباشرة . واذ اكتشف بريجنسكي « الحقيقة » فانه لايزعج نفسه ولا قارئه

باي براهين جدية تدعمها ، فيبين نظاما كاملا مـن الفرضيات علـى أساس هـذه « الحقيقة » .

في المجتمع التكنوكهربي سوف ينتقل العمل في الصناعة الـى خدمته ، وسوف تحل الاتمتة والسيبرنتيكا محل الانسان في السيطرة على الميكانيك . وستحتل مركز الاهتمام القضايا المتعلقة بالاعمال سريعة الزوال ، و « الصحة النفسية المؤمنة نسبيا للملايين ، والطبقة الوسطى الدنيا واصحاب الياقات الزرقاء التي لا هدف لها »(١٤) وتنظيم أوقات الفـراغ والمساهمـة في حصة الربح . وسوف تكون ترقية القدرات الفردية ، باعتبارها نقطة الانطلاق الـى التقدم الاجتماعي ، الهدف الرئيسي للمصلحين الاجتماعيين .

وسوف تصبح المعرفة اداة السلطة . والجامعة تغدو « حوض تفكير » ومصدر التخطيط والتجديد الاجتماعي . وسوف يحدث تطـور وسائـل الاتصال تغيرا سريعا ونظرة عالمية غير متماسكة ، والقدرة المتعاظمة « لتخفيف التناحرات الاجتماعية الى ابعادها الـدنيا سوف يدعـم الاتجاه نحـو حـل براغماطي للقضايا الاجتماعية . ان التحالفات والاحزاب السياسية في المجتمع الصناعي تقوم على اساس البرامج الايديولوجية البسيطة نسبيا الحاملة دفعة من المشاعر القومية . وفي مجتمع تكنوكهربي سيكون بالامكان التأثير في عواطف الناس والسيطرة على ذهنيتهم بمساعدة وسائل الاعلام . ان استبدال اللغة القومية بالصور التلفزيونية سيؤدي الـى المزيد مـن الادراك الكوسموبوليتي والانطباعي للاحداث . وسوف تندمج السلطة الاقتصادية الى درجة كبيرة في السلطة السياسية ويصبحان بلا شخصية .

وفي اعتقاد بريجنسكي ان تشكيلة المجتمع الجديد سوف تسجل بداية العلاقة الجديدة للانسان مع الواقع العالمي حيث تفقد المفاهيم القديمـة ، ومثلها الايديولوجيات القديمة اهميتها .

ان منطق بريجنسكي في اثبات الاطروحة الاخيرة كـان قـد استخدمها مدافعون آخرون عن مفهوم اللاادلجـة . ان ايديولوجيـا المستقبل يجب ان تكون رفضا لاي ايديولوجيا . لان عصرنا ، تماما كما خلقت الماركسية نظريـة عن العصر الصناعي ، ينتج مفهومه الخاص عن الثورة . ان الانتقال الى العصر

---

(١٤) المرجع السابق ص ١١ .

التكنوكهربي معادل للثورة الاميركية الثالثة . الاولى ادت الى اقرار اعلان الحرية والثانية حولت المجتمع الزراعي والقائم على شبه ملكية العَبيد جزئيا الى أمة مدنية صناعية . والثورة الثالثة تحدث في مجرى العملية السريعة لاندماج اميركا « ما قبل الصناعية » و « الصناعية » و « التكنوكهربية » .

ويذهب الى ان اميركا « التكنوكهربية » في هذا التركيب سوف تصبح حتما بارزة . ومعارضتها سوف تكون عقيمة تماما مثل حركة « محطمي الآلات » الانكليزية ضد الآلات . وفوق ذلك ، فان اميركا لا تقتصر على مصالحها الخاصة ، بل ايضا على رفاهية العالم بأسره ، فرسالة اميركا الخاصة ، كما يدعي بريجنسكي ، خلق وقيادة مجموعة من الدول الصناعية.

ان من السهل تحديد مساهمة بريجنسكي في فكرة « الحتمية التكنولوجية » وكذلك الاهداف التي رمى اليها . أما بالنسبة الى المظهر النظري للمسألة ، فانه يكرر فقط ، وان بمصطلحات مختلفة قليلا ، النموذج المعروف والمبسط جدا للعملية التاريخية باعتبار تعاقب ما قبل الصناعي والتكنوكهربي ( اي فوق الصناعي ) مراحل من تطورها . ووصفه للمجتمع « التكنوكهربي » هو بشكل عام تكرار لتحديد « بل » للمجتمع فوق الصناعي.

ثمة ، على اي حال سمات معينة تميز عمل هذا البرفسور الاميركي من كتابات غيره في الموضوع ذاته .

احدى هذه السمات الطبيعة الدفاعية الصريحة ان عصر بريجنسكي « التكنوكهربي » قدم للقارىء في صورة راسمالية الدولة الاحتكارية الاميركية، التي تدعمها وتقويها تكنيكيا الثورة العلمية والتكنولوجية . انه يلح ان العنصر « التكنوكهربي » هو عصر اميركا ، ويرفض أن يمنح الاشتراكية الحق في ان توجد . واذ يرفض فكرة اندماج النظامين ، يعارضه بدعوة صريحة الى امتصاص النظام الاشتراكي في شكل نسخة جديدة من الامركة الشاملة ( Pan - Ameriecanism )

ان الصورة الكاملة للمجتمع التكنوكهربي تعبر بوضوح عن الجانب الآخر للاتجاه الرجعي للدوائر الامبريالية . ان مؤسساته المزعومة خططت كأدوات لجهاز اداري جبار جدا لاغتصاب الدولة والسلطة الاجتماعية وتغضيدهما في السيطرة على الآلية الديمقراطية في الحياة الاجتماعية . ان مؤلف النموذج المستقبلي للعالم « التكنوكهربي » يدعو الى اقصى سيطرة للدولة على المواطنين، كهدف نهائي للتقدم التكنيكي . وتساوقا مع هذه الفرضيات تسير فرضية

بريجنسكي حول لا ادلجة الحياة الاجتماعية ، فعندما يوضع نشاط الشعب الثقافي تحت سيطرة الدولة سوف يتحدد فقط بنماذج معينة سبق تحديدها. وهكذا ليست فكرة بريجنسكي الجديدة اكثر من دفاع فج عن الراسمالية الاحتكارية والامبريالية الاميركية بوجه خاص . الا ان الناس لن تجد انعتاقا حتى في المجتمع الصناعي ، هذا المخطط الصنعي ، لسبب بسيط هو انه لا شيء يربطه بالواقع .

## سراب « تجديد » الراسمالية

ان المفهوم الفعلي للمجتمع فوق الصناعي الذي يرجىء حل القضايا الاجتماعية العاجلة حتى اشعار آخر في المستقبل ، يقدم نوعا من الانحراف عن فكرة التجديد الميكانيكي تحت الصدمة الخفيفة للتقدم العلمي والتكنولوجي. اما بالنسبة الى مفهوم العصر التكنوكهربي فانه اقل ارتباطا بالواقع الراسمالي الملموس .

ولا حاجة الى القول انه في مرحلة ما ، عندما الوقائع نفسها تقدم املا ضئيلا لمستقبل افضل عبر تحول بسيط للراسمالية ، فان هذه التغيرات في موقف الايديولوجيين الامبرياليين لا يمكن ان تعتبر مصادفة . فمن جهة تعكس انهيار الاوهام حول التجديد الاوتوماتيكي للراسمالية ، ومن جهة اخرى تعكس رغبة في صرف انظار الطبقة العاملة بعيدا عن القضايا اليومية الملموسة .

ان ايديولوجيي الامبريالية يحاولون جاهدين خلق الانطباع ان التغيرات الجلرية قريبة المنال وسوف تؤدي الى تشكيله من مجتمع جديد لا يشبه في شيء المجتمعات القائمة حيث لا يمكن ان تطبق عليه التقديرات والمفاهيم والقواعد الجارية . هذه الفكرة هي التي اضفي عليها مظهر التجديد الثوري . ان نظريي البرجوازية يكرزون ان الحياة الاجتماعية على عتبة تغيرات اكثر عمقا وشمولا مما يتصور الشيوعيون . ونسخة اخرى تدعي ان التحولات الاشتراكية ليست سوى جزء من عمليات عامة تسود العالم المعاصر. انها حقا محاولة واضحة لدحض استمرارية التطور الاجتماعي والاستمرارية التاريخية للاحداث ، وفي التحليل الاخير للطبيعة المتحكمة بعملية التاريخ . مثل هذا الطرح للقضية يقلب الموضوعات الاجتماعية للصراع ضد الامبريالية وقواها المحركة ، الى موضوعات من السباب التعسفي .

ومما جدير بالذكر تلك الاطروحات التي اثارت صخبا ، والتي صاغها عالم الاجتماع الاميركي الفين توفلو في كتابه « صدمة المستقبل » وكتابه الاخير « تقرير التشنج الاقتصادي » . ينطلق المؤلف من فرضية ان المجتمع المعاصر في تطوره وصل مرحلة تتسم بالتغير ، وهو في الوقت الحاضر على تخوم اشد التحولات عمقا . واذ ينقسم تاريخ الجنس البشري الى ۸۰۰ حياة تقدر بأثنتين وستين سنة ، ولاحظ ان ٦٥٠ من هذه الحيوات انفقت في الكهوف. السبعون الاخيرة فقط كانت تعرف اللغة المكتوبة، والست الاخيرات فقط شاهدت البشرية الكلمة المطبوعة ، والاربع الاخيرات فقط كان في المقدور قياس الوقت بدقة متناهية ، وفي الحياتين الاخيرتين جرى استخدام الموتور الكهربائي . والاكثرية الساحقة من البشرية قادرة على استخدام منافع التقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر فقط في الحاضر ، اي في الحياة الثمانمئة(١٥) . الاجيال الحية الحالية فقط تورطت في خطوة عاصفة من الحياة التي كانت وراء كل تصور سابق . ان لدى هذه الاجيال اعظم تجهيز تكنيكي معقد ، وتستهلك اكبر طاقة ، وتمتلك اسرع نظام من الاعلام وتنفق على التطور العلمي اكثر من ذي قبل .

يسلم توفلر انه بمساعدة الوسائل العادية للمجتمع البرجوازي الحديث لا يمكن ان يحتفظ بتطور العلم والتكنولوجيا . وما عدا هذا فان المؤلف يرسم نتيجته الخاصة : عندما يقر بالحاجة الى التغير الثوري في اي حقل متخيل ، فانه يستثني حقل العلاقات الطبقية . انه مثل بريجنسكي يقرر ان يلحق التناقض الرئيسي للعصر الحديث ، وهو التناقض بين الراسمالية والاشتراكية ، بمجموعة التناقضات الثانوية ، ويعزو امراض الراسمالية الى خصائص فترة الانتقال . يكتب « ثورة تحطم المؤسسات وعلاقات السلطة ، هي بالضبط ما يحدث اليوم في الامم عالية التقدم التكنولوجي ... انه مجتمع اصابه الم التغير الثوري. . .ان ما يحدث اليوم ليس ازمة الراسمالية، وانما ازمة المجتمع الصناعي نفسه ، بغض النظر عن شكله السياسي . اننا في الوقت نفسه نعاني من ثورة المراهقة ، وثورة الجنس ، والثورة العنصرية، والثورة الكولونيالية ، والثورة الاقتصادية ، والثورة الاشد عمقا وسرعة في التاريخ ، الثورة التكنولوجية . اننا نعيش ضمن الازمة العامة للصناعية ( Industrialisation ) . وباختصار اننا في قلب الثورة الصناعية العليا » (١٦)

---

(١٥) انظر توفلر « صدمة المستقبل » ص ١٥ .

(١٦) المرجع السابق ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

ويشعر ان هذا « سوف يؤدي الى اقتصاد مدهش جديد لم يسبق لانسان أن اختبره » . ان العائدات التي يقدمها « سوف تخفف التناحر الكبير في القرن العشرين ، التناحر بين الراسمالية والشيوعية ، الى درجة كبيرة . لان هذه العائدات سوف تحتاج الى ما وراء العقائد الاقتصادية والسياسية» (١٧) ينتج من ذلك ان اكتشاف توفلر « النظري » هو انه يحاول في الوقت نفسه الدفاع عن النظام الراسمالي ، ويفترض دوره الثوري . ولهذا يجعل « التناقض بين الراسمالية والشيوعية » يحتل المكانة الثانية ويتحدث لصالح « الثورة الصناعية العليا » منتزعا من هذا المفهوم اي معنى حقيقي .

في كتابه الجديد « تقرير التشنج الاقتصادي » (١٨) ( نيويورك ١٩٧٥ ) يبذل مجهودا لتجسيد نصائحه بخصوص الخلاص من الازمة . انه يصوغ الفكرة الرئيسية لكتابه في الورقة الغفل . انه يكرر المفهوم العام لـ « صدمة المستقبل » ولكنه يجعله متلائما مع ظروف الازمة التي اجتاحت الاقطار الراسمالية في ١٩٧٤ - ١٩٧٥ . وهو يعتقد ما تراه الآن ليس ببساطة مثدأ **اقتصاديا** ، وانما شيء اعمق ، شيء لا يمكن فهمه داخل اطار الاقتصاد العادي . وهذا ما يجعل الاقتصاديين المرتبكين يشكون أن « القوانين القديمة لم يعد لها عمل » ويرى توفلر اننا نشهد أزمة عامة للصناعة ، وفي الوقت نفسه تقويض الاقتصاد والقاعدة النشطة للغرب ونظامه الكامل في القيم . ومع ذلك فان استنتاجاته المتشائمة لم تمنعه من اعلان ظهور حضارة صناعية عليا تكنولوجية ولكنها ليست صناعية .

على اي حال ، مجهودات توفلر لتقديم وصفات عملية ( ستراتيجية مرحلة الانتقال ) كانت يائسة كلها . انها في أحسن الاحوال تعيد تقديم العمليات التي تتطور في أعماق الراسمال الاحتكاري : الفعالية « العرضية » للشركات العالمية ، وتجميع الخطط المطولة ، ونقل قوة العمل الى صناعة الخدمات ، وهلمجرا . ونتيجة لسوء المفهوم فانه يظن انها تعتبر بديلا للراسمالية .

هذا الكتاب ، بالمقارنة مع كتاب « صدمة المستقبل » لا يعتبر خطوة الى الامام . على اي حال انه يقدم فائدة معينة بمعنى انه يقدم اتجاها معددا

---

(١٧) المرجع السابق ص ١٩٥ .

(١٨) يستخدم توفلر هذا المصطلح للاشارة الى الازمة المركبة العامة للراسمالية المعاصرة .

في تطور التفكير البرجوازي في ميدان علم الاجتماع في بواكير السبعينات . وفي محاولة لانقاذ المفهوم العام عن «الحتمية التكنولوجية» وهذا ما يظهر الصدوع المتزايدة ، يدعم الايديولوجيون الامبرياليون هذا الاتجاه ببعض الاستنتاجات الحسية والوصفات. وهذا ما فعله توفلر ايضا وكذلك روستو وبل وغالبريت، كل في مجاله طبعا . ان الحقائق تظهر ان المدافعين عن الراسمالية يأملــون الحصول على شيء ما باتباع هذا الطريق لان اي تقريب للفروض المجـردة الى الحياة ومقارنتها بالواقع يفضح الافلاس المطلق لمبادىء معاداة الشيوعية، أو يجعل من الضروري تعديل الفرضيات النظرية بالتصحيحات الاساسية . وهذا يصدق ايضا على مقولات « الحتمية التكنولوجية » .

اثبات ذلك هو ما نجده في كتاب والت روستو « السياسة ومراحـــل النمو » حيث يسعى لتطبيق الاستنتاجات العامة على موضوعات السياســة الخارجية والداخلية . وانطلاقا من فرضية ان السبعينات ستكون عقد النمو السياسي ، مثلما كانت الستينات عقد النمو الاقتصادي ، يبذل جهــــده لاختبار « الربط بين راي السياسة كجهد للتوازن ومطابقة قضايا الامــن والرفاهية والنظام الدستوري ، وبين مراحـــل النمو » (١٩) . انه لا يزال يعتقد ان مهمته الرئيسية ان يدافع عن المجتمع التكنولوجـي في الـولايات المتحدة ، ولكنه يشدد كثيرا على قضايا سوية التوزيع وتزايد الاوقات الحرة للمواطنين من اجل اهداف انسانية واجتماعية اخرى .

وبينما يسلم ان الولايات المتحدة واجهت صعوبات وتناقضات جدية في مطلع السبعينات ، لا يتجاوز روستو تكرار البدهيات الواضحة . وفي حقــل السياسة الداخلية يدافع عن صيغة غامضة ومريبة ــ الحفـاظ على تـوازن الوظائف والنمو الاقتصادي والرفاهية والامن القومي والنظام الدستوري . اما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية فلا يفكر بأكثر من تحقيق توازن قوى على الصعيد الدولي . ان روستو يركز جهوده لابعاد القارىء عن الجوهر الطبقي للاحداث الجارية ، ولبعث الراسمالية . اما بالنسبة الى اقتراحاته العملية، فانها ــ كاقتراحات توفلر ــ لا تضيف شيئا على السياسة الرسميـة التـي تنتجها الطبقة السائدة .

## هل يمكن قيام اقتصاد مخطط في طلب الراسمالية ؟

مع انهما قلقان على ان تكون الراسمالية المعاصرة في حالة ازمة فانه لاروستو ولا توفلر غامر في تقديم مقترحات جدية ، وبهذا فضحا الطبيعة البرغماطية لمفاهيمهما .

ان غالبريت يتخذ الى حد ما موقفا مختلفا . انه لا يقر فقط بان تناقضات الراسمالية تتعاظم ، ويعدل افكاره السابقة وفقا لذلك ، بل يدعو ايضا القيادات الحاكمة الى اتخاذ طريقة نوعية تجاه التغيرات التي برزت . ان هذا التطور في افكاره مهم حقا .

يلاحظ انه في غضون بضعة اعوام تلت نشر كتابه « الدولة الصناعية الحديثة » يوافق على ان التوازن العام للقوى المتعارضة ـ الاحتكارات والنقابات والدولة ـ هو في الدرجة الاولى لصالح الاحتكارات ، وفي الدرجة الثانية ان « الشركات الناضجة » ليس لديها النية في تخفيض الاسعار . ومن جهة اخرى دفع الى الاضواء حقيقة أن الطبقة العاملة ، على الرغم من التدفق المتعاظم ، ليس في نيتها انهاء الصراع الطبقي . في راي غالبريت مجموعة هذه العوامل تدفع الاقتصاد الراسمالي الحديث الى اظهار اتجاه نحو التضخم .

انه لا يخشى الاشارة الى احد هذه الاسباب . وبالرجوع الى عام ١٩٦٩ ، في كتاب بعنوان « طريقة السيطرة على الجيش » كتب : « نجد هنا الغاء واضحا للنظام السياسي والاقتصادي الاميركي كما لخصه الآباء ، وكما لا يزال يقدم للابناء . ذلك الراي يفترض أن السلطة المطلقة ـ الحكم المطلق ـ يوكل للشعب . وهذه السلطة من المفروض أن تكون مستوعبة . ان المواطن يعبر ضمن اطار الدولة عن ارائه من خلال رجال ـ الرئيس واعضاء الكونغرس الذين انتخبهم . في القطاع الخاص يكمل الشيء ذاته عن طريق شرائه من السوق . هذه التعليمات تمد الشركات ـ جنرال موتور ، جنرال الكتريك ، ستاندر اويل نيوجرسي ـ بما يجب ان تنتج للبيع .

« هنا نجد المنافع المسلمة ، او الشركات التي تمدها ، تصنع القرارات

وتبلغها الكونغرس والشعب . والشعب يوافق على كل ما قرر ويدفع الضرائب » (٢٠) .

ويسخر من التهديد السوفياتي المزعوم ، وهستريا معاداة الشيوعية من الولايات المتحدة ملاحظا « الشعارات القديمة ـ علينا أن نقاوم العدوان الشيوعي العالمي ، علينا الا نكافيء العدوان ، يجب ان نقف مع حلفائنا الشجعان ـ استخدمت فقط بعد ان افقدها التكرار كل معنى ، بل بعد ان جعلتها الاحداث أمرا مضحكا »(٢١) ، ولكنه باعتباره مؤيدا للاحتكارات الكبيرة يحاول فهم دورها ضمن سيطرة المركب العسكري ـ الصناعي ويلقي كل المسؤولية في هذا على كاهل البنتاغون والجيش .

وخوفا من تصعيد القضية يصل غالبريث الى استنتاجات مفككة وغير محددة : يقول ان بتر سلطة المركب العسكري الصناعي يمكن ان يضعف الاقتصاد الاميركي ، الا انه يشفع اقتراحه ببعض الملاحظات التي بات من الواضح انه هو نفسه يتساءل عن جدوى وصفاته .

باختصار كان غالبريت بعد ذلك مضطرا مرة اخرى على اعادة النظر في تقويمه للمظاهرة المميزة للامبريالية الحديثة . وفي محاضرة القيت فيباريس كانون الثاني ١٩٧١ ثم سمح بنشرها لجريدة ايطالية في نيسان ١٩٧٢ ، قال ان المجتمع الراسمالي لم يكن معقولا في طريقة توزيع المصادر والمنتجات ، وفي عجزه عن تجاوز الانحدار نحو التضخم . انه عاجز عن تلبية المتطلبات الاولية للمواطنين في السكن والنقل والخدمة الطبية ، وفي الوقت نفسه ينتج كمية ضخمة من البضائع التي اما ان تكون نافلة او مؤذية الى حد ما . ان النفقات الضخمة على التسلح وصيانة الجهاز الاداري تستنزف الاقتصاد .

انه يظن ان هذا الوضع المتفاقم يمكن ان يعالج بنظام جديد من سيطرة الدولة على الاسعار والاجور الذي سيجمع كل الشركات الكبرى . ولا بد ان يكون للشركات مصلحة في تنفيذ هذا ، لمواجهة خطر التهديد الاجتماعي الذي يهدد الاقطار الراسمالية .

فيما بعد شرح هذه الاخطار في كتابه « الاقتصاد والفرض العام » المطبوع في بوسطن ١٩٧٣ . هذا العمل الضخم هو آخر الثلاثية ( الاثنان

---

(٢٠) جون كينث غالبريث «طريقة السيطرة على الجيش» نيويورك ١٩٦٩ ص ٢٠-٢١.

(٢١) المرجع السابق ص ٤٩ .

الآخران : « مجتمع التدفق » و «الدولــة الحديثــة» المطبوعان في ١٩٥٨ و ١٩٦٧ ) فمن جهة يكرر استنتاجاته السابقة ، ومن جهة اخــرى يعيــد النظر فيها . ان موقف غالبريت المتناقض يعكس تناقضات الواقع الراسمالي نفسه ، وبندفع بجهده ليضع في حسابــه بعض السمــات الجديــدة في السنوات الحالية .

ان مجرى الاحداث ، وخصوصا استمرار الاتجاهات التضخيميــة دحضت كل تأكيداته السابقة أن الاقتصاد الراسمالي ، مع تطور الثــورة العلمية التكنولوجية ، يستطيع أن يقود الطبقــة العاملــة الــى ما يدعوه « مجتمع التدفق » .

ان التباعد في العلاقة المتداخلة للقوى بين ما يســمى الاقتصاد المخطط ( اي الشركات الناضجة ) ونظام السوق الذي يشتمل على شركات صغــيرة ومقاولين محدودين ، قد غدا واضحا وعميقا على الرغم من تأكيدات غالبريت السابقة . ان قصد غالبريت هو استبدال التناحرات الطبقية للمجتمــع الراسمالي المعاصر بتناحر معقول بين الاقتصاد « المخطط » واقتصــاد « السوق » . انه يرى في كل من هذين الغرضين نوعا من الظاهرة المستقلــة والمنعزلة والمتجانسة اجتماعيا . ولكن الشركات الكبيرة في الواقــع ترتبط بجهاز الدولة تستغل كثيرا ما يسمى نظام السوق لتقوية مراكزهــم ؛ وبذا تتفاقم التناقضات الاجتماعية في المجتمع البرجوازي ككل .

يغدو من الواضح جدا أن سياسة النمو الاقتصادي التي تتابعهـــا الشركات والدولة البرجوازية لم تمسك الراسمالية . على العكس،فبالاضافة الى التناقضات السابقة في العالم البرجوازي فقد خلقت تناقضات جديدة ، تشمل فوضى التضخم المنتشرة ، وازمة المدن الكبيرة والدمار البيئوي .

واذ يأخذ غالبريت بعين الاعتبار كل هذه الظاهرات وظاهرات سلبية اخرى ، فانه يصدر حكما قاسيا على النظام الاقتصادي الاميركي . « ان لدى النظام الاقتصادي اتجاها لتكميل نفسه ، ولــن يصدق هذا الآن . التطور المتفاوت ، وعدم المساواة ، والتجديد التــافة الشــاذ والتدمــير البيئوي ، وتمييع الشخصية ، والسلطة التي فوق الدولة ، والتضخــم

والفشل في التنسيق الصناعي الداخلي ، هي جزء من النظام كما هي جزء من الواقع . ولا يمكن لهذه النقائص الصغيرة ، في مادة العجلة المشوهة في الآلة ، ان تصلح . انها كلها من صلب النظام » (٢٢) .

فما العمل في رايه ؟ « الاقتصاديون ليسوا ثوريين ولا كتب مراجعهم »(٢٣) هكذا يشخص الحالة في بداية الكتاب . ويدعو الى « اشتراكية جديدة » لا يمكنها ، كما يعتقد ان تخلص الا على حساب التشويش المتفاقم ، وفوضى النظام الاجتماعي ، والدمار المميت للصحة والرفاهية . « ان الاشتراكية الجديدة ليست ايديولوجية ، بل تفسرها الظروف » (٢٤) .

ان غالبريت يعزو الاهمية الكبرى الى توازن التناقضات بين « النظام المخطط » و « نظام السوق » اكثر مما يعزو الى تأثير النمو الاقتصادي وتحقيق التوازن الديناميكي بين الدولة والاحتكارات والنقابات . انه ينظر اليها على انها ابنية اقتصادية اجتماعية جديدة ، هيئت لتحدد كل العالم الراسمالي في مجرى تطوره وتداخله .

وفي رايه ان التناقض بين هذين النظامين اللذين صورهما على انهما التناحران الاجتماعيان الرئيسيان اللذان يمكن حلهما بتقوية « النظام المخطط » أي الاحتكارات . الحاجة ، ببساطة هي الاقرار ان معتقداتنا والفضائل الاجتماعية لم تؤخذ من انفسنا بل من النظام المخطط » (٢٥) . لذلك يصوره على انه القطاع القائد للسياسة ، وهو الذي تقوم عليه المراهنة لان « الاقتصاد المخطط يتابع اغراضه ويلائم الشعب ايضا » (٢٦) .

ومن جهة اخرى ، يعتبر ايضا ان من الضروري زيادة دور الدولة ، التي سوف تعمل لمصلحة المجتمع ككل ، طالما « ان الدولة الحديثة ... ليست لجنة تنفيذية للبرجوازية ، بل انها اقرب ما تكون لجنة تنفيذية للبنية التقنية » (٢٧) . في المبدأ هو يعارض تشريك وسائل الانتاج طالما ان مسالة السلطة ، كما يراها تتجذر في التنظيم عامة ، وليس في المشاريع الخاصة . ولكن في الوقت نفسه يعارض هذه الاطروحة الى حد الدفاع عن تاميم بعض الفروع التي لا تحقق سوى ربح منخفض ولكنها ايضا ضرورية للمجتمع ( بناء السكن ، المؤسسات الطبية ، النقل المدني ... وغيرها )

---

(٢٢) غالبريت « الاقتصاد والغرض العام » بوسطن ١٩٧٣ ص ٢١١ .

(٢٣) المرجع السابق ص ١٧

(٢٤) المرجع السابق ص ٢٧٧

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٢٥

(٢٦) المرجع السابق ص ٢٤٠

(٢٧) المرجع السابق ص ١٧٢

وايضا شراء المشاريع الحربية من المساهمين .

ويدافع عن ان هذه المقاييس سوف تجعل من الممكن تقديم مزيد من الضرائب وتوطيد دخل مضمون لكل مواطن ، وتامين التحرر الاقتصادي للمراة وضمانة الحقوق المتساوية في الثقافة ، وتحسين النظام الصحي اي كل العوامل التي تحقق « نوعية الحياة » .

ينتج من ذلك ان وراء مفهوم غالبريت عن « الاشتراكية الجديدة » لا شيء سوى برنامج من الاصطلاحات الحذرة التي لا تؤثر في اعمدة راسمالية احتكارية الدولة . وتظل هذه الحقيقة لا تتغير ، على الرغم من أن غالبريت في تصريحاته الاخيرة يسلم بامكانية مثل هذا « المقياس المتطرف » كتأميم بعض فروع الصناعة المختلفة ، بما في ذلك ميدان المركب العسكري الصناعي . واوضح ان التأميم لا يمكن ان يغير الطبيعة الاجتماعية للمجتمع البرجوازي بكل تناحراته الموروثة .

ومثل بقية ممثلي المدرسة « التكنولوجية »ينحي استنتاجاتالشيوعية العلمية.انه يجادل بصورة غير مباشرةمعهم على الموضوعاتالرئيسيةباعتبارها التنظيمات الاساسية للعملية التاريخية ، ودور الصراع الطبقي والطبقة العاملة ، وتحليل لينين للامبريالية ونظريته في الثورة الاشتراكية . وهكذا على الرغم من وضعه الحرج تجاه عدة سمات للواقع الراسمالي المعاصر ، ورؤياه للعقائد الغربية للمدافعين عن البرجوازية ، فانه يحصر نفسه ، في نهاية التحليل ، ضمن الاستنتاجات الطوباوية .

وبتأثره بكتابه الاخير ، فانه يحدد نفسه بالفكرة ذاتها ، اي تلك الوظائف التي للراسمال في ايدي البنية التقنية ، منفصلة عن ملكية راس المال . وبسبب هذا ، فانه يدعي أن البنية التقنية نفسها تتحول الى مؤسسة فوق الطبقات تراعي الصالح العام وليس تحقيق اقصى درجات الربح . وهذه المؤسسة في مضمونها تأخذ بعين الاعتبار ضمان المعدل الوسطي ، ولكنها تضمن الارباح للمساهمين ، والاجور العالية والثابتة للعمال .

لاشيء في الواقع مما يتحدث عنه قد ظهر . ان الصورة الحقيقية للعالم الراسمالي تختلف كليا . ان الاحتكارات تسعى لتحقيق اقصى درجات الربح الممكنة وليس المعدل الوسطي . والعمال يكافحون ولا ينجحون في رفع مستوى حياتهم ، في حين ان ممثلي البنية التقنية لا يفعلون شيئا بغير الحالة القائمة ، ولهذا السبب هم غير قادرين على فعل شيء . ولذا كان مفهوم غالبريت لا يفسر شيئا ولا يقدم شيئا ذا قيمة عملية .

# الفصل الخامس

# أزمة مفاهيم..
# النمو الاقتصادي

## نشـــاة التشاؤميـــة .

بات واضحا في النصف الاول من السبعينات ان فكرة « الحتميـــــة التكنولوجية » قادت دعاتها الى تحالفات عمياء ، من التناقضات التي لايمكن تصالحها . والمحاولة التي بذلت للخلاص من الجوهـــر الطبقي الاجتماعـــي للعلاقات الراسمالية ( في المذاهب « التنكولوجية » ظاهرات البطالة والتضخم والصراع الطبقي وامثالها غائبـــــة تماما ) انقلبت ضـــد المدافعـــين عن « الصناعـــة » .

كل هذه الظواهر اليوم تتطلب مثل هذه النسب الضخمة بحيثلاتستطيع الاجهزة الدعائية أن تتجاهلها .

وفي مواجهة هذه الظواهر يتحدث روستو وبل وتوفلر وغالبريت عـــن نمو تناقضات جديدة اكثر عمقا في العالم الراسمالي . وكل واحد منهم يريد ان يعصرن مفهوم « الصناعية » بطريقة او اخرى ، ويقدم الارشادات العملية التي لاصلاح منها .

هذه الاهمية العلمية للفكر العلمي هي التي تعبر قبل كل شيء عـــن الازمة العميقةلفكرة «الصناعية»واذ فهمت على أنها مفهومدعائي وضعلمعارضة نظرية لينين في الامبريالية والثورة الاشتراكية ، فانها في تناقض حـــــاد ومـــتعص مع الحياة . كل هذا على الرغم من حقيقة ان الرؤى المتعارضة بل حتى المتناقضة تتضمن كلا من التنبؤات المتفائلة والمتشائمة التي تظهـــــر تماما في هذا البرنامج .

من جهة أخرى ، بمحاولة ملاءمة مفهوم المجتمع الصناعي مع الظروف الجديدة التي نجمت من ازمة الراسمالية ، يقدم غالبريت ، والاساتذة البرجوازيون الآخرون الذين تابعوه ، عنصرا آخر في سلسلة أفكارهم . فمع الاشياء الاخرى اقترحوا أن التضخم والظواهر الاخرى للازمة هي ايضا متجذرة في سياسة النمو الاقتصادي السريع ، والكفاح من أجل دخل متزايد ثابت ، الذي يحقق على المدى الطويل « نوعية الحياة » .

ثمة بواعث اخرى مسيطرة في افكار علماء الاجتماع والاقتصاديين البرجوازيين بالمقارنة مع ما كتبوا وتكلموا عنه في الخمسينات والستينات وآمالهم الوردية في النتائج الزاهية للتقدم العلمي والتكنولوجي افسحت الطريق لتأكيدات أثبتت أن فيها من الاذى للبشرية اكثر مما فيها من الفائدة . والتفاؤلية المصطنعة لدى الاساتذة الغربيين ، حل محلها القنوط والاضطراب . ويستنتج بل« لقد تلاشت بالضرورة الآمال العقلية ، أو بالاحرى نوع من العقلية . ان مفهوم التنظيم العقلي للمجتمع يقف وحيدا مرتبكا »(١) ونصير آخر « للصناعية » هو الفرنسي ريمون آرون سمى كتابه « سقوط الوهم عن التقدم » (٢) .

في الاوصاف السابقة للمجتمعات « الصناعية » وما « فوق الصناعية » نجد السمات القائمة للراسمالية المعاصرة ــ البطالة المزمنة ــ التضخم ــ تفاقم الأزمات في قيم المجتمع السلوكية والاخلاقية ــ كانت تهمل بكل بساطة ايمانا أن تطور العلم والتكنولوجيا سوف يحرر البشرية اتوماتيكيا من كل الآثام . اما الان فان كل الظواهر الشريرة تعزى بكل عفوية الى التقدم العلمي والتكنولوجي المسؤول مباشرة عن توسع المدن وازدياد السكان وتدمير البيئة والتهديد بحرب نووية .

رئيس اكاديمية فلادليفيا الوطنية للعلوم فيليب هاندلر يلاحظ انه بات من الحمق الوطني ان نعلق العلم والتكنولوجيا . لقد كان للامس فقط يعتبران سبب وفرة الحياة المباركة .

---

(١) دانييل بل « التكنوقراطية والسياسة » في « السيرفي » ١٩٧١ مجلد رقم ٢ ص ٢٢ ــ ٢٤ .

(٢) ريمون آرون « سقوط الوهم عن التقدم : مقالة عن الدياليكتيك والحداثة » باريس ١٩٦٩ .

« اليوم تتزايد الاصوات القلقة التي تقول بان الحديث عن الذرة يخلق رؤى عن التدمير الذري الخطير والتلوث الاشعاعي والتغيرات التوريثية المميتة والصناعة الثقيلة مسؤولة مباشرة عن تلوث الجو والمحيطات والانهار ، وان منجزات الصيدلة مسؤولة عن ولادة الاطفال ناقصي التكوين وادمان المسكرات ؛ وان المزيد من المعرفة عن وظيفة الفكر البشري وميكانيزما التوريث يمكن ان يؤديا الى الاستبداد . والنجاح في حقول الصحة والطب سبب زيادة في السكان . . . وهلمجرا .

وهكذا منذ امد طويل يردد ايديولوجيو البرجوازية المدائح للتقدم التكنولوجي والنمو الاقتصادي ويناقشون بحماسة انهما سيؤديان الي الوفرة والوفرة تؤدي الى « الاستهلاك الضخم » الذي بدوره سوف يؤمن الازدهار الشامل . ولكن هذه الاصوات نفسها طفقت تردد تراتيل الجنازة حالما اتضح ان التقدم التكنولوجي لم يكن خادما لسيدين ، ولا يمكن ان ينقذ الراسمالية من تناقضاتها . ان من الانسب لاساتذة البرجوازية ان يسموا مؤلفاتهم « تشويش في وجه التقدم » .

لا يمكن للتعويذات ان توقف التقدم الاجتماعي ، بما في ذلك التقدم العلمي والتقدم التكنولوجي . واليس جريمة في ان ندعو الى وقف النمو الاقتصادي في العالم اليوم ، في حين عدة اقطار منذ قرون يعانون مرارة العيش ، وملايين الناس لا يعلمون فيما اذا كانوا سياكلون اليوم ، أو اذا كانوا سيجدون لاطفالهم غدا ؟ .

على اي حال يتابع ايديولوجيو البرجوازية ابحاثهم في ما يتعلق بنسخهم الجديدة هذه عن النظرية « التكنولوجية » ، دافعين النتائج السلبية للتطور التكنولوجي الى المقدمة . ويذهبون الى ان تشويه الطبيعة الذي تم على يد التكنولوجيا في ظل الراسمالية هو تشويه نموذجي سببه التقدم التكنولوجي وليس الراسمالية .

ان العديد من الباحثين البرجوازين ، ان لم نقل معظمهم يعلنون التعثر في النمو الاقتصادي ، اي انهيار آمالهم في أن العلم والتكنولوجيا سيجعلان من الممكن حل معظم القضايا الملحة في المجتمع البرجوازي . ان كلا منهم يفتش عن كبش فداء ليرمي عليه مسؤولية خيبة هذه الآمال ؛ وبالطبع لا يشير احد الى المتهم الرئيسي ـ الراسمالية . والعديد منهم يسال فيما اذا نشات

تناقضات المجتمع الحديث بسبب النمو الاقتصادي او بسبب فقدانه . واكثر فاكثر يطالب ايديولوجيو البرجوازية ان ينحصر النمو الاقتصادي « المفرط » بل ان يوقف نهائيا . ان التنبؤات المتفائلة حول اقتراب مجتمع « الاستهلاك الضخم » و « الازدهار الشامل » قد حلت محلها تنبؤات مشؤومة لكارثة بيئوية عالمية او شيء يشبه وصفا جديدا ل «يوم الدينونة».

## نادي روما : وصفات للانعاش

ان فكرة الوصف الجديد ل « يوم الدينونة » قد جرى التعبير عنها في دراسة اساسية برعاية نادي روما (٣) ، وقدمها لفيف من الباحثين،برئاسة دينيس ميدوز من مؤسسة ماساشوسيت للتكنولوجيا . يتضمن الكتاب(٤) عددا من الحسابات والجداول والمخططات ، وليس فقط تحليلا للاتجاهات « الخطيرة » في تطور المجتمع الصناعي ، بل ايضا محاولة لابراز المقاييس الحسية لتجنب الكارثة البادية للعيان .

وتضامنا مع اتجاه اصبح منتشرا في السنوات الاخيرة بين ايديولوجيي البرجوازية ، شدد المؤلفون جدا على الطبيعة المعقدة للمرحلة المعاصرة ، والسمة الجذرية للتغيير الوشيك . ومثل بقية ممثلي الاتجاه « التكنولوجي » جعلوا منه مرتكزا لتحذير البشرية حول تعقيد القضايا التي تواجهها ولاحظوا ان « المؤسسات السياسية التقليدية لم تعد تتمشى مع القضايا ، حتى انها لا تستطيع ان تمسك بمضمونها » (٥) . ويبرز المؤلفون جوهر تلك القضايا :

---

(٣) جمعية دولية من العلماء والاداريين والقادة الشعبيين ورجال الدولة ، اسست في عام ١٩٦٨ . ان منظمي نادي روما ، بمن فيهم الرئيس السابق لمجلس الرقابة ل « فيات » الايطالية أوليو بيتشي ، سعوا الى اضفاء شيء من السلطة السياسية عليه . فمثلا في اللقاء التي أقيم في شباط ١٩٧٤ قرب سالز بورغ لمناقشة نشاطه ، حضره المستشار الاشتراكي برونوكريسكي ، والرئيس المكسيكي لويس اشيفريا ، ورئيس السنغال ليوبولد سنغور ، ورئيس الوزراء الكندي بيير اليوت ترود ، ورئيس الوزراء السويدي أولاف بالم ورئيس نيزلاندا دين يوبل مع رجال دولة آخرين .

(٤) دونيلا ميدوز ودينيس ميدوز وجورجن راندرز ووليام بهرنز « وقف النمو ، تقرير الى نادي روما حول ورطة الانسانية » نيويورك ١٩٧٢ .

(٥) المرجع السابق ٩ – ١٠ .

« الفاقة وسط الوفرة ، انحطاط البيئة ، فقدان الايمان بالمؤسسات ،عجز عن السيطرة على توسع المدن ، عدم احتواء البطالة ، ضياع الشباب ، رفض القيم التقليدية ، التضخم ، والتمزقات المالية والاقتصادية الاخرى » (٦) .

يبدو أن مثل هذا التصريح الذي لم يسبق له مثيل يجب ان يتلوه اعادة تقويم مناسب للعوامل المشار اليها . ولكن المؤلفين يفضلون متابعة مختلفة . انهم في الحقيقة يتجاوزون صامتين هذه العوامل الهامة ، مثل تفاقم التناقضات الاجتماعية بين العمل وراس المال وتعاظم استغلال الكادحين وتضخم العمل وتزايد البطالة . ولا شيء قيل عن تصاعد التناحر بين الاقطار الصناعية والاقطار المتخلفة في العالم الراسمالي ، وسياسة الكولونيالية الجديدة ، وسباق التسلح والعواقب الوخيمة للسياسة العسكرية والعدوان بالنسبة الى البشرية .

يبحث ميدوز ورفاقه في تقريرهم في ديناميكية الاتجاهات الرئيسية الخمسة في العالم : التصنيع المتزايد ، ونمو السكان السريع ، انتشار سوء التغذية ، ونضوب المصادر التي لا تجدد ، وانحطاط البيئة . واضح تماما ان الاختيار الدقيق للعوامل الاساسية للتطور العالمي يحدده استهداف مركز على تلك التي تعمل بشكل متشابه تقريبا مع الاخذ بالاعتبار كل البشرية، بغض النظر عن النية الاجتماعية لكل قطر على حدة . وباختصار : المؤلفون يتجاهلون مبدئيا انقسام العالم الى نظامين اجتماعيين سياسيين ، فاتجهوا طوعا أو كرها الى « المجتمع الواحد » .

إن تداخل هذه القوى المصيرية، هذه العوامل الخمسة للتطور العالمي غير مسؤول كما يذهب المؤلفون ، عن دفع البشرية الى الكارثة . وبصراحة لا يمكن درء الكارثة طالما ان العوامل الخمسة متداخل الواحد في الآخر ، وتقود البشرية بتطورها نحو درب أعمى . فمثلا لا يمكن أن يكون ثمة تزايد انتاج الطعام ، وهذا لايمكن الحصول عليه نتيجة النمو الصناعي فقط . ان الاخير يعتمد على مضاعفة انتاج المصادر المادية التي يؤدي استثمارها الى تلويث البيئة، وهذا يحد الانتاج الزراعي الذي بدوره يحد من تكاثر السكان .

ان صدمة عناصر هذا التداخل الذي لا ينفصل ولا يخف تناقضه

---

(٦) المرجع السابق ١٠ .

لا تبرز ، كما يؤكد المؤلفون ، على شكل عملية احادية عادية بسرعة ثابتة . انها تخضع لما يعرف بالقانون الاسي ، اي سرعتها تتزايد طردا مع الزمن . ان نمو سكان العالم حسابيا يتضمن معدل النمو ذاته في عدد المصانع والمدن ، وهذا يتطلب نموا ثابتا في المصادر . ان متطلبات التقدم الصناعي تقرع اعلى فاعلى . تماما مثلما فكر ، حسب الاسطورة ، المخترع الذكي للشطرنج . فقد طلب من السلطان الذي اراده ان يختار مكافاته بنفسه ، ان يضع حبة ارز واحدة في المربع الاول ثم يضاعف العدد في كل مربع لاحق . في الصف الاول لمربعات الشطرنج لم يكن العدد ضخما جدا . ولكنه في الصفوف اللاحقة وصل الى الملايين فعشرات الملايين ثم احتاج الامر الى حسابات فلكية . وحتى يفي السلطان بكلمته كان عليه ان يغزو العالم ويحوله الى حقل ارز . واذ كان السلطان ميالا الى الشر فقد وجد حلا بسيطا جدا وهو ان يقطع راس الحكيم .

اليس هذا هو الحل الذي يقدمه أساتذة نادي روما ، وقد وجدوا انفسهم لاحول لهم تجاه متطلبات التقدم العلمي والتكنولوجي ؟ هناك سبيل واحد لتجنب الكارثة الوشيكة ، وهذا السبيل ـ كما يقولون ـ هو وقف التزايد السكاني في العالم ، وفي الوقت نفسه زيادة نمو الانتاج الصناعي . وبعد أن حسب جماعة روما بمساعدة الكومبيوتر الديناميكيات المحتملة لهذه العوامل الخمسة للتطور ، وصلت الى نتيجة هي انه يجب ان يتوازن معدل نمو الوفيات ، وان التوظيفات الراسمالية يجب الا تتجاوز الاعتمادات المخفضة . في رايهم يجب ان يحتل الثبات محل النمو . يكتبون « في الواقع نحن نؤمن ان تطور المجتمع الذي يلائم التجديد والتطور التكنولوجي ، مجتمع قائم على العدل والمساواة ، يمكن الوصول اليه في حالة التوازن العالمي اكثر من حالة النمو التي نعانيها اليوم » (٧) .

هذه هي النتيجة التي وصلوا اليها . ومع انهم في تقريرهم يولون الاهتمام الى القضايا الهامة فعلا والمتجذرة في الراسمالية المعاصرة ، فان مفهوم النمو المعدوم ليس موصلا الى الحل الصحيح . انه مفهوم طوباوي ورجعي معا .

**طوباوي** لانه تحت ظروف المنافسة الراسمالية والسباق الى الربح لا يمكن ابدا فهم تجميد نمو الانتاج ، والاحتكارات نفسها لن توافق عليه لانها يستحيل ان توجد من غير تراكم راس المال .

رجعي لانه متجذر في الحفاظ على الحالة الاجتماعية القائمة ، ويفترض

---

(٧) المرجع السابق ١٦٥ .

ان الطبقة العاملة في الاقطار الراسمالية ان تقوم بتضحيات مادية اخرى البطالة المتزايدة وتخفيض في الاستهلاك وتدن في مستوى الحياة العام ... وهلمجرا – من اجل تثبيت الراسمالية ان الطبقة العاملة في العالم البرجوازي ستزداد الما .

ان مفهوم النمو المعدوم اعد ايديولوجيا لافساد الطبقة العاملة والقوى الديمقراطية ، لانه يكشف السمة الحقيقية للازمات المتفاقمة في الراسمالية المعاصرة . واذ يضع هذا المفهوم اللوم في صعوبات البشرية على العوامل المادية والتكنيكية والديمغرافية ، فانه يرمي الى كسر حدة الصراع الطبقي .

## المشروعان : الثاني والثالث لنادي روما

**وقف النمو** تقرير سبب ضوضاء بين الايديولوجيين الغربيين . في المناقشة التي تلت ، بعض فرضياته وضعت موضع التساؤل ، وبعض تنبؤاته اختيرت ، وبعض اطروحاته انتقدت .

في النهاية اضطر نادي روما ان يرفض النتائج التي وصل ميدوز وفريقه لا بسبب اقتراحه بعض الاخطاء والنواقص ، ولكن بسبب ان مفهومه عن النمو المعدوم يصطدم مع مصالح الراسمال الاحتكاري .

عندها فقط ظهر التقرير الثاني لنادي روما . وضعه الاختصاصي الاميركي في انظمة التحليل البروفسور ميزاروفيك من جامعة كيفلاند ، والبروفسور الالماني الغربي ادواد بستل (٨) . ومع ان التقرير الثاني لم يكن جذريا في استنتاجاته ( المؤلف لم يرفض النمو الاقتصادي عامة ، بل طالب بالحد منه ) فانه يحتفظ تماما بالملخص العام لتفسير النادي السابق .

ان المؤلفين يتحدثان ، مثل سابقيهم ، عن الوضع الخاص للراسمالية المعاصرة . النبوءة انه حوالي عام ٢٠٠٠ الى ٢٠٢٥ سيكون هناك انفجار سكاني لم يسبق له مثيل في العالم ، وسوف تشح المصادر الطبيعية ، والتفاوت الاقتصادي بين الاقطار الغنية والاقطار الفقيرة سيزداد هوة

---

(٨) ميزاروفيك وبستل « البشرية في نقطة الانعطاف : التقرير الثاني لنادي روما » نيويورك ١٩٧٤ .

ويؤدي الى تفاقم التناحرات الداخلية والعالمية . وحتـــى ندرا « يوم الدينوته » ينصح المؤلفان بالاخذ بما يعتبرانه مقاييس حاسمة جـــدا . ففي رايهما أن النظام العالمي لابد من ان يجري الاعتراف به مـــن حيث الاساس . والا فان ثمـة خطراً لنتائج النمو « السرطاني » مـــع سماتـــه النوعية ، بالطبع في شتى الاجزاء المختلفة من العالم . وعلى العكس تحت ظروف النمو العضوي ، فان العلاقات الوثقى بين شتى المكونات تسيطر على كل واحد منها .

وبما أن الانسانية كلها وصلت الى نقطة حاسمة فان عليها الاختيار : اما الاستمرار بالنمو السرطاني ، أو الانتقال الى النمو العضوي .

ويقترحان بصراحة أن على النظام العـــالمي أن يعـــاد تنظيمه من حيث الاساس . فيقدمان وصفات غامضة ونصائح عملية وفي المدى البعيد فانهما لا يرميان الى تحرير البشرية من كـــل ما يثقلها بقـــدر ما ينقذان الراسمالية باعادتها الى وظيفتها بصورة اشد فعالية . ولا يتم هذا الا بتضييق الفجوة بين الانســـان والطبيعة . وفي وصفات فيراروفيك وبستل نجد تجاهلا ، بدرجة متساوية لديهما ، ان هناك في العالم نظامين ، وأن للراسمالية ذاتها قـــوانين تطورها الداخلي . وبشكل عام فانهما أبعـــد من ان يصلا الـــى غرضهما ، ولا امـــل في طرائقتيهما .

فمثلا عندما يقدمان فكرة النمو « العضوي » أو « المتوازن » التـــي كما يريان يجب أن تحتل مكان « النمو المتباين وغير المتوازن » الجاري حاليا ، لا يجدان ما يقولان حول اهم شيء ــ كيف نحقق هذا في ظل اقتصاد الراسمالية الفوضوي وغـــير المخطط .

يذهبان الى ان التفسير المتمايز للقضايا العالمية سوف يحتل جزءا هاما في هذا الصدد . جاء في دراستهما : « ... بالعودة الى التقاليـــد المشتركة ، والتاريخ ونمط الحياة ومرحلة التطـــور الاقتصادي والتنظيمات الاجتماعيـــة السياسية والقضايا العامة المشتركة التي تربط بين هذه الامم ، فان العالـــم ينقسم الى عشرة مناطق ١ ــ اميركا الشمالية ٢ ــ أوروبا الغربية ٣ ــ اليابان ٤ ــ اوستراليا وجنـــوب افريقيا وبقية اقطـــار اقتصاد الســـوق المتطـــورة ٥ ــ أوروبا الشرقية ، بمـــا فيها الاتحـــاد السوفياتي ٦ ــ امـــيركا اللاتينية

٧ ـ شمال افريقيا والشرق الاوسط ٨ ـ افريقيا المدارية ٩ ـ جنوب وجنوب شرق آسيا ١٠ ـ الصين(٩) .

ان غرض المؤلفين في التقرير الثاني الى نادي روما هو تقديم تفسير متمايز لقضية ترتبط بالتوقعات البعيدة لتطور العالم ، ويمكن ان يرحب به ان لم يكن من أجل الحقيقة التي ظهر التمايز فيها ، فعلى الاقل من أجل اعتسافه وتحيزه . ان محاولتهما لجمع كل الاقطار من راسمالية واشتراكية ومتطورة ومتخلفة في « نظام عالمي جديد » يفضح بجلاء البواعث الخفية لهذه المخططات . ان غرضهما هو تمكين المنظور الراسمالي للتطور العالمي ، وفوق ذلك ، الابقاء على حالة تبعية الاقطار النامية تحت شعار التكامل . وحتى نكون اكثر دقة ، فان البديل الاشتراكي للتطور العالمي مرفوض من اجل خلق « نظام عالمي واحد » .

في ١٩٧٤ أنشأ نادي روما فريقا للعمل في المشروع الثالث . كان المهمة هذه المرة صياغة اجابة عن مطلب الاقطار المتطورة من اجل وضع نظام اقتصادي جديد . وبرئاسة الاقتصادي الالماني الشهير ، صاحب جائزة نوبل، جان تنبرجن قدم الفريق تقريرا بعنوان « بحث في النظام العالمي »(١٠) .

ومثل محاولتي النادي السابقتين للاجابة عن المطالب الملحة للعصر ، كذلك التقرير الثالث يشتمل على عدد ضخم من اللاحظات المفيدة ولكن النواقص ذاتها تظل في هذا المشروع مثل سابقيه . وحالما يلامس المؤلفون القاييس العملية فان التباين بين ادعاء ايجاد حل للموضوعات العالمية الملحة والتوصيات المريبة يصبح ظاهرا بوضوح . ولا نكران ان المؤلفين يختبرون مجالا واسعا من القضايا ، تبدأ من احداث شكل جديد للمجتمع المعاصر ، ومؤسسات النظام الدولي الجديد ، والعلاقات الدولية الجارية ، حتى اعادة توزيع الدخل والتمويل العالمي للاقطار المتطورة ، والتقسيم الصناعي والعالمي للعمل ، وانتاج الطعام والطاقة والمواد الاولية والسيطرة على الشركات المتخطية الحدود القومية ، وتبادل التكنولوجيا ، وبتر التسلح . ويغامر المؤلفون في بحثهم الثالث في ربط حل تلك القضايا بالموضوعات الاجتماعية المعاصرة . يدعون انهم « لا يعتقدون أن مقترحات التغيير يمكن ان ترتبط بالعلاقات

(٩) المرجع السابق ص ٤٠ .

(١٠) تنبرجن ـ دولمان ـ التجر « بحث في النظام الدولي » تقرير الى نادي روما » نيويورك ١٩٧٦ .

الاقتصادية بين الامم ، وان العالم اعقد من ان تشمله نظرة اقتصادية خالصة. ان اقامة « النظام الاقتصادي الدولي الجديد » يستدعي تغيرات اساسية في المظاهر السياسية واجتماعية والثقافية وبقية المظاهر في المجتمع ؛ تغيرات تقيم « النظام الدولي الجديد »(١١) .

بيد ان مثل هذا التصريح معلق في الهواء طالما أن المؤلفين ينحرفون فعلا عن الوقائع الاجتماعية الاقتصادية الملموسة لعصرنا : انقسام العالم الى نظامين ، والسياسة الكولونيالية للقوى الامبريالية ، وتفاقم الصراع الطبقي والايديولوجي العالمي ... وهلمجرا . ان ارشاداتهم العملية ـ اقامة مصرف عالمي للمنظمات لمعالجة الطاقة والمصادر الطبيعية والطعام والتوظيفات الصناعية والقضايا الاخرى ـ عاجزة للسبب نفسه . ان وظائف هذه الهيئات وصفت بمقاطع غامضة جدا لان المؤلفين ينظرون الى العالم كنوع من كل عام ، كنوع من تجريد منفصل عن مجرى الاشياء الفعلي .

واذ يقرون اساسا باستعصاء الوضع الحالي للعالم الراسمالي ، فانهم في التقرير الثالث الى نادي روما يقدمون دليلا آخر عن عجز الفكر الاقتصادي البرجوازي عن ايجاد حل جذري للقضايا المطروحة .

يستنتج انه في المؤلفات الثلاثة المختلفة التي قدمتها فرق عمل برئاسة ميدوز ثم ميزاروفيك وبستل وتنبرجن ، لا نجد غير دراسات نظرية للنادي ليست في حقيقتها اكثر من دفاع طوباوي بأشكال مختلفة عن الراسمالية . انهم يقدمون مقترحات اعادة التجديد التي تترك كل شيء كما هو ، من غير ان تؤثر ادنى تأثير في أعمدة الراسمالية ؛ وليس اكثر من التعبير عن الآمال الافلاطونية والنصائح الجبانة لحكام العالم الراسمالي لتخفيف شهيتهم .

من جهة اخرى فان مفهوم « الكارثة العالمية » اعلان صريح لواقع ان النمو الاقتصادي لا يستطيع حل قضايا الراسمالية ، وان استغلال منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية في ظل الراسمالية يقود الانسانية الى الطريق المسدود . اليس هذا اعلانا عن افلاس العلاقات الاجتماعية الراسمالية ؟ لعصور عديدة كانوا يعتبرون ان النمو الاقتصادي والراسمالية لا يفترقان . لقد بحث أيديولوجيو البرجوازية دائما لاثبات ان النمو الاقتصادي ضروري ومرغوب فيه . فاذا كانوا اليوم يتحدثون عن « النمو المحدود » أو « تحديد النمو » أو « النمو المعدوم » الا يثبت ذلك أن القدرة الراسمالية تتقلص ، وانها لا تستطيع ان تفعل الا في حدود معينة ؛ وان احتياطيها يستنزف ؟

---

(١١) المرجع السابق ص ٥ .

## الغــاز « نوعيــة الحيــاة »

لا حاجة الى القول ان الايديولوجيين المعادين للشيوعية يبذلون قصارى جهدهم ليمنعوا الجماهير من التحقق ان الراسمالية مقضي عليهـا . في بعض الاحيان الآن يستخدمون شعار تحسين « نوعية الحيـاة » كاضـاءة لتحقيق هذا الهدف . لقد وضع غالبريت هذا المصطلح في التداول . ولكـن في حـين استخدم الاستاذ الاميركي هذا المصطلح ليؤكد ببساطة ضرورة القضاء علـى الفقر ؛ فانه ، اي المصطلح ، حمل بالتدريج تفسيرا واسعا وعلـى الاخص في أوروبا حيث التقطه برغبة جامحة ايديولوجيـو البـراجوازية والاشتـراكية الديمقراطيـة .

هؤلاء الذين لا يؤمنون بان القضايا التي تواجه البشرية يمكن ان تحـل بمساعدة الوسائل التكنيكية والنمـو الاقتصادي ، يرجعون الـى الفيلسوف الالماني الغربي جورج بيخت . ان بيخت يؤكد « ان مستقبل الجنس البشري يعتمد على ما اذا كانت القفزة النوعية سوف تنهض بالاخلاق الجمعية والفكر الجمعي الى مستوى اعلى او لا تنهض . . . ان المستقبل المنشود لا يهبط مـن القمر نتيجة مثل هذه المنجزات ، مهما كانت ضرورية ؛ تسـرع فقط عمليـة الدمار اذا لم يخلق النظام السياسي والاجتماعي الذي يستخدم هذه المصادر استخداما عقليا » ويصل الفيلسوف الالماني الى النتيجة التاليـة : « يمكـن للبشرية ان تؤمن مستقبلهافقط بمساعدة الخرقالاخلاقي والروحي الذيلن بكون له مثيل في التاريخ »(١٢) .

وجد ايديولوجيو الغرب مثل هذا التفسير العريض للقضية اكثر اقناعا . انهم اعتبروه برنامجا مشتركا انبثقت منه تيارات مختلفة في الفكر البرجوازي للستينات والسبعينات ، يمكن أن تنشأ ويساعد كل منها الآخر . والحقيقة ومن غير رفض « الحتمية التكنولوجية » في حياة المجتمع الحديث ( مفهومات « الصناعية » وما « فوق الصناعية » ) ؛ فان مناشدة تعزيز « نوعية الحياة » هي في الوقت ذاته تحذير ضد النمو الاقتصادي المفـرط ( مفهـوم الكارثـة البيئوية ) . وكذلك جرى التأكيد على فكرة ان العالم اليوم يقف علـى عتبـة

---

(١٢) انظر جورج بيخت ( Mut zurutopie ) ميونيخ ١٩٧٠ ص ١٤٥ .

تغيرات عميقة بحيث تتراجع امامها وتتضاءل التغيرات الاشتراكية ، بل تصبح لا معنى لها .

ان ستار « نوعية الحياة » وضع ، قبل كل شيء ، ليحول اهتمام الجماهير عن تناقضات الراسمالية ، من طمس التناحرات الاجتماعية التي تعمية واقع ان استغلال العمال تضاعف ، والى انتزاعهم من المنحى الحقيقي لانتقال المجتمع انتقالا ثوريا . انه لم يطرح الا لخلق الوهم ان تحسين الظروف الاجتماعية لصالح الطبقة العاملة ـ الغاء الفقر وتخفيف البطالة وتحسين الصحة العامة والفرص التثقيفية وظروف العمل والفراغ وصيانة الحرية والكرامة للفرد ـ هو امر ممكن في ظل الراسمالية . ويدعون أنه حتى بتحقق هذا لا بد من تثبيت النمو الاقتصادي ( مهما كانت صراعاته مع علاقات الانتاج الراسمالية واضحة ) وتغيير مظهر المؤسسات البرجوازية القائمة بالاعتماد على الفهارس النوعية ( على النقيض من الاقطار الاشتراكية حيث التحسينات « النوعية » ) .

شارك في هذا الراي عدة قادة من الاشتراكيين الديمقراطيين . انهم يؤكدون ان تحسينا ما في المؤسسات البرجوازية هو كل ما يلزم حتى يعتبر المجتمع البرجوازي مجتمعا غير راسمالي ، او بالاحرى يعتبر « اشتراكية ديمقراطية » . ويصرح أحدهم وهو هانز جوشن فوغل « نوعية الحياة هي الفكرة المركزية للاشتراكية الديمقراطية »(١٣) .

ان قادة الجناح اليميني في الاشتراكية الديمقراطية يتمسكون بكل حماقة بالتوقعات التي يشير اليها مثل هذا التفسير امام الطبقة العاملة . وقد جاء في برنامج الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني : « نوعية الحياة »ليست مستوى عاليا من الحياة . انها تعني الحرية ، بما في ذلك التحرر من الخوف، وتعني الفرصة لتقرير المصير والتحقق الذاتي والمساهمة في الادارة والمشاركة في المسؤولية وفرصة تطبيق الطاقة في العمل ... للانسجام مع الطبيعة والحصول على القيم الثقافية ، وفرصة للحفاظ على الصحة أو استعادتها . نوعية الحياة تعني اغناء حياتنا متجاوزة حدود الاستهلاك المادي » (١٤) .

---

(١٣) فرانكفورت راندشو ٢٤ ك أول ١٩٧٣ .

(١٤)برنامج الحزب الاشتراكي الديمقراطي الالماني ١٩٧٣ ص ٧٢ .

على أي حال كل هذه الفرضيات لتحسين نوعية الحياة للطبقة العاملة ستظل جوفاء طالما انه ليس هناك ضمانة لتنفيذها . وهذه الضمانة لن تكون الا قوة الطبقة العاملة ذاتها .

واذا ما اختبر مفهوم « نوعية الحياة » بالعلاقة الجدلية مع الظواهر الاخرى ، فانه محدد منذ حوالي قرن في مؤلفات مؤسسي الشيوعية العلمية. فقد كتب ماركس وانجلز في « الايديولوجيا الالمانية » : « يجب الا نعتبر هذه الطريقة في الانتاج ببساطة مثل اعادة انتاج الوجود المادي للافراد . انها بالاحرى شكل محدد من التعبير عن حياتهم ، **طريقة حياة** محددة من جانبهم . وكما يعبر الافراد عن حياتهم كذلك هم يكونون . ان ما هم عليه . . . يتفق ( بانتاجهم ) مع كل من ما انتجوا وكيف انتجوا . ولذلك فان الافراديعتمدون على الظروف المادية لانتاجهم »(١٥) .

ان مفهوم « نوعية الحياة » هو قبل كل شيء مفهوم اجتماعي . ومؤشراته الرئيسية هي : اولا اي قيم اجتماعية ، مادية وروحية يمكن ان يحصل عليها المجتمع . ثانيا ، من وتحت أي ظروف تخلق هذه القيم ثالثا كيف توزع بين الاعضاء . رابعا كيف يطور هذا التوزيع الشخصية الانسانية، لان الانسان ، في التحليل الاخير ، هو مقياس كل الاشياء ، وبالتالي فان قيمة اي مجتمع يعتمد على كيفية تحقيق الانسان لمتطلباته المادية والروحية .

وبعد فان كل تجربة تطور المجتمع الراسمالي تثبت انه مهما كانت القيم متراكمة ، فان النظام الراسمالي يظل نظام الاستغلال والتفاوت والتناحرات الطبقية العميقة . انه أعجز من أن يحل اي قضية جذرية تواجه البشرية . ولا اهمية للفرضيات التي يقدمها ايديولوجيوه ، يبقى النظام الراسمالي نظاما غير عادل ، نظاما يقوم على التناقضات الطبقية والبطالة وعدم ضمانة المستقبل ، نظاما من الانحطاط الاخلاقي ، من الفساد والجريمة فكيف يمكن الحديث عن انجاز ما في « نوعية الحياة » في ظل الراسمالية عندما يكون تكديس الارباح من خلال استثمار الطبقة العاملة من غير اي اعتبار غيري هو ، وسيبقى ، القوة المحركة الرئيسية لذلك النظام ؟ ولا يمكن حتى للمشروعات الانسانية ان تغير هذا الوضع .

انه لشيء آخر أن ايديولوجيي الامبريالية اضطروا الى طرح المسالة حول الحاجة الى رفع نوعية الحياة والحديث عن قضايا امثال القضاء على

(١٥) ماركس ـ انجلز « المؤلفات الكاملة » جـ ٥ ص ٣١ ـ ٣٢ .

الفقر وتحسين الصحة العامة والثقافة وشروط العمل والراحة والحرية وكرامة الفرد . لقد دفعوا الى هذا بسببين .

اولا انهم اخذوا بالحسبان حقيقة ان تلك القضايا قد حلت بنجاح في ظل الاشتراكية . وينجم من ذلك ان دعوة تحسين « نوعية الحياة » ليست اكثر من ردة فعل ديماغوجية لايديولوجيي البرجوازية على التحدي الاشتراكي . ولكن الدعاية البرجوازية تقلب هذا المفهوم الى اداة لسياستها ، فتنزع منه المعنى الذي اودعته فيه ايديولوجيا الاشتراكية ، وتضعف جوهره وتجعله مطابقا للمقاييس الغربية .

ان ايديولوجيي البرجوازية الاحتكارية تعتبر شعار « نوعية الحياة » كبديل للاشتراكية ، بحيث لا تستدعي الاوضاع القائمة في العالم الراسمالي غير تعديل طفيف على النظام الجاري وليس تغيرا جذريا .

ان الدوائر الحاكمة في السلطات الامبريالية تسعى لاستخدام هذا الشعار كاستجابة على التحديات التي واجهتهم بها الثورة العلمية التكنولوجية والصراع الطبقي في الاقطار الاشتراكية . وفوق كل هذه الاعتبارات فان اعادة قوة العمل في مجال التقدم التكنولوجي السريع لا يمكن فهمه من غير نفقات اضافية لاوقات الفراغ والصحة وتحسين شروط العمل . ان البرجوازية تلجا الى هذه الاجراءات لا لاعتبارات اخوية بل بغية تلبية طلبات الانتاج ذاته وجمع ارباح . ومن جهة اخرى فان المستوى الحالي للصراع الطبقي في الاقطار الراسمالية لا يترك للبرجوازية خيارا سوى اللجوء الى تكتيك التنازل للطبقات الكادحة .

ان الشيء الرئيسي الملاحظ في هذا الصدد هو انه لا يوجد تفسير موحد للمفهوم الحقيقي لـ « نوعية الحياة » . ان تجربة الراسمالية وتجربة الاشتراكية في هذا المنحى متعارضتان بشكل كامل الا اذا كان التقدير محدودا بالمقارنات السطحية .

اخيرا ، الا يبدو للايديولوجيين البرجوازيين انهم طفقوا يتحدثون عن « نوعية الحياة » بعد فوات الاوان ؟ اما واقع ان هذا الموضوع قد طرح في الغرب بعد لا اقل من ثلاثة قرون من حكم البرجوازية في اوروبا لهو اقرار غير مباشر بالحقيقة المرة وهي ان الراسمالية عاجزة عن ان تحل هذه القضية لصالح الجماهير .

★ ★ ★

وهكذا من العرض السابق لمفاهيم الامبريالية الايديولوجية الاساسية ينكشف التطور العام للفكر البرجوازي والاصلاحي المعاصر . لقد خضع لتحول عنيف خلال الخمسين سنة او مئة السنة السابقة . فمن نشاط الخمسينات تحرك بسرعة التقريظ الكبير للتطور الراسمالي ، ثم غرق في اعماق التشاؤمية ، مدعما تنبؤه عن القيامة القادمة بالدعوة الى « تحسين نوعية الحياة » التي تستحيل في ظل الراسمالية .

كانت فترة بذل فيها ايديولوجيو الامبريالية نشاطهم المسعور والعقيم للعثور على البديل الايجابي للشيوعية . عدة مفاهيم نظرية للاساتذة البرجوازيين ضخمت المظاهر الفردية للواقع الجاري ، وفي الوقت نفسه اشتملت على بعض الملاحظات المجدية . ولكن ليس ثمة مفهوم يقدم صورة موضوعية للحياة الاجتماعية ككل ، ولذلك لا يمكن ان يدعي انه مذهب ايديولوجي . ان كل ماقدمته البرجوازية حتى الآن هو تعليمات منفصلة عن الحياة وتقارير انسانية في طريق مسدود ومجهودات لحذف القضايا النوعية للعصر تحت ستار ديماغوجي من « القواعد » الجديدة للتقدم التاريخي . انها أعجز من أن تصمد أمام التحليل الماركسي اللينيني للمرحلة المعاصرة .

# الفصل السادس

# انحطاط ..
# الرأسمالية العالمية

اقض على السبب تقض على المرض
ابوقراط

## تحليل لينين للامبريالية

منذ اكثر من ستين عاما ، في صيف ١٩١٦ ، اكمل لينين كتابا بعنوان « الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية » الذي حدد في عدة مجالات ، وبشكل مسبق ، ستراتيجية حركة التحرر العالمية وتكتيكها للعقود المقبلة .

كانت فترة ظهرت فيها سمات جديدة نوعيا في تطور الراسمالية : التناقضات بين العمل وراس المال اتخذت اشكالا حادة لم يسبق لها مثيل ، وصراع القوى الامبريالية من اجل اعادة اقتسام مناطق النفوذ انتج حربا عالمية . وقد ادى تطور العلاقات الراسمالية الى ازمة جعلت البشرية على حافة الهاوية .

كان كتاب لينين ردا على الوضع التاريخي في تلك الفترة . فقد اوضح الاسباب الاساسية وميكانيزما تطور الراسمالية الى امبريالية ، وفضح السمات النوعية والتناقضات المتعمقة للامبريالية . وفي كتابه حدد لينين مكانة الامبريالية في التاريخ كعتبة للثورة الاشتراكية . ان انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية في ١٩١٧ بعد عام ، أو أكثر بقليل اثبت هذه النتيجة التنبؤية . ولم تكن العقود اللاحقة اقل اثباتا لبقية نتائج لينين .

الا ان الحياة كانت تدعم تحليل لينين للامبريالية . وكلما كانت تدعمه كان ايديولوجيوها يبذلون أقصى الجهود لاثبات العكس . لقد استخدموا كل ذريعة ليؤثروا في الطبقة العاملة ان تحليل لينين العلمي ناقص . يدعون ان قائد الثورة الاشتراكية لم يستطع التنبؤ بالظواهر التي تولدت من التطور اللاحق ، ومن اجل هذا « قلل من تقدير قدرة » الراسمالية ، وحتى انه بالغ في تصوير حدة تناقضاتها الاجتماعية ، وبهذا يغمزون الى أن استنتاجاته كانت خاطئة .

والى جانب النقد المنحاز لمؤلفات لينين ، لام ايديولوجيو البرجوازية الشيوعيين لتبسيطهم الواقع . ان الاعتقاد ان في عصرنا والعصر السابق ثمة ظاهرة معقدة جدا من التطور الاجتماعي اكثر مما تصور كلاسيكو الشيوعية العلمية . ومن هنا كانت الاتهامات بروح المحافظة للماركسية التي - كما يزعمون - تجاهلت الفرص الجديدة التي اتيحت للراسمالية في السنوات الحالية . وقد ليم الشيوعيون لعدم تمتعهم بالمرونة مما يعميهم عن رؤية بعض القضايا الاجتماعية السياسية الجديدة الملحة .

ان العيارين البرجوازيين والتحريفيين الذين تأكدوا من استحالة « فضح » و « تصحيح » و « تجاوز » لينين واتباعه لم ينقدوا الافكار الشيوعية . ان ما هاجموه فعلا هو نوع من النظرية المشوهة التي اختلقوها هم بانفسهم ، والتي لا علاقة لها باللينينية . والواقع انهم لم يختبروا عملية حقيقية في التطور التاريخي ، وانما الظواهر الفردية والمبتسرة والمعزولة .

منذ عدة عقود تنبأ لينين بالمبادىء الرئيسية للصراع الايديولوجي الذي سيتسع عندما تدخل الراسمالية مرحلة الامبريالية في تطورها . كتب : « نحن هنا امام ما هو جوهري في التقييم النظري للمرحلة الاخيرة من الراسمالية ، اي الامبريالية ، وهو أن الراسمالية سوف تصبح رأسمالية احتكارية . وهذه الاخيرة يجب التأكيد عليها ؛ لان التأكيد البرجوازي الاصلاحي الخاطىء بأن الراسمالية الاحتكارية او احتكارية الدولة ليست اكثر من راسمالية ولكنها الآن تسمى « اشتراكية الدولة . . . معروف جدا » ويتابع لينين ملاحظا أنه على الرغم من بعض التغيرات « لا نزال في ظل الراسمالية - في مرحلتها الجديدة . هذا صحيح . ولكنها لا تزال راسمالية من غير شك . ان « اقتراب » مثل هذه الراسمالية من الاشتراكية يجب ان يستخدمه ممثلو البروليتاريا بحجة تثبت اقتراب وسهولة وضرورة الثورة الاشتراكية ، وليس حجة لدحض مثل هذه الثورة وجعل الراسمالية تبدو اكثر جاذبية ، وهو ما يحاوله جميع الاصلاحيين » (١) .

وفي كتابه « الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية » اثبت ان تمركز الانتاج والراسمال ( نتيجة تطور التقدم التكنيكي والقوى المنتجة ) سيتيح للراسمالية المنافسة الحرة فتنقلب الى راسمالية منحطة محتضرة ، أي الى

(١) لينين « الدولة والثورة » المؤلفات الكاملة مجلد ٢٥ ص ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

اميريالية ، المرحلة الاخيرة للراسمالية ، وعشية الثورة الاشتراكية .

كتب لينين : « الامبريالية مرحلة تاريخية نوعية للراسمالية . سمتها النوعية ذات اوجه ثلاثة : الاميريالية ١ ــ راسمالية احتكارية ٢ ــ طفيلية ، أو راسمالية متفسخة ٣ ــ راسمالية محتضرة (٢) .

ان الهجوم الرئيسي لخصومنا الايديولوجيين يتركز ضد هذه النتائج الاساسية لسبب بسيط وهو انه بتحليل الراسمالية انكشف مصيرها التاريخي ، وافتضح الجوهر الحقيقي للصراع الطبقي المعاصر ، وتحدد بشكل مسبق تداخل القوى المتعارضة . لانه اذا تتابعت عملية احتكارية رأس المال وطفيليته ازدادت ، فان هذا يعني أن الشيوعيين على حق عندما نحدثوا عن استقطاب القوى الطبقية في العالم البرجوازي ، وعن تعاظم التناقضات التناحرية ، والشروط الموضوعية المسبقة لزوال الراسمالية . واذا كانت هذه العمليات من جهة أخرى لم تلاحظ ، تكون النظريات البرجوازية في تجديد الراسمالية غير مبنية على الرمال . فما الوضع الحقيقي ؟ دعنا نرجع الى الوقائع .

## تمركز الراسمال لا تهمه مصالح الكادحين

كل النظريات التي صبغت جوهر الامبريالية لم تستطع تغيير حقيقة أن تمركز الراسمال والانتاج ، وبالتالي الارباح ليس فقط سمة نموذجية للاقتصاد البرجوازي وانما ايضا قانون يحكم نموه . الاحتكارات لا تضيع يوما واحدا من غير أن تحقق الحد الاعلى من الارباح . ولكن بما أن حجم الارباح يعتمد على حجم نمو الراسمال ومعدله ، فان الاحتكارات تكافح فعلا لتحقيق اعلى ما يمكن من التمركز .

اشار لينين الى هذا القانون العام . ولكن عندما ظهر كتابه « الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية » كان ثمة بضع شركات تسيطر على فروع الصناعة : شركة فولاذ الولايات المتحدة في صناعة الفولاذ . شركة ستاندرد اويل في صناعة الزيت وشركة جنرال موتورز في صناعة السيارات . اما اليوم فيبلغ عدد الشركات الاحتكارية الكبرى ٣٥٠ تسيطر على الانتاج . وتوظف ثلثي

---

(٢) لينين « الامبريالية والانشقاق في الاشتراكية » المؤلفات الكاملة مجلد ٢٣ ص ١٠٥ .

القوى العاملة في العالم الراسمالي . في فرنسا ، مثلا يتالف الاحتكار والتضخم الكبير من ٢٥ شركة صناعية ومالية . وحوالي ٢٠٠ عائلة في يدها مفاتيح الاقتصاد . وفي الولايات المتحدة تسيطر ٥٠٠ شركة على ثلثي الانتاج الصناعي وتحقق ثلاثة ارباع الارباح في هذا الميدان (٢) .

في عصرنا يسير الانتاج الى التمركز بخطوات حثيثة . وهذا امر طبيعي جدا فقط بالنظر الى عوامل هامة يختلقها عمدا والايديولوجيون البرجوازيون والاصلاحيون .

**اولا** ، عملية التمركز والتركيز لم تنتشر الآن في ظل ظروف الثورة العلميـة والتكنولوجيـة .

ان التخصيصية والعصرنة التقنية للانتاج خلقت الطلبات من اجل مضاعفة انفاقات راس المال والتعاون الاقتصادي ؛ اي من اجل تشريك الانتاج . ومن المعروف تماما ان هذه العوامل في ظل الراسمالية تعود الى مركزة راس المال . ومن جهة اخرى فان الراسمالية باستخلاصها زبدة التقدم التكنولوجي تهيات في الاقطار الصناعية العليا لتحقيق نمو ملموس للقوى الانتاجية . ومنذ الحرب ، على سبيل المثال ، تضاعف انتاجية العمل في هذه الاقطار عدة مرات . وفي الوقت نفسه كانت زيادات الاجور ابطا كثيرا . وهكذا فان مستوى استغلال الكادحين في ظروف الثورة العلمية والتكنولوجية في العالم الراسمالي لم يتراجع ، بل على العكس ارتفع بشكل مطرد .

بذلت الدعاية البرجوازية قصارى جهدها لتخفي هذه الحقيقة لسبب بسيط وهي انها تفضح المصادر الفعلية لـ « المعجزة الاقتصادية » في العالم الراسمالي في الستينات . لقد كانت على حساب الزيادات الاقتصادية ، اي القيمة الزائدة ( التي وفرها التقدم في تطوير وسائل الانتاج ) ، والتوسيع البعيد للعمل والسلب المستمر للاقطار غير المتطورة التي وعدت الراسمالية لفترة ان تحقق لها ازدهارها المزعوم . ولكن ماذا كانت عاقبة نمو الانتاج في ظل الراسمالية ومصالح من خدم ؟ تفضل الدعاية البرجوازية الا تتفوه بشيء في هذا الصدد . ومع ذلك فانها قضية اساسية هامة . ان

---

(٢) انظر « المجلة الماركسية العالمية » ١٩٧٦ المجلد ١٩ رقم ١٠ ص ص ٢٢٥٢١ .

نمو الانتاج ادى الى تراكم شديد للراسمال الذي بدوره ادى الى، تمركز القوة الانتاجية في ايدي الاحتكارات الصناعية والمالية الى تعاظم سيطرتها .

**ثانيا** ، عملية التمركز تحمل طابع احتكارية الدولة . وقد ظهرت نوعيتها الجديدة في حقيقة ان الدولة البرجوازية تصبح فعلا المنظم للاتجاهات نحو التمركز . وفي هذا الاستيعاب ، وعلى الاخص في صناعات تصنيع التسليح الحديث المتعلق بالمصالح السياسية للطبقة الحاكمة وسياستها الخارجية . فانها توظف مثل هذه الروافع باعتبارها سياسات تشريعية ومالية وضرائبية ومعونات حكومية .. وهلمجرا .

ولهذا فان الدولة البرجوازية تقوم بالمهام التي كان يقوم بها من قبل الراسمال الخاص وعلى هذا لن تسعى الى المزيد من مصالح المجتمع ككل . على العكس ، فهدفها هو مضاعفة ارباح الاحتكارات سواء من استمرار استغلال الجماهير ، أو من حساب الميزانية الحكومية . وللعمل في صالح برجوازية الاحتكارات ، فان الدولة تسعى لقطف ثمار التقدم العلمي والتكنولوجي لتوسع العمل وتزيد الاستغلال ، وهكذا تسهل التوسع الخارجي . أما النفقات فتلقى على عاتق الطبقة العاملة .

**ثالثا** ، اشتداد الاحتكارات اصبح ظاهرة عالمية في ايامنا . انالاحتكارات الجبارة والاحتكارات العليا قد حطمت الحدود القومية وتقاطعت مع حدود الدولة فخلقت الشركات التي لا تنضوى تحت اسم واحد ، ويطلق عليها ما بعد القومية او العالمية او فوق القومية أو متعددة القومية .

المؤسسات الاحتكارية العالمية والمتعددة القوميات ظهرت أول ما ظهرت في مطلع القرن ، ولكنها طفقت تلعب دورا كبيرا منذ أواسط القرن . في عام ١٩٧١ سيطرت التجمعات ما بعد القومية على ٩٠٪ من مجموع توظيفات العالم الراسمالي وثلث مجموع الانتاج القومي والتجارة الخارجية . وفي ١٩٨٠ حسب بعض التنبؤات ، أو ١٩٨٥ حسب تنبؤات اخرى فان ثلاثمئة شركة كبرى متعددة القومية سوف تسيطر على ٧٥٪ من الصناعة العالمية . ومن عشر أو عشرين سنة ٧٥٪ من اجمالي الانتاج(٤) .

---

(٤) انظر ريتشارد بارنيت : الشركة الاميركية ، سلطتها واموالها وسياستها . نيويورك ١٩٧٠ ص ٢٠٢ .

ان التوسع السريع الحالي للاحتكارات العالمية هو ظاهرة يتسم بهـــا تطور الاقتصاد الراسمالي ، وفي الفترة الحالية على وجه التحديد . لاشـك أن هذه الحقيقة تعبر عـن اتجاه عام نحو عالمية الانتاج وتصدر راس المـال وتقسيم العالم بين المجموعات الاحتكارية ، التي اشار اليها لينين بوضـوح منـذ عـدة عقود .

ان المؤسسات العليا العالمية تمتلك راسمالا ضخما ، وتتمتع بحريـة كبيرة في التحرك ، ولذلك فان نشاطها قدم **للامبريالية المعاصرة مجالا لا حد له مـن التوسع الاقتصـادي** هذه « القوى العليا » المـالية ــ التجـارية ــ الاقتصادية ، التي لا سيطرة للحكومات الوطنية او السلطات المحلية عليهـا ، والحرة من قيود السياسة التجارية والمكسية ، هي دول فوق دول ، تفرض قوانينها الخاصة التي تتعدى حدود الدولة . الاحتكارات العالمية ( التـي عالميتها نفطية لسيطرة الراسمال الاميركي الضخم ) ذات مراكز قرار في كـل فروع اقتصاد الاقطار الراسمالية . وفوق ذلك ، في عدة مجالات تقـرر التطور الاقتصادي والاجتماعي لهذه الدولة وتؤثر في سياساتها . وبينمـا كانت سيطرة الراسمال الاجنبي من نصيب المستعمرات فان الاقطار المتقدمة صناعيا اليوم قد سقطت ضحية له .

والدليل على هذا نجده في عدة دراسات ، منها كتاب مفيد للاقتصاديين الاميركيين ريتشارد بارنت ورونالد مولر بعنوان « المد العالمي » وتحته عنوان بليغ ثانوي هو « سلطة الشركات متعددة القوميات » . يكتب المؤلفان بصراحة عما يسميانه امركة الاقتصاد العالمي ، ويذهب الى ان دخـول الاحتكارات الاميركية الى الاقطار الاخرى جوبه بصعوبات شديـدة ، وعلـى الاخص : الصعوبات السياسية والايديولوجية . والسطور التالية تلخص هذا الكتاب « وبما ان الشركات غير معترف بها رسميا كحكومات، فان ايديولوجيا المديرين العالميين اصطدمت ببعض البدع الوطيدة » (٥) ، ولا شك ان هذا دليل علـى السيادة الوطنية واستغلال الدول الاقتصادي والحقوق الاساسية للكادحين في ظل الديمقراطية البرجوازية .. الخ .

والى جانب تشكيل الاحتكارات العالمية على الاساس الراسمالي الخاص، شاهد الغرب ايضا **عملية التكامل المتداخل لراسمالية الدولة** . وفي هذا يمكن الاشارة الى المجموعة الاقتصادية الاوروبية التـي يمكن تحديدها بانهـا احتكارات ومصارف أوروبا الغربية .

---

(٥) بارنيت ومولر «المد العالمي : سلطةالشركات متعددة القوميات» نيويورك١٩٧٤ص٧) .

من حيث الاساس ، نشاطات الشركات العالمية وشركات الدولة المتداخلة للاقطار الراسمالية هي عمليات مترابطة . وفوق ذلك تعبر عن اتجاه واضح ، هو بالتحديد رغبة الراسمالية في تقوية مراكزها في وجه هجوم حركة التحرر العالمية . وقياسا بالمجموعة الاقتصادية الاوروبية فان شكل احتكارية الدولة للتكامل يترنح بعيدا او وراء الراسمال الخاص . لماذا ؟ احد الاسباب الرئيسية هو ولا شك مقاومة جماهير السكان العريضة .

وبينما يمكن اخفاء اقامة الاحتكارات العالية على مستوى المشروع الفردي ، حيث تمارس عملها ، كقاعدة عامة ، من وراء الكواليس ، فان تشكيل الشركات المتداخلة للدولة لا يمكن ان تبقى سرا. وعلى الرغم من مجهودات انصار « أوروبا غربية متحدة » في اقناع الجماهير أن المجموعة الاوروبية الاقتصادية هي مجموعة أمم من تسع دول ، فان العديد من الكادحين يعتبرونها حلفا من الاحتكارات . هدفها تأمين أعلى الارباح ، والحفاظ على النظام الراسمالي والصراع ضد الحركة الثورية والاشتراكية العالمية ، والمزيد من سباق التسلح تحت ذريعة مقتضيات الدفاع ( بالطبع ضد « الخطر الاحمر » ) .

ثمة سبب آخر وهو **تعمق التناقضات الداخلية للامبريالية** : ثمة تياران يتطوران في داخل الامبريالية المعاصرة : الاحتكارات والمنافسة ، واتجاهان ــ جاذب ونابذ : الاتحاد بين كل القوى للنضال ضد الاعداء الطبقيين ، وتعميق تناقضاتها الخاصة . في السنوات التي اعقبت الحرب ، وفي زمن الحرب الباردة ، وفي وضع اقتصادي ملائم نسبيا ، فان القوى الجاذبة كانت سائدة في العالم الراسمالي . وفي زمن متأخر ، وعلى الاخص في ازمة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ فان النقيض هو القاعدة : فالاندفاعات النابذة والتناقضات الامبريالية هي كانت سائدة . كان لينين مصيبا حين كتب : « ان اتجاه التطور هو باتجاه التروست العالمي الواحد الذي يمتص كل المشاريع ولا استثناء ، والدول كلها اجمع » ويرسم نتيجة اكدتها الحياة تماما : « وهذا التطور ينطلق في مثل هذه الظروف وهذه الخطوة وهذه التناقضات والتناحرات والاندفاعات ــ ليس اقتصاديا فقط ، بل وطنيا وسياسيا الخ ــ ان الامبريالية حتما

سوف تنفجر والراسمالية سوف تتحول الى نقيضها قبل ان يظهر بوقت طويل « التروست العالمي » وما « فوق الامبريالية » و « البلغمة العالمية لرؤوس الاموال المالية الوطنية » (٦) ان زمننا يثبت انه الى جانب الحصول على احتكارية الراسمال فان التناقضات القائمة في الراسمالية سوف تخلي لتناقضات جديدة .

وفي مجال القوى السياسية في الصعيد العالمي من المهم ان نشير بهذا الصدد الى ما يلي : ان اشتداد مركزة الانتاج والراسمال في الميدان القوي او العالمي يضعف الطغمة الحاكمة في العالم الراسمالي ، ويوسع جبهة الحركة المعادية للامبريالية . ان التناحرات بينهما اصبحت اكثر حدة وعمقا . هذه العملية من التمايز والاستقطاب الاجتماعي في المجتمع البرجوازي تشمل الميدانين الداخلي والدولي . ان نهم الاحتكارات الدولية يزداد عداء لصالح البرجوازية الوطنية بحيث يثير تناحرات جديدة ومعارك حادة .

وهكذا تظهر بوضوح على ضوء الواقع القائم تلك الخاصية التاريخية الاولى للامبريالية التي أشار اليها لينين اي ميلها الى احتكارية راس‌المال. ما الاجابة التي يمكن ان يقدمها عن هذه الحقيقة الايديولوجيون المعادون للشيوعية وانصار المجتمع « الصناعي » و « ما فوق الصناعي » ، انصار « النمو العضوي » او « نوعية الحياة » ؟ ان فرضياتهم ومحاولاتهم لتزييف العملية الجارية تنهار حين تواجه الواقع الذي يثبت المرة تلو الاخرى ان الظواهر الجديدة التي توجد منها كمية وفيرة في ايامنا لا تقدر ولا تفهم الا من مواقف الماركسية اللينينية ، على اساس التحليل العلمي الفعلي للامبريالية.

## الطفيلية سمة بارزة للامبرالية

وصف لينين الامبريالية ايضا انها راسمالية طفيلية متعفنة . وفي محاولةلدحض هذه النتيجة ، يلجأ الايدلوجيون المناوئون للشيوعية عادة الى حجة أنه على الرغم من تنبؤات « الحمر » فان الانتاج الراسمالي المعاصر يتابع تطوره ، ويخطوات اسرع من السابق وبما ان المسألة على هذا النحو ،

(٦) لينين « مقدمة كتاب بوخارين : الامبريالية والاقتصاد العالمي » المؤلفات الكاملة مجلد ٢٢ ص ١٠٧ .

فان تحليل لينين لا يمكن دحضه . ان المرء ليفكر ان نقد لينين للمجتمع البرجوازي اكثر دقة في استنتاجاته لو انهم اهتموا فعلا بما كتبه لينين في هذا الصدد .

انه لم ينكر قدرة الراسمالية لافي العصرنة ولا في تكييف نفسها مع الظروف الجديدة ولا متابعة النمو . على العكس . كتب في « الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية » : « من الخطأ الاعتقاد ان الاتجاه الى التلف يعوق النمو السريع للراسمالية . ابدا . في مرحلة الامبريالية ، بعض فروع الصناعة ، وبعض فئات البرجوازية وبعض الاقطار تسير ، اي هذه الدرجة او تلك ، حينا في هذا الاتجاه وحينا في اتجاه آخر . بشكل عام ، الراسمالية تنمو بصورة أسرع من قبل ، ولكن هذا النمو . الا ان هذا النمو ليس فقط يصبح متفاوتا بشكل عام ، وانما هذا التفاوت ذاته أيضا بشكل خاص في انحطاط الاقطار الغنية بالراسمال » (٧) .

انحطاط الراسمالية والطفيلية ، كما راى لينين ، يرجعان الى حقيقة ان الراسمالية اقتصاديا قد نضجت للانتقال الى تشكلية اجتماعية واقتصادية اعلى . ان النظام الراسمالي نفسه يصبح اقل واقل قدرة على استغلال المصادر المادية وقوى الانتاج وتامين التطور المعقول لصالح المجتمع لكل . ونتيجة هذا وصلت تناقضات العالم البرجوازي الى مرحلة حاسمة حيث لا يمكن حلها الا من خلال الانتقال الجذري للمجتمع .

في مرحلة احتكارية الدولة ، انحطاط الراسمالية المحتوم تاريخيا يتجلى بصورة خاصة في الاتجاه نحو النزعة العسكرية ، التي سناتي فيما بعد على دورها السلبي . هذا الانحطاط يتضح في تباطؤ معدل‌تطور القوى المنتجة ، وفي عجز الراسمالية المعاصرة عن استخدام أدنى التجهيزات والمصادر الطبيعية وعمل الانسان لصالح الجميع . وأخيرا يعبر عن ذلك في الانحطاط السياسي والاخلاقي للمجتمع البرجوازي .

تلك الظواهر ليست عارضة ولا جزئية ، انها نابعة من الطبيعة الفعلية للراسمالية وتنطبق على جميع الاقطار الراسمالية بلا استثناء . التناقض الجذري ظاهريا بين كل المؤسسات الاجتماعية والسياسية والايديولوجية

---

(٧) « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » المؤلفات الكاملة مجلد ٢٢ ص ٣٠٠ .

ومصالح الانسانية ، مثل هذه الاتجاهات سوف تنقلب على المدى الطويل ضد الراسمالية نفسها .

هل من الممكن للطبقة العاملة ان تتلاءم مع وضع يصبح فيه المركب الصناعي العسكري طفيليا شرها يمص دم الطبقة العاملة بكميات هائلة خطرة؟ وفوق ذلك تنقلب المنجزات العلمية والتكنولوجية تهديدا مميتا لكل الانسانية. ومن السخف الكلي ان الانسانية كلما نمت اغنى وفرضت سيطرتها على الطبيعة ، يصبح وجودها اقل امنا .

النزعة العسكرية طفيلية سواء في الطبيعة ام في الجوهر . انها لا تشتمل فقط على افساد مصادر العمل والمادة بل تشمل العدوى مناطق اخرى من الحياة الاجتماعية ، بل تنتقل الى كل المجتمع . كتب الثائر الالماني العظيم كارل ليبكنخت : « العسكرية تظهر اولا كجيش قائم بذاته ، ثم النظام يتعدى حدود الجيش فيشق طريقه في المجتمع عن طريق شبكة من المؤسسات العسكرية وشبه العسكرية ... » (٨) منذئذ لم يرفض اي قطر راسمالي تحت اي ظروف ( بما فيها الاوضاع الدولية ) النزعة العسكرية . وعلى العكس ، ان حكام العالم الراسمالي يبذلون كل جهدهم للتحضيرات العسكرية للحرب والنفاد الى الحياة الاجتماعية بالروح العسكرية . الهدف هو اخضاع نشاطات اقتصاد الدولة ووسائل الاعلام والسياسة الخارجية للمركب العسكري ـ الصناعي . العسكرية تعبير عن انحطاط الراسمالية المعاصرة وطفيليتها في اشد اشكالها انحطاطا وتعرية .

اشكال اخرى للطفيلية ترتبط مباشرة بتباطؤ نمو القوى الانتاجية ، تخضع للتطور . ان لدى العالم الراسمالي ، بالطبع ، امكانات لتطوير التقدم التكنولوجي ورفع انتاجية العمل ومضاعفة طاقة الانتاج . وصحيح ايضا ان التقدم العلمي والتكنولوجي قد تحقق على حساب مضاعفة استمرارية الإقتصاد الراسمالي وعدم استمراريته ايضا . والسبب الرئيسي هو أن التوظيفات لا توضع مباشرة في ميادين هامة للمجتمع ، بل توضع الميادين التي تعود باعلى الارباح . وقد ظهرت النتائج في كل مكان وهي المزيد من انحطاط الراسمالية وظيفتها .

---

(٨) « العسكرية وضد العسكرية ، مع نظرة خاصة على الحركة الاشتراكية العالمية الفتية» غلاسكو ١٩١٧ ص ٣٩ .

يؤكد ايديولوجيو البرجوازية ان التخطيط والتنظيم في الانتاج الراسمالي قد تغلب على الفوضى التي تعزى للتقدم العلمي والتكنولوجي وتنظيم الدولة . يزعمون ان الاقتصاد الراسمالي أصبح معقولا ، ويمكن أن يستوعب المنجزات الاخيرة للعلم والتكنولوجيا اكثر مما تفعل الاشتراكية. ولكنهم لا يرغبون في الاشارة الى حقيقة الراسمالية ، مع انها لا تستخدم العلم والتكنولوجيا الى آخر الشوط ، تباطيء تقدمهما وتستغل نتائجهما لاذى البشرية ان الثورة العلمية التكنولوجية تتنافى في جوهرها مع قوانين الراسمالية التي ترى ربح الراسمال ، اختيارها القسري ، اكثر مما ترى معقولية الانتاج . ان مبتكرات الثورة العلمية التكنولوجية ، مع ذلك ، تضاعف تكاليف الانتاج التي في مرحلة معينة تسبب تدنيا في الارباح . مرت مرحلة كانت فيها الاحتكارات فيما يتعلق بالتقدم العلمي التكنولوجي تبحث عن ميادين للتطبيق ، كانتاج الاسلحة ، مثلا ، الذي يؤمن نموا ثابتا في الارباح . وبكلمة أخرى ، بتمكين الاقطار عالية التصنيع من تطوير قدرتها التكنولوجية الى فترة معينة من الزمن وانتاج المزيد من البضائع ،والاسلحة، فان الثورة العلمية التكنولوجية ستبقي على الغني غنيا . ومن جهة اخرى ستغير ، ولكن ليس في موضع تغير الطبيعة الطفيلية للراسمالية . وفوق ذلك سوف تزيد من تفاقم صراع الراسمالية مع الطبقة العاملة .

هل يمكن للمرء أن يتحدث جادا عن تحسين « نوعية الحياة » عندما تكون البطالة والتضخم وتكاليفالحياة في تزايد مستمرفيالاقطار الراسمالية. بالطبع ليست هذه الظواهر جديدة على الراسمالية . ولكن في السنوات الحالية أصبحت هذه الظواهر شؤما . ان البطالة الضخمة الآن ظاهرة مزمنة، عامل مستمر في الواقع الراسمالي ، ولا تتوقف عن الانحطاط حتى فيفترات فعالية العمل النشيطة . ان ملايين الناس لا تنتزع من عملها موقتا كما كان في الماضي . وانما يجدون انفسهم بفقدان عملهم بعيدين عن المشاركة في عملية الانتاج ، وما دام المرء في ظروف العمل الحالية لا يستطيع ان يجد وظيفة ، فانه يفقد مهارته وبالتالي قيمته بالنسبة الى المقاول .

منذ فترة ، في ايلول ١٩٧٦ لاحظت مجلة « الاخبار الاميركية والتقارير العالمية » ما يلي : « ان المزيد من اليافعين العاجزين عن الدخول في منافسة الوظيفة يتدفقون الى الشوارع ... » (٩) . وقد سألت اختصاصيا عن اسرة

---

(٩) « الاخبار الاميركية والتقارير العالمية » رقم ١٢ في ٢٧ ايلول ١٩٧٦ ص ٦٢ .

سوداء فقال : « لدينا في مجتمعاتنا السوداء شباب في الثلاثين سنة أو حولها ليس لديهم عمل . ان لدينا مجتمعا آخر من البطالة المستمرة ، ومن المآزق التي تفوق التصور » (١٠) ولاحظ المحرر : « معظمهم في هزال من الثقافة والمهارة المهنية ، وبهذا يندفع مثل هؤلاء الشباب السود بمئات الآلاف الى حياة اليأس والبؤس والمخدرات والجريمة والعنف » (١١) وليست هذه حقيقة السكان السود او البيض في الولايات المتحدة فقط ، ان قلعة الامبريالية تقربها عالميا .

حيازة المهارات العالية او النوعية المهنية لا تغير الا قليلا في هذا الصدد. فبين العاطلين عن العمل عدة اناس ، وعلى الاخص من الشباب رجالا ونساء على درجة عليا من الثقافة . مر زمن عندما كانت الشهادة العليا تضمن مستوى معينا من الحياة . أما اليوم فانها ، كما يقولون في الغرب ، بطاقة يانصيب باهظة . ان نمو مكننة واتمتة الانتاج يهدد بالانقلاب الى كارثة بالنسبة الى جماهير الكادحين العريضة . واذا كان هذا هو الوضع في الاقطار المتقدمة والغنية ، ماذا يمكن ان يقال عندئذ عن المناطق الواسعة من العالم حيث دفعت الراسمالية السكان المعوزين الى وضع متفاوت في تطور القوى المنتجة ؟ اليوم كما منذ قرن مضى ، بذلت الراسمالية جهدها لتمنع التقدم العلمي والتكنولوجي من الوصول الى تلك الاقطار . ولكن بعد انتشار بعض المنجزات فان كل ما تريده الامبريالية هو أن تدفع كل سكان القارات الى البؤس والجهل ، وبهذا تسجلهم كمساهمين في التقدم التاريخي . لا تأبه الاحتكارات بامثال هؤلاء السكان ، فتعتبرهم أفواها فائضة ، فلا تستطيع ولا تريد أن تمدهم بالغذاء والعمل . ربما كان في هذا ايضاحا لماذا يهتم ايديولوجيو البرجوازية في اخافة البشرية من « الانفجار السكاني » ، وعلى الاخص في الاقطار المتطورة .

وبلاء مرعب آخر يصيب الطبقة العاملة في الاقطار الراسمالية في السنوات الحالية هو التضخم . عمليات التضخم تهز باستمرار العالم الراسمالي ايضا في فترات الهبوط الاقتصادي عندما تتدنى أسعار الغذاء والبضائع المصنعة . ان عدم الاستقرار العام للاقتصاد الراسمالي والاستغلال المفرط للراسمال لتغطية عجز الميزانية – ايضا لصالح الاحتكارات فان

---

(١٠) المرجع السابق ص ١٤ .

(١١) المرجع السابق ص ١١ .

النفقات الباهظة في التسلح والمظاهر الاخرى الطفيلية الامبريالية جعلت التضخم مؤسسة دائمة في المجتمع البرجوازي . ان السلطات تحوله الى اداة لتغطية ميزان الاجور ، اي الى شكل آخر من استغلال الطبقة العاملة . ان ميكانيزما النهب الراسمالي للطبقة العاملة تعمل بطريقة ان اول من يعاني ويلات الازمة هم ابناء الشعب اصحاب الدخل المحدود على شكل رواتب ومعاشات . . . وهلمجرا . ان ملايين المقاولين الصغار ، والحرفيين والتجار والمزارعين يتاثرون حالما ترتفع اسعار منتجاتهم بمعدل ابطأ من معدل ارتفاع اسعار البضائع الصناعية التي فرضتها الاحتكارات . ومن الواضح ان صغار موظفي الاموال يصابون بالضرر حيث يجدون انفسهم وقد غدوا مالكين لموجودات اقل ثمنا . ومن جهة اخرى فان ملوك المال استخدموا هذه التوظيفات الصغيرة كارصدة تعود اليهم على شكل نقد فقد قيمته الاولية . ان التضخم ، بصراحة ، يمتص زيادة الاجور التي تكسبها الطبقة العاملة .

كيف تؤثر نشاطات الاحتكارات على الاقطار المتطورة ؟ يتحدث ايديولوجيو الامبريالية عن الحاجة الى التغلب على ازمة الطاقة ونقص المواد الاولية ، ويربطون عادة هذه القضية بقضية صيانة البيئة . ولكن كيف يتصرف الامبرياليون لحل هذه المسالة ؟ ان عدة وقائع لا شك فيها تثبت انهم يحلون هذه المسالة بتعديل اشكال استغلال الاقطار المتطورة . واذ تاخذ الاحتكارات بعين الاعتبار النفقات المرتفعة للمواد الاولية ، وليس دمار البيئة، فانها وعلى الاخص الشركات المتعددة القومية ، تكافح من اجل تعويض ما تخسره مراكزها الكولونيالية بدفع الاقطار المتطورة الى ميدان الاقتصاد الراسمالي بطرق معينة . انهم ينقلون الى هذه المنطقة مشاريع صناعية عالية الاختصاص مع عمليات واسعة وتلويث بيئوي واسع . ان الكولونياليين الجدد يتخذون ثلاثة مسارات : استغلال اليد العاملة الرخيصة ومتابعة سيطرتهم على مصادر المواد الاولية وتدعيم اعتماد الاقطار المتطور على الدول الامبريالية اعتمادا اقتصاديا . وفوق كل ذلك يفرضون بعض الاجراءات على هذه الاقطار لمنعها من القيام باصلاحات اجتماعية . وفي سعيهم لتحقيق هذه الاجراءات عن طريق خلق نظام جديد من طفيلية الامبريالية ، فان الاحتكاريين لا يصنعون اكثر من ضعضعة الاقتصاد الراسمالي العالمي مما يزيد من تفاقم تناقضاته الداخلية والعالمية .

---

(١٢) اللقاء الدولي للاحزاب الشيوعية والعمالية ، موسكو ١٩٦٩ ص ٢١ .

## الرجعيـة الكاملـة :

## كيف يجـب ان تفهـم ؟

رغبة الاحتكارات في تقوية مراكزها تقتضي تقوية الاتجاهات المعاديـة للديمقراطية في كل مجالات السياسة الداخلية والخارجية . وعنـدما يصف لينين الامبرالية في زمنه يعرفها بانها **تقوية للرجعية في كل شيء** . ان تطور المجتمع البرجوازي قدم العديد من الامثلة التي تدعـم هـذه النتيجة . ان مفهوم الاقتصاد الراسمالي مصحوب دائما بالتعبير الواضح عن تقويةالرجعية في الحياة السياسية . ان هذا مفهوم .

ان نمو الراسمالية الاحتكارية الى راسمالية احتكارية الدولة يقـوض الاسس الباقية للديمقراطية البرجوازية القائمة . انها عمليـة صعبة للغايـة ( وليست دائما مميزة علـى السطح ) في تنظيم كـل من السلـوك الاجتماعي والشخصي للناس في نموذج محدد وداخل حدود ثابتـة . واحيـانا لتوظيف الطرق الفاشية للسيطرة علـى الجماهير . ان حقـوق الكادحين المعلنـة في الدساتير البرجوازية تداس وتوطأ. جاء في الوثيقة الرئيسيةلاجتماع الاحزاب الشيوعية والعمالية في ١٩٦٩ : « الامبريالية سمحت بولادة الفاشية ـ نظام الارهاب السياسي ومعسكرات الموت . ومهما كان في مقـدور الامبريالية ان تشن هجوما ضد الحقوق والحريات الديمقراطية ، فانها تدوس بالاقــدام الكرامة الانسانية وتكرس العنصرية » .

ان محاولات الفاشية في ايامنـا لشن هجـوم مضاد ليس بالضـرورة مصحوبا بمظاهرات صاخبة، كما كان الامر في الماضي، مثل حرق الرايخستاغ السيء السمعة في شباط ١٩٣٣ ، والذي اعتلـى هتلـر السلطة بواسطته . على العكس ، فبقايا الفاشية « التقليدية » والفاشيون الجدد يفضلون عـادة العمل خلف كواليس المسرح السياسي . وبما ان البرجوازية الامبريالية ترى الحركة الفاشية كاحتياطي سياسي ، فـان « نشاطاتها » تبقـى في ما يسمى نصف المستترة ، ولكن على استعداد ان تعمل في اي لحظة مناسبة . ومـــع ذلك سواء تحرك السياسيون ذوو النزعة الفاشية الى مقدمة النضال ضـد الديمقراطية كما في تشيلي ، أو استخدامهم الرجعية لفترة كقوة مساعدة كما في بعض الاقطـار البرجوازية الاخـرى ، فان الحركـات الفاشية والفاشية

الجديدة دائما ادوات في يد الدوائر البرجوازية الامبريالية والاشد رجعية وعدوانا ، ويجب ان نضيف ، والمتعاونة مع العدو . والحقيقة الاخيرة هامة جدا طالما انها ظاهرة جديدة نسبيا تمارس اخيرا في الحياة اليومية . ولم يعد سرا أن الاحتكارات الاجنبية ، سواء مباشرة او عن طريق الحكومات تتدخل في النضال الداخلي للاحزاب السياسية المختلفة في هذا القطر او ذاك . وطبيعي أن تاخذ جانب القوى المعادية للديمقراطية. وقد حدث هذا في تشيلي حيث على الرغم من حقيقة أن الانتخابات الرئاسية قد رفعت الى السلطة حكومة الوحدة الشعبية شنت الرجعية الداخلية والخارجية هجوما مباشرا وحققت انقلابا عسكريا فاشيا . حدث هذا ايضا في البرتغال حيث تعاونت القوى الرجعية في الداخل والخارج لابعاد الشيوعيين ، الذين حازوا مع الاشتراكيين على خمسين بالمئة من أصوات الانتخابات النيابية ، عن الحكومة. وحدث هذا في ايطاليا عندما قدمت القوى الامبريالية بقيادة الولايات المتحدة انذارا بعدم اشتراك الشيوعيين بالحكومة ، ومارست عليها ضغطا كبيرا بغض النظر عن الحقيقة المؤكدة وهي انه عبر انتخابات ١٩٧٦ حاز الشيوعيون على اكثر من ثلث مقاعد البرلمان .

هذه الامثلة وامثلة اخرى اكثر حداثة تشير الى الممارسات الدولية الخطرة للاحتكارات ضد الطبقة العاملة . هذا هو « الحلف المقدس » الذي يمد الرجعية التي تمثل الفاشية تعبيرها المتطرف . ان النضال ضد الرجعية ليس فقط في البرلمان او خارج البرلمان ، انه يشمل جميع ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمع البرجوازي .

ومع تطور راسمالية احتكارية الدولة ، لم تنقلب فقط المنظمات السياسية والشعبية الى عجلات للاتجاهات الرجعية المتطرفة ، بل ايضا جهاز الدولة ذاته ، والاجهزة البيروقراطية للاقطار الامبريالية مع كل مقومات القوة الاقتصادية والادارية ، وكذلك مع الاجهزة الاستخبارية والتاديبية .

ان ما يبرز في معسكر الامبريالية حاليا يمكن ان يوصف بانه **توسيع بعيد لدكتاتورية راس المال الاحتكاري** . انها عملية متباينة تشتمل على عدة ميادين من حياة المجتمع البرجوازي ـ الانتاج والمؤسسات السياسية والميدان الثقافي ـ وهذا ما يفاقم التناقض المستعصي بين القمة العليا الاحتكارية للامبريالية وبين المجتمع . هذه الظواهر المعبرة عن ازمة عميقة في الديمقراطية

البرجوازية ، هي نتيجة طبيعية لتطورها ولانحطاط الراسمالية التاريخي . في الدعاية الكبرى للديمقراطية قدم النظام الراسمالي ما هو قبيح وبشع . ولا قيمة للخطوة العظيمة التي تحققت بالمقارنة مع النظام الاقطاعي ، أو الفرص التي منحت للطبقة العاملة لتحارب من اجل حقوقها ، فان **الديمقراطية في شكلها البرجوازي** لا يمكن ان تدعي انها تحقق اساس الديمقراطية ــ حكومة الشعب .

وبرؤية الانسان موضوعا للاستغلال ( لا يمكن للراسمالية ، بسبب جوهرها المعادي للطبيعة الانسانية ، ان تنطلق من فرضية اخرى ) فان **المفهوم البرجوازي من العلاقات الاجتماعية في التحليل الاخير سوف يلجا الى العنف** . كتب لينين : « ان البرجوازية توافق ان تكون الدولة قوية عندما تستطيع ، عن طريق سلطة اجهزة الحكومة ، ان تدفع الناس من حيث يجب ان يدفعوا »(١٣) . وبكلمة اخرى انهم يستخدمون الجماهير من اجل مصالحهم الخاصة .

وحرصا على هذا المنحى فان الطبقة الحاكمة تبني آلة دولتها المعقدة وسلطتها الادارية ــ المؤسسات الحكومية ، الهيئات الجزائية والجيش ــ وتحدد كيف يجب أن تستخدم الاعمدة الاساسية للتاثير الايديولوجي في الجماهير مثل المدارس والكليات والجامعات والجهاز الدعائي ووسائل الاعلام وما يسمى الثقافة الجماهيرية ... الخ . ان كلا منها يحقق هدفا محددا وهو حرمان الطبقة العاملة من ان تلعب دورا مستقلا في الحياة الاجتماعية وفهم المحرضات الفعلية للسياسة الامبريالية ، وتحويلها الى اداة عمياء بيد النخبة الحاكمة . واذا صادف في مجرى النضال وحققت الطبقة العاملة في الاقطار الراسمالية بعض الحريات السياسية ، فان هذا لا يرجع الى الروح الخيرية لدى السلطات ، كما تحاول دعايتها ان توهم ، وانما هي تجبر على ذلك اجبارا . وان اي تسليم من هذا القبيل يعكس العلاقة المتداخلة للقوى الطبقية في مجتمع ما وعلى الصعيد الدولي . وفي الوقت نفسه تحاول البرجوازية جهدها الا تقدم أي تسليم . وبهذا المنحى من النضال تتطور الديمقراطية في الطريق البرجوازي .

---

(١٣) « المؤتمر الثاني لممثلي سوفييتات العمال والجنود لكل روسيا » المؤلفات الكاملة مجلد ٢٦ ص ٢٥٦ .

إن انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكيــــة خلق مبــادىء أخرى تعارض الديمقراطية البرجوازية . لقد وضعت أمام المواطن أكبر الفرص لتطويـــر امكاناته الخلاقة وبذلك تحول الطبقة العاملة الى بناة واعين وفعالين للمجتمع باكمله ، على غير ما كان سائدا . كتب لينين : « فكرتنا عن القوة تختلف . فكرتنا هي ان الدولة تكون قوية عندما يكون الشعب واعيــا . تكــون قويــة عندما يعرف الشعب كل شيء ، ويمكنه ان يشكل رأيا حول كل شيء ، وان يفعل كـــل شيء بوعي »(١٤) .

لقد اظهرت الحياة انـــه بالمقارنة مـــع السمات الفـــردية للديمقراطيـــة البرجوازية ، فان حل الدولة السوفياتية لقضاياها الاجتماعيـــة والسياسية والقومية وبقية القضايا بشكل يختلف تماماعن مرحلة الازمة العميقةالسابقة. ان الازمة ليست من اختراع « الحمر » ، كما يحاول اعداء الاتحاد السوفياتي أن يقنعوا العالم ، بل نتاج عمليات تفعل فعلها في المجتمع الراسمالي نفســه . فمن جهة نجد الاساس الاقتصادي التقليدي لليبرالية البرجوازيـــة وحريـــة المشاريع الخاصة ( الآن بترت ) قد الغى نفسه وحلت محله الاحتكارات . وفي قمة ذلك الراسمالية التي كانت في الثلاثينات في حالة من الكآبـــة القاتلـــة ، ففتحت الباب على مصراعيه لتدخل الدولة في الاقتصاد لتبقي علـــى راسهـــا مرفوعا . وبهذا أوجدت الاساس المادي لدكتاتورية البرجوازيـــة في احتكـــار الدولة . ومن جهة أخرى ، فان عجز المؤســـسات الديمقراطية البرجوازية عن حل القضايا الاجتماعية السياسية الملحة جعل الطبقة العاملة تعتبرها خيبة امل . وبالمقابل ، في بعض الاقطار الراسمالية خلق هذا وضعا سياسيا قلقـــا للغاية تستخدمه الرجعيـــة لتستخدم الطـــرق الفاشيـــة في السيطرة علـــى الجماهير . وكنتيجة فان الاساس الايديولوجي والسياسي يتكون من اجـــل سيطرة المجموعات العليا من البرجوازيـــة الاحتكارية وانصـــار الدكتاتوريـــة الارهابيـــة .

وبرفع شعار « القانـــون والنظام » و « الحكومة القويـــة » و « حاكـــم العنصر الرفيع » يجرون جماهير البرجوازية الصغيرة لصالح حراسة النظام الراسمالي .

---

(١٤) المرجع السابق ص ٢٥٦ .

وفي الوقت نفسه فان ازمة الديمقراطية البرجوازية ، التي كانت يوما ما مسؤولة عن الصراع بين الانسانية والفاشية وهددت بمعركة اخرى في اي قطر راسمالي آخر ، تقود الى تفرق القوى داخل البرجوازية نفسها . في هذا الوضع نجد أن اندفاع الراسمال الاحتكاري نحو تدعيم سلطته ودكتاتوريته يثير معارضة متزايدة حتى من قبل انصار المؤسسات الديمقراطية الليبرالية البرجوازيين ، الذين يعتمدون على الطبقة العاملة لمتابعة مهمتهم . وهذا يعني ان الديمقراطية البرجوازية لم تعد تستطيع الاعتماد على قاعدتها التقليدية . انها لا تستطيع القيام بعملها من دون تأييد قوى تستفيد من التحولات الجذرية عبر النضال ضد سيطرة الاحتكارات الاقتصادية والسياسية .

ان هذا عامل جديد . انه يفتح امام الطبقة العاملة فرصا حقيقية لانشاء جبهة معادية للامبريالية على اساس برنامج يتجاوز حدود الديمقراطية البرجوازية . مثل هذه الجبهة يمكن ان تظهر على اساس توحيد « كل الاتجاهات الديمقراطية في حلف سياسي قادر على أن يكبح الدور الذي تلعبه الاحتكارات في اقتصاديات البلدان ووضع حد لسلطة الراسمال الضخم ، وبتحقيق مثل هذه التغيرات السياسية والاقتصادية الجذري يمكن تامين اعظم الظروف المناسبة لمتابعة النضال من أجل الاشتراكية »(١٥) .

عملية انحطاط الراسمالية وزوالها في ايامنا ، والتي اشار اليها لينين في كتابه « الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية » قد وصلت الى آخر سماتها.

يلاحظ مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية في أوروبا ١٩٧٦ : « ان الصعوبات التي تمر فيها الراسمالية هي نتيجة التفاقم المتزايد للازمة العامة للنظام الراسمالي ، التي اثرت في كل ميادين المجتمع الراسمالي ــ الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية والسياسية ــ وظهرت في اشكال وابعاد مختلفة في شتى الاقطار » ويتابع المؤتمر « مثل هذه السمات البارزة للازمة الفعلية الجارية مثل التضخم المزمن وازمة النظام المالي وحقيقة أن الطاقات الانتاجية يقل استخدامهاباستمرار، وبطالة ملايين العمال، ظهرت بشكل متضخم»(١٦).

---

(١٥) اللقاء العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية موسكو ١٩٦٩ ص ٢٧ .

(١٦) « في سبيل السلم والامن والتعاون والتقدم الاجتماعي في أوروبا » موسكو ١٩٧٦ ص ٣٧ .

هذه الظواهر ليست جديدة في الراسمالية . ما هو جديد فيها هو انها أصبحت مزمنة وتتجلى في اشكال تدميرية . ان ارتفاع الانتاج الذي يعقب عادة الهبوط لم يعد قادرا على حل ازمة البطالة . والهبوط الاقتصادي لم يعد مصحوبا بانخفاض الاسعار . وارتفاع انتاجية العمل وفعالية الانتاج لا تخفض ارتفاع تكاليف الحياة . ووضع العمال يصبح يائسا اكثر فاكثر . ولكن مع كل التغيرات التي يمكن ان تحدث في الوضع الاقتصادي للاقطار الراسمالية ـ سواء انخفضت قدرة الانتاج ام ارتفعت ، وسواء تقلصت البطالة ام امتدت ، وسواء خف التضخم أم تفاقم ـ ثمة ميدان مزدهر دائما ولا يعرف كسادا . انه ارباح الاحتكار . فيكفي ان نشير أن ارباح الاحتكارات الاميركية تضاعفت من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧٤ . ففي ١٩٧٥ ( في قمة أزمة اقتصادية لم يسبق لها مثيل منذ كساد ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣ ومع النمو السريع للبطالة وتضاعف العملية التضخمية وكلفة الحياة ، بلغ اجمالي دخل اكبر خمسين شركة ، حسب احصاءات مجلة فورتشي الشهرية الناطقة بلسان رجال الاعمال ، ٣٠٫٠٠٠ مليون دولار بربح صاف قدره ١٢٫٠٠٠ دولارا بالمقارنة مع ١٩٧١ .

هذه هي نواة المسالة . فنظام العلاقاتالاجتماعية الذي لا يابه الا بتراكم راس المال وتكديس الارباح ولا يؤمن متطلبات الانسان ، لا يمكنه أن يقدم اي نتيجة اخرى . يمكن لمصالح الفرد ، طبعا ، ان تؤخذ بعين الاعتبار في ظل هذا النظام ؛ ولكن كقضية تحتل مرتبة ثانوية من حيث الاهمية ، انها دائما يضحى بها من أجل مصالح الراسمال واحيانا يجري تجاهلها كليا . كتبت الصحيفة الالمانية الغربية الاسبوعية « فرتشوفتسفوش » : « بعد الفئران يعتبر الانسان اكثر الحيوانات اللبونة عددا . ان فائض السكان يقلل من اهمية كل فرد على حدة . الحياة الانسانية ، حتى الآن جوهر المعنويات الانسانية ، أصبحت تافهة للغاية ، فلا تساوي سوى حفنة من الاسترليني او الفرنكات »(١٧) .

ان التناحر المستعصي بين الفرد والمجتمع البرجوازي ، اصبح اشد عمقا ومأساة في العالم الراسمالي المعاصر . لقد انتزعت سلطة الاحتكارات من الشخص ثقته بالغد ، وداست كرامته ، واخفضت ذهنيته . المخدرات والمسكرات ، والانتشار الخيالي للجريمة والاضطراب الجسدي للجماهير ،

---

(١٧) العدد ١٢ ، في ١٥ آذار ١٩٧٤ المقطع ٢٤ .

هذا هو ما يدفع المجتمع البرجوازي المعاصر ثمن عجزه عن حل قضية العلاقات مع الفرد .

من المهم ان نلاحظ ان مركز ظاهرات انحطاط العالم البرجوازي انما يوجد في الاقطار الغنية والمتقدمة جدا في الصناعة . فمثلا في الولايات المتحدة الاميركية تتكاثر الجريمة اسرع من نسبة تكاثر السكان بتسع مرات . وهناك آثام اخرى عديدة في هذه القوة الامبريالية . وفي خلاصة لنتائج تطور اميركا بعد الحرب في خطاب اثناء ١٩٧٦ في الانتخابات الرئاسية ، اقر جيرالدفورد ، وكان رئيسا وقتئذ ، وهو في حميا المناقشة ان معظم ابناء الجيل الاميركي الحالي يعانون من الاضطراب . بعض قادة اميركا كانوا يتعاطون الحشيش ، كان ثمة حرب لا تستطيع اميركا ان تكسبها ولا ان تضع حدا لها ، وقامت اعمال شغب تدميرية في الشوارع وفي حرم الجامعات . قال « اننا نعاني من تصاعد التضخم والتراجع السيء في الاربعين سنة . لقد دمرنا الفساد في المستويات العليا للحكومة »(١٨) .

ليس من داع للاعتقاد ان فورد اوغل في الانتقاد الذاتي . لكنه اعجز من ان يتحرر من الواقع . ان تجربة اميركا المريرة ليست استثناء في العالم الراسمالي : ان الطريق الذي تسير فيه تتبعها الاقطار الصناعية . ولا اهمية لكيفية مجريات الامور ، انها سوف تتبع هذا الطريق بصورة محتومة طالما ان اقتصادياتها تظل مرتبطة بالعربة الاميركية ، ومراكزها الايديولوجية تقتدي بالنمط الاميركي .

كتب محرر « لوموند دبلوماتيك » كلود جوليان في كتابه « انتحار الديمقراطيات » : « اذا كان في الولايات المتحدة ، التي يعادل دخل الفرد فيها ثلاثة اضعافه في اوروبا ، سوف يقضي التطور على الفقر والجور الاجتماعي واستغلال بعض فئات الطبقة العاملة ، فان ثمة اغراء في اتباع هذا السبيل . بيد ان تجربة ذلك القطر الذي دخل عصر التكنولوجيا والاستهلاك قد حطمت امام اوروبا كل وهم : فتوسع الانتاج لم يقض على الفقر ، وقد تحسن مستوى الحياة اكثر من نوعية الحياة ، وتكاثرت الوظائف التي انتزع فيها العمل من خدمته للانسان ... واخيرا تصاعدت معدلات تلوث البيئة ... والآن تتبع اوروبا خطوات اميركا »(١٩) .

---

(١٨) تقرير تاس ١٥ ايلول ١٩٧٦ .

(١٩) كلود جوليان « انتحار الديمقراطيات » باريس ١٩٧٢ ص ٧٤ .

ان الشهادة المنذرة للصحفي الفرنسي هامة على ضوء الازمة التي تهز باستمرار العالم الراسمالي ؛ وكانت جادة ، على الاخص في منتصف السبعينات .

## السبعينات : جناز « تجديد » الراسمالية

اذا كان لا بد من ان نضيف برهانا جديدا يثبت انحلال مفهوم « الحتمية التكنولوجية » وكذلك شعار تحسين « نوعية الحياة » والاسلوب البرجوازي، فان هذا البرهان قد افصح عن نفسه ؛ في منتصف السبعينات ؛ على شكل ازمة حادة هزت كل العالم الراسمالي . وكتمييز لها عن بقية الازمات الاقتصادية السابقة ، وهي عديدة في تاريخ الراسمالية ؛ فان ازمة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ظاهرة متعددة . وكما لاحظ بريجينيف في ١٩٧٦ في مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية في اوروبا « انها ابعد من ان تكون ازمة اقتصادية . . انها ازمة سياسية واخلاقية ايضا ، وقد اصبحت الجماهير اكثر قناعة ان الراسمالية هي مجتمع بلا مستقبل »(٢٠) .

لقد انتشرت كما في الزمن الذي كانت فيه القوى الطبقية في العالم تتجمع وتحدث تغيرات في العلاقات العالمية ، فان هذه الازمة انتشر تأثيرها في كل الميادين الحيوية في المجتمع البرجوازي ـ الاقتصاد والسياسة والايديولوجيا . وبالاضافة الى السمات التقليدية فان لها عددا من الميزات النوعية الخاصة ذات الاهمية الخاصة .

وكتمايز عن ازمة أوائل الثلاثينات عندما كان نظام احتكارية الدولة للراسمالية العالمية في بداية اتخاذه شكله ؛ فان الازمة الحالية قد ظهرت في وقت اكتملت فيه تشكيلة هذا النظام الذي اثبت عدم كفايته . بهذا المعنى فان ازمة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ونتائجها فعالة من حيث انها فقط ازمة النظام الاحتكاري للدولة ذاته .

ان تنظيم الدولة للاقتصاد وللتكامل الاحتكار العالمي والمتعدد الجنسية للاقتصاد الراسمالي هو الذي خلق هذه الازمة وعلى الاخص حدتها وعمقها . الهبوط الدائري في الانتاج اثر في الوقت ذاته على كل الفروع الرئيسية في اقتصاد العالم الراسمالي ؛ وعلى كل مراكز قوى الامبريالية ؛ وقطع حدود

---

(٢٠) من اجل السلم والامن والتعاون والتقدم الاجتماعي في اوروبا موسكو ١٩٧٦ مره .

التكامل ، مع نتيجة هي انه لا يوجد قطر راسمالي كان قادرا على دفع الازمة على حساب الآخرين . ومن جهة أخرى ، فان الضغط المستمر الذي مارسته القوة المنافسة ، الولايات المتحدة واحتكاراتها ، جعل ظواهر الازمة تتفاقم ، واضاف عقبات جديدة ، مما جعل « الشركاء الصغار » يقفزون الى اكتاف الجماهير الكادحة .

وفي الوقت ذاته ليست الراسمالية في وضع يسمح لها باستخدام الوصفات الكينزية باصدارات اضافية وانفاق عاجز ، ودرجة كافية من الاشكال « الكلاسية » للازمة ــ التراجع والبطالة ــ انها اليوم يضاف اليها التضخم المالي للاقتصاد الراسمالي . وهذا الاخير خرج عن السيطرة وسبب فوضى في ميدان الاقتصاد العالمي للراسمالية بشكل عام . وفوق ذلك فان الارتفاع المستمر للاسعار ، والاعانات الحكومية للاحتكارات والانفاق الهائل على التسلح ابطل كل الفرص لايجاد مخرج للازمة وتجنب عواقبها .

ولهذا كان كلود جوليان على حق عندما حذر في اواخر ١٩٧٤ ضد محاولات التقليل من الابعاد الفعلية للازمة وظواهرها ، فيفشلون في تقديرها. كتب في « لوموند دبلوماتيك » : « قال رئيس هيئة معامل رينو « ازمة سوق » واوضح الاميركيون بمحاكمة عاقلة : « ازمة سوق ذات دورة طويلة » . ويؤكد جيسكار ديستانغ انها « أزمة دورية » . ولكن لم يجازف احد بكلمة تمس الانتفاضة الحالية : « ازمة نظام » . وهذا هو بالضبط لب المسالة »(٢١) .

أزمة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ كانت اول أزمة ظهرت تحت ظروف تفكك النظام الكولونيالي الكلاسيكي للامبريالية ، واشتداد التناحرات العميقة بين الاقطار الصناعية والاقطار المتطورة . لقد انفجرت عندما وضعت اقامة نظاماقتصادي عالمي في رأس المفكرة . وهذا لا يجعل الامر صعبا بالنسبة الى الراسمالية التي تسعى للخلاص من الصعوبات الاقتصادية وانما يعتبر الامر عاملا اساسيا في المرحلة التالية للازمة العامة .

لقد شاهدنا بداية جولة اخرى من الصراع حول التوسعات الضخمة لما يسمى بالاقطار المتطورة ، والآن ينتقل الصراع الى الميدان الاقتصادي . ومع أن ضربات حركة التحرر الوطني اجبرت الامبريالية على الاعتراف بالاستقلال السياسي لعدة اقطار في آسيا وافريقيا ، فانها في الواقع تتابع استغلال

---

(٢١) لوموند دبلوماتيك رقم ٢٤٨ تشرين الثاني ١٩٧٤ ص ١ .

الشعوب في هذه الاقاليم الضخمة من العالم وتنهب موادها الاولية ومصادر الطاقة فيها .

منذ عقدين تماما ، من ١٩٥٣ حتى ١٩٧٣ تضاعفت الهوة بين حصة الشخص من الانتاج القومي الاجمالي في الاقطار الراسمالية وتلك التي في الاقطار المتطورة مرتين عما كانت عليه ، واليوم نجد المعدل يساوي ١/١٦ . وهذا ليس مدهشا اذا اخذنا في الحسبان ؛ مثلا ، حقيقة أن ١٩٦٢ و ١٩٧٢. بينما سعر تصدير الانتاج الجاهز ارتفع الى ٢٤٫٥٪ في الفترة ذاتها . ويمكن ان ناتي بامثلة عديدةمتشابهة تظهر ان هذهالظاهرة المعروفة باسم الكولونيالية الجديدة لا تختلف عن الكولونيالية السابقة . وينتج من ذلك أن حفنة من الاقطار عالية التطور تتابع سرقة الاقطار المتطورة واضطهادها .

لا حاجة الى تعداد هذه الشؤون الجارية ، فان الاقطار المتطورة تتخذ اجراءات ملموسة لتامين اعادة النظر بالفروق التي فرضتها الامبريالية بين الارباح ( التي تجنيها الاحتكارات الاجنبية ) وملكية مصادر الطاقة والمواد الصناعية الاولية **العائدة للاقطار المتطورة** . وبكلمة اخرى ، فانها تطالب بنظام اقتصادي عادل يقوم على اساس القسمة العالمية للعمل التي تاخذ بالحسبان تماما مصالح الانسانية ككل .

في بعض المناطق وبعض النواحي غيرتالبلدان المتطورة الوضعلصالحها. وفي بعض الحالات لم تستطع الامبريالية أن تفرض الاسعار على المواد الاولية كما كانت تفعل من قبل . هذا الظرف اجبر الاحتكارات على البحث عن مصادر اضافية لتعويض التقصير في المواد الاولية ومصادر الطاقة ، وقطع الامكانات التقليدية للخلاص من الازمة على حساب الامم المتطورة .

ان ازمة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ كانت الاولى التي تحدث في الوقت الذي كان فيه النظام الاشتراكي قائما في الوجود . واليوم ليس دولة اشتراكية واحدة وانما مجموعة من الاقطار الاشتراكية تؤثر بفعالية في تطور العالم بما في ذلك مجرى الاحداث في العالم الراسمالي نفسه . لم تعد الراسمالية بالتالي قادرة على أن تفعل ما تريد . والامبريالية باتت محدودة في اختيارها الوسائل الاقتصادية والسياسية والعسكرية للنضال ضد النظام الاشتراكي وحركة التحرر ، من اجل حل تناقضاتها الخاصة . وهذا ينطبق على كل من

السياستين الداخلية والخارجية . ان الطرق التقليدية في حل التناقضات على حساب الطبقة العاملة ومن خلال سياسة خارجية توسعية تجابه بمقاومة عنيفة تشنها القوى المعادية للاحتكار .

ان الاحتكار العالمي لا يتوانى عن استخدام المقامرات الخطرة والاجراءات المتطرفة اذا هددت ارباحه . فمن المعروف تماما ان الحرب العالمية الاولى ، مثلا ، اندلعت خلال ازمة دورية من فيض الانتاج الذي ابتدأ في ١٩١٣ واثر في الاقطار الراسمالية الكبرى تدريجيا . الازمة الاقتصادية المدمرة ١٩٢٩ — ١٩٣٣ ، ومن ثم الانكماش ١٩٣٧ — ١٩٣٨ الذي سبق الحرب العالمية الثانية سببا نشوب الحرب . ان الوضع المتأزم الجاري ينعش فعالية القوى العسكرية في الاقطار الراسمالية التي تفضل ان ترفض الانفراج كليا . هذه القوى ترغب في تأجيج سباق التسلح الى اقصى حد ، ولتعكس القوى السياسة العالمية وتحوله الى الحرب الباردة « كي تظل لديها مندوحة » . ولكن تحت الظروف الحالية ليست هذه الدوائر في وضع تتدخل فيه مباشرة في مجرى الاحداث العالمية ، وتفرض ارادتها على الشعوب ، كما كانت الامور في الماضي .

واذ تواجه الراسمالية بالصعوبات الداخلية تلجأ الى اشد الطرق رجعية من اجل الحفاظ على سيطرتها الاجتماعية ، وتستفيد من العوز في المستوى الاقتصادي والسياسي في شتى أقاليم العالم لتضرب الطبقة العاملة والجماهير الشعبية بشكل عام . وهذا ما فعلته الفاشية في المانيا ، وهناك حالات مشابهة اخرى .

هذه الظواهر المتأزمة ايضا تؤجج القوى الفاشية الجديدة والاتجاهات اليمينية المتطرفة ، وحجتهم « الانضباط » ، وخدمة الطبقة الكادحة ، و « شد الاحزمة » وتوطيد « النظام والقانون » .

اليوم ، هذه الاتجاهات تعارضها جبهة القوى الديمقراطية على الصعيد العالمي ، وعلى صعيد كل قطر راسمالي على حدة . لقد ظهر وضع مختلف اختلافا كليا ، فالراسمالية ، في حين تبقى راسمالية على شكل امبريالية ، فانها لا تستطيع في الوقت نفسه ان توجد عن طريق قوانينها الخاصة فقط ، بل انها غدت تحمل سمات المرحلة الانتقالية الى الاشتراكية . كتب لينين

« الراسمالية في مرحلتها الامبريالية تقود مباشرة الى تشريك الانتاج ، اي تدفع الراسماليين الى عكس رغبتهم ووعيهم ، الى نوع من النظام الاجتماعي الجديد ، الى شكل انتقالي من المنافسة الحرة الكاملة الى التشريك الكامل »(٢٢) . ومن جهة أخرى ، تتسم الراسمالية بتغيرات كبيرة في عملية الراسمالية الاحتكارية، وبتغيرات هامة فيميزان القوى الاجتماعيةوالسياسية التي تخلق الجبهة المعادية للاحتكارات عشية الثورة الاشتراكية . فكما لاحظت وثيقة مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية في اوروبا : « قطاعات واسعة من المجتمع تتاكد من الضرورة التاريخية في احلال المجتمع الاشتراكي محل المجتمع الراسمالي ، وسوف يبنى المجتمع الاشتراكي بحسب رغبة كل شعب »(٢٣) .

---

(٢٢) لينين « الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية » المؤلفات الكاملة المجلد ٢٢ ص٢٠٥

(٢٣) « من اجل السلم والامن والتعاون والتقدم الاجتماعي في اوروبا » ص ٣٥ .

# الفصل السابع

## تشكيل .. الجبهة المعادية للاحتكار

« التاريخ نفسه هو القاضي الآن
والبروليتاريا منفذ حكمه »
كارل ماركس

### القوة الرئيسية للتطور الاجتماعي

الحاجة الى تغيير جذري في العالم الراسمالي قد اصبحت فعلا سمة العصر . فاليوم لايوجد حزب أو حركة اجتماعية في العالم البرجوازي يمكن أن يتجاهل السخط الشعبي ، او يتوانى عن تأييد هذا التغيير الاجتماعي السياسي أو ذاك . ان ازمة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ وعواقبها قد دعمت هذا الاتجاه. ان المسألة كلها تتمركز على مضمون هذه التغيرات ، ولصالح من وما الوسائل التي تعتمدها ؟

ان الماركسية ، كما لاحظ لينين ، دائما « تأخذ بالحسبان المضمون **الموضوعي** للعملية التاريخية في الخطة معينة، وفي ظروف معينة ملموسة ، بهدف التحقق ، في الدرجة الاولى ، من الحركة واي الطبقات معتمدها الرئيسي في التقدم المحتمل في تلك الظروف الملموسة »(١) .

هذا « المعتمد الرئيسي » ، طبقا لتعاليم الماركسية اللينينية ،هو الطبقة العاملة . لقد دلت التجربة بشكل قاطع على صحة هذه النتيجة . في مجرى ١٥٠ سنة كانت البروليتاريا في قلب المعارك الطبقية ، وقد استطاعت ان تتسنم بثقة طليعة حركة التحرر والديمقراطيةوفي فترة تاريخية قصيرة نسبيا حققت الطبقة العاملة تقدما جبارا كقوة سياسية.انها قائدة التغيرات التقدمية لعصرنا . ان نضالها في الاقطار الراسمالية اصبح القوة الرئيسية للتطور

---

(١) لينين « تحت الراية المزيفة » المؤلفات الكاملة مجلد ٢١ ص ١٤٣ .

الاجتماعي ، و « ممثلة لمصالح جماهير الكادحين ، ومصالح القدم الاجتماعي والمصالح الوطنية كلها » (٢) .

ان الطبقة العاملة كسبت مركزها كقائدة للصراع التحرري والدنمقراطي عبر معارك كبيرة ضد الرجعية الامبريالية . دورها ومكانتها بين الطبقات الاخرى في المجتمع المعاصر كان يتأكد تدريجيا . لقد مرت فترة كانت البروليتاريا ، في الوقت الذي كانت تشارك في الحركة الديمقراطية ، لا تستطيع ان تأتي بعمل كقوة مستقلة باسمها الخاص ، وببرنامجها الخاص: شنت نضالا لم يكن مباشرة ضد عدوها الطبقي البرجوازية ، وانما ضد اعداء عدوها ـ ضد الاقطاعيين والحكم المطلق . هكذا كان الوضع في نهاية القرن الثامن عشر ، في فترة الثورة الفرنسية ، وخلال حرب الاستقلال للمستعمرات الاميركية . وبكلمة اخرى في تلك المرحلة كان لا يزال من الضروري حل قضية تحرر البروليتاريا من التأثير الاجتماعي ـ السياسي والايديولوجي للبرجوازية ، اي عليها ان توطد نفسها كقوة مستقلة ، وفوق تلك كقوة رئيسية للتقدم الاجتماعي .

لقد تحقق ذلك موضوعيا عبر عدة عقود فقط . فطفقت البروليتاريا تظهر كقوة مستقلة للحركة الديمقراطية في المعارك الطبقية في ثلاثينات واربعينات القرن الماضي ( الحركة الشارتية في انكلترا ونضال العمال في فرنسا والمانيا ) وفي العقود التالية ، وعلى الاخص بعد ظهور الماركسية ، بدات هذه العملية تنتشر بخطوات سريعة ، شاملة لمزيد من الاقطار . ومع الايام صاغت الطبقة العاملة برنامجها الخاص الذي كان ولا شك أوسع واكثر تقدمية من كل برامج الحركات الديمقراطية . ان ديالكتيك هذا التطور باكتسابه مركزا بعد آخر على اساس البرنامج الموضوع ، جعل البروليتاريا تبدا بتحقيق رسالتها التاريخية ليس فقط لصالحها وانما لصالح جميع الكادحين . وعلى هذا الاساس تقدمت مع قطاعات عريضة من غير البروليتاريين على اساس برنامج مستقل لحل القضية الاجتماعية والسياسية الاساسية . أن هذا يرجع الى المنطق الفعلي للتطور الاجتماعي . وكما ان البرجوازية ولدت من احشائها منذ بدء تكوينها حفار قبرها ـ البروليتاريا ـ كذلك الراسمالية كنظام خلقت الظروف الموضوعية لتوحيد جبهة عريضة معادية للاحتكار من كل القوى التقدمية الاجتماعية حول الطبقة العاملة التي سوف تطيح بالنظام الراسمالي عاجلا أم آجلا .

---

(٢) من اجل السلام والامن والتعاون والتقدم الاجتماعي في اوروبا موسكو ١٩٧٦ ص ٣٥

ان النضال من اجل ديمقراطية حقيقية سواء داخل الحدود الـوطنية لكل قطر او على الصعيد العالمي ن اجل تجنب حرب عالمية اخرى ، سينقلب الى نضال من اجل الثورة الاشتراكية . كتب لينين : « **يجب على البروليتاريا ان تكمل الثورة الديمقراطية جامعة حولها جماهير الفلاحين لسحق مقاومـة الديمقراطية بالقوة وشل تذبذب البرجوازية** » واضاف بوضوح : « **يجب على البروليتاريا ان تنجز الثورة الاشتراكيـة جامعة حولهـا الجماهـير نصف البروليتارية من السكان ، بحيث تسحق مقاومة البرجوازية وتشـل تذبذب الفلاحـين والبرجوازية الصغيرة** »(٣) .

قدم لينين هذه النتيجة في بداية هذا القرن على اساس التجربة الاولية للثورة الروسية ١٩٠٥ ــ ١٩٠٧ . لقد امسك مسبقا بالجوهر الفعلي للمرحلة المقبلة لانتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكيـة ، وامســك بمهماتها الاساسية والقوى المدعوة الى حلها .

منذ ان صيغت هذه الاطروحة كانت مركزا لصراع ايديولوجي وسياسي عنيف . وهذا امر طبيعي لانها قضية الجوهر الحقيقي للعمليـة التاريخيـة المعاصرة والهداية الاجتماعية السياسية الرئيسية للتطور الاجتماعي . هنـا يوجد نوعان من الفرضيات . فاذا افترضنا ان البروليتاريا هي القوة القائدة للمجتمع المعاصر ، عندئذ فان مفهوم التطور التاريخي هو نظريـة الماركسية اللينينية عن انتقال الثورة الديمقراطية البرجوازية الى ثورة اشتراكية وذلك طبقا لتوزيع القوى الطبقية في كل قطر ، وفي العالم ايضا . واذا افترضنا من جهة ثانية ا نالبروليتاريا ليست هذه القوة ، وفوق ذلك توقفت عن ان توجد ( وهو راي المعادين للماركسية ) ، فسيكون لدينا العديد من الامكنة لكـل انواع النتائج المبتسرة ، وهي عادة ذات طبيعة معادية للشيوعية .

صراع واسع حول الدور الذي تلعبه الطبقة العاملة يجري الآن . لقد ظهر ضد اساس التغيرات الهامة التي رافقت العوامل الهامة الاخرى للثـورة العلمية والثقافية . ان هذه التغيرات ذات اهمية كبرى بحيث ثمة ما يبـرر الحديث عن التغيير الاساسي في الميزان الدولي للقوى الطبقية لصالح قضية الطبقة العاملـة .

---

(٣) لينين « خطتان للاشتراكية الديمقراطيـة في الثـورة الديمقراطية » المؤلفـات الكاملة مجلد ٩ ص ١٠٠ .

وبما ان ايديولوجيي البرجوازية يرفضون هذه الحقيقة فانهم يتحدثون عن « تفكك » و « انحلال » ، أو حتى « اختفاء » الطبقة العاملة . يؤكد آلان تورين « ان الطبقة العاملة في المجتمع المبرمج لن تكون في دور قيادة التاريخ »(٤) . ومن هذا النوع زيغريد هونكي مؤلفة الكتابات الفلسفية والسياسية المشهورة في الغرب . جاء في كتابها الذي يحمل عنوانا ذرائعيا « ما بعد البيان الشيوعي » : « ان نموذج ماركس لا يناسب المجتمع المتغير . لم يترك اي اثر في البروليتاريا . في كل يوم يمر تخف اسباب الحديث عن الطبقة العاملة . منذ زمن طويل اندمجت بالطبقة الوسطى ولم يعد لها مصلحة في الصراع الطبقي . فلاكمال الثورة ، بالمعنى الماركسي الكلاسيكي ، لا توجد طبقات مدقعة وبروليتاريون مغتربون عن جوهرهم يشعرون بأنهم سلعة ، ولا استغلال ولا اضطهاد بالنسبة اليهم ، ولا ضغط في العلاقات الاقتصادية »(٥) .

تقول زيغريد هونكي انها ضد الماركسية علنيا ، وهذا ما نوافقها عليه تماما . واذ قررت الا تنهي شيئا اكثر من المهمة الهائلة في « تسليح الاجيال الفتية بوسائل لمحاربة الماركسية »(٦) ، فانها عاجزة عن تقديم اي شيء غير الافكار المضطربة الهزيلة حول امكانية « المشاركة الاجتماعية » . وهكذا فان كتابها يعيد الى القارىء الافكار المبتذلة المعادية للشيوعية . وما يمكن توقعه أيضا من تورين وهونكي وبقية الايديولوجيين البرجوازيين الذين يفضلون تجاهل التيارات الفعلية لتطور المرحلة المعاصرة . وبتشويههم صورة البناء الاجتماعي الحقيقية للعالم البرجوازي اليوم ، فانهم يعمدون الى تجاوز الاتجاهات الرئيسية ـ نمو عدد العمال المأجورين ونمو نسبة الطبقة العاملة تينهم .

كلا الاتجاهين يعكس المتطلبات الموضوعية للانتاج الحديث ، ويتطوران في كل من الاقطار الاشتراكية والراسمالية . ولكن الخلاف الاساسي هو انه بالنسبة للاقطار الاولى فان الاتجاه يجري بطريقة مخططة وفي مصلحة الطبقة العاملة ، في حين في الاقطار الاخيرة انما يجري بصورة عفوية ، ولذلك يزيد من تفاقم التناحرات والتناقضات الاجتماعية .

---

(٤) آلان تورين « المجتمع ما فوق الصناعي » باريس ١٩٦٩ ص ٢٥ .

(٥) « ما بعد البيان الشيوعي » شتوتغارت ١٩٧٤ ص ١٥ .

(٦) المرجع السابق ص ١١ .

في الاتحاد السوفياتي ، من ١٩٦٠ حتى ١٩٧٤ عندما تدنى العمال الزراعيون ازداد الحجم العددي للطبقة العاملة من ٩ر٤٥ مليون الى ٢ر٧٠ مليون . ان عدد العمال ذوي الياقات البيضاء تضاعف بسرعة فارتفع من ٨ر٨ مليون الى ٥ر٢١ مليون في الفترة ذاتها(٧) . كل هذه العمليات ، التي نحددها ، في التحليل الاخير ، نسبة العمال الصناعيين والميكانيكيين والمهرة في مجتمع اشتراكي ، سوف تستمر ايضا في الاتحاد السوفياتي مستقبلا . وفي ظل الاشتراكية يفيد المجتمع باسره ، ولذلك يصحبها ارتفاع في الثقافة العامة للطبقة العاملة ومستوى حياتها . ان ازالة الفروق في مجتمع اشتراكي بين الطبقة العاملة بمختلف فروعها الاجتماعية تعبير عن الوحدة الاخلاقية والسياسية المتلاحمة والمتنامية .

ويؤدي نمو عدد العمال المأجورين وحجم الطبقة العاملة في ظل الراسمالية الى تفاقم التناقض الرئيسي بين العمل وراس المال .

ان اتجاه الراسمالية الدائم نحو مركزة وسائل الانتاج ، التي تقود ، في القطب المقابل ، الى تمركز جماهير ضخمة من السكان انتزعت منها كل وسائل الحياة سوى قوة العمل ، يفعل فعله في العالم الراسمالي كله ؛ وعلى الاخص في الاقطار الصناعية الكبرى . وحسب المعطيات الرسمية ، فان نسبة العمال المأجورين في السكان المستخدمين تتضاعف في كل مرة ، وقد بلغت في منتصف السبعينات من ٧٠ الى ٨٥٪ في الاقطار الراسمالية الصناعية . هذه المعالم تواجه الملايين فوق الملايين من حيوات الناس وتدمر مئات آلاف العائلات وتحول قسما ضخما من السكان الى بروليتاريين رافضين الافكار القديمة ، وفي الوقت نفسه تنمو التناحرات الطبقية ، وتتدعم القوى الاجتماعية التي تدفعها مجريات الانتاج الراسمالي الى معارضة حكم الاحتكار .

لا شك ان اهم مظهر للاستقطاب الاجتماعي في المجتمع البرجوازي هو النمو في الحجم العددي ونسبة العمال . ولا نكران لحقيقة انهم في العقد الماضي اصبحوا فعلا طبقة جبارة . وفي نهاية القرن كان هناك ٣٠ مليون عامل صناعي في كل العالم ، بينما اليوم هناك اكثر من ٢٠٠ مليون في الاقطار

---

(٧) انظر : الاقتصاد القومي للاتحاد السوفياتي : حولية اقتصادية موسكو ١٩٧٦ ص ٩ ( بالروسية ) .

الراسمالية وحدها . والعدد الاجمالي للمستخدمين في العالم يقدر ب ٧٠٠ مليون(٨) .

ان الدور التاريخي للطبقة العاملة كقائدة للحركة الثورية ، لا يحدده فقط حجمها العددي ، وانما مكانتها العظيمة في نظام الانتاج الاجتماعي ، ومستوى تنظيمها ، وتغطيتها السياسية وسمعتها . وفي ظل تاثير الثورة العلمية التكنولوجية طرأ على مركز الطبقة العاملة تغيرات نوعية عميقة : ارتفع دورها في الاقتصاد وكذلك مستواها الثقافي ونشاطها السياسي .

في كل مكان حيث قوى جديدة ترفد الصفوف البروليتارية ، توجد الظروف المناسبة لانتشار أفكار الماركسية اللينينية وتضامن الجبهةالعريضة المعادية للامبريالية للقوى الديمقراطية تحت لوائها . كل هذا هيا شروطا مناسبة لتحولات اجتماعية اقتصادية عميقة حققتها طليمة الطبقة العاملة في الحياة عبر نضال لا يلين ضد حكم الاحتكارات .

كل خطوة في هذا الاتجاه تثير ولا شك مقاومة ضارية من البرجوازيه .

---

(٨) نمو الطبقة العاملة في الاقطار الصناعية الراسمالية في مئة السنة الماضية يقدر على النحو التالي :

في اواسط القرن التاسع عشر كان في انكلترا (٤ر١) مليون عامل صناعي عام (١٩٥١) . وفي فرنسا (٥ر٢) مليون عام (١٨٤٨) والمانيا (٩ر٠) مليون عام (١٨٥٠) والولايات المتحدة الامريكية (٤ر١) مليون عام (١٨٥٠) .

وفي بداية القرن العشرين كان حجم البروليتاريا الصناعية (٤ر١٠) مليون عام (١٩٠٠) وفي انكلترا (٥ر٨) مليون عام (١٩٠١) وفي المانيا (٥ر٨) مليون عام (١٩٠٧) وفي فرنسا (٤ر٣) مليون عام (١٩٠٦) وفي ايطاليا (٩ر٢) مليون عام (١٩٠١) وفي النمسا ـ هنغاريا (٣ر٢) مليون عام (١٩٠٠) .

بعد الحرب الثانية كانت العملية أسرع من قبل بكثير . فالطبقة العاملة الاميركية تضاعفت من (٥ر٢٢) مليون عام ١٩٥٠ الى (٣ر٣١) عام ١٩٧١ . وفي انكلترا من (٥ر١١) مليون في ١٩٥١ الى (٥ر١٢) مليون عام ١٩٦٦ وفي فرنسا من (٦ر٦) مليون عام ١٩٥٤ الى (٥ر٨) مليون عام ١٩٧١ وفي المانيا الغربية من (٢ر٨) مليون عام ١٩٥٠ الى (٧ر١٢) مليون عام ١٩٧٠ . وفي اليابان من (٨ر٨) مليون عام ١٩٥٠ الى (٧ر١٩) مليون عام ١٩٧٠ ( انظر الموسوعة السوفياتية الكبرى المجلد ٢١ الصفحات ١١٠ ـ ١١٤ ، ٢١٣ ) .

نطالما هناك رأسمالية ، مباشرة او غير مباشرة ، وبطريقة او باخرى ؛ سوف تؤثر في الطبقة العاملة فتعمد الى عزلها عن حلفائها ؛ وصرف اهتمامها عن القضايا الرئيسية في نضالها . ان الدوائر الامبريالية تستغل وتحاول أن تتابع استغلال تنوعات الطبقة العاملة ومؤسساتها السياسية وتماسك بعض التقاليد البرجوازية وسوء الفهم الذي يدخل الطبقة العامة من الخارج . يجب أن نتذكر أن العديد من عمال اليوم ؛ كعمال الامس ؛ لا ينتمون الى القطاعات البروليتارية من السكان . انهم يحتاجون الى خبرة كافية من النضال السياسي ، والذلك يشكلون تربة صالحة للايديولوجيا البرجوازية والاصلاحية البرجوازية الصغيرة .

ان الوضع الاقتصادي لشتى الاطراف الوطنية للطبقة العاملة في العالم الراسمالي ابعد من ان يكون متشابها . وهكذا وضع الانواع المختلفة للطبقة العاملة في كل قطر على حدة . ان عدم التوازن في تطور الصفوف المختلفة للنظام الراسمالي يفاقم هذه الامور ويغذي كل أنواع الاوهام التي لم يكن لها وجود في قطاعات العمال . وقد تعلمت البرجوازية مؤخرا فاخترعت آلاف الاحابيل لقيادة نضال الطبقة العاملة في طريق زائف وبذلك تتفادى الضربة منهـا .

وبهذا الصدد يكون التدمير الايديولوجي ليس أقل أهمية . فدعاية البرجوازية الانتهازية اليمينية واليسارية تتركز معا على تعاليم الماركسية اللينينية حول الدور القيادي للبروليتاريا في الحركات الديمقراطية وفي النضال من اجل الاشتراكية .

ليس كل الاساتذة البرجوازيين ، عدا عن القادة الاصلاحيين ، صريحين في آرائهم مثل مؤلفة كتاب « ما بعد البيان الشيوعي » المشار اليه سابقا . ان معظمهم ينكرون تزايد نسبة العمال الماجورين وارتفاع دورهم في ميدان الانتاج الحديث ، ولا حقيقة ان البروليتاريا تقوم ببناء مجتمع في مجموعة كبيرة من الاقطار . لذلك يقدمون برهانا جديدا باخذ بالحسبان ظاهريا تلك الوقائع . مر وقت كانت الذريعة البدائية هي : الطبقة العاملة وممثلوها و « العاملون الاليون العاديون » لا يمكن ان يسند اليهم دور قيادة الحركة الديمقراطية لانهم يفتقدون الثقافة والخبرة الضرورية بحيث لا تعود القطاعات الاخرى من السكان تؤيد البروليتاريا . والآن ابتكروا فكرة جديدة : ان البروليتاريا نفسها وظروف وجودها الفعلية خضعت لتغير جذري بحيث أن

الحاجة الى طبقة عاملة تلعب دور القيادة ، وبالتالي تقوم بالثورة الاشتراكية، قد تلاشت أوتوماتيكيا . ان السبب المقدم هو ان كل القضايا السيئة او معظمها في الماضي قد حلت الآن او سوف تحل سريعا وبافضل مايكون ضمن اطار الديمقراطية البرجوازية العادية . أو على العكس ، يجري التاكيد انه نتيجة التغيرات التي ظهرت فان الطبقات والقطاعات الاخرى من المجتمع البرجوازي قد اصبحت « ثورية » تماما ، ولذلك لها اكبر الحق في ان تدعي دور القيادة في المعركة المعادية للاحتكار .

تفسيرات مختلفة يمكن ان نجدها في الادب الغزير الذي يتناول هذه القضية . بعض المؤلفين لا يفرقون بين عمل العمال والعمل الجسدي ، ثم يقدمون فكرة ان الطبقة العاملة سوف تتلاشى في مجرى تطور الثورة العلمية والتكنولوجية . آخرون ، ممن يأخذون بروح الاقتصاد السياسي البرجوازي التقليدي ، ولا يبتعدون كثيرا عن المفاهيم المبتذلة لفترة توماس كارفر ، فيرون ان اقتراب البروليتاريا من الارباح المشتركة توقفت عن ان تكون طبقة لا تملك ، وانقلبت الى مشارك في ملكية الراسمال . والفئة الثالثة يرغب افرادها في ان يثبتوا ان البروليتاريا توقفت عن أن تكون طبقة متحدة طالما انها انقسمت الى عدة فرقاء أو « فئات » . ولكن جميع هذه الاستنتاجات توافق على ان العامل الحديث قد اكتشف بنفسه ان هناك « ثورة في الارباح » قلبته الى « شريك اجتماعي » للمقاول ، والآن يخسر طاقته الثورية وينقلب الى برجوازي ينسجم مع حكم الراسمال الاحتكاري .

ويؤكد غالبريت في كتابه « الدولة الصناعية الجديدة » متميزا من الراسمالية القديمة ، ان الصراع الطبقي يذبل « لان المصالح التي كانت في مرة ما متعارضة جذريا قريبة الآن من بعضها ومنسجمة كثيرا »(٩) .

ان جميع علماء الاجتماع والسياسة المشهورين هؤلاء امثال غالبريت وبل وليبست في نظراتهم عن المجتمع « الصناعي » و « ما بعد الصناعي » و « العصر التكنولوجي » يحددون مفهوم « الطبقة العاملة » طبقا لمفهوم العمال اليدويين . ان الباحثين التحريفيين و « اليساريين » يحاولون على العكس من ذلك ، على الاقل في كتاباتهم ، ان « يحلوا » الطبقة العاملة في بقية الفئات . انهم يحاولون التساؤل عن التكامل الاجتماعي للبروليتاريا كطبقة ، وبذلك يقللون من رسالتها التاريخية كقوة ثورية انتقالية .

---

(٩) جون كينيث غالبريت « الدولة الصناعية الجديدة » ص ٢٦٢ .

يتساءل مثلا هنري لوفيفر الاستاذ الفرنسي : كيف تكون الطبقة العاملة ثورية وتحت اي ظروف تحتفظ بقدرتها الثورية التي تميز ممارستها الاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؟ وفي اجابته يحاول أن يثبت انه بنتيجة البروليتاريانية العامة التي ابرزها التمايز الاجتماعي للمجتمع الراسمالي المعاصر ، فان فئات اخرى ظهرت الى الوجود مع الطبقة العاملة متحالفة معها ، الى هذه الدرجة او تلك . ان الاخيرة معدة لان تعمل للتمهيد لبعض الاصلاحات ، لكنها ليست اطلاقا انتقالات جذرية ثورية .

يؤكد هنري لوفيفر : « ان الصراع الطبقي ، كصراع موت او حياة ، قد اختفى ، على الاقل لفترة في اقطارنا الصناعية . هناك معسكر منسجم نسبيا يكافح الاستغلال ومع ذلك فان الاتجاهات المحافظة تسيطر على شكله الاعلى ، اي الانتقال الجذري للمجتمع »(١٠) .

ولكن مهما قلل ايديولوجيو البرجوازية واصحاب النزعة الاصلاحية من دور الطبقة العاملة الثوري ، فانهم لا يستطيعون اخفاء الحقيقة التي لا تنكر وهي أن البروليتاريا المعاصرة في العالم الراسمالي تظل في غربة عن وسائل الانتاج ، وابعد من أن تقوم بمهام ادارية ، وذلك لانها تعيش فقط من بيع قوة عملها . وبكلمة اخرى : لا شك انه لا يزال التناحر الرئيسي للبرجوازية باقيا، ولا عبرة لبعض التحسينات في المستوى المعيشي للعمال ، التي اخذت مجراها اخيرا في الغرب ؛ فهي لا تثبت العكس . لا التغييرات في الشروط المادية الحياتية للعمال في بعض الاقطار الصناعية ، ولا الاختلافات في الوضع الاقتصادي بين فئات العمال ، ولا اي حشو آخر ، يمكن ان يدحض الشيء الرئيسي ، وهو انه في عصرنا ايضا يظل العمال الماجورين الطبقة المستغلة التي عن طريق عملها تتحقق القيمة الزائدة للراسماليين . والتعارض بين الفرض التي يقدمها التقدم وحالة الطبقة العاملة سيستمر في التزايد . احيانا يسعى العمال لتضييق الهوة . ولكن طالما ان مقدرات السلطة السياسية والاقتصادية هي في ايدي الاحتكارات والدولة البرجوازية ، فان ظروف البروليتاريا تبقى دون أن تتغير من حيث الاساس . ان كل ما يستطيع عامل أن يفعله في البلد الراسمالي هو ان يحارب من اجل ظروف ملائمة في ظلها ، كما قال

---

(١٠) « الانسان والمجتمع » باريس ١٩٧١ العدد ٢١ ص ١٥٤ .

ماركس ، « يسمح له بالعمل مجددا لمضاعفة ثروة البرجوازية وتوسيع سلطة راس المال ، والرضا بسلاسل الذهب التي تربطه البرجوازية عن طريقها بعربتها »(١١) .

ان التغيرات البنيوية التي ظهرت في العقود الاخيرة في القوى المنتجة للراسمالية ، وتطور الثورة العلمية والتكنولوجية وتقوية راسمالية احتكار الدولة قد جاءت بتحسينات اساسية في وضع العمال الماجورين . وعلى العكس اخضعت الطبقة العاملة لمزيد اكثر من الاستغلال وتضخم العمل الذي لم يسبق له مثيل وتوتر عقلي لا يطاق .. وهلمجرا . وعلى ضوء كل هذه الحقائق فان المراقب النزيه لا يؤمن كثيرا بالمفاهيم الدعائية عن « السلم الطبقي » و « المشاركة الاجتماعية » .

ان البروليتاريا الحديثة في الاقطار البرجوازية ، كما يمكن ان نرى ، تقف الآن في معارضة الراسمالية الاحتكارية في جبهة من النضال الاقتصادي والسياسي . وفي الميدان الايديولوجي ايضا ، تنهج اكثر فاكثر الطريق الاشتراكي وتؤيدبرنامج الشيوعيةالعلمية . واثباتا لهذا نمو الطليعةالماركسية اللينينية للطبقة العاملة ، والاحزاب الشيوعية ، وعضويتها المتزايدة وسلطتها في الجماهير ، واتساع الحركة الشيوعية العالمية ككل .

قبل ثورة اكتوبر كانت حركة الطبقة العاملة العالمية ، باستثناء روسيا، يسيطر عليها الاشتراكيون الديمقراطيون الاصلاحيون الذين كانوا يدفعونها الى طريق الانتهازية . ان انتصار حكم السوفييت وتشكيل الكومنترن دعم نشاط القوى الثورية في العالم وحرض على تشكيل أحزاب ماركسية لينينية قوية في عدة اقطار . ان ممثلين عن المنظمات الشيوعية من ثلاثين قطرا حضروا المؤتمر الاول للكومنترن الذي عقد في عام ١٩١٩ ، وحضر ممثلون عن ٧٦ حزبا شيوعيا المؤتمر السابع الذي عقد عام ١٩٣٥ ويبلغ عدد الاعضاء الذين يمثلهم هؤلاء الموفدون ما يزيد على ثلاثة ملايين في ذلك الوقت .

سجلت الحركة الشيوعية العالمية انتصارات بارزة في نضالها ضد الفاشية خلال الحرب العالمية الثانية ، وفي النضال المرير ، بعد ذلك ، في فترة الحرب الباردة . وفي الاعوام الحالية أصبحت ذات مستوى عال من

---

(١١) ماركس ، انجلز « المؤلفات المختارة » في ثلاثة أجزاء ، الجزء الاول ١٦٧ ـ ١٦٨ .

التطور . وقد لاحظ بريجنيف بعض هذه النتائج في اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في اوكتوبر ١٩٧٦ « في مجرى المعارك الطبقية حققت الاحزاب الشيوعية في عدد من الاقطار الراسمالية نجاحات كبرى . لقد وسعت القاعدة الاجتماعية ودعمت سمعتها ، وتضاعف وزنها في الحياة السياسية ويوجد الآن في ثلاثة اقطار كبرى من اصل ستة اقطار راسمالية ، احزاب شيوعية ضخمة ، في فرانسا وايطاليا واليابان ، بتعداد عشرين مليون صوت انتخابي . ونتيجة الانتخابات الاخيرة حقق الحزب الشيوعي الايطالي مركزا ممتازا، بحيث أنه لا يمكن تخطيه في اي قضية عملية مطروحة . وفي فرانسا اصبح تحالف الشيوعيين مع الاشتراكيين والقوى اليسارية الاخرى عاملا ذا وزن معترف به في حياة القطر السياسية ... وتمارس الاحزاب الشيوعية في الهند وفلندا والدانمارك وبعض اقطار اميركا اللاتينية تاثيرا واسعا في القطر » (١٢) .

واليوم لا وجود لحركة ايدلولوجية وسياسة في العالم ذات اعداد ضخمة من الانصار المهتمين تزيد تاثيرا عن الحركة الشيوعية . لقد وافق على ايديولوجيتها جماهير هائلة في عدة اقطار وتضاعف تاثيرها في عالم الايدلولوجيا السياسية .

وبالاعتماد على تجربة الاشتراكية التي تحققت فعلا ، فان الحركة الشيوعية العالمية جاءت على سمات جديدة هامة وسمت لها اهدافها في الميدانين الايديولوجي والسياسي . اولا وقبل كل شيء ، انها مسالة اكتساب الطليعة الشيوعية للمراكز القيادية في النضال الديمقراطي العام الذي يستوجب بشكل طبيعي صهر افكار الاشتراكية العلمية ليس فقط مع حركة الطبقة العاملة ، بل مع حركة الفئات الاخرى للطبقة الكادحة ايضا . كما تدعمت صفوفها في حركات التحرر الوطنية ، وهذا بالضرورة يعني انتشار افكار الاشتراكية العلمية بين القوى الثورية القائدة في الاقطار المتطورة .

ليست هاتان النقطتان ناجمتين عن اسباب عابرة يمكن ان يتغيرا غدا بسهولة ، وانما تصدرتا المقدمة بسبب مجرى تطور الراسمالية المعاصرة ، بسبب ازمة النظام الكولونيالي . وفوق ذلك ، انهما ضرورة املاها نمو طفيلية

---

(١٢) « حديث في الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي » موسكو، ١٩٧٦ ص ٥٢ .

راسمالية الدولة الاحتكارية ، وتزايد زخم الثورة العلمية والتكنولوجية ، التي تؤدي تحت ظل الاحتكار الى اعادة انتاج التناحرات الاجتماعية على مستوى كبير ، وبدرجة عظيمة من الحدة اكثر من قبل . وقد لاحظ « اللقاء العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية » ان « هذا ليس فقط نمو التناقض بين الراسمال والعمل ، بل ايضا تعميق التناحر بين مصالح الاغلبية العظمى للامة والطغمة المالية » (١٢) .ماذا يعني ذلك عمليا ؟ ان الاجابات التي يقدمها الماركسيون اللينيون عن هذه المسالة تقوم على التجربة . انها حقيقية ان الاستغلال الراسمالي يتضاعف على الرغم من كل الاحاديث عن «ثورةالارباح» و « مشاركة اجتماعية » . ان الاجور تتزايد بمعدل بطيء جدا اكثر من ارباح الاحتكار ، وتتثاقل خلف النمو في انتاجية العمل وتوسعه ، وتفشل في تأمين الحاجات الاجتماعية . ان وضع الفلاحين الصغار آخذ بالتدني وظروف حياة الطبقة الوسطى تزداد صعوبة .

## البرجوازيون الصغار والمثقفون لمن ينتمون ؟

ان الحياة اليومية للاغلبية العظمى للسكان في الاقطار غير الاشتراكية تندفع اكثر فاكثر الى معاداة صارمة لسلطة الاحتكارات ، وهذا الظرف يوسع حدود الاساس الاجتماعي للنضال ضد الامبريالية . ونتيجة الظروف المسبقة التي وجدت لتوحيد الجماهير المتنامية من السكان غير البروليتاريين، ومن الفلاحين والبرجوازيين الصغار وعمال المكاتب والانتلجنسيا ـ حول الطبقة العاملة . هذه القطاعات تصبح الحلفاء الطبيعيين للبرليتاريا في النضال ضد الاضطهاد الاحتكاري ، ومن اجل المطالب الديمقراطية ، واخيرا من اجل الاشتراكية .

ان قسما من السكان في الاقطار الراسمالية يعرف عادة باسم **الطبقات الوسطى** ، هو جمهور غير متجانس تماما . الحرفيون والتجار الصغار وعمال المكاتب والانتلجنسيا والمدرسون ... جميعهم يتولون مراكز مختلفة سواء في البناء الاجتماعي والهيئة الانتاجية او الحياة السياسية في المجتمع البرجوازي . بعضهم يملك بعضا من راس المال ، والآخرون لا يملكون مصدرا آخر غير دخلهم من عملهم . بعضهم يرتبط بدائرة الانتاج الكبير او الصغير ، والآخرون غير موظفين في ميدان الانتاج . واخيرا بعضهم جيد من الناحية

(١٢) « اللقاء العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية » موسكو ١٩٦٩ ص ١٩ .

المالية ، بينما آخرون يعانون بكل بساطة البؤس الحقيقي . ان المصالح الاجتماعية والسياسية لتلك الفئات ، وبالتالي لاتجاهاتها الايدلوجية غير ثابتة ، ومتضاربة عادة .

الفلاحون والحرفيون وصغار التجار الممثلون للبرجوازية الصغيرة يرتبطون بالراسمالية عن طريق ماضيهم ، بينما يتجه مستقبلهم بلاشك نحو البروليتاريا انهم يشنون نضالا مريرا ضد رجال الاعمال الكبار ، ولكن لكونهم اجزاء من الانتاج البضاعي الصغير ، فانهم ينطلقون في مواقفهم من مواقع قديمة . فالحنين الى الايام القديمة « الطيبة » للمشروع الحر ، وتصحيحهم الوطيد على صيانة « استقلالهم » العابر الذي في الحقيقة لم يعد له وجود ، يجعلهم يوافقون على الافكار الاشتراكية . ومن جهة اخرى فان واقع العالم الراسمالي الذي يحطم اوهامهم بلا رحمة يدفعهم الى صفوف الجبهة المعادية للاحتكار .

قبل الحرب العالمية الثانية كان قسم لاباس به من هذه الفئات الاجتماعية يتبع الاحزاب الرجعية ، وغالبا ذات الديماغوجية الفاشية ، او ينتمون الى الاساس الاجتماعي لبعض الاجنحة اليمنية في الاتجاهات البرجوازية ، ولكن التغيرات التاريخية لصالح الاشتراكية وتعميق الازمة العامة للنظام الراسمالي والسقوط في خزي الفئات اليمينية للرجعية الاحتكارية عدل من اتجاههم الايديولوجي .

في الخمسينات والستينات شكلت البرجوازية الصغيرة في قسمها الاعظم تربة كل انواع المفاهيم اللبرالية الدفاعية للدعاية البرجوازية . في السنوات الحالية وعلى الاخص ازمة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ ظهرت مؤشرات لاتجاهها نحو الحركة الشيوعية ومصلحتها في الاشتراكية العلمية .

طبعا هذا التغيير لم يحدث بسهولة . ان ممثلي البرجوازية الصغيرة المثقلين باعباء العلاقات والتقاليد البرجوازية ، يجلبون معهم الآراء الاصلاحية واليسارية المتطرفة والفوضوية وبقية الآراء غير العملية الى ساحة المعارك الايديولوجية . وفوق ذلك فان نقدهم للراسمالية ذو جانب واحد وغير متماسك ، واعترافهم بالافكار الاشتراكية تصاحبه عادة كل انواع التحفظات النابعة من الطبيعة اللبرالية البرجوازية .

لا توجد مجموعة مباشرة من المصالح ولا روابط وطنية وامميه بين شتى

ممثلي الطبقات الوسطى ، وافرادها غير موحدين في تنظيم طبقي واحد . وللذلك ، كما يقول ماركس : « تراهم عاجزين عن ان يجبروا مصالح طبقتهم باسمهم » (١٤) . وفي عدة مجالات يعتمد مركزهم على تداخل القوى الطبقية وطنيا وعالميا ، وعلى تاثير الطبقة العاملة والاشتراكية العالمية .

وكما لاحظ اجتماع الاحزاب الشيوعية والعمالية العالمي عام ١٩٦٩ « على الرغم من حاجة الطبقة المتوسطة الى الوحدة وحساسيتها الخاصة للايدلوجيا البرجوازية ، فان جماهير كبيرة منها تتقدم دفاعا عن مصالحها ، فتنظم الى النضال من اجل مطالب ديمقراطية عامة وتصبح سريعا **واعية للاهمية الحيوية للعمل الموحد مع الطبقة العاملة** ( اشارة التاكيد مني ، ف ـ ك ) (١٥) .

كانت **الانتلجنسيا** ولا تزال الحليف القوي والمخلص للطبقة العاملة . ان دورها يتعاظم وعلى الاخص بالنظر الى تطور الثورة العلمية والتكنولوجية . فقد غدت قوة مؤثرة في عملية الانتاج عامة ، والحياة الاجتماعية خاصة . وقد سعت راسمالية الدولة الاحتكارية ما وسعها لتفتيت الانتلجنسيا الى فئات . وطالما انها تكافح ضد سيطرة الراسمال الاحتكاري فان معظمها ينجذب نحو الطبقة العاملة ومثلها في الميدان الاجتماعي .

يتالف القسم الاعظم للانتلجنسيا من الموظفين الذين لا يملكون ، كقاعدة عامة ، وسائل انتاج . انهم موظفون حكوميون ومستخدمون لدى الشركات الاحتكارية والشركات الخاصة ، ومهندسون وتكنيكيون واختصاصيون . في اعتقادنا ان الوظائف الاجتماعية لهذه المجموعات وحالة ملكيتها مختلفة هي الاخرى . ان حقيقة ان قسما لاباس به منهم موظف في جهاز الدولة ، او مدراء في المشاريع الخاصة سوف تدفعهم أيديولوجيا الى البرجوازية اكثر فاكثر . وهذا يترك اثره في الياقات البيضاء ويمنعهم من تمثل الايدلوجيا الماركسية . وفي الوقت نفسه فان ظواهر هامة اخرى من حياة هذه الفئات من السكان تدفعهم الى الطبقة العاملة اكثر فاكثر .

ان القسم الاعظم من عمال الدوائر والمهن الهندسية والتكنيكية والحرفية ينحدر من أسر عمالية ويعيشون حياتهم عن طريق عملهم . ولكنهم

---

(١٤) ماركس وانجلز « المؤلفات المختارة » في ثلاثة اجزاء المجلد الاول ص ٤٧٩ .

(١٥) « الاجتماع العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية » موسكو ١٩٦٩ ص ٢٥ .

يكسبون أجرا فانهم طبعا يستثمرون من قبل الراسمال الكبير . ويتخلف مستوى حياتهم قليلا عن مستوى حياة العمال المهرة فهو اخفض بمرات . مركزهم غير ثابت ويعتمد كليا على تقلبات الاقتصاد في الاقطار الراسمالية وليس على نزوات المستخدم .

لابد أن نلاحظ أن العقود الاولى التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ، عندما حاول الراسمال الاحتكاري قطف زبدة التقدم العلمي والتكنولوجي صارت الحياة المادية لهذه الفئات ثابتة . في ذلك الوقت سارعت الدعاية البرجوازية وقرعت الجرس معلنة « ثورة في توزيع الارباح » لصالح الياقات البيضاء . ولكن ليس سرا انه حالما بدات الاقطار الراسمالية تنحدر في معدل النمو الاقتصادي ومعوقات التضخم في بداية السبعينات ، حتى أصبح ذوو الياقات البيضاء مع الطبقة العاملة ضحايا هذه التطورات . لقد قدمت ازمة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ دليلا مقنعا ان التهديد ذاته يظل معلقا فوق راس الانتلجنسيا في الاقطار الراسمالية .

ان اتساع الرجعية السياسية والانحطاط الاخلاقي والثقافي للحياة الاجتماعية وعمق ازمة الثقافة البرجوازية أجبر الانتلجنسيا أن تفكر بالبديل الاجتماعي للراسمالية . وقد ادى هذا موضوعيا الى تمثل الانتلجنسيا للنظرة الاشتراكية العالمية . ان الاعمال الطلابية المدمرة الواسعة ( اي مستقبل العمال ذوي الياقات البيضاء ) في أواخر الستينات كانت أول بادرة احتجاج من الانتلجنسيا ضد النظام الراسمالي .

عندما كانت الراسمالية الاحتكارية في بداية تكونها استشرف لينين أن العمليتين المتعارضتين سوف تسمان تطورها : بروليتاريانية الانتلجنسيا من جهة وانتلجنسانية الطبقة العاملة من جهة اخرى . في العقود والتي مرت ، وعلى الاخص بعد الثورة العلمية والتكنولوجية انتزعت الراسمالية المثقف من وضعه المستقل وحولته الى ماجور عادي يتعرض لكل انواع تقلبات سوق العمل . هذه هي في الحقيقة **بروليتاريانية** الجماهير الكبيرة من المثقفين التي انتشرت بقوة جديدة . وفي الوقت نفسه وللاسباب ذاتها كان ثمة علاقات تقارب بين العمل اليدوي والعمل غير اليدوي ، وجرى تحسن في المستوى الثقافي ومهارة العمال،في مشاقفتهم . ان الفرق بين المهندس والتكنيكي والعامل عالي المهارة في المشروع الصناعي الضخم الحديث قد تلاشى الى حد بعيد .

لقد اجتمعا بسبب حالتهما المادية والنفقات الضرورية لاعادة انتاج قوة العمل وبسبب الطبيعة الفعلية لعملهما .

وكرد على هذا الواقع الجديد يناضل أيديولوجيو البرجوازية مهما كلف الثمن من أجل عزل الانتلجنسيا عن الطبقة العاملة ، من أجل اقامة جدار بين الياقات البيضاء والياقات الزرقاء .

الباحثون والمهندسون وقسم ضخم من الانتلجنيسيا بشكل عام هم عبارة عن انواع من صغار الكسبة . وبالتالي فان كل جماهير الياقات البيضاء سوف تكون قادرة على النهوض ضد الاحتكارات والمكافحة من اجل حقوقها ولكن داخل اطار الجبهة الديمقراطية الواسعة .

ان التناحر القوي بين هذه الاكثرية الديمقراطية وراس المال الاحتكاري يشتمل الكثير من القضايا . ان تناقضاتهما لا تصل فقط الى الميادين الاجتماعية والسياسية ، بل تمتد الى الميادين الثقافية والعلمية والتربوية .. وهلمجرا . ولذلك فان الاتجاهات محتومة نحو المزيد من التقارب بين المرحلتين الديمقراطية والاشتراكية لحركة التحرر الوطني . ومع انهما يختلفان في السمة والعناصر والقوى المحركة ، فانهما متداخلتان وكل واحدة تكمل الاخرى . في كل قطر معين ، وفي الدرجة الاولى بين الانتلجنسيا ، هناك ظواهر ايديولوجية نوعية اممية في المضمون وطنية في الشكل ، تتجه ضد سيطرة الاحتكار . وفي كل الحالات ، وسواء كان حلا للقضايا الديمقراطية العامة ، او التحولات الاشتراكية ، فانها توسع جبهة المعركة الايديولوجية بين البروليتاريا والبرجوازية ، وتقود سياسيا الجماهير العاملة الى الموافقة على برنامج الماركسية اللينية .

## ضد الكولونيالية الجديدة ، من اجل تحالف ضد الاحتكار

ان العناصر الديمقراطية والاشتراكية تتداخل اكثر فاكثر في **مناطق حركة التحرر الوطني** . والسبب هو ان النظام الامبريالي العالمي القائم على

---

(١٦) انظر لينين : « مراجعة في كارل كاوتسكي وبرنشتين وبرنامج الاشتراكية الديمقراطية » المؤلفات الكاملة جـ ٤ ص ٢٠٢ وكذلك « روح المغامرة الثورية » المؤلفات الكاملة جـ ٦ ص ١٩٨ .

العنف والاضطهاد قد جعل قضايا الاستقلال الاجتماعي والقومي لا تنفصل عن بعضها .

حين تحقق الاستقلال السياسي شعرت الكولونيالية السابقة بضرورة التعامل مع العلاقات الاقطاعية ( واحيانا علاقات ما قبل الاقطاعية ) . كان لابد من تقديم عدة تحولات كانت الشعوب الاوروبية قد نفذتها في مجرى الثورات الديمقراطية البرجوازية التي ترجع الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكن التطور الشامل للوضع التاريخي المختلف ، مع تدني الراسمالية باعين الشعوب ، وقد غدت الاشتراكية القوة الحاسمة للعملية العالمية ، جعل هذا النضال يحوز مضمونا جديدا واشكالا جديدة .

ان الثورات البرجوازية الديمقراطية السابقة قوت نقط الراسمالية ، بينما الحركات الوطنية الحالية ، حتى تلك التي تحافظ على حدود التحولات البرجوازية الديمقراطية ، قد وجهت ضربة قوية للراسمالية . كانت الثورات البرجوازية الديمقراطية في اوروبا موجهة بشكل رئيسي ضد القوى الرجعية المحلية والاقطاعيين والحكم المطلق الاقطاعي والملكي . وحركات التحرر الوطنية اليوم ، موجهة بالضبط ضد الامبريالية والقوى الداخلية المتحالفة معها . طبيعي ان الثورات البرجوازية الديمقراطية ، في شكلها الكلاسيكي ، لم تتحرك قيد انملة نحو احتمال التحولات الاشتراكية . اما الثورات الوطنية التحررية المعاصرة ، فانها اما ان تقود الى البناء الاشتراكي مباشرة ، او تعلن عن اتجاهها الاشتراكي ، او نتيجة في بعض الحالات ، بصورة او باخرى ، الى العناصر الاشتراكية في برنامجها الطويل الامد . وحتى يتحقق الاختيار الاخير لطريق التطور الاجتماعي والسياسي ، وبينما تظل الطبقات المتناحرة موجودة في الاقطار المتحررة حديثا ، فان التطور سوف يظل عرضة للتاثر بالقوى الرجعية والكولونيالية الجديدة والبرجوازية الكومبرادورية والاقطاعيين . وفوق ذلك فان هذه المناطق ستظل ميدانا لصراعات حادة . ان اجبهة المعادية للامبريالية المشكلة في فترة النضال من اجل التحرر الوطني توحد قوى طبقية مختلفة بحيث ان تفاقما للمعارك الايديولوجية يصبح محتوما في الاقطار التي لا تزال القضايا الاجتماعية الاساسية غير محلولة .

وبما ان الطبقة العاملة هي القوة القائدة ففي مقدورها ان تدفع بالاتجاه الاشتراكي الى الحركة بشكل عام وان تدعم دورها كقائدة في النضال ضد الامبريالية . ولكن في عدة اقطار من اقطار حركات التحرر الوطني لا تزال

التجربة في اولها ولا تزال في حاجة الى المزيد من الخبرة في النضال السياسي. ان جماهير الفلاحين الذين يشكلون القسم الاكبر من السكان في هذه الاقطار؛ منقسمون تنظيميا والعديد منهم يتبعون البرجوازية الوطنية التي تشغل، كقاعدة عامة، مركزا مزدوجا: فمن جهة تشغل دورا معتبرا في انجاز الثورة المعادية للاقطاع والامبريالية، ومن جهة اخرى تميل الى المصالحة والمساومة مع الامبرياليين والاقطاعيين.

كلما استخدمت حركة التحرر الوطني قواها. تكشفت طاقتها المتزايدة. ان على الاقطار المتطورة ان تجهز مهمة صعبة في تحقيق الاستقلال الاقتصادي. ان القوى الامبريالية وقد اجبرتها الظروف على الاعتراف بحق الاقطار المستقلة حديثا في الحكم الوطني، تبذل جهودا، كما تدل التجربة، لاحلال نظام الكولونيالية الجديد محل النظام القديم. وتحت اشكال مضللة من « التعاون »، يمكن لهذا النظام ان يخلق امكانية متابعة الاستقلال ونهب شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية. لذلك من الواضح في التحليل الاخير، ان حركة الاقطار المتطورة نحو الاستقلال الاقتصادي تعتمد حتما على اختيارها جانب الاتجاه الاشتراكي، الاتجاه الذي ليس فيه اي تمييز بين الحقوق.

هكذا سيكون اتجاه الجولة الجديدة في النضال ضد الامبريالية، ولكن هذه المرة في الميدان الاقتصادي. وفي كل الاحتمالات فان الاقطار الاسيوية والافريقية والاميركية اللاتينية سوف تتخذ خطوات عملية لتتخلص من النظام الامبريالي في الاقتصاد. ومن المؤكد ان الجولة ستكون قاسية ومعقدة من اجل ضرب اعمدة السيطرة الاجنبية، وقطع جذور النظام الاستعماري القائم على نهب المصادر الوطنية لهذه الاقطار.

ان تحقيق مثل هذه المهمة الجبارة لتامين انتقال مئات الملايين من الناس في الاقطار المتطورة الى الاشتراكية يتوقف على التحالف الوثيق مع النظام الاشتراكي والطبقة العاملة العالمية، القوتان اللتان تؤلفان على الصعيد الدولي طليعة حركة التحرر بنظر الاقطار والتي تشن النضال الوطني التحرري.

وهذا يفسر لنا لماذا يوجه ايديولوجيو الامبريالية وبرجوازيوهم الصغار راس هجومهم على هذا التحالف في الدرجة الاولى. مر زمن كانت فيه

الدعاية البرجوازية تدعي ان حركة التحرر في المستعمرات لاجذور اجتماعية لها بشكل عام ، محتجة انها مستوردة من الخارج عـــن طريق « المكائـــد الشيوعية » . ثم يتحولون الى اطروحة مختلفة كليا ، وهي انهم يعزون الى حركة التحرر نوعا من التعصب الوطني والعرقي . انهم يسعون لاثبات انـه لا الاشتراكية ولا الطبقة العاملة في الاقطار الراسمالية يمكن ان تفعل شيئا ، وفي الميزان العام للقوى الطبقية المعاصرة تعتمد حركة التحرر الوطني اعتمادا قويا على الطبقة العالمية والاشتراكية في النضال من اجل السلم والديمقراطية والتقدم الوطني .

## الطريــق السلمي غير المسلــح

حققت حركة التحرر العالمية ابعادا كونية : انها تتطور بشكل لم يسبق لهمثيل ، وتحقق في كل مكان تحولات ذات اهمية تاريخية فعلية . لقددفعت الى العملية الثورية جماهير ضخمة من الناس في كل القارات التــي تسير في مراحل مختلفة من التطور الطبقي وتجمع طبقــات اجتماعيــة مختلفة . ان ايقاظ جماهير العالم على الحياة السياسية سيعجل الانتقــال الى الاشتراكيه والشيوعية .

على اي حال ، يجب ان نذكر دائما ان هذه العملية تدفع ايضا الــــى دوامة الصراع السياسي العديد من الناس الذين لا يتغلبــون علــى التأثـــير البرجوازي فيحضرون معهم الى حركات التحرر آراءهم وافكارهم واوهامهم البالية وتذبذباتهم البرجوازية الصغيرة . وغالبا ما نجد قوى مختلفة وغير متجانسة اجتماعيا تحارب الامبريالية وتسمى الاشتراكية هدفهــا الاخـــير ، تصبغ مفهوم الاشتراكية بافكارها الخاصة . واحيانا تتفق هذه الافكار مــع مصالحهم الاقتصادية والسياســـيــة والوطنية الآنية الضيقــة ، والنظريات الاشتراكية غير الماركسية تزدهر تماما في هذه التربة .

ليس في هذا شيء لم يتوقعه الشيوعيون . المذهبيون والانقساميــون فقط يتوقعون من الجماهيران تنضم الى الحركة الثورية لتقوم بـ « النقـــاء الايديولوجي » الموهوم .. ان النظرية العلمية تصاغ في مجرى الصراع السياسي نفسه نتيجة التجربة العملية في التغلب على شتى المفاهيم الخاطئة ، وعبـــر التحرر التدريجي من تأثير الايديولوجيا المعادية .

ان تقدير لينين يؤكد هذا : « ان الثورة الاشتراكيــة . . . . لا يمكن ان

تكون اي شي آخر اكثر من انفجار الصراع الجماهيري ، من قبل كل العناصر الساخطة والمضطهدة . حتما سيشارك فيها قطاعات من البرجوازية الصغيرة والعمال المتخلفين ــ ومن دون مثل هذه المشاركة سيكون النضال الجماهيري مستحيلا ، وبدون النضال الجماهيري تكون الثورة مستحيلة ــ ومن المحتم ايضا انهم سيحضرون معهم الى الحركة اهواءهم واوهامهم الرجعية وضعفهم واخطاءهم . ولكنهم موضوعيا يحاربون الراسمال ، وطليعة الثورة الواعية طبقيا ، البروليتاريا المتقدمة ، المعبرة عن هذه الحقيقة الموضوعية في الصراع الجماهيري المتنوع والمتعدد ، قادرة على توحيد هذا الصراع وتوجيهه » (١٧).

هذه النتيجة تجد اليوم تعبيرها الملموس في العوامل الاقتصادية والعلمية والتكتيكية المعقدة ، وفي الظواهر الاجتماعية والسياسية ، والعملياتالداخلية والعالمية . وفوق ذلك ، فان ازدياد التداخل بين كل ميادين الحياة الاجتماعية داخل القطر الواحد او على الصعيد العالمي ، هو سمة المرحلة المعاصرة . ان الفترة الحالية للثورة العلمية والتكنولوجية والاجتماعية تتسم بتداخل الاهداف التحررية والديمقراطية للطبقة العاملة ، لكل الكادحين في التيار العام للحركة المعادية للامبريالية .

هناك ما فيه الكفاية من الاعراض التي تشير الى ان النظام الراسمالي اسير قبضة ازمة قوية وعميقة . وسوف تقود بلا رحمة ولا شفقة الى الانهيار النهائي للعلاقات الاجتماعية البرجوازية . واذ يعجز المدافعون عن الراسمالية في العثور على طريق آخر ، فانهم لا يتوانون عن زج البشرية في مغامرات طائشة . في كتاب الاستاذ الفرنسي اريك موريس « شهادة لعالم المستقبل » يرسم المؤلف صورة موغلة في التشاؤم لنهاية البشرية . وحسب رايه ستاتي هذه النهاية اما نتيجة الموت جوعا ، او نتيجة ازمة بيئوية ، او من نضوب معين الطاقة . ليس ثمة سوى شيء واحد يمكن ان ينقذ البشرية ، وهذا الشيء ، كما يراه ، هو الحرب . يقول « ان صراعا ذريا سوف يدفع الى مقدمة العوامل الترياق المشؤوم . ليس فقط انه ينقص عدد المستهلكين للحضارة التكنيكية ، ويخفض مستوى حياتهم ، وينبذ فوضى التقدم العلمي، وانما سوف يقود تحت ظروف التغير « المعدل » الى دمار للطبيعة الحية اقل مما ينجم عن العقم البيئوي . وبهذا سوف يثير قضية العودة الى فترة ماقبل الصناعة ، او الى شيء يجمع تلك الشروط وبقايا منافع التكنولوجيا

---

(١٧) « خلاصة المناقشة حول حق تقرير المصير » المؤلفات الكاملة جـ ٢٢ ص ٣٥٦

المسيطرة » (١٨) . تغير ذري « معدل » . هذا هو الاجراء المميت الذي يقدمه الفكر البرجوازي للبشرية ، وهدفه الرئيسي شفاء الراسمالية من امراضها ، او على الاقل اطالة بقائها .

ان الشيوعيين يقترحون بديلا مختلفا كل الاختلاف . ان ممثلي ٢٩ حزبا شيوعيا وعماليا أوربيا لاحظوا في وثيقة مؤتمرهم المنعقد في برلين ( المانيا الديمقراطية ) ١٩٧٦ ، ان « البناء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الراسمالي بات مفككا أكثر وأكثر مع احتياج الجماهير العمالية والشعبية ومع متطلبات التقدم الاجتماعي والحركة الديمقراطية السياسية . ان الطبقة العالة وكل الكادحين في أوروبا الغربية يناضلون من اجل طريق ديمقراطي للازمة يستجيب لمصالح اوسع جماهير الشعب ويفسح المجال امام التحول الاشتراكي للمجتمع » (١٩) .

ان الطبقة العاملة تقدم حلا ديمقراطيا بوسائل سلمية . هل هذا ممكن ؟ نعم انه ممكن . ان الايديولوجيا الشيوعية العلمية هي ايديلوجيا تفاؤلية تاريخية انسانية ، ترفض العنف ، الا اذا كانت المسالة مسالة دفاع الطبقة العاملة عن نفسها ضد العنف الراسمالي .

من الاهمية بمكان في هذا الصدد الاشارة الى الطريقة التي قدمت بها مسالة الاشكال السلمية للانتقال الى الاشتراكية . اعتقد ماركس في زمنه بانه يمكن ان تكون هناك « دولة انتقالية للمجتمع » في ظلها « من جهة لا يكون الاساس الاقتصادي الحالي قد تحول ، ومن جهة اخرى لا تكون الطبقة العاملة قد تجمعت بصورة كافية لتجبر الانتاج على الخطوات الانتقالية التي يمكنها ، في نهاية الامر ، أن تجعل بالامكان اعادة التنظيم اعادة جلرية » (٢٠) .

ينتج من ذلك ان قوة الطبقة العاملة والحركة المعادية للاحتكار عامة قد وصلت من القوة اليوم الى حد الذي تستطيع فيه أن تحقق أهدافا اجتماعية وسياسية على طريق الاشتراكية بوسائل سلمية . ان كثيرا من

---

(١٨) اريك موريس « شهادة لعالم المستقبل » باريس ١٩٧١ ص ٢٢ .

(١٩) « من اجل السلم والامن والتعاون والتقدم الاجتماعي في أوروبا » ص ٢٨ .

(٢٠) ماركس وانجلز المؤلفات ج ١٦ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ .

هذه الفرضيات الموضوعة في برامج الاحزاب الشيوعية والعمالية لاوروبا الغربية – تطالب بالديمقراطية المعادية للاحتكار وبتشكيل حكومات تجمع يساري وبسياسة نزع التسلح – هي اشكال انتقالية او مراحل متداخلة في النضال من أجل الاشتراكية .

بالطبع طريق التحولات الديمقراطية السلمية لا يعني أن الصراع الطبقي قد اخذ ينتهي . على العكس ، اذ فقط الهجوم القوي والفعال المستمر للطبقة العاملة ضد راس المال يمكنه من اتمام هذه الحركة . ذلك لان الثورة ليست المجموع العام للاصلاحات ، وطالما ان الموضوع الرئيسي للصراع الطبقي – مسألة السلطة وبالتالي مسالة ملكية وسائل الانتاج – يبقى غير محلول ، فان من المحال اعتبار اي انجاز نهائيا . ولذلك فان الطريق السلمي للثورة يقتضي دعم النضال السياسي للقوى الديمقراطية ضد الامبريالية ، سواء في القطر الواحد او على الصعيد العالمي .

اما بخصوص المظهر الاممي لهذه القضية فيستلزم تشكيل جبهة عالمية عرضة من القوى الديمقراطية ضد قوى الحرب والرجعية لان الديمقراطية، كما قال لينين : « تتجلى بوضوح اكثر في المسالة الاساسية للحرب والسلم »(٢١) وبينما تتجه القوى الديمقراطية محليا الى الطبقة العاملة وطليعتها الشيوعية ، فانها تتجه عالميا الى المجموعة الاشتراكية وعلى راسها الاتحاد السوفياتي – القوة القائدة في النضال من أجل السلم والتعاون بين الشعوب .

---

(١٩) لينين « الحرب والثورة »، المؤلفات الكاملة المجلد ٢٤ ص ٣٨٩ – ٤٠٠ ..

# الفصل الثامن

# إبعاد الحرب..
# عن حياة المجتمع

## السلم كما تخيله مفكرو الماضي

من بين القضايا الاساسية للمرحلة المعاصرة من التاريخ العالمي ، تعتبر قضية السلم والحرب اشدها حدة واهتماما . انها ، اكثر من اي شيء آخر، تربط كل مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية، وتفضح جذور المواجهة بين النظامين ، ويمكن القول من غير مبالغة انها تقرر مستقبل كل البشرية .

ان الطموح القديم اليوم لدى الجماهير الى السلم يتجسد في مخطط افعال عملية . ونتيجة النضال الحازم للاتحاد السوفياتي من أجل السلم ، الذي يؤيد كل القوى الديمقراطية في العالم ، وسياسة الانفراج ، قد اعطت اولى ثمارها . ان برنامج النضال من أجل السلم والتعاون الدولي ، ومن أجل حرية الشعوب واستقلالها الذي وضع في المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي يفتح آفاقا جديدة في هذا النضال النبيل . اذا كان هذا البرنامج يتضمن الانفراج السياسي ، فعليه ان يتدعم بالانفراج العسكري والتعاون الدولي الواسع والمتعدد الجوانب بين الدول . ان السلم الدائم يجب ان يصبح مقياسا للعلاقات الدولية . في الواقع هذه المهمة التمهيدية في المزيد من تطور العلاقات الدولية الذي حددها الحزب الشيوعي السوفياتي في برنامجه . « ابعاد الحرب واقامة سلم دائم على الارض هو الرسالة التاريخية للشيوعية »(١) .

ان قضية الغاء الحروب يمكن ان تبدو قضية مغالطة ( Paradoxical ) بقدر ما تظهر التجربة التاريخية السابقة انها خارج نطاق الامكانية . ومثل اي قضية اجتماعية سياسية اخرى ، تستدعي هذه القضية تفسيرا تاريخيا لحلها . كيف تنشأ الحرب ، وما القوى المستفيدة منها ، وهل يمكن للجنس

(١) « الطريق الى الشيوعية » موسكو ١٩٦٢ ص ٥٠٥

البشري ان يوجد بلا حروب ام انه محكوم بان يدفع ضريبة الدم ؟ وحتى نجيب عن هذه المسائل والمسائل المشابهة من الضروري ان نختبر العوامل المتداخلة ، من الاقتصادي والسياسي وحتى القانوني مع مسائل اخرى في تداخلها ومظاهرها المتباينة ، ولكن فقط في ضوء هذا الوضع الملموس او ذاك.

تهفو البشرية الى حلمها في السلم خلال تاريخها الطويل الذي يعج بالحروب الدموية ، ولقرون عديدة وهذه الرؤيا للسلم تغذي الافكار البشرية في الغاء الصدامات المسلحة من حياة الناس . واحيانا يتخذون اجراءات جريئة واصيلة لاقامة علاقات عالمية عادلة .

مهما كانت دعوات السلم مشروحة في الاطروحات الفلسفية او في اعلانات السلطات ، فانها اذا ما قورنت بالواقع تكشف العجز العملي المطلق او تكشف عن التمويه الذي هو ابعد من الرغبة الواعية لخير الناس . ما الذي يتوقعه المرء من مجتمع قائم على العنف ؟ ان مالكي العبيد شنوا الحروب من اجل المزيد من العبيد ، والاقطاعيين شنوا الحروب من اجل الاراضي والفلاحين ، والراسماليين شنوا الحروب من اجل المصادر الاولية والاسواق الاستهلاكية والميادين التي يمكن ان يستغلوا راسمالهم ، ومن اجل الاثراء من الاستغلال . لقد قدرت الحروب بما يزيد عن ١٤٥٠٠ حربا التهمت حياة ملايين الناس في فترة ٥٥٠٠ سنة . فيالحسابات الدم المختثر .

ان الحرب مصحوبة دائما بانظمة الاستغلال منذ ان ظهرت . وما هو مميز ايضا ان الناس يبحثون دائما عن السلم . ولكن بينما تحصي الكتب المدرسية الحملات العسكرية والمعارك ، فان افكار السلم اقل حظا في هذا المجال وتبقى عادة في الظل . ومع ذلك فان من المفيد ان نتتبع آثارها . ان تاريخ الفكر الفلسفي والسياسي لقضايا السلم في القارة الاوروبية مفيد في هذا المجال على وجه الخصوص . ان اوروبا القديمة والوسطى قد قالت كلمتها في هذه القضية .

ان مفكري قدماء اليونان ، مثلا ، لا يختلفون في العقيدة العامة ان الحرب ، هذا الافناء الجماعي للناس ، هي اثم ، وان السلم مبارك ، ولكنهم نظروا اليها كقضية هيلينية داخلية . اما بالنسبة الى العالم الخارجي فلا يقبلون اي اوهام . يؤكد الفيلسوف اليوناني القديم هيراكليت « ان الحرب اب للكل وملك على الجميع » موسعا هذه الاطروحة الى ديالكتيك تطور الطبيعة

والمجتمع . ان السلم يسود دولة افلاطون المثالية . اما اولئك الذين يقاتلون خارج الحدود فلهم المجد . ويكشف ارسطو عن الجوهر الاجتماعي للحرب بدقة تفوق ادراك زمانه . لقد عرف الحرب على انها « فعل حقيقي للحيازة » وطبقا له فان ذلك القسم من فن الحرب الذي « يشمل الصيد » مبرر تماما . قال ان هناك فنا كان قائما وكان يجب ان يقوم ليكون ممارسة « ضد الوحوش الضارية وضد الانسان الذي لا يستسلم ، مع انه يميل بطبيعته الى الى ان يكون محكوما »(٢) . هذا الراي بالحرب نابع منطقيا من الطبيعة الفعلية لنظام ملكية العبيد ، ويتطابق مع ذهنيته تماما .

في ظل الظروف الملموسة لنهضة مكدونيا في القرن الرابع قبل الميلاد وغزوات الاسكندر ، الذي كان تلميذ ارسطو ، فان مثل هذا التقويم لفن الحرب تسويغ أيديولوجي للنزعة التوسعية المكدونية . وبعد معركة كورونيا في آب ٣٣٨ ق.م ، التي حسمت مسالة السيادة المكدونية ، دعا فيليب المكدوني في كورنتا المهزومة الى مؤتمر لجميع اليونان فيه اتخذت مسالة السلم الهيليني تعبيرا سياسيا محددا . لقد جرت الموافقة : اولا على اقامة اتحاد الدويلات اليونانية يحرم الحروب الداخلية فيما بينها ، ثانيا اقامة حلف دفاعي هجومي بين الاتحاد وملك مكدونيا . ثالثا ، مباشرة الحرب ضد فارس . وقد كشفت حملات الاسكندر التالية ان المشاركين في مؤتمر كورنتا ، والمكدونيين في الدرجة الاولى ، يرون النقطة الثالثة اكثر النقاط اهمية .

وقد نتج ان هذا المرسوم من القانون الدولي ، وهو أول مرسوم في تاريخ الدبلوماسية ، صاغ بوضوح اتجاه السياسة الخارجية الرئيسي لمجتمع استقلالي ـ الاتجاه نحو التوسع كوسيلة للحيازة . وفوق ذلك ، افصح عن رغبة اقامة تحالفات محلية تدعم سيطرة الشريك الاكثر قوة ، وفي كل الظروف توجه ضد الاقطار والشعوب الاخرى .

ومرت قرون . قامت امبراطوريات وسقطت ، وتشكلت تجمعات دولية وتعثرت ، بيد ان عناصر السياسة الخارجية للدولة ظلت على غرار الشكل السابق .

لقد اثبتت اوروبا العصور الوسطى انها تربة صالحة لفكرة التحالفات الاقليمية الهادفة الى السيطرة على الاقطار الثالثة . وقد تطورت ، على

(٢) السياسة لارسطو ، نيويورك ١٨٦٩ ص ١٢ .

سبيل المثال ، في مجلس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في كليمونت في عام ١٠٩٥ حيث وعظ البابا يوربان الثاني عن « السلام المقدس » لجميع الدول المسيحية وفي الوقت نفسه دعا الى شن حرب صليبية ضد « غير المؤمنين » . وقد دعا رئيس المقر البابوي مسيحية الغرب لانقاذ مسيحية الشرق وانتزاع اوروشليم من يد الاتراك ، مع وعد بان الغزاة سوف يجدون بقاعا خصبة حيث يمكنهم استخدامها . وما نجم عن هذا النداء يعرفه الجميع : بالنسبة الى « الحرب المقدسة » ضد الاتراك ، سعت الدول المسيحية وبصعوبة ايضا ، الى ابرام اتفاق حول هذا الموضوع فنجم عن ذلك حملات صليبية عديدة غطت مدة اربعة قرون . اما دعوات « السلم المقدس » بين الدول المسيحية ذاتها ، فقد منيت بالفشل الذريع .

تمزقت اوروبا نتيجة الصراع والحروب الداخلية سواء في اثناء الحروب الصليبية ام بعدها . ورسالة « التحرير » المشتركة خارج حدودها لم تقرب اوروبا من السلاح . وفوق ذلك ، عندما انهارت الامبراطورية البيزنطية ١٤٥٣ تحت ضربات الاتراك وتلاقت الدول المسيحية ضد العدو المشترك ، لم تلق حتى الدعوات التوحيدية اذنا صاغية . ومحاولة البابا بيوس الثاني في عام ١٤٥٩ لجمع الممالك المسيحية في مجلس سلم انتهت الى فشل تام . ولم تأخذ مملكة من الممالك دعوته ماخذ الجدية ، وعندما وصل الى مانتوا ، مكان المؤتمر المقترح ، لا وجد الملوك ولا وجد ممثليهم .

ومع ذلك فان فكرة حلف الدول المسيحية التي كان لها جذور في المفهوم القديم عن السلم السياسي بين الشعوب المتمدنة ظلت تشغل بال السياسيين الاوروبيين لعدة سنوات تالية . وفي الوقت نفسه لا يستطيعون ان يفكروا حتى في اي شكل من اشكال تنفيذ السلام في اوروبا الا اذا كانت تحالفات عسكرية وسياسية ضد الدول الاخرى .

هكذا ، مثلا ، كانت اتفاقية مكسيميلان سولي الكبرى المشهورة في اواسط القرن السابع عشر . ان رجل دولة فرنسي بارز ومستشار الملك هنري الرابع دوق سولي عبر عن مصالح الحكم المطلق الفرنسي وحاول حل قضيتين في الوقت ذاته . حاول اولا اضعاف مملكة هابسبرج ، المنافسة القوية لفرنسا ، وان يوحد الدول الاوربية الغربية مع طرد الاتراك من البلقان . هذه الخطة تعرضت الى ممارسة تاثير كبير من قبل موسكو التي

اصبحت وطيدة تحت حكم القيصر ايفان الرابع وغدت قوية .

وحتى يدعم سولي خطته ، جاء بمفهوم الحدود « الطبيعية » التي آمن انها ستقام بين جميع الاقطار الاوروبية الغربية على اساس الاتفاقيات المتبادلة ( قسمت الخطة أوروبا الغربية الى ١٥ دولة قوية بالتساوي ) . تقوم هذه الاقطار داخل اطار اتحاد واحد ـ « الجمهورية المسيحية » ـ برئاسة مجلس اتحادي مع قوى مسلحة تحت امرته ، ليحول دون حرب مدنية أو محلية . ولو ان الاتفاقية الكبرى نفذت عمليا لامتدت « الحدود الطبيعية » لفرنسا الى البيرنيه في الجنوب والى الالب والراين في الشمال والشرق . وكان آل بوربون سيسيطرون على « الجمهورية المسيحية » ويقطعون الطريق على آل هابسبورج . هكذا كان الهدف الاساسي لمشروع سولي . اما بالنسبة الى الاتجاه المعادي للاتراك ، فعليه أن يدعم التحالف في وجه الخطر المشترك ويقوي الدور الذي سيلعبه التاج الفرنسي .

ومع ان خطة سولي كانت طوباوية في جوهرها ، الا انها كانت خطوة الى الامام لكونها محاولة اقامة استقرار امبراطوري على فكرة عقلية ، على مفهوم « الحدود الطبيعية » الملموس تدعمه اتفاقية على اساس نوع من ميزان القوى . ولا حاجة الى القول ان مشروع سولي لم يتجسد ، لان مبدأ « الحدود الطبيعية » لم يجد من يؤيده في أوروبا . ولكن في التطور العام لافكار للسلم العالمي فقد احتلت مكانتها . بعض الافكار التي وضعت في الخطة الكبرى كانت صدى لمؤلفات عدة كتاب من عصر التنوير ، قلبوا قضية السلم الى موضوع دراسات فلسفية جادة .

## عصر التنوير ومثله الاعلى عن السلم

اقامة العلاقات البرجوازية على سطح القارة الاوروبية تميز بموجة جارفة من الصراعات العسكرية المدمرة . لقد جلبت دمارا لم يسبق له مثيل ، بما في ذلك حروب السنوات السبع ، والثلاثين ، والمئة . انشئت دول قومية ومستعمرات جرى غزوها بالنار والسيف . وفي الوقت نفسه ريح التغيير في المرحلة الجديدة حثت على البحث عن نظام مقبول من العلاقات الدولية .

ويبدو انه كلما امعنت الممارسات السياسية في اوروبا بالابتعاد عن الفكرة المثالية للسلم ، امعن الفكرالتقدمي في بذل الجهود مناجل العثورعلى استقرار عالمي . ونتج عن ذلك فكرة معاهدة عن السلم المستمر . ان مفكرين كبارا من امثال توماس هوبز وجون لوك ووليام بن وتشارلز سانت بيير وجان جاك روسو ، واخيرا عمانويل كانت ساهموا مساهمات جبارة في هذه الفكرة .

لعدة عقود سيطرت فكرة معاهدة للسلام العالمي المستمر ، كعنصر من المفهوم العام للقانون الطبيعي والعقد الاجتماعي ، على الدراسات الفلسفية في عصر التنوير . لقد جذبت الناس ببساطتها وبالايمان بالعقل البشري . وفي تبرير المتنورين ان الناس حتى يحصلوا على الحق الطبيعي في الامن والملكية ، يجب ان يتفقوا على تشكيل دولة . اذن ما المانع من ان تقوم اتفاقية بين الدول تأتي بالسلم وتحول دون الدمار المتبادل ؟

مثلا وليام بن ، الذي اعتمد في مؤلفاته على افكار لوك وهوبز ، وكان فيلسوفا اكثر منه سياسيا ، كتب في « مقالة عن السلم في اوروبا : حاضرا ومستقبلا » : « السلم تحفظه العدالة ، التي هي ثمرة الحكومة ، كما ان الحكومة من المجتمع ، والمجتمع من الاتفاق »(٢) . في راي بن ان قوة القانون، التي تعكس نزوع الناس الى السلم والعدل ؛ هي ما يجب ان يخضع لها التحالف العام للدول الاوروبية ، ونشاط منظمته العليا التي يمكن أن تكون اما مؤتمرا واما برلمانا لحل المسائل المتنازع عليها . وبالرجوع الى خطة سولي الكبرى يوسع بن في اطروحته الحدود الجغرافية للتحالف الممكن ، الذي يشتمل بالاضافة الى اوروبا الغربية على دولتي روسيا تركيا .

افكار من الفصيلة ذاتها عبر عنها فيلسوف فرنسي ودبلوماسي في بواكير عصر التنوير هو تشارلز سانت بيير في كتابه الرئيسي « مشروع للسلام الدائم » الذي طبع بعد مؤتمر وستفاليا ١٧١٢ في اوترخت . وسلم اوترخت هو الذي اوقف حرب ولاية العرش الاسباني . مما يميز مشروع سانت بيير عن مشروع سولي انه دعا الى تشكيل حلف من الدول القارية لا لتغيير في الحدود ، وانما انطلاقا من الحدود القائمة اقترح تدعيمها في المستقبل . كان حلفه غير موجه مباشرة ضد اي دولة ، وقد أعلن عن المثل العليا لعصر

---

(٢) من كتابات وليام بن المختارة ، لندن ، تورنتو ، نيويورك ص ٦ .

التنوير : العقل والعدالة والقانون ، بانها ضمانة التطور السلمي للشعوب .

ان نهوض البرجوازية والقادة الايديولوجيين للطبقة الثالثة قدم ولا شك خدمة للبشرية ، ولكن ليس بسبب ما ابتكرته هذه الخطة او تلك في تنظيم العلاقات الدولية ( وقد اثبت انها خطة وهمية ) . ان الشيء المهم هو ان انصار نظرية القانون الطبيعي والعقد الاجتماعي نظروا في الارض بحثا عن العدالة مناشدين العقل وليس العناية الالهية . ومن غير الاعتماد على الارادة الطيبة للملوك ، اعلنوا أن السلم العالمي هو حق للشعوب ذاتها . كان ثمة شعور مشترك وديمقراطية حقيقية في هذا التفسير الجديد لقضية السلم اكثر مما في كل المحاولات لحلها في العصور الوسطى السابقة .

فلاسفة القرن الثامن عشر ، وعلى وجه الخصوص ممثلو عصر التنوير الفرنسي ، تابعوا وطوروا هذا الاتجاه الديمقراطي . والجديد عندهم اكتشافهم العلاقة المتداخلة بين طبيعة العلاقات الدولية والنظام الداخلي للدول . ان فكرة اتفاقية سلم مستمر تقوم على الغاء الحكم المطلق . وقد طور هذه الاطروحة جان جاك روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » الى استنتاج وطيد يأخذ بعين الاعتبار حق الناس في استعادة حريتهم بالقوة « وهي الطريقة ذاتها التي استخدمت لسلبهم حريتهم »(٤) .

كما عرضنا لافكار السلم كما جاءت من عصر التنوير فان من الغبن الا نقول شيئا عن دوم ليجيه ماري دي شامب ، الراهب البندكتيني ، واحد اشجع المفكرين في عصر العقل . ومع انه غير مشهور كمعاصريه ديدرو وروسو ، فانه في اعتقادنا كان ذا تاثير غير قليل في تشكيل الآراء الفلسفية لعصره . كان ديدرو وروسو والممثلون الآخرون لعصر التنوير الفرنسي على اطلاع تام بآرائه الراديكالية وقد تعاطفوا معها .

لم يتقدم دي شامب بمشاريع من اجل تسوية عالمية . ولكنه في عام ١٧٧٠ الف اطروحة بعنوان « ملاحظات اخلاقية » وفيها ربط مباشرة بين مسالة تحقيق سلم دائم والقضاء على الملكية الخاصة . كتب : « وجودك

---

(٤) « العقد الاجتماعي » المؤلفات الكاملة جـ ٢ باريس ١٩٦٤ ص ٣٥٢ .

ووجودي. لا حساب لهما بالنسبة الى الاحتياجات التي تمخض عنها تاريخ كل العصور وكل الاقطار »(٥) . والمساواة الاجتماعية في راي هذا الفيلسوف اساسية اذا كانت البشرية تعيش في وئام وتتغلب على التفرقة القومية الناجمة عن الملكية الخاصة .

على اي حال ، هذه الافكار التقدمية صاحبتها نداءات عاطفية من اجل السلم بدت ساذجة ، في حين نداءات دي شامب تناولت الجانب العملي للمسالة . اما فيما يتعلق بالوصول الى التسوية الاجتماعية العادلة فقد كتب : « ان حروبنا هي ايضا نتاج اعرافنا ، اذن فلنتخل عن اعرافنا . فلنبدأ بمد ايدينا الى حكامنا وندفعهم الى التنازل عن عروشهم ليصبحوا مساوين لنا . انهم لن يرفضوا حالما يقارنون دولة المساواة بدولتهم »(٦) .

الخطوة الجديدة التي قام بها فلاسفة التنوير في تقديم مسالة السلام كانت خارقة ، ولكنها قطعا لم تكن كافية لتقديم اي نتائج عملية . في الاحداث العنيفة التي انتشرت في اوروبا واميركا ، لاقى امل انتصار العقل المصير ذاته الذي لاقته الآمال المعلقة على العناية الالهية .

كانت افكار التنوير فيما يتعلق بتنظيم العلاقات الدولية صدى مباشر لبيان الاستقلال الذي أعلن عام ١٧٧٦ تشكيل الولايات المتحدة الاميركية . كان البيان الذي سماه ماركس « أول بيان عن حقوق الانسان »(٧) والذي كتبه توماس جيفرسون ، متأثر بصورةواضحة بفرانسيس بيكون ومونتسكيو وديدرو ولوك .

بالعودة الى النشاط العملي الذي تشكل فور تاسيس الولايات المتحدة في حقل السياسة الخارجية ، سوف نرى انه حالما حققت الاستقلال تخلت عن هذه الافكار التقدمية بما يسمى مبدأ « توازن القوى » . وفي ايدي خبراء ماهرين من الطبقة البرجوازية امثال جورج واشنطن والكسندر هاملتون وجود جاي وآباء آخرين للدولة الاميركية تحولت سيان « توازن القوى » الى رغبة في خلق أعظم كفاح داخلي في العالم القديم . ان جمهورية ما وراء البحار كانت تبني اساس الدولة التي ستحافظ لمدة قرن على قانون جائر للعبودية

---

(٥) انظر دوم شامب « النظام الفعلي او كلمة من ميتافيزيقيا الاخلاق » جنيف

(٦) دي شامب المرجع السابق ص ١٥٨ .

(٧) المؤلفات المختارة ، جـ ٢ موسكو ١٩٧٢ ص ٢٢ .

داخل القطر وتتبع سياسة توسعية في الميدان الدولي ، لا تولي ادنى اعتبار لمصالح السلم العالمي .

لقد اثرت افكار عصر التنوير على برنامج الثورة الفرنسية ـ اعلان حقوق الانسان والمواطن عام ١٧٨٩ . وقد امتدت المادة الثانية الى مبادىء العلاقات الدولية فجاء فيها : « ان غرض كل اتحاد سياسي هو الحفاظ على الحقوق الطبيعية للانسان . وهذه الحقوق هي : الحرية والملكية والامن ومقاومة الاضطهاد »(٨) .

كان في فرنسا الثورية ، المتميزة من اميركا ، لدى دكتاتورية اليعاقبة قوة جاهزة لوضع تلك المبادىء في الحياة . وفي كل من زمن الاندحارات العسكرية ، حيث كانت جيوش اوروبا الرجعية تطبق على فرنسا من كل صوب ، وزمن الانتصارات على المتدخلين ، استخدم اليعاقبة تكتيك الحرب الثورية . لقد اعلن روبسبير في تقاريره الى الجمعية الوطنية ان فرنسا الجمهورية لا يمكن ان تتخلى عن سيادتها تحت اي ظرف من الظروف ، ولن تسمح باي تدخل في شؤونها الداخلية . وفي الوقت نفسه لا نية لها في فرض نظامها السياسي على اي قطر بقوة السلاح .

لم يعتبر اليعاقبة هذه المبادىء شعارا تكتيكيا عابرا ، بل اعتبروها مبادىء اساسية للسياسة الخارجية ، وناشدوا كل الاقطار ان تدعمهم لتأكيد مبادىء العقل والعدالة في العلاقات الدولية . ولهذا دافع اليعاقبة عن مصالح البشرية جمعاء . قال روبسبير مرة ان الحرية لو ماتت في فرنسا فسوف تتكفن الطبيعة ويرجع العقل البشري الى عصر الجهالة والبربرية وسوف يطغى الحكم المطلق فيغمر مثل بحر بلا شطآن . وقد دلت كلماته أنها نبوءة . فالثورة المضادة بانقلابها في التاسع من تيرميدور قضت على نشاط اليعاقبة وقضت معهم على كل الآمال لاقامة مبادىء عادلة في الشؤون الدولية .

---

(٨) معجم اللاروس ص ٩٧٠ .

## « السلم الدائم » عند عمانويل كانت

لم تنته فكرة السلام العالمي . على العكس ، فقد تطورت اكثر في مطلع الحروب النابوليونية ، ولكن هذه المرة خارج فرنسا . والذي بدأ الدراسة والدعاية لهذه الفكرة هو مؤلف الكلاسيكية الالمانية عمانويل كانت الذي كانت اعماله في راي ماركس نظرية المانية للثورة الفرنسية البرجوازية .

اخذ هذا الفيلسوف الكبير بالحسبان نتائج جهود اسلافه فوجد عقما في نصائحهم العملية . وقد فهم بعمق التعقيد الكبير للمسالة اكثر من اي واحد سبقه . ربما كان هذا سبب بدء اطروحته بالسؤال المتشكك عن « السلم الدائم ، سواء كان هذا النقش الساخر على لافتة صاحب الفندق الهولندي التي رسم عليها مقبرة ، قد خصص الموضوع للانسانية كلها بشكل عام ، ام لحكام الدول الذين لا يشبعون من الحروب بشكل خاص، ام للفلاسفة الذي يحلمون هذا الحلم الجميل ، فانه ليس لنا ان نقرر »(٩) .

ومع ذلك فان كانت لا يعتبر الحلم بالسلم لا يتحقق . على العكس ، راى السلم الدائم ضرورة بل فوق ذلك رآه نتيجة محتومة للتطور التاريخي. استفاد كانت من التناحرات التي ترتبط بالجوهر الفعلي للعلاقات بين الناس فذهب الى ان الطبيعة ستقود الى تحقيق الهدف الاعلى الذي سيوحد في نهاية المطاف الجنس البشري تحت ظل القانون .

الطبيعة اوجدت البشر على سطح الارض . كما خلقت الروابط المختلفة لتبادل الاشياء الطيبة في الحياة ، التي توحد الناس في دولة . والطبيعة ايضا هي التي ستدفع تلك الدول ، التي وجدت من قبل في قلب المنازعات والعداء، الى حلف الشعوب . كتب كانت : « مهما بدت هذه الفكرة مثالية ، ولا اهمية للسخرية التي تعرض لها سانت بيير وروسو ( ربما لانهما آمنا بتحقيق عاجل للفكرة ) الا ان هذا الطريق هو الطريق الوحيد المحتوم للخروج من الوضع المدمر الذي دفع الناس انفسهم اليه »(١٠) .

في هذه الاطروحة عن السلم الدائم صاغ كانت المبادىء الاساسية التي آمن انها سوف تقود الى تحقيق هذا الموضوع . من بين هذه المبادىء : ١ ــ اي

---

(٩) « السلم الدائم » نيويورك ١٩٥٧ ص ٣ .

(١٠) مؤلفات كانت جـ ٨ ، برلين ١٩١٢ ص ٢٤ .

معاهدة سلـم يجب الا تتضمن اي شيء يمكـن ان يخدم حـربا في المستقبل ٢ ــ كل دولة مستقلة ، كبيرة ام صغـيرة يجب ان لا تخضع لسيطرة دولـة اخرى لا عن طريق الارث ولا التبادل ولا الشراء ولا الهبات . ٣ ــ يجب الغاء الجيوش المحترفة ٤ ــ الديون الوطنية يجب الا ترتبط مع النظرة الى احتكاك الدول ٥ ــ يجب الا تتدخل الدولة عن طريق القوة في قانون الدول الاخـرى وحكومتها . ٦ ــ خلال الحرب يجب الا تسمح الدولة بأعمال عدائية تجعـل الثقة مفقودة والسلم مستحيلا : مثل استخدام المجرمين وممتهني السموم ، والدعوة للاستسلام ، والتحريض على الخيانة في الدولة الخصم(١١) .

كل هذه المبادىء التي تقوي افكار المتنورين ، وتتخطاهم في عدة مجالات هي مبادىء ديمقراطية اذا اخذنا بالحسبان انها صيغت في الزمن الذي كانت فيه الولايات المتحدة قد حققت الاستقلال ، وكـانت الجمهوريـة الفرنسية منهمكة في حروبها ضد الرجيعة .

ان الاتجاه الديمقراطي هذا عبر عنه ايضا في النقاط الاستنتاجية الثلاث التي جعلها كانت الشرط الرئيسي لضمانـة استمرار السلم . في رايـه ان الشرط الاجتماعي السياسي الرئيسي المسبق للسلم هو الشكل الجمهوري للحكومة القائم على الحرية والقانون اللـذين يستطيع في ظلهما المواطنـون ان يقرروا مسألة الحرب والسلم . وفي القانون الـدولي يجب ان يقـوم تحالف طوعي بحيث يتمتع كل عضو بحق السيادة الوطنية داخـل اطار الاتحـاد . والشرط الاخلاقي يجب ان يكون تشكيل مثل هذه العلاقات بين الدول بحيث لا تستطيع دولة ان تغزو اراضي الدول الاخرى .

نستنتج ان كانت اقترح قوانين ديمقراطية داخلية لنوع من الجمهورية المثالية لميدان العلاقات الدولية . فعنده ان حلفا كبـيرا للشعوب فيه يكـون لكل دولة ضمانة وامن واحترام لان قوانينها معـادل عالمـي لنظامهـا المدني الداخلي القائم على مبادىء القانون .

والحلف بين الشعوب لم يكـن ليصبح « دولـة الشعوب » اي شكـل مقنع لسيطرة امة على امم اخرى . انه حلف طوعي حقيقي خلق بهدف دعـم الحرية والسلم . مثل هذا التفسير للمسألة ، كما رآها كانت ، سيخلق فكرة الفدرالية التي ، كما بررت ، « ستنتشر بين كل الدول تدريجيا وتؤدي الـى السلم الدائم » ، فهي واقع موضوعي . « فاذا صادف ان شعبا قويا متنورا

---

(١١) انظر « السلم الدائم » ص ص ٢ ــ ٧ .

يمكنه أن يخلق لنفسه جمهورية ، تكون بطبيعتها تهفو الى السلم الدائم ، فان هذا سيقدم نقطة ارتكاز للاتحاد مع الدول الاخرى بحيث ينضمون اليه، وبذلك يضمنون الحرية في ظل فكرة قانون الامم . وبازدياد هذه التجمعات يمكن للاتحاد أن يمتد »(١٢) .

لم يعتبر كانت السلم الدائم حلما جميلا ، او حلما وهميا من احلام الفلاسفة . ان البشرية تحققه في شكل اتحاد طوعي حيث على المدى البعيد يسود القانون والعدالة . ويحدد كانت المبادىء الاساسية التي تؤلف أساس مثل هذا التجمع . بقيت مسالة كيف نحقق هذا الموضوع عمليا ، حيثما يكون امكان للتحقيق . ويقدم كانت الاجابة : « ان ضمانة السلم الدائم ليس سوى ذلك الفنان العظيم ، الطبيعة . فنحن نرى عبر سيرها الميكانيكي أن هدفها هو تكوين الانسجام بين الناس ضد ارادتهم، وفي الحقيقة من داخل نزاعهم »(١٣). وكان على يقين مطلق بأن « ارادة الطبيعة أن ينتصر الحق في النهاية . وما نهمله نحن تقوم هي به »(١٤) .

هكذا كانت اجابة كانت . ومن السهل ان نرى ان هذا الفيلسوف الحكيم ما تخطى دي شامب . بل الحالة على العكس ، فعلى الاقل اقترح دي شامب اشعار السلطات القائمة وحثها على العدالة ، بينما كانت يذهب الى ان كل شيء متروك للطبيعة التي سوف تجد الحل الافضل للمسالة .

## مازق الفكر البرجوازي

في اعتقادنا ان كتاب « السلم الدائم » لكانت آخر مساهمة مرموقة للفكر الفلسفي في مرحلة نهوض البرجوازية في ميدان القانون الدولي والعلاقات العالمية . ويمكن القول انه قدم نتيجة هي ان البحث الطويل لمثل هذه العلاقات قائم على مبادىء العدالة والغرض الفكري ( حسب التفسير البرجوازي المصطلح ) وفي الوقت نفسه جرى استهلاكها . وبعد كانت لم يقدم الفكر البرجوازي اي شيء جديد مبدئيا ، وما قدمه لا يجعل البشرية تقترب اكثر من السلام الدائم . وقد لاحظ انجلز : « سرعان ما انهارت الدولة القائمة على الفكر ، وقد انقلب السلام الدائم الموعود الى حرب غزو لا تنتهي »(١٥) .

ان دخول المجتمع البرجوازي مرحلة الاحتكار اتسم بانتشار الرجعية

---

(١٢) مرجع سابق ص ص ١٨ – ١٩ .

(١٣) المرجع السابق ص ٢٤ .

(١٤) المرجع السابق ص ٣١ .

(١٥) انجلز وانتي دوهرنغ ص ٣٠٣ .

والعربدة الدموية للحروب العالمية التي لم يعرف مثيلها . ولـذلك اصبحت العسكرتارية عاملا دائما يسود تقريبا كل ميادين الحياة في الاقطار الراسمالية. وقد كتب انجلز في اعقاب الحرب الفرنسية ـ البروسية « العسكرتارية تسيطر وتبتلع أوروبا ؛ لقد اصبح الجيش الغرض الرئيسي للدولة ، وهو نهاية بحد ذاته ، ليس على الشعوب سوى ان تقدم الجنود وتقوم باطعامهم » وهذا يوضح الاستعدادات للغزوات الجديدة .

لقد رافق نمو العسكرتارية ازدياد في ميدان الحروب . فقد قدر انه في القرن السابع عشر قضت الحروب في أوروبا على حياة الملايين ، وفي القرن الثامن عشر اكثر من خمسة ملايين ، وفي القرن التاسع عشر ستة ملايين ، وفي القرن العشرين اختطفت الحرب العالمية الاولى عشرة ملايين ، والحرب العالمية الثانية أكثر من خمسين مليونا . وانسياقا مع هذه العسكرتارية والعدوان كان الاتجاه العام للفكر البرجوازي تحت تلك الظروف اما ان يعلن عجزه المطلق لايجاد حل ايجابي للمسألة ، أو يعلن اطراءه الفعلي للحرب .

اشهر الفلاسفة الذين تناولوا هذا الموضوع بعد كانت جون غوتفريد فون هردر وجوهان غوتليب فيخته . وبالمقارنة مع كانت ، فقد خطا هردر خطوة الى الامام ، فقد آمن مثل روسو بالقدرة الخلاقة للجماهير . وطور فيخته بدوره فكرة كانت عن تشكيل حلف للشعوب . لقد آمن أن هذا الحلف بقدر ما ينتشر عبر العالم « سوف يتحقق السلام الدائم الذي وحده يستطيع أن يجعل العلاقات الشرعية بين الدول ممكنة »(١٦) . وبما أن فيخته وهردر قد طورا او ضخما فقط بعض افكار كانت فانهما لم يقدما شيئا لهذه القضية وما هو هام ان افكارهما اثارت اهتماما اكثر بقليل مما اثارت افكار سلفهما .

اما فيما يتعلق بمشاريع « السلم الدائم » وعلى الاخص ذات الطبيعة اللبرالية المسالمة ، التي ظهرت من حين الى آخر في القرن التاسع عشر ، فانها لم تثبت شيئا سوى عجزها . انها بحصرها نفسها داخل الحدود الاكاديمية الضيقة لشتى المدارس الفلسفية ، لم تستطع ان تثير اية اصداء اجتماعية واسعة . وفي قمة ذلك ، كانت المعارضة الجبانة لليبراليين البرجوازيين ضد العسكرتاريا والعدوان تظهر في عدد من النظريات العلمية الزائفة التي تسوغ

---

(١٦) راجع مؤلفات فيخته ١٧٩٨ ص ٢٨٦ .

العسكرتاريا والعدوان .

يمكن شرح تحولات الفكر البرجوازي : انه يتطابق الآن مع القانون الاجتماعي الجديد للطبقة الحاكمة . واذ دخلت الراسمالية مرحلة الامبريالية فان البرجوازية بدات تفقد مصلحتها في السلم ، مركزة كل جهودها على تقسيم واعادة تقسيم الاسواق الاستهلاكية والميادين التطبيقية للراسمال . ان نشاطها العملي الآن مجهز « لانتزاع اكبر كمية ممكنة من الارض من كل نوع في كل مكان ، وباي وسيلة ، آخذة بالحسبان مصادر المواد الاولية للطاقة خشية ان يبقى شيء في الصراع الضاري من اجل البقايا الاخيرة من الارض المستقلة ؛ « او من اجل اعادة اقتسام تلك الاراضي التي قسمت من قبل »(١٧) . وعبر الفلاسفة عن عقيدتها داعين الى اعادة تنظيم العالم على اساس العقل والعدالة ، ولكن عن طريق جنرالات يدعون الى حرب .

هلموث فون مولتكي ، احد اعمدة العسكرتارية وهو صديق حميم للقيصر ولهلم و « المستشار الحديدي » بسمارك ، اكد عشية الحرب على اعادة اقتسام الاراضي التي قسمت سابقا فاثبت ان السلم الدائم كان حلما وابعد من أن يكون ورديا . الحرب في رايه عنصر من عناصر النظام العالمي الذي اقامه الله ، وبفضلها يمكن للانسان ان يظهر كل فضائله النبيلة . ويزعم ان العالم من دون حرب سوف ينحط ويغوص في مستنقع المادية .

في هذه السنوات انقسم الفكر البرجوازي الى مفاهيم مختلفة عديدة يحاول كل واحد بطريقته الخاصة أن يبرر حتمية الحرب . ولهذا الغرض استعاض بعض الاساتذة البرجوازيين عن القوانين الاجتماعية للتطور الاجتماعي بقوانين البيولوجيا بروح داروينية اجتماعية مبتذلة ( « الصراع من أجل البقاء » و « حرب الجميع ضد الجميع » ) او بالمالتوسية الجديدة ( الحرب نتيجة « زيادة السكان » ) . آخرون بحثوا عن اسباب الحرب في غرائز ما تحت الوعي حيث الطبيعة نفسها تشكل جوهر ذهنية الانسان . والفريق الثالث راح يثبت ان من المستحيل معرفة « ظاهرة الحرب » على انها ظاهرة اجتماعية ، أو يهرعون الى « المصير المقدر » الصوفي المفروض على الجنس البشري .

في هذا المجال الواسع لمفاهيم البرجوازية في القرن التاسع عشر احتلت التنبؤات التشاؤمية عن مستقبل العالم مكانا كبيرا . وقد كان شيء من المنطق

---

(١٧) لينين « الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية » المؤلفات الكاملة جـ ٢٢ ص ٢٦٢ .

الموضوعي في هذا . أن الصور المظلمة لنهاية الحضارة ، إما لآثامها الداخلية او نتيجة الحروب الحتمية ، التي رسمت على صفحات المؤلفات والقصص الفلسفية ، عكست الازمة العميقة للفكر البرجوازي والمآزق التي وجد نفسه فيها . وقد عكست هذه الظروف ايضا حقيقة ان الانحطاط العام والدمار الذاتي للبشرية يمكن ان يصبح محتوما تاريخيا ، اذا تابع العالم الحياة حسب نظم الراسمالية ، واذا كانت الطبقة العاملة ببرنامجها عن التحويل الاشتراكي للعالم لم تظهر على مسرح التاريخ .

## من الطوباوية الى البرنامج العلمي والممارسة السياسية

ان كل التجربة السابقة للبشرية تثبت تماما ان افكار السلم العالمي لا يمكن ان تجد لها جذورا في مجتمع قائم على الاستغلال . ان كل المشاريع العديدة لتحقيق هذا الموضوع المغري ، الذي اثار مخيلة الفلاسفة وشغل اذهان السياسيين لعدة قرون ، ذات ثلاث سمات بشكل عام . بطريقة او بأخرى عكس كل منها مصالح الطبقة العليا الحاكمة في المجتمع الطبقي ، ونتيجة ذلك كانت كلها ضيقة ومفككة ولا تستطيع ان تتجه الى الجماهير ، والطبقة الدنيا الديمقراطية ، وفي التحليل الاخير ، كل منها اثبت عجزه .

اذن ما الذي يستنتج من ذلك ؟ هل يثبت هذا الراي التشاؤمي القديم ان التاريخ يعلم شيئا واحدا وهو انه لا يعلم اي شيء لاي فرد ؟ أم على العكس أن فكرة السلام العالمي يمكن أن تترجم الى واقع فقط في ظل الشروط التاريخية المعينة التي تحددها القوى الاجتماعية ؟ فلا عجب والحالة هذه ان مفكري الاجيال الماضية فشلوا في العثور على طريق الى السلم واحيانا عبروا عن افكار ساذجة بهذا الموضوع . وما يثير العجب هو ان الناس وهم يتمرغون في الدماء التي تريقها الحروب لم يفقدوا الامل ولا الايمان بالانتصار النهائي للسلم .

يعتبر الشيوعيون التاريخ اكبر معلم للحياة ، طبعا شريطة ان تفهم تجربته بدقة وتطبق . وهذا صحيح بالنسبة الى قضية الحرب والسلم . فلا توجد مرحلة من مراحل التاريخ الماضية قدمت او كان بامكانها ان تقدم حلا جذريا لهذه القضية بسبب الفهم الضيق لها والحاجة الى الشروط الموضوعية والقوى الاجتماعية التي تستطيع فعلا ان تترجم برنامج السلم الى واقع . تاريخيا مثل هذا الحل قد اصبح ممكنا في المرحلة المعاصرة ، حين لم

تعد الطبقة البرجوازية بل الطبقة العاملة بطليعتها الاشتراكية لها الكلمة العليا في الحياة الدولية . ان الشروط الاجتماعية السياسية الموضوعية لتوطيد نظام جديد في العلاقات الدولية تتزايد في ظل تلك الظروف ؛ كما أن برنامجا علميا من أجل سلم ديمقراطي دائم قد جرى وضعه .

ادخلت الماركسية اللينينية سمات جديدة في طرح قضية الحرب والسلم . الآن من بين البرامج الاجتماعية الاخرى ؛ يتبين في سياق السياسة اهداف هذه الطبقة او تلك ، وهكذا صارت تقوم على اساس علمي ؛ لاول مرة . وفي هذا الخصوص فان دورا بارزا لعبه لينين الذي ربط تحقيق السلم العالمي بمهمات الثورة الاشتراكية .

انطلاقا من راي المنظر العسكري كارل فون كلاوزفتز ان « الحرب في سماتها الرئيسية هي نفسها السياسة وقد استبدلت القلم بالسيف »(١٨) عارض لينين بصورة مطلقة « مفهوم رجل الشارع الجاهل عن الحرب أنها شيء منفصل عن سياسة الحكومات والطبقات ؛ وكأنها ببساطة هجمة تعكر السلم ، ولذلك يعقبها السلم الذي تعكر ، كما لو تقول : « تحاربوا ثم عادوا كما كانوا » . هذا الراي الجاهل الذي رفض لعشرات السنين ؛ ويرفض الآن بمجرد ادنى تحليل لأي مرحلة تاريخية من الحروب » .

ثم يرسم لينين النتيجة التالية : « إن الحرب استمرار للسياسة بطرق اخرى . ان كل الحروب لا تنفصل عن الانظمة السياسية التي تولدها . السياسة التي تتبعها دولة ما ؛ طبقة ما داخل تلك الدولة ، لمدة طويلة قبل الحرب حتما ستمارسها ذاتها الطبقة نفسها اثناء الحرب ؛ سوى ان الشكل يكون قد تغير »(١٩) .

مثل هذا العرض للمسالة ينتزع الحرب من الهالة الصوفية كظاهرة « مجهولة » وك « لعنة قديمة » على الجنس البشري . وكاي ظاهرة اجتماعية اخرى قد وضعت الآن في مكانها بين بقية الظواهر التاريخية الاخرى ؛ ولاول مرة ارتفع مفهوم « السلم العالمي » المجرد الى مستوى المهمة العملية لحركة الطبقة العاملة . ان قضايا الامن الدولي والتطور الاجتماعي

---

( ١٨ ) .مؤلفات الجنرال كلاوزفتز . درسدن ١٨٨٥ ص ٥٧٢ .

( ١٩ ) .لينين « الحرب والثورة » المؤلفات الكاملة مجلد ٢٤ من ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ .

ينظر اليها في تداخلها العضوي . ان الماركسيين اللينينيين وضعوا تفسيرا جديدا لمفهوم السلم ذاته فاعتبروه نتيجة السياسة والعلاقات الدولية التي تفرض الاضطهاد على امم من قبل امم اخرى .

في هذا المبدا احترام لمصالح جميع الشعوب ، واقرار بحقها المقدس في ان تختار نظامها الخاص في التنظيم الاجتماعي السياسي .

كان هذا التفسير الجديد تحديا لكل البدع السابقة حول تنظيم العلاقات الدولية . وفي مجرى القرون وآلاف الاعوام ، عندما كان المستغلون يسيطرون على السلطة ، كانت مصالح الجماهير تداس . ولم يعرف التاريخ فعلا وسائل اخرى في حل القضايا الدولية غير القوة . ان الخريطة السياسية كانت تتعرج ويعاد تعرجها حسب ارادة الطغمة المستغلة المتوقفة على قوة الجوانب الاخرى ، أو ميادين التاثير الجديدة ، او اي امتيازات اخرى على حساب الشعوب والدول الاخرى .

كان استخدام القوة الضمانة الوحيدة للميزان الدولي ، كان ببساطة ميزانا من العنف والخوف . هذا المجرى للامور كان مصحوبا بحروب لا تتوقف طالما ان اي تجمع سياسي قائم على مثل هذا الاساس غير المضمون، سيكشف عاجلا أم آجلا عدم ثباته ويغرى بمعاكسته . وفي الوقت نفسه فان الاعتداءات على المصالح الحيوية وحقوق الشعوب يفسح المجال لصراعات عالمية جديدة ولغارات مسلحة .

ومع ان الوسائل التي استخدمتها الدول لاستعباد دول أخرى وصيغها القانونية ، قد تغيرت عدة مرات عبر القرون ، فان جوهر العلاقات الدولية المتولدة عن المجتمع الاستغلالي ظلت نفسها ، لانها كانت قائمة على سياسة مراكز القوة . وتلك الموضوعات السياسية كانت تتطابق مع الوسائل والطرق الديبلوماسية . كتب ماركس وانجلز : « الحكام القائمون حتى ودبلوماسيوهم استخدموا مهارتهم ومجهوداتهم لاثارة امة ضد امة اخرى ، واستخدام امة ضد اخرى لاخضاع امة اخرى، وبهذا الطريق يستمر الحكم المطلق »(٢٠).

ان كل مرحلة تقدم نظامها الخاص من العلاقات الدولية ، وفي المرحلة

---

(٢٠) « سياسة المانيا الخارجية » المؤلفات الكاملة ج ٧ ص ١٦٥ .

المعاصرة ؛ عندما اصبحت الطبقة العاملة وحلفاؤها القوة المسيطرة في التطور الاجتماعي ، طفقت المبادىء الديمقراطية تلعب دورا اعظم في الشؤون الدولية . كتب لينين : « العالم القديم ، عالم الاضطهاد القومي ؛ والشجار الوطني ؛ والعزلة القومية للعمال ، يقابله عالم جديد ؛ عالم وحدة العمال في كل الاقطار ؛ العالم الذي لا يوجد فيه مكان للامتيازات ، او لادنى درجة من درجات اضطهاد الانسان للانسان »(٢١) . تعبر هذه اطروحة عن الجوهر الحقيقي للسياسة الخارجية للطبقة العاملة وتحدد بوضوح الضمانات الفعالة لسلم ديمقراطي دائم .

من الواضح ان السلام الديمقراطي لا ينفصل عن التقدم الاجتماعي . انه يفتح الطريق امام التحولات الاجتماعية عندما تنضج الحاجة اليها . والقاضي الوحيد الذي يستطيع ويجب ان يحدد طريق التطور الملموس لكل قطر على حدة هو الشعب نفسه الذي له كامل الحق في ان يقرر مستقبله الخاص من غير اي تدخل خارجي مهما كان . لا تصدير للثورات ولا تصدير للثورات المضادة ولا تدخل في الشؤون الداخلية للامم ـ هذا هو الاساس للنظام الدائم الذي يمكن ان تقوم عليه العلاقات الدولية . انه وحده القادرعلى دفع الانسانية نحو المزيد من التقدم الاجتماعي في ظل شروط السلم والامن والتعاون .

السلم والديمقراطية والتقدم الاجتماعي . لا يمكن حذف اي عنصر من هذه الثلاثية من دون تفتيت المفهوم المتكامل للعلاقات الدولية . هذا المفهوم بالضبط هو ما يعارض به الشيوعيون السياسية الاستعمارية العالمية في الفرض والنهب والعنف . واذ ظهر استجابة لمتطلبات المرحلة التاريخية المعاصرة واعلن باسم الطبقة العاملة وطليعتها الاشتراكية ؛ فان هذا المفهوم ياخذ بالحسبان القوانين الاساسية للعملية التاريخية ، والمهمات الوطنية والدولية للقوى المحركة الرئيسية في قضية الديمقراطية والحرية .

انه يجد تعبيرة في سياسة التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية السياسية المختلفة ، التي صاغها لينين ، حتى قبل ان ينقسم العالم الى معسكرين في كتابيه المشهورين « حول شعار لدول اوربا المتحدة » (١٩١٥) و « البرنامج العسكري للثورة البروليتارية (١٩١٦) .

وبتحليل العمليات التاريخية لمرحلة الامبريالية توصل لينين الى نتيجة

---

(٢١) « الطبقة العاملة والمسالة القومية » المؤلفات الكاملة جـ ١٩ ص ٩٢ .

وهي أنه نظرا للتطور الاقتصادي والسياسي غير المتساوى ، فان الاشتراكية يمكنها ان تنتصر في بضعة اقطار ، او حتى في قطر واحد . وبالتالي فان التعايش المتوازي بين الاشتراكية والراسمالية لحقبة تاريخية قد تطول وقد تقصر ، هو تعايش ممكن ، بل تعايش طبيعي .

اما بالنسبة الى العلاقات بين الدول ذات الانظمة المختلفة في هذه المرحلة ؛ فان موقف الطبقة العاملة في هذا الموضوع موضح بجلاء في مرسوم السلام ، اول وثيقة للحكومة السوفياتية عن السياسة الخارجية . لقد صاغها لينين واجازها مؤتمر السوفيتات لكل روسيا في ٨ تشرين الثاني ١٩١٧ في اليوم الثاني لانتصار الثورة الاشتراكية . لقد دعت الحكومة السوفياتية جميع الدول والامم المتحاربة الى البدء فورا بالمفاوضات على اساس السلم الديمقراطي العادل من غير اي شروط مسبقة او دفع ديات . وبتوجيه المرسوم الى جميع الامم ، وعلى الاخص الى الطبقة العاملةفي بريطانيا وفرنسا والمانيا ، والى كل الحكومات ، فانه بذلك اعترف بالمساواة بين كل الامم ، كبيرها وصغيرها ، رافضا كل اشكال اضطهاد امة لاخرى . لقد ارسى الاسس من اجل تعايش سلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة .

هذه الاسس التي وضعتها ثورة اوكتوبر من غير مبالغة فتحت عصرا جديدا في تاريخ العلاقات الدولية . وبصياغة لينين لهذه الاسس فور تشكيل الدولة السوفياتية ظلت اساس السياسة السوفياتية الخارجية .

يؤكد اعداء الاشتراكية ان احد اسباب التوتر الدولي وبالتالي التهديد بالحرب ؛ ان لم يكن السبب الرئيسي ، هو واقع ان العالم المعاصر مقسوم الى نظامين اجتماعيين متعارضين . الا ان هذا تاكيد لا اساس له من الصحة. هذا التاكيد يبدو اما انه اساء فهم الماركسية ، او انه يرغب في أن يعزو الى الماركسية جهالة خصومها .

طبعا ظهور الدولة الاشتراكية ومنجزاتها واقامة النظام الاشتراكي العالمي وتقوية مراكزها الدولية ، وتدعيم العمليات الثورية والمساعدة على تشكيل وعي الطبقة العاملة ، كل واحد منها يمكن ان يشيع الصراع الطبقي في العالم . ومع ذلك ، فان هذا لا يؤثر على سياسة التعايش بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة . ترى هل فعلا كانت الصراعات الايديولوجية

سبب السلسلة التي لا تنتهي من الحروب الدموية التي وقعت عبر ملايين السنين في تاريخ البشرية ؟ سواء تنكرت التقاليد الايديولوجية أم لم تتنكر ، فان السبب الرئيسي كان دائما الرغبة في استغلال الطبقات من أجل المزيد من الغنى .

امثلة عديدة تظهر انه مرات ومرات لم يحل الاختلاف في الانظمة الاجتماعية والايديولوجيا دون اقامة الدول فيما بينها تعايشا سلميا . ان برنامجنا هو ابعد ما يكون عن الطوباوية . وهذا ما يؤكده النشاط العملي السياسي .

## الاشتراكية والسلام العالمي لا ينفصلان

ان تقوية الاشتراكية العالمية وانتشار النظرة الاشتراكية على كوكبنا لم يجعل التهديد بالحرب يزداد . على العكس ، فبالتزام اساس السياسة الخارجية للاقطار الاشتراكية ؛ فان هذه النظرة العالمية تحدد الطبيعة السلمية وبذلك يصبح عاملا للسلم ، ومدعما للامن العالمي .

ان مبدأ التعايش السلمي هو اساس السياسة الخارجية للحزب الشيوعي وللدولة السوفياتية . وانسجاما مع روح الفقرة الاخيرة لمؤتمر هلسنكي ؛ فان هذا المبدأ مدون في الدستور السوفياتي الجديد الذي ينص :

« علاقات الاتحاد السوفياتي مع الدول الاخرى مبنية على مراعاة المبادىء التالية : المساواة في السيادة والنبذ المتبادل لاستخدام القوة او التهديد بها ؛ عدم خرق الحدود ، ووحدة اراضي الدول ؛ والتسوية السلمية للنزاعات ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، واحترام حقوق الانسان والحريات الاساسية ، والحقوق المتساوية للشعوب ، وحق تقرير المصير والتعاون بين الدول ، تحقيق الالتزامات التي أقرت حسب الاسس والانظمة في القانون الدولي ، والمعاهدات العالمية التي وقعها الاتحاد السوفياتي »(٢٢).

لو ان هذه المبادىء أقرت دوليا وغدت مقياسا للعلاقات الخارجية لكل

---

(٢٢) دستور الاتحاد السوفياتي( القانون الاساسي ) موسكو ١٩٧٧ ص ٣٢ .

(٢٣) لينين « المؤتمر الرابع للنقابات ولجان مصنع موسكو » المؤلفات الكاملة ج ٢٧ ص ٤٨٠ .

الدول فان ٩٠٪ من أسباب التوتر في العلاقات الدولية سوف تزول نهائيا . وهذا سوف يكون ضمانة مؤكدة للتسوية السلمية لمعظم القضايا السياسية المعقدة الناشئة في الشؤون الدولية المعاصرة .

بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى ، فان هذه المبادىء نابعة من طبيعة نظامها الاجتماعي . والسبب هو انها قضت على الجذور الفعلية لنشأة العدوان : الملكية الراسمالية الخاصة لوسائل الانتاج والقوى التي تنظمه ـ الطبقات المستغلة التي تستفيد من الحرب وتستعبد الشعوب الاخرى كطريق لثروتها . هذا وحده ينظم علاقة الاقطار الاشتراكية مع الشعوب والاقطار الاخرى ، وهو ما لم تعرفه الاجيال السابقة .

**ان المصالح الحقيقية لشعوب الاتحاد السوفياتي والشعوب والاقطار الاخرى لا تتعارض مع بعضها ، بل على العكس ، تتطابق بصورة رئيسية .**
ان تضامن الاقطار الاشتراكية مع الطبقة العاملة في العالم يقوم على واقع انها تتفق معها في وحدة الجبهة المعادية للامبريالية التي تعادي سياسة الاضطهاد والعدوان .

ان الاتحاد السوفياتي والاقطار الاخرى حيث الاحزاب الماركسية اللينينية تستلم السلطة فيها ، لا تسعى ابدا لجني امتيازات خاصة بها . انها لعلى قناعة ان النظام الديمقراطي الوطيد للعلاقات الدولية يمكن ان يقوم فقط على المصالح المشروعة لكل الامم والدول ، صغيرها او كبيرها ، غنيها او فقيرها ، الصناعية او المتطورة ، التي تؤخذ بعين الاعتبار .

ان الاقطار الاشتراكية في صياغة السياسة الخارجية ، تستند الى التحليل الملموس النافذ للواقع وليس على مهام مبتسرة . وهذا يمكنها من أن تاخذ بالحسبان المتطلبات الموضوعية لكل مرحلة معينة وتنعطف بحسب مجرى هذا العمل او ذاك .

ان سياسة الاشتراكية الخارجية متماسكة وناجحة ولا تخضع للتمرجات الانتهازية . ان الاقطار الاشتراكية في علاقتها مع الدول ذات الانظمة الاجتماعية الاخرى ، تبدي مرونة كافية ، ولا تتوانى عند الضرورة من الاتفاق على موضوعات ذات نفع متبادل . ولكن هذه الاتفاقات لا تؤثر في

شيء ، ولا تتم على حساب اقطار العالم الثالث لجناية الامتيازات من هــذا النــوع أو ذاك .

كانت الدولة السوفياتية اول دولة في التاريخ تعلن صراحة مبادىء سياستها الخارجية ، اول دولة لا يوجد لديها شيء مخبوء عن شعبها ، ولا عن شعوب الاقطار الاخرى . على العكس ، ان لها مصلحة في أن تكاشف الطبقة العاملة في كل العالم بكل المعلومات حول الاجراءات . وكلما عرفت الجماهير اكثر عن سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية ، وكلما فهمت اغراضها الفعلية اكثر ، كان ذلك ربحا للمزيد من المؤيدين في الاقطار الاخرى .

الثورة الاشتراكية هي عملية موضوعية للمرحلة المعاصرة . ان الشيوعيين لا يخفون انه على المدى الطويل سوف يفسح النظام الراسمالي الطريق للمجتمع اللاطبقي . وبسبب ان الثورة نتاج التطور الداخلي للمجتمع فانه ، كما اشار لينين ، لا يمكن ان تقوم ثورة في قطر اجنبي بالاتفاق(٢٣) . انها ليست اكثر من مغامرة مصطنعة لاستعجال التطور الاجتماعي ، « لاستدعاء » الثورة من الخارج ، كتاييدهم بطريق القوة . اما بالنسبة الى ظروف التعايش السلمي مع الانظمة الاجتماعية المختلفة ، فانهم كما هو معروف لا يمسون الجوهر الطبقي للحكومة في اي قطر . ان الشيوعيين لا يستغلون التعايش السلمي ، تحت اي ظرف من الظروف للتدخل في الصراع الطبقي للاقطار الاخرى ولو انه بسبب « لا وجود لقوة قادرة أن تدمر الراسمالية اذا لم يحكم التاريخ عليها بالفناء »(٢٤) .

وهكذا بارتباط مهمات النضال من أجل سلم ديمقراطي دائم مع النضال التحرري للطبقة العاملة ، فان السياسة الخارجية للاشتراكية قائمة على التقدير الكامل للقوانين الاساسية للمرحلة الجارية المعاصرة ومتطلباتها الموضوعية ، وتعكس مصالح قواها المحركة الاساسية . ينتج من ذلك انه بميلاد الاشتراكية والصياغة التدريجية لمبادىء السياسة الخارجية ضمن النشاط الاممي ، اكتسبت قضية السلم العالمي لاول مرة اساسا متينا . ان الاشتراكية تعارض السياسة التي استمرت آلاف السنين في العدوان واللصوصية العالمية بديلتها التي صاغها لينين « الانهاء للحروب ، والسلام للامم ، والالغاء للسلب والعنف ذاك هو مثلنا الاعلى »(٢٥) .

---

(٢٤) لينين « الثورة والحرب » المؤلفات الكاملة جـ ٢٤ ص ٤١٧ .

(٢٥) لينين « مسالة السلم » المؤلفات المختارة جـ ٢١ ص ٢٩٣ .

منذ ما يزيد على ستة عقود عمل الحزب الشيوعي والـوطن السوفياتي بكل تصميم لتحقيق هذا الهدف العظيم . وكاساس نظري للسياسةالخارجية للاشتراكية كان هذا المفهوم قد صاغه لينين قبل ثورة اوكتوبر واقر كمبـدأ سياسي للدولة السوفياتية في سياستها الخارجية ، في مرسوم لينين للسلم. وكخطة عملية فان هذا المفهوم لم يستطع ان يتقـدم لفترة طويلة حتـى بعـد استيلاء البروليتاريا على سلطة الدولة .

على العكس ، خلال السنوات الاولى للجمهورية السوفياتية بنى الحزب الشيوعي نشاطه على اساس أن صدامات جديدة مع الامبريالية امر محتوم . ولاحظ لينين في عام ١٩٢٠ : « لقد اجتزنا مرحلة واحدة من الحروب ، وعلينا ان نستعد لمرحلة اخرى »(٢٦) . ان الدولة الاشتراكية الفتية ، وقد احيطت بالاعداء ، ركزت كل جهودها في تلك الايام لكسر الدائرة المنتهبة مـن الحـرب وتكسب ولو فترة راحة قصيرة . وطالما ظلت حتمية الصدام مع الامبريالية فان مهمتها كانت اطالة نفسها . لقد اثبتت الاحداث صحـة التقدير العـام للوضع الدولي والسياسة الخارجية ، وقد انطلق الحزب على أساس هـذا التقديـر .

كان لا بد من قطع طريق طويل بعد ، لتامين الانتصار الكامل للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، لدحر القوى الصدامية للامبريالية في الحرب العالمية الثانية . كان من الضروري احداث تغيير جذري في ميـزان القـوى لصالـح الاشتراكية في الميدان الدولي قبل ان يقيم الحزب الشيوعي المهمة التاريخية في انهاء الحرب من حياة المجتمع كمهمة عملية لعصرنا . ويجب أن نضيف أنـه في ايامنا يشكل مثل هذا الطرح للمسالة متطلبا حيويا حقيقيا للبشريةجمعاء.

---

(٢٦) لينين « المؤتمر الثامن لسوفيتات كل روسيا » المؤلفات المختارة جـ ٣١ ص ٥٠١

# الفصل التاسع

# الموضوع الاساسي للعصر ..

« ... اما ان تبدأ نهاية الحرب
او تبدأ نهاية البشرية »
جون برنال

## الحرب تتخذ مظهرا جديدا

حتى نقدر قضية الحرب والسلم ، من الضروري في الدرجة الاولى ان ناخذ بالحسبان عمليتين اساسيتين لزمننا وعصرنا : اتساع حركة التحرر والديمقراطية للطبقة العاملة ، والتطور السريع للثورة العلمية والتكنولوجية. ان كلا من العاملين قدم تصحيحات هامة جدا في طرح هذه المسالة وحلها .

بالطبع الحرب هي السياسة التي تحل السيف محل القلم . وطالما كان ثمة راسمالية فان المجرى السياسي لدوائرها العدوانية سوف يخلق حتما تهديدا بالحرب .

على اي حال ، اتخذت الحرب أخيرا مظهرا جديدا ، والقوى المناوئة للحرب قد نمت وتدعمت لدرجة ان المعتدي لا يستطيع ان يتجاهل تاثيرها في الشؤون الدولية . وعندما يامل المعتدي ان يكسب بعض الامتيازات الاقتصادية او السياسية ، فهذا شيء ولكنه شيء آخر مختلف اختلافا كليا حتى في ابعد افتراض وهو امكانية دحر العدو ، فان المعتدي لا يربح سوى صحراء لا تصلح للسكن . وعندما كانت القوى المناوئة للحرب ضعيفة غير منظمة ولا حول لها ، شيء ، ولكنه شيء آخر عندما قوت نفسها ايديولوجيا وسياسيا . انها تعتمد في نضالها على قوة مجموعة الاقطار الاشتراكية . عندما في الماضي ، رغم كل الرعب والوحشية والالم التي تصحب الحروب ، كان بعضهم « تقدميا » اي يفيد تطور البشرية عندما يدمر بعض المؤسسات الضارة والرجعية »(١) شيء ، وانه لشيء آخر عندما تغيرت السمة الفعلية للقضايا التي تواجه حاضر الاجيال ومستقبلها ، بحيث ان صراعا عسكريا

(١) لينين . المؤلفات المختارة ج ٢١ ص ٢٩٩ .

عالميا لا يمكن أن يحلها . كل هـذه العوامـل عدلت دور الحـرب ومكانتها في حيـاة المجتمع .

لنتفحص اولا المظهر العلمي والتكنولوجي للقضية . ان تغيرات عنيفـة قد جرت في هذا الميدان كنتيجة مباشرة للتطور الاقتصادي السريع في العقود الماضية ، وعلى الاخص منذ نهاية الحـرب العالميـة الثانيـة . كتب انجلـز « لا شيء اكثر اعتمادا علـى المتطلبات الاقتصادية مـن الجيش والاسطول ، فالتسلح والانشاء والتنظيم والتكتيك والستراتيجية تعتمد قبل كـل شيء على ما وصلت اليه الدولة وقتئذ من الانتاج والمواصلات »(٢) . واذ تطـورت القوى الانتاجية الى درجة عليا لم تتوفر لاي تشكيلة سابقة ولـم يشهد لهـا مثيل ، فان الراسمالية في الوقت نفسـه استوعبت واعادت تنظيم القـوى المسلحة بما لا يقل عن ذلك .

واذ اوكلت القوى الراسمالية الى نفسها مهمة اعادة رسم العالم بالقوة، فقد ادخلت معالم جديدة في تنظيمها العسكري . ان الجيوش لم تكن معدة الا نظاميين وليس من مرتزقة ومنتفعين كما كانت العادة من قبـل . ان تطـور الصناعة والمواصلات أمد الجيوش بحاجاتها . لقد غـدت العسكرية الدليـل اللازم للعالـم البرجوازي .

ان حصيلة العمليات العسكرية في ميادين القتال الآن تعتمد على الاسلحة الجديدة والتكتيكات الحديثة . وفي راي انجلز ان منعطف فن الحرب كـان في الحرب الفرنسية البروسية ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ . لقد كتب : « في الدرجة الاولى استخدمت اسلحة وصلت مرحلة كمال متقدمة جدا ... وكـل التحسينات ذات اهمية ضئيلة في ميادين القتال . فعصر التطور ، لذلك ، اغلق في هـــذا الاتجاه . ثانيا اجبرت الحرب كل القوى الاوروبية علـى ان تظهـر في الشكل « الصارم للنظام البروسي الاقطاعي ،ومعه أعباء العسكرية التي ستدفعها الى الدمار في غضون سنوات قليلة »(٣) .

والواقع انه مع ان الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨ تطلبت مـــن الاطراف المتحاربة استغلال كل الموارد الاقتصادية بأبعاد لا مثيل لهـا ، فـان

---

(٢) انجلز . انتي دوهرنغ ص ٢٠٠ .

(٣) انجلز . مرجع سابق ص ٢٠٤ .

القوى المسلحة لا تختلف الا قليلا عن عصر الحرب الفرنسية ـ البروسية . وبقي تكتيكها عمليا من غير تغيير . ان الجهاز العسكري خطا خطوة الى الامام بالطبع ، بيد ان التغير كان كميا اكثر منه نوعيا . ومع ان القدرة على المناورة وقوة نار الجيوش تضاعفت عدة مرات ، فان الاشكال الجديدة للسلاح والغازات السامة ، مثلا ، لم تلعب دورا هاما . الدبابات والطيران لم تظهر الا حوالي نهاية الحرب . والجيوش في الميدان لا تزال تعمل في منطقة خط جبهة ضيق نسبيا منفصلة تقريبا عن السكان المدنيين .

ومع الايام بدات الحرب تفقد اكثر فأكثر سمتها الميدانية نتيجة تحديث الاسلحة ، وعلى الاخص تطور الطيران . ان الحصول على شبكة مكثفة من المطارات ومحطات الراديو وكل أنواع المواصلات الداخلية والخارجية ذات الطبيعة العسكرية يحطم المفهوم التقليدي للجبهة والمؤخرة . وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية استهلكت على الفور ملايين الناس الذي يبعدون مئات الكيلومترات وراء خط الجبهة بغارات دموية .

اظهرت الحرب العالمية الثانية في الدرجة الاولى اي تقدم كبير تحقق في تطور الاسلحة في عقدين فقط . ان مكننة الجيوش وقوة نيران المدفعية وظهور المدفعية الصاروخية والنماذج الاولى للصواريخ العابرة والقاذفة ، والتوسع فياستخدام القوى الجوية جعل الحرب دمارا فاجعا لملايين الناس .

لقد انتهت الحرب العالمية الثانية في عتبة ظهور سلاح مرعب يفتك بالجماهير . فالقنبلة الذرية ، كما هو معروف ، القيت على هيروشيما في الايام الاخيرة للحرب .

ان تطور السلاح الذري ووسائله المختلفةهو الذي قلب المفهوم التقليدي للحرب وطبيعتها الفعلية . ان البدع المعتادة عن الجبهة والمؤخرة وعن الجيش والسكان المدنيين و « الحرب الميدانية » وستراتيجيتها وتكتيكها كلها قضت عليها الانفجارات الذرية ولا تستطيع الآن الا أن تحتل مكانها في معرض التاريخ العسكري .

بظهور سلاح الصواريخ الذرية ، كما يلاحظ عالم الاجتماع والاقتصادي الاميركي بول كروسر تخطى التجهيز العسكري الخط الخطر المعين . فاي

قطر يقع تحت الضربة النووية يمكن ان يمسح من على وجه الارض .

على أي حال ليس فقط نتائج الحرب النووية هي الهامة ، وانما ايضا المجرى المحتمل للعمليات العسكرية . انه لامر هام ، في عدة اعتبارات بما في ذلك تقدير الحرب الحديثة كأداة سياسية .

في الغرب ادب غزير يرسم الرعب من الحرب النووية . ان اسوأ مظاهرها المميتة قد وضعت بصورة مفصلة ، فان اندلعت مرة فسوف يتحطم على الفور نظام الحياة الاجتماعية وتشل المواصلات والنقل والانتاج . وبدلا من اسوار القلاع القديمة سوف تحاط المدن بمراكز الرادار . وقاذفات الصواريخ المموهة جاهزة للاستخدام ، ولا توجد امة تعرف من سيطلقها أو متى تنطلق . الجميع مسلحون بالصواريخ وبمضادات الصواريخ الدفاعية والهجومية . وفي سقف يمتد مئات الكيلومترات ستدور المعارك الكيمياتكنيكية ، ولن تصل اصداؤها الى سكان الارض . ومن وقت لآخر سينطلق صاروخ ذري الى هدفه ، وعندئذ لندن أو باريس او نيويورك سوف تصعد في الهواء مشكلة ما يشبه الفطور الضخمة من الغبار والدخان بارتفاع اثني عشر كيلومترا . وبما ان احدا من الاطراف المتحاربة لا يستطيع ان يعرف ما يظهر افقيا او عموديا ؛ ومن المهاجم ومن المدافع ، فان الحرب سوف تستمر في حركة عماء لا تتوقف حتى ضرب آخر معمل . . . الخ ان هذه المشاهد من الانفجارات النووية تطورت اكثر فاكثر في تفصيلات حية ويمكن ان تعطي انطباعا مرعبا .

وبالتاكيد على الطبيعة التدميرية الشاملة للحرب في عصر الاسلحة الذرية ، فان هذه الرؤى تفضح ايضا الفكرة التي تذهب الى ان التسلح في تطوره المعاصر قد خرج من تحت سيطرة الانسان واصبح طليقا من كل هيمنة . اي قائد سياسي او عسكري في الماضي يذهب الى الحرب يمكنه ، على الرغم من سوء التقديرات والاخطاء المحتملة ، ان يقدر نتائجها ويرى مجرى عملياتها المخططة . انه يستطيع دائما ان يتدخل في الاحداث واذا اقتضت الضرورة فانه يوقف العمليات العسكرية . ان السلاح الحديث جعل كل هذا صعبا للغاية ، او انه مستحيل استحالة مطلقة . اطلق العفريت من القمقم وسوف يقود حياته بنفسه . وقد كان سببا معقولا ان جون برنال المفكر والفيزيائي الانكليزي حذر عصره بان تطور القنبلة الذرية « سيحدد اما بداية نهاية الحرب ، او بداية نهاية البشرية »(٤) .

(٤) جون برنال « عالم بلا حروب » لندن ١٩٥٨ ص ٧ .

لقد بدأ التطور النووي منذ عدة عقود ؛ فتضاعفت قدرتها التدميرية وذخائر عدة اقطار اتخمت بالمخزون الاحتياطي المميت . ومن يستطيع ان يتنبأ بالذي يحدث للعالم اذا لم يوضع حد لسباق التسلح .

ان المركب العسكري الصناعي ما يزال يدعم قوته النووية ويبحث باستمرار عن وسائل اخرى للافناء والتدمير ، مكافحا من اجل خلق اشكال ونظم جديدة من السلاح .

عندما كانت هيروشيما وناغازاكي لا تزالان تعيشان في الخرائب وضحايا القصف الذري تموت من الاشعاع تقدم الجنرال الفرنسي شامان باقتراح بربري فقد كتب : « كانت الحرب وسيلة هزيلة لقتل الناس . اذا كان الروس قد خسروا ٣٠ مليونا من البشر في حرب خاطفة جربنا امكانيتها ... فانهم لا يزالون يملكون ١٥٠ مليونا . وفي خلال عشر سنوات سوف يصل عدد سكانهم الى ما كان عليه . ولذلك فان من المهم ان نجد طريقة للحرب تجعل من الممكن قتل الناس من غير تدمير الابنية ، ولكن في الوقت نفسه نترك امكانية للعودة الى استخدام هذه الابنية . من الواضح ان مثل هذه الطريقة ستكون استخدام الفيوم المشعة . بالطبع لم يجر تطوير كامل في الوقت الحاضر لهذه الطريقة . المهم ان استخدامها عمليا سيكون باهظا . على اي حال لا بد من اخذها بعين الاعتبار »(٥) .

ان ستراتيجيي المركب العسكري الصناعي يرغبون حقا في القيام بتطوير السلاح البكتريولوجي . والواقع في ١٩٧٢ جرى تقديم ميثاق دولي لحظر تطوير الاسلحة البكتريولوجية وانتاجها وتخزينها وكذلك الاسلحة السامة ، ومثل هذا الميثاق لتدمير مثل هذا السلاح للتوقيع فوقع عليه منذئذ حتى الآن ما يزيد عن عشرين قطرا . ولكن عدة مغامرين سياسيين في الغرب لا يزالون يحرضون على تطوير السلاح الحيوي . وفي السنوات الحالية استحوذت هذه القضايا على اهتمام الراي العام ثانية بعد النجاحات في حقل الجراحة الجنينية الوراثية Genesurgery فقد فتح آفاقا جديدة لتطور علم الوراثة ، وفي الوقت نفسه جعل بالامكان « اعادة بناء » المكروبات عن طريق زراعة مورثات عضوية في خلية عضوية اخرى .

---

(٥) الكلام ماخوذ من كتاب جان بومبير « هتلر وترومان » باريس ١٩٥٠ .

ان العلماء ينشدون سيطرة قوية على البحث في هذا الحقل . ان المراقب العلمي لصحيفة شتيرن الالمانية الغربية اولريش شيبك يذكر كيف أن مجيء جراثيم الطاعون الى اوروبا عن طريق الصدفة بواسطة التجار الجينوبين ادى الى انفجار وبائي في ١٣٤٨ ــ ١٣٥٠ فالتهم من سكان القارة ما فاق الحرب العالمية الثانية . لقد قدم الملاحظة التالية : « يتخوف الباحثون اكثر فاكثر من المصير القائم الذي يسهمون هم انفسهم في دفع العالم إليه وتحطيم كل الحضارات بوسائل الميكروبات المزروعة في الانابيب الاختبارية . ان اكثر من ١٦٠ نوعا مختلفا من الميكروبات تصيب الانسان بالامراض والموت . واخيرا اضافوا بكتريات جديدة كانوا قد استنبتوها في العضويات الحية الدقيقة . لقد عدلوها بمعالجتها بجنينات فحصلوا على العضويات الحية الدقيقة . وما ينتج معهم مستقبلا من جديد فان العلماء انفسهم لا يستطيعون ان يتنبؤوا ماذا هم يخلقون » (٦) .

امامنا الآن وضع غريب : فكلما ازدادت سيطرة الانسان على الطبيعة قلت قدرته على استخدامها لصالحه . وهنا أمثلة عديدة توضح ذلك . فلسنوات عديدة حاربت منظمة الصحة الدولية وباء الجدري والآن تكللت جهودها بالنجاح . وفي ربيع عام ١٩٧٦ سجلت ١٣ اصابة جدري في العالم ، بينما كانت الجائحة الوبائية تقضي على حياة الملايين . كل هذا الوباء يعيش في المناطق الاثيوبية الجبلية . ان لم تسجل اصابات اخرى فسوف تعلن منظمة الصحة عام ١٩٧٨ بأنه يوم القضاء الكامل على الجدري في العالم . انه انتصار للعلم .

ولكن في حين يكافح اطباء عدة اقطار بلقاحاتهم والوسائل التكنيكية الحديثة بما في ذلك الهليوكبترات ووسائط النقل الضخمة والراديوات النقالة ؛ مرض الجدري في جبال اثيوبيا ( التي يعتقد عدة اختصاصيين انها مهد هذا الوباء ) ، فان في مقدور معامل الغرب أن تستنبت صناعيا المزيد من العصيات الميتة القادرة على ابادة الملايين بعد الملايين من الناس . اليست مفارقة العصر ؟

وفي حين يحذر بعض العلماء من التحالف الخطير بين البكتريا الميتة

---

(٦) شتيرن كانون الاول ١٩٧٠ ص ص ٥٩ ــ ٦٠ .

والنزعة العسكرية ، فان هناك في الغرب علماء وسياسيين لا يزالون يقدرون الفوائد الجمة من ذلك . ان اللورد ريتشي كالدر ، وهو اختصاصي انجليزي في التسلح يؤمن ، مثلا ، أن الاوبئة في عدة مجالات قد تكون مرغوبة أكثر من القنبلة الذرية طالما انها من حيث عدد الوفيات تقوم مقام الضربة الذرية في حين هي اقل منها نفقة .

حسب التقديرات الغربية فان ۲٥ر۰۰۰ مليون دولار ينفق سنويا على بحث السلاح حيث ٤۰۰ر۰۰۰ مهندس وباحث (٧) . وبالطبع هذه الجهود الضخمة لم تبذل من اجل اعتبارات انسانية خالصة .

بالنسبة الى بعض السياسيين الغربيين فان امكانية التأثير الصنعي في البيئة لتحديد العدو الفعلي او المحتمل ليست فرضيات الخيال العلمي فقط . فهناك حديث عن « الحرب الارصادية » ، حول تطوير وسائل ضرب العدو بخلق هزة ارضية صنعية ، ومد المحيط والاعاصير واحداث امواج بحرية . وبسبب عدم ثبات جاذبية كتل الجليد انتاركتيا وغرنيلاد ، فانها اذا اذيبت ، جزئيا على الاقل ، فانها ستحرك وتندفع الى المحيط محدثة موجة عظيمة من الطوفان يغرق ارض العدو . والواقع انه لا حد لاخيلة المتوهين المعاصرين بسباق التسلح .

وبغض النظر عن الناحية الاجرامية للفرص التي فتحها العلم والتكنولوجيا : فان كل هذه المشاريع لافناء الجماهير لها سمة مشتركة هي ايضا ضعفها الرئيسي : كلها سوف تؤدي الى تدمير الحضارة والقضاء على الانسانية اكثر مما تحقق اي مكاسب سياسية . اشكال ونظم جديدة من اسلحة الابادة الجماهيرية ، واسلحة افناء كوني لا يسيطر عليها ( سواء من وجهة نظر النتائج المباشرة ، او من وجهة نظر النتائج التالية ) لا تعود اداة للسياسة الخارجية الى الدرجة التي يريدونها بقدر ما تكون حربا نووية .

**انهم يقلبون اداة السياسة الى وسائل تدمير :**

الواقع ان الناس المتنورين في الغرب لا يستطيعون تجاهل هذه النتيجة الواضحة . لا يوجد غير الجنرال ماك آرثر اتيحت له فرصة افضل لملاحظة عواقب القصف الذري لليابان اكثر من اي قائد عسكري اميركي آخر ، اخبر

---

(٧) « نزع السلاح أم الدمار ؟ التسلح ونزع السلاح » مؤسسة بحث السلم العالمي في ستوكهولم ١٩٧٥ .

مجلس الشيوخ الاميركي : « أيها السادة افيدكم ان المفاهيم الاساسية حول ان الحرب كانت تستخدم ككلمة اخيرة حين تفشل السياسة في تسوية النزاعات الدولية باتت نافلة . لقد فشلت الآن » (٨) .

بالطبع يمكن أن يقال ان الحس العام لم يكن ابدا ضمانة كافية من حيث التأثير ضد المقامرات العسكرية . وهذا صحيح . ولكن الصحيح ايضا انه لا يوجد سياسي يقر بالحقائق الموضوعية يمكنه ان يغض النظر عن التهديد بالكارثة النووية .

ينتج من ذلك اذن انه عندما يرتفع تطور الاسلحة فوق مستوى معين للوضع السياسي فان تغيرا ما سوف يحدث . ومن وجهة التطور الموضوعي في العلم والتكنولوجيا فان زمنا ما سوف ياتي حين تجد الانسانية نفسها وجها لوجه أمام حاجة اعلان الحرب على الحرب . وعمليا . فان هذا الوضع الجديد في المسرح التاريخي سوف يظهر عندما يصل الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الى حالة من « المازق الذري » مع ان هذا التوقيع ، نظريا، مبكر جدا .

من قبل اعتقد كلاوزفتز ان بالامكان كنتيجة لقوة السلاح التدميرية المتزايدة ان يظهر تعارض بين الموضوعات السياسية ووسائل شن الحرب . كتب « اذا كانت الحرب جزءا من السياسة ، اذن وبالتالي سوف تكتسب خصائصها ايضا . وبتنامي السياسة نحو المبالغة تنامت الحرب قوة ، وهذا النمو يمكن ان يصل الىهذا الارتفاع عندما تحقق الحرب صورتها المطلقة»(٩).

تقتبس كروبسكايا في مذكراتها تصريحا مشهورا للينين : « التجهيز الحديث اليوم يزيد باستمرار السمة التدميرية للحرب . ولكن سوف ياتي زمن تصبح فيه الحرب مستحيلة » (١٠) . وسواء وصلت الاجيال الحالية هذا الزمن ، او لا تزال تقترب منه ، فان الامر غير هام الى درجة كبيرة . لقد اتضح من قبل ان الوسائل الحديثة لابادة الجماهير ( التي تتزايد عددا ، والتي تتابع اقترابها من الكمال ) قد واجهت البشرية بالبديل : اما التعايش السلمي او الابادة الذاتية .

---

(٨) الوضع العسكري في الشرق الاقصى واشنطن ١٩٥١ ص ١٤٨ .

(٩) مؤلفات الجنرال كلاوزفتز درسدن ١٨٥٨ ص ٥٦٧ .

(١٠) كروبسكايا « عن لينين » موسكو ١٩٦٠ ص ص ٤٠ — ٤١ .

ان ما هو هام على وجه الخصوص هو ان هذه الاطروحة في ايامنا ليست مقولة اخلاقية مجردة ، وانما تشغل مكانة هامة بين العوامل السياسية المكونة للعلاقات العالمية المعاصرة . مثل هذه الامور الجارية تحدد الراي العام العالمي وتدعم مجهودات الجماهير العريضة في نضالها من اجل السلم . وقد اعترف بها رسميا عدة سياسيين غربيين كبرهان كبير على دعم سياسة التعايش السلمي . قال سكرتير الدولة الاميركي السابق هنري كيسنجر : « في عصر التوازن الذري الستراتيجي ،حين يمتلك كلا الطرفين القدرة على تدمير الحياة المدنية،عندها لا يوجد ثمة بديل عن التعايش. وفي مثل هذه الظروف تكون ضرورة السلم نفسها امرا اخلاقيا » (١١) وكما قال الرئيس الاميركي جون كندي ، فان الشيء الرئيسي في التحليل الاخير الذي يربطنا جميعا هو اننا سكان هذا الكوكب الصغير . كلنا نتنفس الهواء ذاته . كلنا نحرص على مستقبل اولادنا ؛ ؛ وكلنا فان ايضا .

لا شك ان النواب الاميركان فكروا في هذه السطور . لقد مر الزمن الذي كانوا فيه يحاولون استخدام احتكارهم النووي لتطويع الاتحاد السوفياتي و « لتبرير » ادعاءاتهم للسيطرة العالمية . هذا ما حدث عندما طور الاتحاد السوفياتي سلاحه النووي والهيدروجيني الخاص . ان التحول في وسائل الحرب ، وبالتالي سمتها ، سوف يعدل ايضا السعي نحو حل القضايا الدوليـة .

## لمصلحة قوى السلم .

## الدعم الثابت للانفراج ...

اهمية هذه الواقعة لا يعني انها تستوفي الموضوع . ان القضاء على الحرب من حياة الناس يستدعي بذل مجهود كبير . فمن الضروري خلق نظام من العلاقات الدولية حيث تكون الكلمة النهائية بيد القوى التي تريد تامين الحل السلمي للقضايا الملحة ، ولديها القدرة على ذلك .

ان الشيوعيين لعلى يقين انه سيحل الزمن الذي تنتهي فيه الحروب ، كما انتهى زمن مالكي العبيد . وعندئذ لن يكون ثمة حروب . ان هذا الاعتقاد

---

(١١) نيويورك تايمز ١٦ تموز ١٩٧٥ .

نابع من توقع الشيوعيين للتطور العالمي ، من الاشارات التي يمكن رؤية دلاتها في المرحلة المعاصرة في الواقع الملموس للعصر .

في الحق ان الاقطار التي وصلت فيها الطبقة العاملة الى السلطة وليس لها مطلقا مصلحة في الحرب تلعب دورا يتزايد باستمرار في الشؤون الدوليه . ان مضمون نشاطها وكل مهماتها الاجتماعية والاقتصادية والايديولوجية والمهمات الاخرى تجعلها من دعاة السلم لا الحرب . وبتركيز الاقطار الاشتراكية كل جهودها على مهماتها قد فتحت فصلا جيددا في تاريخ نضال الطبقة العاملة من اجل السلام . وليس هذا في أيامنا هدفا انسانيا وحسب ، بل هو مطلب تاريخي موضوعي للمجتمع . فلاول مرة في التاريخ يتطور وضع مختلف بكامله حيث الاعتداء على الشعوب الاخرى قدانتهى من ترسانة السياسة بفضل الطبيعة الواضحة للانظمة الداخلية والقوانين الموضوعية لتطورها .

ان المجموعة الاشتراكية وسياستها الداخلية والخارجية قد ازدادت تأثيرا على الوضع السياسي والاخلاقي في العالم . لقد دفعت الاشتراكية الى صدارة الصراع السياسي موضوعات لاهبة مثل الغاء الاستغلال وكل اشكال الاضطهاد القومي وتحقيق الديمقراطية الاصيلة والحرية الفردية واستغلال منجزات العلم والتكنولوجيا لخير الانسان . ان هذه الموضوعات تؤلف النواة الحقيقية للتقدم التاريخي في الاجيال الحديثة . وفوق ذلك فان الاشتراكية دلت عمليا كيف يمكن تحقيق هذه المهمات .

لقد اقترح الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى ان العلاقات الدولية يجب ان تقوم على مبادىء ديمقراطية متينة . وقد اظهرت عمليا ما العمل لتدعيم السلم والامن والتعاون بين الشعوب . اكد بريجنيف ، السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفياتي ، في تقريره الى اللجنة المركزية في المؤتمر الخامس والعشرين على هذه الناحية عندما قال : « ان الاشتراكية في هذه الايام ذات تاثير بعيد في تفكير وعواطف مئات الملايين من الناس في العالم انها تؤمن حرية الكادحين والحقوق الديمقراطية الفعلية واكثر ما يمكن من النوع الى المعرفة ، والشعور بالامن . انها تقدم السلم واحترام سيادة كل الاقطار والتعاون الدولي المتساوي وهي عماد تأييد كفاح الشعوب من اجل حريتها واستقلالها . والمستقبل القريب سوف يقدم بالتاكيد برهانا جديدا عن امكانيات الاشتراكية اللامحدودة ، وعن تفوقها التاريخي على

الراسماليـة (١٢) .

ان تعاظم رجحان قوى الاشتراكية على الراسمالية ، والتطور السريع للعملية الثورية العالمية غيرت طبيعة العلاقات العالمية المعاصرة . هذه الحقيقة واضحة في دعم الحوافز الطبقية الاجتماعية وفي رفـع الدور الذي تلعبـه الجماهير وايضا في تقارب الاهداف الديمقراطية العامة واهداف التحـرر ـ وكلها تواجه الطبقة العاملة على الصعيد الدولي .

في عصر سيادة احتكار الراسمال ، انفجرت الصراعات الدولية ؛ وحلت اعتمادا على قوة المجموعات القوميـة المختلفة للبرجوازيـة داخل حـدود التناقضات الراسمالية الداخلية . اما اليوم فان هذه التناقضات تتطـور في ظروف الصراع بين نظامين وفي تيار حركة التحرر وهي ذات مضمون طبقـي اجتماعي مختلف . وفي زمن الازمات في العلاقات الدوليـة المعاصـرة ؛ ليس فقط مصالح الدول كل دولة على حدة تقف في معارضة بعضها الآخر ؛ وانما ايضا القوة العالمية للتقدم في معارضة الرجعية . الآن ليست القضية قضية مستغلين يغيرون مواضعهم بين انفسهم ، وانمـا الاحتفاظ بالنظـام الفعلـي للاستغلال . ليس استقلال امة او اخرى فقط ، وانما تقدمها الاجتماعي .

ان اضخم صراع مسلح في العقود الماضية ـ الحرب في الفيتنـام ـ هو مثال على ذلك . ما القوى التي تجابه القوى الاخرى هنـاك ؛ وما هـي عناصرها ؟ في الواقع كانت الهند الصينية مسرحا لصراع تاريخي بين القوى الرجعية العالمية وقوى التقدم ، بين الاستعمار وحركة التحرر الوطني . بـين الراسمالية والاشتراكية . حارب الشعب الفيتنامي مـن اجـل استقلالـه الوطني والنظام الاجتماعي الذي يختاره بنفسه . قال لي دوان ، السكرتـير الاول للجنة المركزية لحزب العمال الفييتنامي في المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي : « لقد رفع حزبنـا رايتـين ؛ رايـة الثـورة الديمقراطية الوطنية وراية الثورة الاشتراكية ، وجمع حركـة الاسـتقلال الوطني مع قوة الاشتراكية لتحريك كل شعبنا ، وكل قطرنا الى النضـال . لقد جمع قوى الامة مع القوى الثورية لعصرنا ، القوى الداخلية مـع القوى العالمية ، واستفاد من التناقضات المختلفة في صفوف الاعداء . وهكذا خلـق

---

(١٢) المؤتمر الخامس والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي ، موسكو ، ١٩٧٦ ص١٤

قوة موحدة عظيمة لتحقيق النصر على المعتدي » (١٣) .

وفي جنوب شرقي آسيا حيث الولايات المتحدة وحلفاؤها سعوا لاجبار الشعب الفيتنامي على التخلي عن مكتسباته الاشتراكية ، وفي الشرق الاوسط حيث تريد الامبريالية خنق الانظمة التقدمية في الاقطار العربية ، وفي انغولا حيث نظمت الرجعية تدخلا مسلحا في الشؤون الداخلية لهذه الجمهورية الفتية ، وفي عدة صراعات عالمية اخرى لزمننا ، يدرك المرء المضمون الاجتماعي الطبقي للصراع المتبدي في طرق مختلفة نابعة من طبيعة الشروط الملموسة .

ان هذا يعني ان اي عقدة في التناقضات الدولية تصبح اشد تعقيدا ، ومقاومة الجماهير لاي تدخل خارجي تزداد ، والوسائل العسكرية لحل الخلافات الدولية ، المرتبط جدا مع التناقضات الاجتماعية تصبح اقل جدوى .

ان الطبيعة الطبقية للعلاقات الدولية المعاصرة تجد دعمها في عملية الانفراج . ولكون الانفراج الدولي نتيجة مباشرة لتغير عميق في ميزان القوى لصالح الاشتراكية ، فانه نتيجة للتقدم الاجتماعي العالمي وعامل محرض على تطوره في الوقت نفسه . ولا يمكن ان يعني المحافظة على الاوضاع القائمة ، ولا يمكنه ان يعوق النضال الثوري ، كما يؤكد بعضهم ، بل على العكس من ذلك ، يفسح المجال واسعا لتقدم اجتماعي وسياسي . بالطبع ان خصوم الانفراج يضعون له تفسيرهم الخاص ، غير آبهين بالامور الجارية . بعضهم يذهب الى انه « مؤامرة الكرملين » و « اتجاه واحد » في شبكة سير تتجه نحو الاشتراكية ..... الـخ ..

ان القوى التقدمية العالمية تعتبر الانفراج الدولي وسيلة قوية لتنظيم علاقات حسن الجوار وتقوية الثقة والتفاهم المتبادلين . ان اتفاقيات هلسنكي حول الامن والتعاون في اوروبا خطت خطوة كبرى في هذا الاتجاه . وبسبب عدة عوامل فان دينامكية الانفراج ليست واحدة في كل مكان . ولكن كل شيء يجب ان يفعل حفاظا على النتائج الايجابية . لاحظ الامين العام للحزب الشيوعي السوفياتي بريجينيف : «كما نعرف جميعا استنفذ تحقيق الانفراج الدولي جهدا كبيرا . وليس من السهل بالمقابل الحفاظ على الراسمال المتراكم للانفراج . ولكن لا الصعوبات ولا العقبات يمكن ان تجبرنا على التراجع . ولا

---

(١٣) « اصدقاؤنا يتكلمون » موسكو ، ١٩٧٦ ص ٢٠ .

توجد مهمة اشد الحاحا وحيوية من مهمة تحقيق سلم وطيد ودائم » (١٤) .

السلم ـ في الواقع ـ لا ينفصل عن الانفراج الدولي الذي يقويه ويدعمه . وفي هذا المجال لا مجال لمغامرة الايديولوجيين البرجوازيين . الحقائق تنطق بنفسها .

**في أوروبا** . من المعروف تماما انه بالضبط عبر الانفراج الدولي قوت الاقطار الاشتراكية مراكزها الدولية ودعمتها ، فالمانيا الديمقراطية ، اول دولة عالمية للعمال والفلاحين على ارض المانية ، اعترف بها القانون الدولي ، وقد انهار حكم الضباط السود في اليونان ، وصفيت الفاشية في البرتغال ، وهبت رياح تغير جديدة على اسبانيا ، وحققت القوى التقدمية انتصارات عظيمة في فرنسا وايطاليا وبقية الاقطار .

بالطبع ، ليس من الصدفة ان عملية الانفراج ظهرت وتطورت بالضبط في أوروبا، مهد الحركة العمالية والشيوعية العالمية، ومكان ولادةالاشتراكية. واذا انبعثت مأساة حربين عالميتين ومواجهة الفاشية ، فان الشعوب الاوروبية لا يمكن أن تنسى سياسة الذبذبة لمفاوضي ميونيخ الذين يهدئون الامور ، وسيتذكرون أورادور وكوفنتري وبوشنولد وازفيسيزم .

وفوق ذلك فان الدول الاوروبية المرتبطة بآلاف الروابط الاقتصادية والتجارية والسياسية والثقافية مع بقية العالم باتساع أكثر من الاقطار الاخرى في اي قارة ، هي اول من يتحسس لاي تغيرات تحدث في هذا الكوكب.

**في آسيا** . ان النضال البطولي للشعب الفيتنامي حقق الانتصار في ظل فترة الانفراج . حقق الشعب الفيتنامي التحرر الكامل وتوحيدا لاراضيه . ان جمهورية لاوس الديمقراطية الشعبية وجمهورية كمبوديا الديمقراطية تكونتا في ظل الانفراج .

**في افريقيا** . وفي ظل فترة الانفراج انهارت آخر صور الامبراطوريات الاستعمارية في هذه القارة ومجموعة جديدة من الدول المستقلة الفتية قد ظهرت ـ انغولا وموزانبيق وغينيا بيساو .

---

(١٤) المرجع السابق ص ٣١ .

في كل مكان ، وفي كل القارات سار الانفراج يدا بيد مع التقدم الاجتماعي . هذان العاملان في الواقع الحالي يكمل كل واحد منهما الآخر ويدعمه أضعاف المرات .

من قبل ، منذ عدة قرون ، كانت الصراعات الدولية صراعات محلية ، لا تأثير مباشر لها على مصالح الاقطار الثالثة الحيادية . هذا الظرف شجع عدة مبادىء « انعزالية » وفي عدة حالات اغرى على الاستفادة من التناقضات بين الاقطار الثالثة ووضعها في قائمة المغفلين . في العصر الحاضر لا يمكن لاي وضع خارجي ان يكون معزولا ، واي مواجهة انفجارية تهديد للعالم بأسره .

ان الحربين العالميتين برهان قوي على هذا . ومنذئذ ونمو العلاقات الدولية ، وقبل كل شيء التهديد بصراع نووي مدمر عالميا ، جعل التداخل بين الاقطار والشعوب اكثر عمقا . في الواقع تشكل السياسات الخارجية لكل الاقطار مركبا لا ينفصل عن المصالح والتناقضات المتبادلة .

ان الصراع المحلي في هذه الايام سيؤثر حتما بالمراكز العصبية الاخرى لسياسة العالم . ان المرء يجب ان يفقد كل حس بالواقع حتى يتصور انه يجب ان يكون هناك عراك مسلح ، لنقل بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، فتكون معركة بين « نمرين » كما تذهب احدى الخرافات السياسية ، وجلوس الآخرين على قمة جبل والتفرج بامان . انه أكثر منطقيا أن نفترض انه اذا هيأ المعتدون اثارة حرب عالمية ثالثة ، فانه سوف يكون من المستحيل الاحتفاظ بها داخل حدود ثابتة .

ان مفاهيم من امثال « قنالية العدوان ، أي حصره في قنال واحدة » و « الصراع المسلح المحدود » و « الحرب المحلية » كانت في الماضي ويجب الا تعود ثانية . في الواقع الآن احلال السيف محل القلم اسهل بكثير من اعادة السيف الى غمده . ولجون فولر الحق في ان يحذر : « الشيطان لا يبدر الا شيطانا ، فاذا كنت كشمشون اعمى حين تحطم اعمدة بيت أعدائك ، فان الدمار سوف يسحقك »(١٥) وعندما يكون كل شيء متداخلا فان شرارة واحدة يمكن ان تشعل دمارا عالميا ، ولا يوجد غير السلم العالمي يمكن أن يضمن الامن الحقيقي للناس .

(١٥) فولر « الحرب العالمية الثانية » لندن ١٩٤٨، ص ٤١٢ .

ان سبب تلك التغيرات ، ونتيجتها في الوقت نفسه ، هو تعاظم الدور الذي تلعبه الجماهير الشعبية . من قبل استخدمت الطغمة الحاكمة في الاقطار المستغلة تفكك الجماهير وجهلها السياسي لحل العديد من المسائل الدولية من خلف ظهور هذه الجماهير ، أو تملي ارادتها عليها . ان استخدام هذه الطرق اليوم ليس سوى مفارقة تاريخية . كانت الجمهورية السوفياتية اول من فضح السرية التي كانت تحيط بالسياسة الخارجية . لقد اذاعت الاتفاقات السرية التي في حوزة الحكومة القيصرية وبدات دبلوماسية مكشوفة للشعب السوفياتي وشعوب العالم . قال لينين ملخصا مناقشة مرسوم السلام : « اننا لا نريد اي سر . نريد حكومة تبقى دائما تحت رقابة الرأي العام »(١٦) . وكان هذا ضربة عنيفة للدبلوماسية السرية . لقد كفت السياسة الخارجية عن أن تكون مملكة الدائرة الضيقة للطغمة الرسمية . وبانتقالها من القصور الرئاسية والدوائر الوزارية الى الشارع اتخذت بعدا جديدا وغدت تهم كل الشعب .

واليوم لا يريد ملايين الكادحين ان يؤثروا في الشؤون الدولية فقط ؛ بل يستطيعون ذلك . قال لينين في تقريره الذي القاه في ٨ شباط ١٩١٧ عن مسالة السلم : « علينا ان ... نساعد الشعوب على التدخل في مسالة الحرب والسلم »(١٧) واليوم أصبح هذا الموضوع حقيقة واقعة ووجد من بين الاشياء الاخرى تعبيره في المجال الذي حققته حركة السلم هذه السنوات .

تاريخ حركة السلم نفسه يوضح هذه الحقيقة . فقد ولدت حركة انصار السلم عقب الحرب نتيجة الحملة الضخمة في الدورة التي وقع فيها خمسمئة مليون انسان على نداء ستوكهولم الداعي الى حظر الاسلحة الذرية . رسميا ظهرت الحركة الى الوجود في نيسان ١٩٤٩ في مؤتمر عقد في باريس . وقرر انصار السلم ان يعقدوا مؤتمرهم التالي بعد عام في شيفلد . بيد ان حكومة العمال البريطانية برئاسة كليمنت اتلي لم تمنح

---

(١٦) لينين « المؤلفات الكاملة » جـ ٢٦ ص ٢٥٤ .

(١٧) مرجع سابق جـ ٢٦ ص ٢٥٢ .

ترخيصا . فما كان وراء ذلك القرار ؟. وانتشرت كل انواع التفسيرات : قال بعضهم ان المؤتمر لم يكن « كامل العضوية » . وزعم آخرون انه تفسير « منحاز » لشتى القضايا ، ولا زال آخرون انه كان « حملة شيوعية » . لم تكن هذه الاباطيل الديماغوجية هي المهمة ، وانما بعد الحرب العالمية الثانية شعرت الدوائر الحاكمة البريطانية انها محرجة في اعلان عدم قبولها لاهداف حركة السلم . وبعد مماطلة طويلة عندما استنفذت الحكومة البريطانية كل حججها الزائفة حظرت المؤتمر . واعتقلت قائد الحركة ، العالم الفرنسي البارز فريدريك جوليو كوري ، في الدوفر وطرد من البلاد . وفيما بعد عقد المؤتمر في وارسو .

بعد عقدين اقيم المؤتمر العالمي لقوى السلم في موسكو ( تشرين الاول ١٩٧٣ ) . وفي الواقع انه يمثل المدافعين عن السلم في العالم وعدة حركات ديمقراطية . ومع ان الحركات الديمقراطية لم تشارك في كل افكار النضال من اجل السلم ، فقد كانت مستعدة للتعاون مع انصاره . لقد ضم مؤتمر موسكو اكثر من الف حزب ومنظمة وحركة وطنية من ١٤٣ قطرا واكثر من ١٢٠ منظمة عالمية . مثل هذا البروز الواسع في هذا المنتدى يصعب على اي سياسي يحترم سمعته الاجتماعية ان يغامر في اتخاذ موقف سلبي تجاه حركة السلم كما فعل كليمنت أتلي قبل ربع قرن .

حركة قوى السلم حاليا صارت ذات ابعاد ضخمة وغدت ذات طبيعة جماهيرية فعلا . ولكن ربما كان من الاهم تغيراتها النوعية وليس حجمها . والملاحظ باختصار وبصورة عامة : ان حركة السلم المعاصرة تعتمد على قاعدة مادية قوية هي المجموعة الاشتراكية وسياستها الخارجية الفعالة . ثانيا ، انها ، أكثر من اي وقت مضى ، تعمل كقوة منظمة بارضية مشتركة في النضال من اجل السلم الديمقراطي الشامل . ثالثا ، صار لها برنامج عمل واضح قائم على التحليل العميق للوضع الدولي .

هذه العوامل عدلت طبيعة الحياة الدولية لصالح القوى المحبة للسلم . هنا يكمن سبب التغير التدريجي للانفراج العالمي . وبما ان هذه العملية اصبحت ذات زخم ، فقد ازداد تداخل الاهداف الديمقراطية مع تحرر الطبقة العاملة سواء على الصعيد الداخلي ام على الصعيد العالمي . وحفاظا على الاستقلال فان الحركات الديمقراطية وحركات التحرر الوطني والحركات الاخرى المعادية للامبريالية تدفع الجماهير الى الاختيار الاشتراكي . وقد

تهيات في ايامنا فرص عظيمة نادرة للحركات الديمقراطية لتوسيع قاعدتها الجماهيرية او للتقرب من نضال البروليتاريا من اجل تغيير اجتماعي عميق .

في الميدان الدولي جعلت الاشتراكية هدفها منع الحروب ( وهو جزء من المطالب الديمقراطية العامة ) وفي الوقت نفسه تامين افضل شروط ممكنة لانتقال البشرية كلها من الراسمالية الى الاشتراكية . وفي ظل الشروط الحالية ان المسالة هي اجبار الراسمالية التي تتبع سياسة التوتر الخارجي ، على الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مستقبلها . وبكلمة اخرى انها مسالة اجراءات من اجل حل التناقض الطبقي الرئيسي للعصر الحالي ، التناقض بين العمل وراس المال ، ومستقبل التقدم الاجتماعي في ظروف السلم من غير حروب نووية .

لاحظ ليونيد بريجنيف « ان الحزب الشيوعي السوفياتي افترض ويفترض دائما ان الصراع الطبقي بين النظامين ــ الراسمالي والاشتراكي ــ في الاقتصاد والسياسة ، وبالطبع في الايديولوجيا سوف يستمر . وهذا ما هو متوقع طالما ان النظرة العالمية والاهداف الطبقية للاشتراكية والراسمالية متعارضة ولا يمكن التقريب بينهما . ولكننا سوف نناضل لدفع هذا النضال المحتوم في طريق خال من مخاطر الحروب والصراعات الخطرة وسباق التسلح »(١٨) .

والامبريالية بدورها اضطرت الى تغيير الاتجاه الرئيسي لسياستها الخارجية في ميدان المواجهة الاقتصادية والسياسية والايديولوجية مع الاشتراكية . وفوق ذلك فان الوجود الفعلي للاشتراكية اجبر الامبرياليين على أن يكونوا حذرين بشكل عام وان يتجنبوا الشكل المتطرف للتوسع كالحرب مثلا . وبهجوم قوى التقدم القوية على الامبريالية جعلتها تاخذ هذا العامل بعين الاعتبار وعلى الاخص حين شعرت بقواه . وابضعة عقود خلت كانت الدوائر الحاكمة في السلطات الامبريالية لا تزال تغامر بحل تناقضاتها عن طريق الحرب . فليس من اجل سواد عيون الاتحاد السوفياتي والمجموعة الاشتراكية ان القوى الراسمالية ، وعلى الاخص في الازمات ، لا تجرؤ ثانية على محاولة اعادة تقسيم العالم بقوة السلاح . وهذا غير ممكن اطلاقا . وبالمقارنة مع النضال بين الراسمالية والاشتراكية ، فان التناقضات داخل

---

(١٨) « على طريق اللينينية » موسكو ١٩٧٥ ص ص ٩٤ ــ ٩٥ .

العالم الامبريالي ذات اهمية ثانوية . وبالتالي فان تأثير الاشتراكية يزداد ليس فقط في ميدان العلاقات المباشرة مع الاقطار الراسمالية فقط ، بل في العلاقة غير المباشرة المتبادلة ، في الحياة الدولية ككل .

## ازدياد الحاجة الى التعاون السلمي

تجدر الاشارة الى عامل آخر : فقد اصبح مفهوم العلاقات الدولية اوسع بكثير مما كان من قبل . واليوم عندما تتطور حركة التحرر والطبقة العاملة ضد خلفية الثورة العلمية والتكنولوجية ، فان حدود « الدبلوماسية الكلاسيكية » تصبح اكثر ضيقا . وهذا بسبب ان القضايا الكبرى تشق طريقها في ميدان العلاقات الدولية ، وسوف تكون البشرية قادرة على حلها فقط عن طريق الجهد المشترك ، باقامة تقسيم عمل اكثر معقولية وبتعاون دولي واسع . وهذا ينطبق على التجارة والاتصالات العلمية والثقافية وتطوير المشاريع المشتركة في الميدانين المحلي والعالمي .

وقد اوضح بريجنيف هذه النقطة في خطابه في المؤتمر العالمي لقوى السلم : « ان التجارة تربط الشعوب والاقطار منذ زمن سحيق لا يحد . ويصدق هذا على هذه الايام . ولكن اليوم ليس من المناسب والمعقول ان يقتصر التعاون على التجارة فقط . ان التقسيم العالمي الواسع للعمل وحده فقط اساس مواكبة العصر وتلبية متطلبات الثورة العلمية والتكنولوجية . وهذا بديهي الآن . ومن هنا كانت الحاجة الى تعاون اقتصادي ذي فائدة متبادلة واسع وطويل الامد ، ثنائي او متعدد . بالطبع هذا لا ينطبق على اوروبا فقط وانما يشمل كل القارات وكل نظام قائم للعلاقات الاقتصادية الدولية . وهناك سبب آخر حدا بنا الى الدفاع عن مثل هذا التعاون هو اننا نعتبره من الوسائل المؤكدة ماديا لتوطيد العلاقات السلمية بين الدول »(١٩) .

ان حفظ البيئة والطبيعة وحل قضية مصادر الطاقة والنضال ضد الكوارث الطبيعية والاوبئة والامراض المنتشرة واكتشاف الفضاء الخارجي وثروات المحيط العالمي وعدة قضايا كونية اخرى تستدعي تعديل نظام العلاقات العالمية . حتى اليوم حل هذه القضايا هو لصالح البشرية جمعاء واهمية الحل سوف تزداد اكثر فاكثر . بعض هذه القضايا تواجهها البشرية

---

(١٩) بريجنيف « على طريق اللينينية » موسكو ١٩٧٥ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

حديثا جدا ، بينما قضايا اخرى تصبح حادة جدا ولا يمكن الابقاء عليها دون حل مدة طويلة لكونها متولدة من التطور المعاصر للقوى الانتاجية في المجتمع وتعكس متطلباته الاساسية وتحدد في عدة مجالات مستقبل هذا الكوكب بأسره .

ان الحاجة التاريخية لحل هذه القضايا يتفق مع النضال من أجل اعادة تنظيم النظام الكلي للعلاقات الاقتصادية . ان مسألة اقامة نظام اقتصادي اعدل في العالم ليحل محل التقسيم المجحف للاقطار الى متطورة ومتخلفة ـ هذا الارث الرهيب عن النظام الاستعماري للامبريالية .

بعد ان حازت الدول الصغيرة في آسيا وافريقيا على استقلالها السياسي عبر مجرى الصراع العنيف ، بما فيه الصدامات المسلحة مع الامبريالية ، فان النضال التحرري الوطني اشتمل على سمة مختلفة . والآن تحولات اجتماعية قامت بوضع حد للتخلف الاقتصادي والثقافي هي الموضوع الرئيسي . ان المهمات الحقيقية التي تواجه الاقطار المتطورة في هذه المرحلة من نضالها في سبيل تقرير مصيرها تستدعي تقديم مبادىء جديدة لتقسيم العمل عالميا . هذه المبادىء سوف تضمن عمليا التقدم الاقتصادي والثقافي للاقطار المتطورة، وفي مقدمتها حق السيادة على مصادرها الطبيعية وادارتها .

هذه مهمة معقدة ويجب ربطها بالاسس الفعلية للنظام الاستعماري الجديد في الاقطار الآسيوية والافريقية والاميركية اللاتينية . وسوف يكمل حلها التحرر الوطني للشعوب من السيطرة الامبريالية . فليس صدفة ان معظم الصراعات المسلحة أو الحروب المحلية في العقود الماضية اندلعت بالضبط في منطقة نضال التحرر الوطني . انها تعكس بدقة الجهود الامبريالية لتقويض تضامن الدول المتطورة مهما كلف الثمن . ولكن هذه الارتدادات الى ازمنة الاستعمار تقابلها باتجاه آخر ـ النضال الفعال للاقطار المتطورة من اجل السلم والتعاون الدولي ، من اجل خلق نظام اقتصادي عادل في العالم . هناك كل الممهدات للتوكيد ان هذا الاتجاه كالدول المستقلة لآسيا وافريقيا واميركا اللاتينية سوف يحقق تقدما اكثر فاكثر بثقة على طريق الاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي .

ان النضال الديمقراطي الجماهيري حقق مضمونا جديدا ايضا في اقطار اوروبا الغربية واميركا الشمالية وفي اليابان ؛ قلاع الراسمالية العالمية . انه ينتشر الى ميادين اوسع للنشاط الشعبي ومتداخل جدا مع الاهداف الاشتراكية لحركة التحرر . ان الطبقة العاملة والاحزاب الشيوعية في مقدمة حركات مناهضة الاحتكار في الدول الصناعية . ان برنامجهم في التحولات الاجتماعية والديمقراطية الواسعة يتضمن متطلبات اساسية مثل كبح سيطرة الاحتكارات وتأمين السلم والامن الدوليين .

## افلاس قانون القوة

التغيرات السابقة التي تطور عبر صراع طبقي مرير اجبرت ستراتيجيي الغرب ، سواء رغبوا ام لم يرغبوا ، على مراجعة قواعدهم وتقديراتهم السابقة ، والبحث عن تفسير جديد للقضايا العالمية . وقد وجد هذا تعبيرا ، من بين كل الاشياء ، في بعض اعادة تقدير مفهوم القوة كاطروحة ذات تأثير عالمي .

وحتى يقوم الفكر البرجوازي السياسي باعادة التقدير فان عليه أن يقطع دربا طويلا . فلقرون عدة اقامت الدول الراسمالية سياستها الخارجية على وسائل القوة سواء في فرض السيطرة على الاقطار الاخرى ، ام محاربة محاولة هذه السيطرة بين انفسهم . هذا الوضع دفع بفكرة نوعية من طبيعة العلاقات الدولية والى تفسير نوعي لقوة دولة معينة . والواقع انها مساوية للقوة المسلحة . « الالوية الضخمة دائما على حق » . ولسنوات عدة اعتبر قادة سياسيون في الاقطار الراسمالية هذا التعريف المقتضب لنابليون ، الذي وحد بين القوة والسلطة العسكرية ، كشيء لا يمكن نكرانه ابدا .

من حيث المبدأ ، مثل هذا التفسير للعلاقات الدولية من جانب القوى الامبريالية لا تاخذ في حسابها التغير الجدي حتى بعد الحرب العالمية الثانية . في اي حالة فان اسبقية بناء قوة عسكرية للضغط على الاقطار الاخرى هي لب المبدأ السيء السمعة لـ « العلاقة الجماهيرية » الذي حاولت الامبريالية

الاميركية استخدامه هذه السنوات . أما بالنسبة الى الابحاث النظرية لهذه القضية فانهم أيضا داروا ، لفترة ، في دائرة هذا المفهوم .

ما يعتبر قائمة العناصر المتباينة التي تكون « سلطة » الدولة وهو في الحقيقة ما يمكنها من شن حرب ، كان قد رسمه هانز مورغانتو ، مسؤول اميركي بارز في هذا الميدان . وهي الوضع الجغرافي والمصادر الطبيعية والقدرة الصناعية والجاهزية القتالية بما في ذلك مستوى تطور التسلح ، وطبيعة القيادة العسكرية وكمية ونوعية القوى المسلحة . انها تتضمن ايضا حجم السكان وطابعها الوطني ( موقفها من الحرب ) العناصر الوطنية السائدة ( موقفها من سياسات الحكومة ) ونوعية الدبلوماسية ، التي تعتبر ايضا عنصرا هاما في قوة القطر . واخيرا انها تشمل ( فن اعداد العناصر المختلفة للسلطة الوطنية لتحمل بتاثير بعيد هذه النقاط في الوضع الدولي المرتبط بالمصلحة الوطنية مباشرة » . وبكلمة أخرى ان الدولة الاقوى هي التي تملك اكبر قوة عسكرية في اسهل طريقة ممكنة لاستخدام مصادرها في الحرب .

على اي حال اصطدمت هذه الصيغة في الماضي في تناقض مع الواقع . ان المفهوم التقليدي للقسر كأداة رئيسية للسياسة الخارجية ابتدات تفقد صلتها المجدية بالموضوع . وربما كان ابرز مثال يثير الشك في قدرة « الالوية الضخمة » هو الولايات المتحدة الاميركية ، اقوى قطر استعماري .

خلال الحرب الباردة انفقت اميركا كمية ضخمة تزيد عن ١٠٠٠ر٠٠٠ مليون دولار على سباق التسلح والمقامرات العدوانية . نقد بنت آلة حربية جبارة اكثر من اي قطر آخر ، وقوة عسكرية خيالية قادرة على مسح اقطار بكاملها من على وجه الارض . ولكن هل كل هذا زاد من تاثيرها في العالم ، او على الاقل يسر قضايا سياستها الخارجية ؟ يكفي طرح هذا السؤال ليتضح ان القوى المسلحة في ايامنا لا تاتي بتاثير سياسي اكبر .

هذه الحقيقة البسيطة اصبحت واضحة خصوصا بعد اندحار العدوان الاميركي في فيتنام الذي جعل واضحا للجميع أن قوة اميركا لن تمكنها من الهيمنة على العالم .

استغرقت حرب فيتنام ما يقارب من ثلاثين سنة . والتهمت مليوني انسان ، واعطبت ملايين اخرى وتركت وراءها ايتاما ولاجئين ومدنا وقرى بائسة وارضا مسممة .

ان القوى الامبريالية ، فرنسا ثم الولايات المتحدة ، رفضت بعناد الاعتراف بحق شعوب الهند الصينية بالاستقلال وحرية اختيار نظامها الاجتماعي . ان آلة الحرب الجبارة للولايات المتحدة وسمعتها كقوة قائدة للمعسكر الراسمالي قد القيت ارضا .

لقد دفعت الامبريالية الاميركية ثمنا باهظا لعدوانها على فيتنام . وتقديرات ما انفقته على هذه الحرب يزيد على ١٤١٫٠٠٠ مليون دولار . والقى سلاح الجو الاميركي أكثر من سبعة ملايين طون من القنابل ، أو ما يزيد ثلاثة اضعاف القصف الذي القام الحلفاء الغربيون في الحرب العالمية الثانية ، على الارض الهندوصينية . ويجب أن نتذكر ان الضحايا الاميركية في نهاية ١٩٦٨ قد بلغت ٥٨٠٫٠٠٠ رجل .

ان حصيلة هذه الجهود معروفة . ويتزايد اليوم عدد القادة الشعبيين والسياسيين الذين تحققوا أن القوة كاداة للسياسة الخارجية لن تجدي . والواقع اننا لم نشاهد فقط انهيار التدخل في جنوب شرق آسيا وانما أيضا انهيار السياسة العالمية الاميركية التي خطها مبدأ ترومان منذ ١٩٤٧ .

ان دروس الحرب الفيتنامية ، وعلى الاخص تزايد الاقرار بعقم سياسة الابتزاز الذري تجاه الاتحاد السوفياتي من قبل الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة والقوى الامبريالية الاخرى تسارع بصياغة تفسيرات أخرى لمفهوم القوة ودورها في السياسة الخارجية . لقد استخلص المراقبون السياسيون نتيجة وهي انه لا الآن ولا في المستقبل يمكن اعتبار القدرة العسكرية ضمانة مطلقة للامتيازات السياسية . ان الاستاذ الاميركي رالف كلوف يقدم الملاحظة التالية : « لقد بدات القوى الكبرى ، بتردد ، تقر بعدم جدوى القوة العسكرية كوسيلة لتحقيق القضايا القومية »(٢٠) ويلاحظ ايضا ان مجرى الامور سيبقى هكذا ايضا في المستقبل . « والعالم يرغب أن يرى تراجعا للقوى العسكرية كاداة للسياسة الخارجية وكمقياس للوضع في العالم »(٢١) .

---

(٢٠) « شرق آسيا وامن الولايات المتحدة » واشنطن ١٩٥٧ ص ١

(٢١) المرجع السابق ص ٧٠ .

ان عددا من الستراتيجيين الغربيين يشاركه هذه الآراء . انهم يعتقدون ان القوة العسكرية ليست دائما ضمانة للتأثير السياسي . ربما كانت القوة العسكرية من قبل تتحول الى امتياز سياسي ملموس . أما في هذه الايام فمن المستحيل .

الحقيقة المؤكدة ان السياسيين الغربيين الآن يحركون اشارة المساواة التي كانت توضع عادة بين مفاهيم « السلطة » و « القوة العسكرية » وبين « القدرة العسكرية » و « التأثير العالمي » . وهذا يظهر ان آراء جديد واكثر واقعية بدات تظهر تدريجيا في العلاقات الدولية ، وكلما جرى الترحيب بها كان لها نصيب اكبر في العلاقات الدولية .

ان الدبلوماسية من موقف القوة ، اي قانون القوة في العلاقات الدولية المعاصرة ؛ في طريقها الى الافلاس . هذه الحقيقة التي لا تنقض تتجلى في كل الميادين : في تطور الثورة العلمية والتكنولوجية ، او في التحولات الاجتماعية السياسية في حياة المجتمع . لقد وصل العالم مرحلة يستدعي فيها الوضع العالمي قواعد جديدة للاقتراب الى حل القضايا العالمية الملحة .

# الفصل العاشر

## امكانات لسلم دائم :

## طرق وممرات مسدودة

**« هل لك ان تخبرني ، من فضلك اي الطرق علي ان اسلك من هنا ؟ »**

**فاجابت الهرة : « هذا يتوقف على اي الجهات تتجه النية »**

**من كتاب لويس كارول « اليس في بلاد العجائب »**

### المركب العسكري الصناعي : تحد للانسانية

تعتبر السبعينات في تاريخ العلاقات الدولية مرحلة تغيرات عميقة لصالح القوى المحبة للسلم . والانفراج الدولي ، ثمرة النضال الجماهيري من أجل السلم ، أصبح الاتجاه السائد في عصرنا .

في هذا الوضع أولى الحزب الشيوعي السوفياتي اهتماما واسعا بالجهود السلمية . وقد صاغ المؤتمر الخامس والعشرون للحزب برنامجا للنضال من أجل السلم والتعاون الدولي ، ومن أجل حرية الشعوب واستقلالها . وقضية نزع السلاح نواة هذا البرنامج :

- انهاء سباق التسلح .
- الغاء تجارب الاسلحة النووية .
- تحريم واتلاف الاسلحة الكيميائية .
- تحريم تطوير الانماط والانظمة الجديدة لاسلحة الدمار الشامل .
- تخفيض النفقات العسكرية .
- تضمين معاهدة دولية عدم استخدام القوة في العلاقات الدولية .

هذه المطالب الملموسة تضع قضية نزع السلاح في المجرى العملي

وتفتح الطريق امام سلم دائم لكل البشرية . في عالم متخم بالاسلحة التدميرية الشاملة . لا بد من ان تنتقل البشرية من الانفراج السياسي الى الانفراج العسكري ، ولجم النزعة العسكرية وتخليص الحرب من قاعدتها المادية وخلق ضمانات موثوقة للتعايش السلمي .

لكن القوى الكبرى لا تزال تعارض الانفراج الدولي . ان المركب العسكري الصناعي ، ذلك الحلف المشؤوم للعسكريين واحتكارات الاسلحة . يتابع تكديس اسلحة الحرب . ان الدوائر ذات النفوذ للرجعية الامبريالية تدفع باستمرار الاقطار الراسمالية الى مغامرات عدوانية . ان العديد من البقاع الساخنة للتوتر الدولي التي يمكن أن تتحول الى صراعات مسلحة في اي لحظة ، ينبعث منها الدخان في عدة اجزاء من العالم . وفي كل مرة واخرى تنقلب الى صدامات عسكرية اما في الشرق الاوسط او قبرص او انغولا او في اقاليم واقطار اخرى . ان القوى العدوانية تحتفظ بالتوترات الساخنة ، وتحث على سباق التسلح وتثير الصراعات وتؤيد الانظمة الرجعية .

هذا الوضع من المفارقات اتخذ شكله في النصف الثاني من السبعينات . وفي فترة السلم ، من المعروف تماما لدى الدوائر الحاكمة الامبرياليةوالاقطار الراسمالية الاخرى ان الانفراج الدولي حقيقة ، ومع ذلك فان ميزانية التسلح الاميركية تخطت النفقات العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية وحرب كوريا والحرب في فيتنام . ولم تكن اعلى من ذلك طيلة قرنين من وجود الولايات المتحدة ، والاتجاه واضح الى تضخيم اكثر للميزانية . في عام ١٩٧٦ بلغت ١١٤ مليارا وتنبأت صحيفة « واشنطن بوست » انها ستبلغ ١٥٠ مليار في عام ١٩٨٠ و ٢٠٠ مليار عام ١٩٨٥(١) .

واذا أخذنا ، للمقارنة فقط ، فترة اطول في حسابنا فسوف نرى ان النمو الاسرع للنفقات العسكرية الامريكية والاقطار الراسمالية الاخرى يصبح اشد وضوحا . وقد قدر ان الولايات المتحدة ، في المئة والخمسين سنة التي اعقبت تأسيسها ، بما في ذلك سنوات الحرب العالمية الاولى انفقت ما يقارب ٣٠ مليار على الاغراض العسكرية فقط ( في العقود الاخيرة نافست بنجاح القوى الاوربية في التوسع الخارجي والنزعة العسكرية ) وقد اعلن في مجلس النواب في أوائل ١٩٧٦ رجل الكونغرس جون سيبرلنغ انه في العقود الثلاثة

(١) « واشنطن بوست » ٢ نيسان ١٩٧٦ .

الاخيرة ، عندما لم يهدد أمن الولايات المتحدة احد ، انفقت واشنطن ٦ر١ مليار على برامج تسليح مختلفة . وتوجد كل المؤشرات بأن المعدل سوف يرتفع في المستقبل . وفي فترة خمس السنوات التي تنتهي في ١٩٨٠ تنوي الولايات المتحدة انفاق مالا يقل عن ٦٣٠ مليار على الاغراض العسكرية .

ومجاراة الولايات المتحدة ، والاغلب تحت ضغط منها ، تزيد الدول الراسمالية من مخصصات التسلح . ويكفي ان نقول انه في ١٩٧٤ اي في ربع قرن اعقب تأسيس حلف الناتو تضاعفت النفقات العسكرية مباشرة سبعة امثال .

الا يمكن أن تكون ثمة نهاية لهذا العمل الانساني المهدور والطاقات الانتاجية والمصادر المادية ؟ ان الثورة العلمية والتكنولوجية الحديثة نقلت سباق التسلح من ميدان الزيادة الكمية « الالوية الضخمة » الى تحسين نوعية التسلح والبحث عن قنبلة عالية المستوى ، مع نتيجة وهي ان النفقات العسكرية تزداد بسلسلة هندسية .

التقدم في العلم والتكنولوجيا انقص الفترة الزمنية بين الاكتشاف النظري وتطبيقاته ، وبين الاختراع والتطبيق . والاحتكارات العسكرية الصناعية من جهتها قد رات ان اي انجاز يجب ان يستخدم الى ابعد مدى في انتاج الاسلحة . لقد استخدم البارود فور اختراعه في ميادين القتال ، واستغرق الوقت ثلاثمئة عام حتى تم صنع سلاح ناري . الآن ، كقاعدة عامة ، من الممكن تكنيكيا اختراع ذلك فورا . في الماضي كان تطور القوى المسلحة يسير متثاقلا خلف تقدم فروع الحياة المدنية ، بينما الآن العكس هو القاعدة . تعطى وسائل التسليح الاولوية وتتطور عادة بخطوات اسرع . وهكذا يجد العلم نفسه باتجاه تلبية حاجات الحرب .

هذه السمة للفترة المعاصرة لاحظها جون فولر الذي قام بدراسة الحرب العالمية الثانية . كتب : « ماذا يعني هذا ؟ تلك المنظمة العسكرية غير المدنية صار لها بتحالفها مع العلم دور القيادة ...

« وهكذا اصبح العلم تابعا للحرب ، يشكل اساس الدولة الحربية ، واصبح كاملا اكثر بكثير مما كان في دولة السلم . ان هذا ، كما سوف يكون من غير شك ، سيجعل الحضارة تترسم خطا ما يمكن ان يسمى « حراسة » فيصبح الفناء لا البناء الشغل الشاغل لثقافة الانسان »(٢) .

---

(٢) فولر « الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ – ١٩٤٥ » ص ٤٠٦ .

هناك شيء آخر لتاثير الثورة العلمية التكنولوجية على السلاح وهو ان هذه الثورة تعجل كثيرا في اهمال السلاح وتنسيقه . لقد استخدم الانسان القوس آلاف السنين واستخدم البندقية قرونا ؛ واستخدم نسقا واحدا من الدبات والطائرات والبوارج التي بقيت عدة عقود تستخدمها القوى المسلحة. ولكن ليس الآن حيث تنسق الاسلحة الحديثة خلال بضعة سنوات . فمعدل استخدام الطائرة المهاجمة والصواريخ لا يزيد عن خمس أو سبع سنوات .

لذا فالاسلحة ، في الظروف المعاصرة ، قد اقتربت من الكمال بنفس السرعة في كل الميادين ، وبمستوى تطور العلم والتكنولوجيا . وبما ان مئات المشاريع تشارك اليوم في تطوير السلاح من كل الاصناف ، فان من الصعب جدا ؛ أو بالاحرى من المستحيل وضع خط فاصل بين فروع الانتاج العسكرية وفروع الانتاج المدنية . ان صناعة الحرب تمتد الى كل فروع الانتاج الحديث ، مطالبة بحصتها جانية الزبدة في كل مكان .

ونتيجة ذلك ثمة نهوض ضخم في كلفة التجهيزات العسكرية التي تسير جنبا الى جنب مع التطور السريع للعلم والتكنولوجيا ، متمثلة آخر منجزاتها ـ من علم المعادن والبصريات حتى الالكترون والسبرنتيك ، حتى لا تنقلب الى ركام من الحديد(٣) .

---

(٣) الاحصائيات التالية تبين ارتفاع نفقة التسلح :

| النموذج | ١٩٤٥ بالاف الدولارات | ١٩٧٢ بالاف الدولارات | مرات الاضعاف |
|---|---|---|---|
| الطيران المقاتل | ٥٣ | ١٢ر٠٠٠ | ٢٢٦ |
| قاذفات القنابل | ٢١٨ | ٣٠ر٠٠٠ | ١٣٨ |
| الدبابات | ٧٠ | ٩٠٠ | ١٣ |
| الغواصات | ٤ر٧٠٠ | ١٧٥ر٠٠٠ | ٣٧ |
| المدمرات | ٨ر٧٠٠ | ٢٠٠ر٠٠٠ | ٢٣ |
| حاملات الطائرات | ٥٥ر٠٠٠ | ٩٠٠ر٠٠٠ | ١٨ |

انظر في هذا كوزمين « الشركات الصناعية » موسكو ١٩٧٤ ص ٩١ ( بالروسية ) .

منذ عدة سنوات كتب « كوربر يونسكو » ان غواصة تريدنت الاميركية التي ستنتهي عام ١٩٧٩ ستكلف ١٫٨٠٠ مليون دولار وهذا ما يعادل ضعفي حجم الميزانية المغربية السنوية(٤) .

هكذا هي الاحوال هذه الايام . وبحلول ١٩٧٦ كانت النفقات العسكرية في العالم ٢٥٠ مليار حسب بعض المصادر و ٣٠٠ مليار حسب مصادر اخرى، اي اعلى من الانتاج القومي العام للاقطار الافريقية وجنوب آسيوية والشرق الاوسط اذا اخذت كلها معا . ترى الى اي مدى سوف تزداد في مدة عشر او عشرين أو ثلاثين سنة ؟ واي نوع من الحياة الشنيعة تنتظر الاجيال القادمة اذا لم توضع نهاية لسباق التسلح ؟

ان الهياج الجاري للنزعة العسكرية في الاقطار الراسمالية انما يقف وراءه احتكارات الحرب ؛ وعلى الاخص المركب العسكري الصناعي الاميركي مع شهيته المفتوحة . ومن المعروف تماما ان ارباح صناعة السلاح اكثر من ارباح فروع الصناعة المدنية بمرة ونصف الى مرتين ( والعادة انها اعلى بعدة مرات ) . ومثلما تشم الطيور اللاحمة رائحة الدم ؛ كذلك ينقض الراسمالي على الفرصة ليضاعف ربحه ، ويدخل في صراع تنافسي وحشي من اجل متطلبات الحرب . وبالطبع فان الشركات الاقوى تاتي في قمة تصنيع السلاح وتصبح راسمالا ضخما مسيطرا . وهذه القوة ذات التأثير الاقوى على الحكومات الاميركية والسلطات الراسمالية الاخرى وسياستها الداخلية والخارجية .

غالبا ما تقتبس الصحافة العالمية ذلك الجزء الحربي من خطاب الرئيس الاميركي السابق ايزنهاور الذي القاه في كانون الثاني ١٩٦١ والذي قدم فيه الملاحظة التالية : « هذا الترافق للوجود العسكري الضخم والصناعة العسكرية الكبرى هو تجربة اميركية جديدة . ان التأثير العام ـ الاقتصادي والسياسي وحتى الروحي ـ قد عرف في كل مدينة وفي كل مجلس ولاية وفي كل ادارة للحكومة الفدرالية . اننا نعترف بالحاجة الآسرة لهذا التطور . ومع ذلك علينا الا نعجز عن استيعاب مضامينه المريرة . . .

---

(٤) كوربر يونسكو كانون الاول ١٩٧٥ .

« وفي مجالس الحكومة علينا ان نقف ضد اي تأثير غير مرغوب فيه ، سواء سعى اليه المركب العسكري الصناعي ام لم يسع » . وبالعودة الى هذا التقرير فان كل امرىء تقريبا يعتبره عقيما .

ان نمو المركب العسكري الصناعي في الولايات المتحدة بسرعة في السنوات الخمس عشرة الماضية قد تطور الى ظاهرة قومية عامة حيث انه دخل كل ميادين حياة الامة الاميركية . لقد غدا ذا سمات لا سابق لها وذا شخصية قائمة بذاتها . انه يعيش طبقا لقوانينه الخاصة ، وفوق ذلك انه يسعى الى فرض نفسه على كل المجتمع . وقد لاحظ بريجنيف في هذا المجال: « ان التحالف المشؤوم للعسكريين الرسميين والاحتكارات التي تقتنص صناعة اسلحة الحرب ، وهو ما يعرف عادة باسم « المركب العسكري الصناعي » ، وقد اصبح « دولة داخل دولة » في تلك الاقطار وصارت له سلطته الخاصة به »(٥) .

ان نمو العسكرية في الولايات المتحدة والاقطار الراسمالية الاخرى قد صار ذا زخم لا مثيل له تحت ضغط المركب العسكري الصناعي .

بيد انه يقترب الى المرحلة التي تجد فيها اشارة « قف الطريق مغلق ». ان البعد الضخم للعسكرية المعاصرة الذي وصل الى درجة العقم في سباق التسلح ، خلق جوا مناسبا لصعود ازمة المركب العسكري الصناعي .

وبلغة الموضوعات الدولية ، فان القدرة العسكرية للامبريالية قدتخطت الحدود التي ضمنها تكون مفيدة في النضال من اجل السيطرة ـ لقد تخطت حدود الاهداف السياسية . لقد امتشقت الراسمالية المعاصرة سيفا لم يعد بمقدورها اعادته او اشهاره من غير ان تغامر بالاجهاز على نفسها . مرة تمنى نابليون لو كان يملك برقا بدلا من المدفعية . واليوم عندما يملك الاعداء الاقوياء قواعد ذرية وبمقدورهم ان يحطموا بعضهم بعضا عدة مرات فوق المطلوب ، فان سباق التسلح يصبح نافلا .

وماذا عن المظاهر الداخلية لسباق التسلح ؟ ان العسكرية في مرحلة معينة مضطرة الى ان تصل الى الحدود الاقتصادية التي خلفها يصبح المزيد من التطور يهدد الاستقرار الداخلي للدولة . وكما قال ايزنهاور : « من

---

(٥) « على طريق اللينينية » ص ٣٢٠ .

الضروري على المنشأة العسكرية ، وليس الانتاجية ، ان تتغذى من الطاقة الانتاجية والقوة الفكرية للقطر ، فاذا التهمت الكثير فان قوتنا سوف تتقوض »(٦) . ومنذئذ والمركب العسكري الصناعي يلتهم ، مثل الورم الخبيث ، كل البناء الاقتصادي . وقد رافق هذا ارتفاع في الضرائب ، ونمو في التضخم والازمات المالية في السوق الراسمالية كلها . واليوم يسأل العلماء الاميركيون انفسهم اكثر فاكثر فيما اذا كان الزمن قد حل أو يقترب عندما يوجه النمو المتزايد للمخصصات العسكرية ضربة قاسمة للوضع الاقتصادي في البلاد .

ان المظهر الاجتماعي السياسي لهذه القضية ايضا ذات أهمية كبيرة . ان الطبقة الكادحة لا يمكن ان تقبل بحقيقة ان متطلباتها الاجتماعية والثقافية يضحى بها من اجل المركب العسكري الصناعي الذي يمص دم الامة .

ولهذا فان نسقا من العوامل العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية يحد من العسكرية ويعمل لصالح نزع السلاح . ان المسالة الآن كيف يمكن تسريع تاثير هذه العوامل في القضايا النوعية للسياسة العالمية .

وفي هذا الصدد لاحظ بريجنيف في المؤتمر العالمي لقوى السلم : « لا حاجة الى القول ان الاتساع في سباق التسلح من قبل الدوائر العدوانية للامبريالية وتخفيف التوتر الدولي القائم هما عمليتان تسيران في اتجاهين متعاكسين . ولا يمكن ان يستمرا هكذا الى اللانهاية عبر ما يسمى بالخطين المتوازيين »(٧) .

ان الخطوات الاولى الجدية في التحسين السياسي للوضع الدولي قد اتخذت الآن ، والقضية الرئيسية التي لها تاثير قوي في مستقبل العالم هي لجم سباق التسلح . ليس ثمة طريق آخر اليوم لتدعيم الامن الدولي سوى الانتقال من الانفراج السياسي الى الانفراج العسكري والتعاون الدولي على اساس التعايش السلمي . هذا بالضبط ما يسعى اليه الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى .

---

(٦) « الشؤون الدولية » عدد ٦ عام ١٩٧٠ ص ٨٢ .

(٧) « على طريق اللينينية » موسكو ، ١٩٧٥ ص ٣١٩ .

## مفهوم « الكفاية الستراتيجية »

ان موقفا مختلفا يتخذه سياسيون غربيون لا يزالون يخضعون لوهم انهم يمكن ان يحققوا اهداف سياستهم الخارجية بوسائل الاكراه والترهيب. ان العديد منهم لا يأبهون لكلمة « حرب » ، ويعلنون فوق ذلك أن من الضروري « الانتقال من المواجهة الى المفاوضة » . ومع ذلك فان العمليات العسكرية ، التي هي نتيجة السياسة المبنية على مواقف القوة ، تندلع في شتى اجزاء العالم . ويستخدم الضغط تحت شتى الذرائع فيداس القانون الدولي والتعهدات ، وتهجم الرجعية بعناد للاستئثار بالامتيازات . ان سباق التسلح ، أساس الحرب ، لا يزال مستمرا وبمعدل متزايد .

قال جيرالد فورد ، وكان رئيسا ، في رسالة الاتحاد في كانون الثاني ١٩٧٦ : « ان قوانا العسكرية قادرة وجاهزة ... اننا مستمرون في خلف اقتصادياتنا لترفع من كفاءة قوانا العسكرية . أما الميزانية فاوافق أنها تمثل ضرورة القوة الاميركية من أجل العالم الذي نعيش فيه »(٨) .

وقد أوضح فيما بعد ما عناه بهذا التقرير : « انا لا استخدم كلمة الانفراج أبدا . واعتقد ان ما يجب أن نقوله هو ان الولايات المتحدة سوف تتقابل مع قوى فائقة ، الاتحاد السوفياتي والصين والقوى الاخرى ، وتسعى لازالة التوتر بحيث يمكننا ان نتابع **سياسة السلم من خلال القوة** » ( التشديد من المؤلف . ف ــ ك ) .

انها بالطبع ليست مسألة مصطلحات ، وفوق هذا ، اذا كان الرئيس فورد لا يحب كلمة « انفراج » لسبب خاص ، فقد كان حرا في ان يستبدلها باخرى . على أي حال ، ان المعادل الذي يقدمه لهذه الكلمة هو « سياسة السلم من خلال القوة » .

ماذا يعني هذا التعبير ؟ ان الفكرة السيئة ، في الغرب ، عن السلم من خلال « ميزان الخوف » فسرت بروح الحرب الباردة . ونورد هنا بعض الامثلة من مؤلفات أساسية لمراقبين سياسيين يطلق عليهم اسم « واقعيين »

---

(٨) نيويورك تايمز ٢٠ كانون الثاني ١٩٧٦ .

يؤيدون بثبات الانفراج الدولي ومع ذلك يدافعون عن استمرار سباق التسلح .

« ان الترهيب ليس نقيض الانفراج ، كما تؤكد مدارس الفكر الايديولوجية الراديكالية ، بل شرطه المسبق . فاذا كان الترهيب في الكفاح من اجل الانفراج قد رفض فان هذا سوف يؤذي الانفراج » (٩) .

هنا راي آخر ، انه مفارقة « سوف تبقى مناقشة التسلح السمة البارزة لعملية الانفراج ... تكافؤ تقريبي تحقق الآن وتسارعت عملية الانفراج ، بيد ان عدم توازن مفاجىء سوف يولد توترا سياسيا يمكن ان يجعل الميكانيزما اللطيفة مصدر الخطر » (١٠) .

اثنان من علماء السياسة الاميركان موسكي وبروك يعتقدان ان الانفراج لا يلغي الحاجة الى قدرة دفاعية قومية ، وهذه الوسائل هي التي على الولايات المتحدة ان تملكها .

هنا ، ايضا المبدأ الواقعي « الجديد » او « الاحتواء الواقعي » يمكن ان يكونوا جديرين بوصف المثل القديم : « في حين لا يعرفون ماذا يفعلون ، تراهم يفعلون بما يعلمون » . ولا يهم ما يقاسيه «الواقعيون» لاثبات تأييدهم للتفسيرات الجديدة في السياسة الدولية ، فهم ، في الواقع ، يتابعون التمسك بالمواقف القديمة ، لانهم بكرازتهم للقوة العسكرية انما يدافعون عن العودة الى ايام قانون القوة .

بظهور مفهوم « الاحتواء الجديد » في السنوات الحديثة كاستجابة للانفراج العالمي ، نجد ان هذا المفهوم الذي تبناه عدة سياسيين في اميركا وبقية الاقطار ، ذو تناقض اساسي .

ومن جهة اخرى ، ان انتقال الامبريالية من «احتكار الذرة» الى « التفوق الذري » ومن « التفوق الذري » الى « التكافؤ الذري » ، اي الى توازن معين للقوى المسلحة مع الاشتراكية ادى الى تعزيز العلاقات الدولية . ان تغير ميزان القوى المسلحة ، وخصوصا بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ،

---

(٩) ولفرام فون رالين (Sicherheit im Spanntingsfeld der Entspannting)
بون ١٩٧٢ ص ٥٥ .

(١٠) لورانس وينن « السياسة الخارجية الاميركية المعاصرة » ١٩٧٤ ص ٢١٦ ـ ٢١٧

يقيد الاتجاهات العدوانية للامبريالية ويجبر الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة ان تستبدل مبدأ « الانتقام الضخم » بمبدأ « التجاوب المرن » الذي يناسب الوضع الجديد اكثر ، ثم تعديله الاخير ، أي « الاحتواء الواقعي » ( عن طريق الترهيب ) .

ومن جهة اخرى . فان عملية ثبات العلاقات الدولية ليست متماسكة مافيه الكفاية ثم انها متناقضة للغاية وغير محددة . ان مبدأ « الاحتواء الواقعي » ( الذي يجري انجازه عن طريق الترهيب ) لا يمكن الاعتراف به اساسا مقبولا لتطور العلاقات الدولية . انه في الواقع يتضمن سياسة استمرار « ميزان الخوف » ذاتها .

ان للوضع الحالي مثيله التاريخي . ان التاريخ يقدم امثلة عدة عندما يتعلق الامر بمجموعة من الظروف لهذه السياسة او لاخرى حققت زخما ثم سارت أشواطا بعيدة على الرغم من ان زوال الاسباب التي خلقتها . ومن تناقضات الواقع ان هذا النوع من السياسة غالبا ما يؤدي الى مآزق عالمية لا تحلها الا الحرب . وكلما ازداد السياسيون صلابة في متابعة هذا الطريق ، ازداد احتمال الحصيلة التراجيدية .

ان الوسائل العسكرية لحل الصراعات العالمية في عصرنا الذري تهدد تماما وبجدية الوجود الحقيقي للبشرية . ان هذا يعرفه ممثلو « الاتجاه الواقعي » . ويبدو انهم سيكسون السياسة التقليدية « سياسة القوة » ويتحولون الى نزع السلاح . ان « الواقعيين » لا يميلون الى استخلاص جميع النتائج من الوضع . ان هدفهم مصالحة ما لا يمكن تصالحه : الاعتراف بالحاجة الحيوية الى تجنب حرب نووية ، وفي الوقت نفسه تأييد متابعة سباق التسلح .

ان نتيجتين على الاقل يمكن استخلاصهما من آراء انصار التفسير « الواقعي » . اولا هذه الآراء من مرحلة من مراحل تطور التفكير السياسي البرجوازي وقد واجه « المأزق الذري » ، وثانيا هم يصادقون على عقم البحث عن حل ايجابي للمسألة .

في ايامه ليس اكثر من هنري كيسنجر ، الذي قلما عرف انه مدرس في جامعة هارفارد ، لجوءا الى المجازفي تقدير الوضع المفارق انه قدرة ساحقة.

قبيلتان مسلحتان بالسهام السامة على جانبي واد عميق ،وكل واحدة يمكنها ان تشن هجوما مميتا على الاخرى . ولكن قبل ان يفعل السم فعله يمكن القبيلة الاخرى ان ترد الصاع وتنتقم بالطريقة نفسهـا . ذلك يعني ان القبيلة التي تهاجم اولا لن تكسب النصر .

ان كل ما في الامر ان الامبريالية ترفض قبول هذه النتيجة . انها تنقب عن المنعطفات لتحصر نفسها بنوع من انصاف الاتفاق التي لا يمكن ان تحل القضية كلها . وانها لتبدو في الفرص الجديدة انها تنفذ السياسة القديمـة .

يؤمن كيسنجر ايضـا ان اميركا لا يمكن ان تبني كل خططها علـى افتراض ان الحرب التي ستنفجـر سوف تكـون شاملة ، ويقول ان مـن الواجب البحث عن مفهوم ستراتيجي يبيح للدبلوماسيين الاميركان اعلى ما يمكن من حرية العمل وفي الوقت نفسـه يساعد على التحقق فيما اذا كـان العصر الذري مشحونا فعلا بالخطر .

اكتشف الستراتيجيون الغربيون هذه الفرص الجديدة على شكل ما يسمى مبدا الحرب المحدودة الذي غدا منتشرا جدا في مطلع الستينات . ويتضح انصاره بالاعتماد على الحس العام للاعداء الاقوياء . وبما ان الحرب النووية تحمل تهديدا بالدمار ، كما ادعوا ، فان مشاركيها المفترضـين سيكون لديهم الحس الكافي فلا يصلون بالحرب الى الدمار الشامل . ومـن المحتمل ان تصل الى منتصف الطريق وتقتنع بحرب « صغيرة » ( حتـى باستخدام الاسلحة الذرية بكميات مقننة ) يمكن السيطرة عليها ، علـى العكس من الصراع النووي الشامل .

يتضح ان مفهوم « الحرب المحدودة » هو ببساطة محاولة لتجاهـل الوضع النوعي الجديد للعصر الذري . وهذا يعني خلق الوهم ان السياسة التقليدية في الاستغلال الطبقي وسياسة القسر والابتزاز والعنف ، تمكـن متابعتها من غير اي تعديلات جدية . ان البراهـين التـي تقدم تأييدا لهـذا المبدا محصورة فقط بمرجع الاتفاقية الضمنية المحتملة للسادة الجنتلمانيين، ولا تتخطى الحدود المتطرفة ، لان الخوف من الدمار الشامل وحده سوف ينجم من التطبيق « العقلي » للقوة في السياسة الدولية . الى اي مدى يمكن تامين العقلانية ، وما الاشكال التي ستتخذها ، وما الضمانة في ان القوى

النووية تلتزم بها ـ كل هذه الاسئلة الهامة تظل بلا اجابة .

لذلك لا عجب أن من الصعب الدفاع عن مفهوم « الحرب المحدودة » بحيثان عدة اختصاصيين غربيين في ميادين الستراتيجية العسكرية والعلاقات الدولية منذ مطلع الستينات نظروا اليه بعين الشك والريبة . فمثلا قدم جورج كينان ملاحظة معقولة : « والقول أنه ، في حال حرب ذرية ، يمكن الوصول الى تفاهم ضمني قابل للتنفيذ مع العدو فيما يتعلق بدرجة تدمير الاسلحة التي سوف تستخدم ونوع المهمة التي يجب ان تباشر ، يبدو لي هزيلا جدا واملا عابرا » (١١) .

والاستاذ الاميركي المشهور هانز مورغنتو انتقد ايضا مبدأ الحرب المحدودة . فقد انطلق من اعتناق الفكرة ولكنه تحرك منها وانتهى بها الى معسكر اعدائها . وقد لاحظ ان حربا ذرية ليست لعبة شطرنج يمكن اختبار كل موقع بكل هدوء وتأن . لاتخضع حركاتها مع موضوعات السياسة الخارجية هو تراجع الى العدم عن طريق القوة التدميرية الشاملة للسلاح الـذري .

على الرغم من العجز الواضح لمفهوم الحرب المحدودة ، فانه لا يزال للقيام بابتزاز نفقات عسكرية وعندما جرت محادثات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة للحد من الاسلحة الستراتيجية ( سالت ) ليس بعدها بكثير عندما تقدم رئيس البنتاغون السابق في مؤسسة فورد جيمس شليسنجر بخطة توجيه ما يسمى ضربات مختارة للعدو ، بما في ذلك ضربات اولية ، لابقاء العدو في حالة صدمة دائمة .

طبعا الآن نظرا لان عملية الانفراج الدولي اعترف بها رسميا الراي العام الدولي فان التسوية الثنائية مرفوضة ولا تنسجم مع الاتجاهات الرئيسية للسبعينات . هذا ما يفسر لنا لماذا انصار « المذهب الواقعي » يفضلون ان يعملوا مع الافكار الاكثر انسجاما مع روح العصر . انهم يتحدثون عن القوة مع التحفظ بانها يجب ان تبقي على « ميزان القوى » . وهنا من السهل أن نرى أن من يسمى بالواقعيين يتابعون فقط خط انصار الحرب المحدودة . يجدون من الصعب الارتداد عنالعنف وسباق التسلح ، وفوق

---

(١١) « روسيا والذرة والغرب » نيويورك ١٩٥٨ ص ص ٥٧ ــ ٥٨ .

ذلك يتحدثون عن التكافؤ الذري كضمانة رئيسية للامن الدولي . ان اي ورطة ذرية تجعل الحرب لا معنى لها .. هذا ما يؤكده « الواقعيون » . ولكنهم يرفضون الحرب الشاملة ويدعون الى الاستخفاف بالطرق العنيفة في العلاقات الدولية المعاصرة ، ولكنهم بالنفس ذاته يحاولون اثبات «الحاجة» الى استمرار سباق التسلح . وبمنطقهم ان السلم والامن الدولي في أيامنا يمكن ضمانهما فقط اذا كان الخصوم الاقوياء يخوفون بعضهم بعضا عن طريق التهديد بالدمار وسوف يبقيهم « ميزان الرعب » متيقظين باستمرار . ولذلك ، فان « الواقعيين» يعتبرون من الضروري متابعة هذا الوضع ؛ بينما نزع السلاح في رايهم سوف يقلب فقط ميزان القوة وبذلك يزداد احتمال اندلاع حرب . وعلى العكس ففي رايهم أن « ميزان الخوف » كلما ازداد ثباتا كلما تمكنت القوة العسكرية من المواجهة اكثر كتب كيسنجر: « التزعزع يكون في الجانب الذي يملك ١٠ صواريخ اكثر بكثير من الذي يملك ـ مثلا ـ ٥٠٠ » (١٢) .

هذا الخط من التبرير يتضمن ان سباق التسلح ليس شرا بل النعمة التي تقدم الاستقرار وتقوم بدور ايجابي ، وفوق ذلك ، هي نوع من ضمانة للسلام . وباختصار فان سباق التسلح اعلن كبديل مساو لنزع السلاح . هذا بالمنطق ليس مريبا فحسب ، بل منطق تجاري . ولكنه يعطي « الواقعيين » فرصة للتحدث لصالح السلام والانفراج الدولي وفي الوقت نفسه لمعارضة اي اجراءات لتحقيق الانفراج العسكري ونزع السلاح . وهذا يجعل من الممكن الاستجابة للعواطف العامة ، وفي الوقت نفسه تأمين مصالح المركب العسكري الصناعي .

لنا الحق في ان نسأل اذا كانت البشرية تستطيع الاخذ بهذا المنطق جديا . فهل نجد عزاء في حقيقة ان « القوى الذرية محكومة ، ارادت أم لم ترد ، ان تعيش الواحدة مع الاخرى بسلام حتى تتجنب اي صدام مكشوف يجر الى مخاطرة خيالية » كما كتب الادميرال الفرنسي مارك دي جوبيرت (١٣) . هل يستطيع الناس بصورة عامة ان يعتبروا مثل هذا السلام

---

(١٢) هنري كيسنجر « ضرورة الاختيار ـ آفاق السياسة الخارجية الاميركية » لندن ١٩٦٠ ص ٢١٧ .

(١٣) مارك دي جوبيرت « السلام الذري » باريس ١٩٧٥ ص ٦٥ .

سـلاما ؟ ليس هناك غير جواب واحد فقط ــ لا ، بالطبع لا .

من المستحيل النظر الى « السلام الذري » على انه ضمانة للامن الدولي . يضع بول كروسر هذه الملاحظة عندما يقول ان وضعا ما يمكن أن يقوم عندما تنظر القوتان الذريتان ، الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، الواحدة الى الاخرى من خلال براميل البارود . في تلك الحالة يتضاءل اختيار : اما الانتظار برعب قيام العدو بضربته الاولى ؛ او الضغط برعب على الازرار وشن عدوان ذري مدمر . وعندئذ خطر الذي يباشر الضربة الاولى سوف يتضاعف . وهذا هو في الواقع جوهر « السـلام الذري » المروع .

ووفقا لنموذج العلاقات الدولية المقترحة من قبل « الواقعيين » فـان سباق التسلح سوف يستمر ؛ وهكذا فالبشرية مقضي عليها أن تجلس على برميل بارود وتهدر قوتها ومصادرها الطبيعية لارهاب عدو متوقع . فـي ظل هذه الظروف سيظل التوتر عاملا دائما في الحياة الدولية . ان الاجيال الحاضرة والمقبلة يجب عليها أن تروض نفسها لتقبل فكرة ان امنها لا يمكن ان يقوم الا على متابعة الخوف ؛ وان ليس هناك ثقة وطيدة وتعاون مثمـر بين الشعوب .

بمثل هذه المخاطرة فان حربا عالمية أخرى تظل واقعية تمامـا . وفوق ذلك ، فان الرجعيين يقبلونها الى عامل « استقرار » برؤيتها عنصرا طويل المفعول في الحياة الدولية . والحقيقة انهم لا يقدمون اي ضمانات في هذا الخصوص . ومع هذا فان اتباع منطقتهم لا يعني غير التهديد بالحرب الوشيكة مثل سيف ديموقليس فوق رؤوس البشر فلا ضمانة لسلم .

ان كل تجارب التاريخ العالمي تهب صارخة ضد هذا المنطق . كتب ماركس : « لا أحد احدث سوءا مثل تلك العقيدة التي تعلن : اذا اردت السلم فاستعد للحرب. هذه الحقيقة الكبرى تتميز اصلا بحقيقة انها تتضمن كذبة كبرى وهي صرخة المعركة التي يدفع بأوروبا كلها الى السلاح »(١٤) . هكذا كانت الامور في المـاضي .

وهكذا تجري الامور ايضا اليوم ، فلا تزال هذه الكذبة الكبـرى تنتعش . فمثلا في العقود الماضية لم توضع الآلة العسكرية الاميركيـة موضع الاستخدام لهدف الدفاع عن القطر . بدلامن ذلك كانت تستخدم غالبا

---

(١٤) ماركس ــ انجلز « المؤلفات » جـ ١٢ ص ٤٤٢ .

لتنفيذ خطط البنتاغون العدوانية في مناطق بعيدة جدا عن الحدود الاميركية وانها ــ في الواقع ــ لحالة نادرة ان يساعد اشتداد التوتر على حل القضية الدولية الملحة .ثمة امثلة وفيرة في ان مثل هذه السياسة تزيد مـــن الصراعات الجديدة التي منذ سنوات وعقود استمرت في ازعاج العالم ، ولا يمكن لاي قطر اي يحصل على ضمانات في انه سيكسب سباق التسلح ، اذ لا توجد مثل هذه الضمانات في عصر الثورة العلمية والتكنولوجية . ومـــن جهة اخرى ، من الواضح ان السعي نحو المزيد من القوة التدميريةلاسلحة الافناء الشامل سيزيد من الخطر المباشر على أمن اي قطر .

ان انصار « الاتجاه الواقعي » لا يقدمـــون جـــوابا عن أهـــم مســائـــل العصر الحاحا . وبدلا من توقعات السلم والتعاون المديدين فانهم يضعون في الحقيقة الحرب الباردة ، وقد عدلت بعض التعديلات الطفيفة . ومن جهة اخرى يجب ان يلاحظ ان « الاتجاه الواقعي » يسم تغـــيرا معينـــا في الفكـــر السياسي والعسكري البرجوازي نحو توجيه اهتمام اكبر للامور الواقعيـــة على الصعيد العالمي .

بشكل عام يمكن ان يكون « الاتجاه الواقعي » مبدا فترة انتقالية عندما يضطر فيها الستراتيجيـــون الغربيون الـــى رفض بعض العقائـــد في السياسة الخارجية التقليدية، ولكنهم غير مستعدين تماما للاعتراف بالتغيرات التي تبرز . ان « الاتجاه الواقعي » ، وهو تيار فترة انتقالية ، يشعر من جهة بالتاثير المتناقض جدا للقوى المتناقضة ، ومن جهة اخرى يخلـــق الظروف المناسبة لكل انواع الارتجال المبتـــرة في آفاق تطور الحياة الدولية .

## في خنادق الحرب الباردة ..

لا اهمية لتصنيف الاتجاهات الايديولوجيـــة والسياســـية ، فاعـــداء الانفراج الدولي يمكن ان يقسموا اليوم الى تيارين : اولئك الذين يريدون دفع عملية الانفراج الى العدم ، وأولئك الذين يحاولون تفسيره بالمعنى الضيق لمصالحهم الانانية لاعاقة الديمقراطية والاشتراكية .

وعلى الجهة اليمنى المتطرفة هناك ديناصورات الحـــرب البـــاردة

العنيدون ، الذين يتابعون الكرازة للعنف والعدوان . ومثل الامبراطـــور فرديناد الثاني الذي اعتاد على القول « احب الى نفسي صحراء حراء من قطر يحكمه الهراطقة » ، فانهم يحملون الرأي نفسه : التهديد بالحرب افضل من التعايش السلمي مع المجموعة الاشتراكية . ويغان ، والاس ، ميني ، غولدوتر . جاكسون ، شليسنجر واعداء آخرون للسوفييت في الولايات المتحدة واماكن اخرى في العالم الراسمالي اما أنهم يرفضون الانفراج كواقع او يفسرونه بطريقة تقلبه الى مجرد تعديل للحرب الباردة . انهـم عنيدون في اصرارهم على تجاهل حقائق الواقع ، ويبدون متشبثين بالمواقف الغــابرة .

وهكذا في اواسط الستينات أحد قادة الاميركان باري غولدوتر صرخ بكل الصليبيين بانهم من الافضل ان يذهبوا الى مملكة الآخرة من ان يعيشوا تحت ظروف الانتصار الشيوعي . ومياه كثيرة مرت تحت الجسر منذ ذلك الحين . ان تعاويذ المرشح الفاشل لكرسي الرئاسة في البيت الابيض لا اقنع الراي العام الاميركي ولا اخافه . ان الانفراج بات حقيقة ، وتحقق تقدم ملموس في العلاقات السوفياتية الاميركية .

بيد ان غولدوتر واشياعه من « المئة السود » الاميركيين ، رفضــوا التكيف مع اي وضع تجاه الاشتراكية سوى « قرطاجة يجب ان تدمر » . وكذلك المتذرعون بالسيطرة العالمية لا يستطيعونان يتخذوا اي موقف آخر من الاقطار الاشتراكية . وما فعله غولدوتر في الحملة الانتخابية عام ١٩٧٦ ، فعله عدة سياسيين غربيين من الجناح اليميني في الســنوات الحاليــة . وبالعودة الى ١٩٦٠ فان عدة خبراء في العلاقات الخارجية الاميركية ، روبرت شتروس هوبي ووليام كنتز وستيفان بوسوني كتبوا في كتابهم « ستراتيجية متقدمة لاميركا » : « لا نستطيع ان نتحمل انبعاث النظام السياسي الذي يملك قوة هائلة وارادة لا ترحم في تحطيمنا . ليس لنا خيار الا الموافقة على الستراتيجية الكاتونية »(١٥) وبعد عشر سنوات ، في ١٩٧٠ ردد بوسوني، وهذه المرة بالتعاون مع برونيل صيحة المركة نفسها . وفي كتابهـا

---

(١٥) « ستراتيجية متقدمة لاميركا » نيويورك ١٩٦١ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦ . وكاتونية نسبة الى كاتو عضو مجلس الشيوخ الذي نادى بدمار قرطاجة . راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب فقرة من « بوتسدام الى الحرب الباردة » المترجم .

«ستراتيجيةالتكنولوجيا»(١٦) يكتبان : علينا ان نكون قادرين على دحر العدو في حرب جوية ذرية .

بالطبع ليس كل اعداء تطبيع العلاقات الدولية هم هكذا . فهؤلاء الذين يضعون سعرا أعلى لسمعتهم اكثر من غولدوتر وبوسوني اكثر تميزا في تصريحاتهم العامة . انهم على الاغلب لا يعارضون الانفراج مباشرة ، ولكنهم في الوقت نفسه يجعلون تطوره نحو الاوسع يعتمد على عدة تحفظات وظروف تجرده من كل معنى أو تعطي الامبريالية امتيازات تعجز عن تحقيقها من خلال « سياسة القوة » .

ويجري التسليم بفرضيات لا تزيد عن اثنتين كل واحدة تلغي الاخرى فمن جهة يجري التأكيد بان الانفراج اصبح ممكنا بفضل « ضغط التفوق العسكري الاميركي » و « القوة المتضاعفة لحلف الناتو » ، وهلمجرا ، وبفضل أيضا نوع من الصعوبات الاقتصادية يزعمون انها أحاقت بالاشتراكية التي اجبرت السوفييت على القبول اكثر بالموقف السلمي . ومن جهة اخرى يفعلون كل شيء لخلق الانطباع ان الاتحاد السوفياتي والمجموعة الاشتراكية ككل تحاول استغلال الانفراج اكثر من الاقطار الراسمالية ، ذلك الانفراج هو شارع باتجاه واحد وان الاقطار الاشتراكية تأخذ اكثر من نصيبها . وطبقا لهذا المنطق الغريب تنقلب الامور حيث ان في المنافسة بين النظامين ، اجبرت الراسمالية الاقطار الاشتراكية على اتخاذ وضع افضل يعطيها الآن منافع « وحيدة الجانب » .

كل هذا امور تافهة . ولكن صقور الحرب الباردة اما انهم غير آبهين بتفاهة تبريرهم ، او يرفضون فعلا ان يروه . انهم يذهبون كل مذهب في تبرير سياستهم المعادية للسوفييت ويبقون على سباق التسلح ، ويرغبون في فرض منطقتهم الخاص على الراي العام . واذا فسح الاتحاد السوفياتي الطريق للقوة فمن الضروري ، كما يقولون ، زيادة الضغط وترجيح التفوق العسكري الاميركي ، واذا استفاد الاتحاد السوفياتي من سياسة الانفراج وتطور الصلات الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية مع الغرب ، فيجب اجباره على « دفع » كل انواع التنازلات . ومهما كانت الفرضيات فان النتيجة

---

(١٦) « ستراتيجية التكنولوجيا . انتصار الحرب الحاسمة » كامبردج ١٩٧٠ .

واحدة : ان جبهة الرجعية العالمية المعادية للسوفيات يجب ان تقوى باي شكل من الاشكال .

وكما في الماضي . يبررون موقفهم الآن بالتذرع بـ «الخطر السوفياتي» و « الخطر الاحمر » و « النزعة التوسعية للكرملين » ، وهذه الاسباب هي « وحدها » كما يزعمون مسؤولة عن كل عراقيل السياسة الخارجية وكل الازمات التي يعاني منها العالم الراسمالي . وهذه الفرضية التافهة تدفع الى السؤال : اليست الولايات المتحدة وحلفاؤها في الناتو هي التي عادت الى فكرة « التمسك بالنظام العالمي » عن طريق « احتواء » الاتحاد السوفياتي ؟ وما نحن بصدده في الواقع هو شيء من الطبعة الجديدة للسياسة السيئة المنطلقة من مواقع القوة . هكذا هي عقلية الرجال الذين يجلسون باحكام في خنادق الحرب الباردة .

ان اعداء الانفراج في اوروبا ، يدعمهم حاليا القادة الصينيون . وفوق ذلك فان الصين هي الدولة الوحيدة التي تفصح قيادتها علنا أنها من انصار الحرب العالمية الثالثة . ان موقف بكين ونزعتها المعادية للسوفييت يؤخذ بالحسبان من قبل الستراتيجيين السياسيين والايديولوجيين في العالم الراسمالي ؛ الذين يريدون فعلا تفجير عملية الانفراج .

**عالم « متعدد الاقطاب » و « سياسات ضخمة » ...**

ان ظل السياسة من مواقع القوة اثر في السياسيين الغربيين عندما حاولوا وضع تعليمات حول طبيعة العلاقات الدولية المعاصرة وتنبؤوا بتطورها ومؤشر هذا هو ظهور الموديلات المتعددة لما يسمى العالم المتعدد الاقطاب ، فيزعمون أنه سيحل محل نسق القوى العالمية المنافسة بين « القوتين الكبرتين » .

وحتى يثبتوا هذا المفهوم تلاعب ايديولوجيو الامبريالية بالوقائع . لقد احلوا محل انقسام العالم الى نظامين اجتماعيين سياسيين ، مع كل العلاقات المعقدة بينهما ، بنية بسيطة ثنائية الاقطاب من العلاقات الدولية التي تكونت بعد الحرب العالمية الثانية فتدنت بالمسالة الى المواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

كقطرين او كمجموعتين اقليمتين تمتلكان القوة، فان المواجهة الاميركية

السوفياتية أصبحت متزايدة بسبب منافسة المراكز الاخرى . ان البنية الثنائية الاقطاب للعلاقات الدولية قد حل محلها بنية متعددة الاقطاب وضمن حدودها توجد منافسة شديدة للاقطار والمجموعات المتعادية وليست منافسة بين نظامين الاشتراكية والراسمالية . يستخدم النظريون الغربيون هذه الفرضية المضللة لبناء اي عدد من التفسيرات الاعتسافية . وبما ان فكرة العالم المتعدد الاقطاب قدمت عناصر جديدة ( اميركا ـ روسيا ـ الصين: ثلاثي المنافسة . اميركا ـ اوروبا الغربية ـ اليابان : ثلاثي التعاون وثلاثي اميركا ـ اوروبا الغربية ـ روسيا في الغرب ورباعي اميركا ـ روسيا ـ الصين ـ اليابان في الشرق ... الخ ) فان الانحياز الرجعي الواضح والقرابة المباشرة لهذه الفكرة مع مبدأ الحرب الباردة باتا ظاهرين .

في ضوء مفهوم العالم « متعدد الاقطاب » ، فان التنمية الفعلية للعلاقات الدولية تتخذ شكل المواجهة الصراعية المستمرة لـ « مراكز القوى » وفي الوقت نفسه ؛ لا سر في الغرب حول حقيقة انه ليس فقط مسالة صراعها الاقتصادي والسياسي ، بل ايضا في ميزان القوى في التسلح ، بما في ذلك الاسلحة الذرية ، طالما يفترض انه عاجلا او آجلا سوف تصبح كل « مراكز القوى » اعضاء في « النادي الذري » .

ومتابعة لتقاليد الحرب الباردة ، فان أنصار مبدأ « تعدد الاقطاب » يعملون على افتراض ان الدور السائد في « ميزان القوى » المفترض لا بد من ان تلعبه الولايات المتحدة . وتتنبأ مجلة « سيرفي » : « بالنسبة الى رصد المستقبل ، فان الولايات المتحدة سوف تقف في راس المثلثين الخطيرين : مثلث الولايات المتحدة ـ الاتحاد السوفياتي ـ الصين حيوي واساسي جدا بالنسبة الى موضوعات الحرب والسلم والتعايش السلمي ونزع السلاح ورقابة الاسلحة . ومثلث الولايات المتحدة ـ اليابان ـ اوروبا الغربية وهو مثلث معقد فيما يتعلق بالقضايا العالمية الاقتصادية داخل العالم المتقدم ، وهكذا بالنسبة الى خصائص معظم الامم » (١٧) .

في الواقع نجد الفكرة ذاتها في كتاب كلوف «شرقي آسيا وامن الولايات المتحدة » فيؤمن كلوف ان الامن في ذلك الجزء من العالم يمكن تامينه فقط من خلال « ميزان القوى » بين الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية واليابان

---

(١٧) « سيرفي » ربيع ١٩٧٢ مجلد ١٩ رقم ٢ ص ١٢٥ .

والولايات المتحدة . وباعتبار الولايات المتحدة « وسيطا » فانها ستجعل المواجهة بين الشركاء الآخرين » (١٨) .

اخيرا : وايضا انطلاقا من روح الحرب الباردة ، اقترح عدة مؤلفين اجانب ان البنية المتعددة الاقطاب للعالم يجب ان تستخدم للتطويق العسكري والسياسي على الاتحاد السوفياتي . ويكشف ويليام كنتنر هذه الخطة بوضوح عندما يكتب : « حالما يصل العالم الى خمس قوى عالمية فان من المعقول جدا وضع حل منطقي من اجل استقرار حقيقي . القوى التوسعية في الدرجة الاولى هي في الاغلب الاتحاد السوفياتي والصين . فطموحاتهما يمكن كبحها ؛ من طريق تعميق صراعهما العدواني مع بعضهما ، اذا لم نقل القضاء على روح العداء عندهما . ويمكن كبحهما ايضا عن طريق حقيقة ان مراكز القوى الاخرى سوف تظهر قريبا ، اي ظهور اوروبا الغربية قرب الاتحاد السوفياتي ؛ واليابان قرب كل من الصين والاتحاد السوفياتي . في حادث النزاعات الثنائية بين اوروبا الغربية والاتحاد السوفياتي ، او الصين واليابان ؛ أو الاتحاد السوفياتي واليابان ، لا بد من ان يكون ثمة باعث من جهة كل من أوروبا واليابان للبحث عن دعم خفي من الولايات المتحدة » (١٩) وهكذا مهما كان النمط أو عدد « الاقطاب » فان الولايات المتحدة مخولة ان تقوم برسالة الشرف لكونها « وسيطا » ، وليس للاتحاد السوفياتي سوى دور متواضع جدا لكونه واحدا من الاطراف المتصارعة .

ان غرض مفهوم « الاقطاب المتعددة » هو استبدال مبادىء الماركسية اللينينية في التقسيم الطبقي للعالم الى نظامين اجتماعيين سياسيين ، بمبادىء متعسفة حول وجود « مراكز القوى » . ومراكز القوى هذه ستكون في حالة صراع دائم الواحدة ضد الاخرى ، في توتر عالمي ابدي ، وتحويل ممارسات الحرب الباردة الى حالة طبيعية للعلاقات الدولية .

ان ما يبدو للوهلة الاولى فرضية مختلفة بل ايضا متعارضة قد ادى الى مفهوم « السياسات الضخمة » او ستراتيجية « التعاضد الاطلسي » الذي صارت له شعبية في الولايات المتحدة واوروبا الغربية . ولدعم هذا المفهوم لجأ مؤلفوه الى طريقة مالوفة لدى ايديولوجيي البرجوازية وهي باتخاذ بعض العمليات الواسعة كنقطة انطلاق فقط ليضعوا عليها مجمل تعليماتهم

---

(١٨) رالف كلوف « شرقي آسيا وامن الولايات المتحدة » واشنطن ١٩٧٥ ص ١٢٤ .

(١٩) مضامين معاهدة « سالت » لمنع الاسلحة ، بترسبرج ١٩٧٣ ص ١٧٩ .

الاعتسافية . والنقطة الاساسية هي نمو التعاضد الاقتصادي لكل الاقطار ، والاتجاه العام نحو عالمية الاقتصاد العالمي والعمليات التكاملية التي كانت قد تطورت في ظل الراسمالية . والحقيقة ان المستوى الحالي لقوى الانتاج تتطلب كلا من التقسيم العالمي المعقول للعمل ، والمزيد من التعاون الاقتصادي العلمي والتكنولوجي الفعال بين الدول . وهذا يعني اقتراب المرحلة التي تطرح فيها هذه المسائل على الصعيد العالمي .

من الواضح تماما ان الراسمالية غير قادرة على حل المسالة . واستجابة لمتطلبات عالمية النشاط الاقتصادي ، فقد انتجت كبرى الشركات الاحتكارية العالمية والمتعددة الجنسية . والواضح ايضا انها لا تعكس المتطلبات الموضوعية للانتاج العالمي بقدر ما تغذي مصالح الراسمال الاحتكاري وفي طليعته الاحتكارات الاميركية . الاحتكارات العالمية ، وعلى الاخص ما ارتبط بالراسمال الاميركي مرسوم له ان يدعم ويوسع هذا التاثير . ان الهدف هو بناء نظام عالمي من المال والانتاج والبيع ، واقامة شبكة من التعاضد في الاقتصاد العالمي ، وبذا يتابعون ويزيدون من استغلال الطبقة العاملة والمصادر الطبيعية لهذا الكوكب .

ان التعاضد هو الاسم القانوني لهذا الطموح . فهو **اقتصاديا** يعكس مصالح الراسمال الاحتكاري وطموحه الى التوسع العالمي خارج الحدود القومية . وهو **سياسيا** مهيأ لتوحيد الاقطار الراسمالية والاقطار المتطورة ايضا في مجموعات اقليمية مغلقة موجهة ضد العالم الاشتراكي . وهو **ايديولوجيا** قائم على المفاهيم الاميركية والاوروبية او ما يشابهها من المفاهيم الكوسموبوليتية المعارضة بهذا الشكل او ذاك للاساس القومي والطبقي .

ان هدف ستراتيجية التعاضد توحيد موضوعات السياسة الخارجية للراسمالية مع الاقتصاد ، وخاصة مع العوامل المالية والمواد الاولية والطاقة. ان تركيز كل هذه الدعائم في ايدي الاحتكارات العالمية يتمثل في الغرب كدواء لجميع المتاعب . يكتب ، على سبيل المثال ، الاستاذ الاميركي دروكر ان الاقتصاد العالمي يتطلب اقامة تنظيم يستفيد منه بالرفاهية جميع البشرية ، وهذا التنظيم اذ يخدم اهدافه ويحققها فانه في الوقت نفسه يخدم الاقتصاد العالمي ككل . وانه يؤمن ان مثل هذا التنظيم يمكن أن يكون شركة عالمية متعددة الجنسية .

ومن الواضح ، في الوقت نفسه ، ان الاحتكارات الاميركية لكونها اقوى الاحتكارات في العالم ، فانها ستحقق الخطط الى ابعد مدى . لا يترك العالم الاميركي سيوم براون اي شك حول هذا . ويعتقد ان الاحتكارات الجبارة وفي مقدمتها الاحتكارات الاميركية ، ستلعب دورا عظيما في سياسة العالم وتقيم نظاما من الروابط ما بعد القومية والحاق الروابط والدول الاخرى(٢٠) .

افكار مماثلة افصح عنها دارس اميركي آخر في القضايا الدولية المعاصرة ، هو البرفسور ريشار سترلنغ مؤلف كتاب « السياسات الضخمة والعلاقات العالمية في المجتمع العالمي » . انه في الوقت الذي ينتقد مفاهيم العلاقات الدولية ، يدعو الى استخدام القوة . كتب : « المهارة الفائقة للسياسي ليست ادارة العنف بل القدرة على خلق اوضاع تكون ارجحية العنف فيها في ادنى حد »(٢١) .

من الواضح ان المؤلف يصورهذه الثورة على انهادعم للوحدةالاقتصادية والسياسية للغرب الراسمالي مع الاقطار المتطورة على اساس السوق « العالمية » برئاسة الولايات المتحدة ، حيث في رايه : « تفتيت التضامن الغربي سوف يكون معارضا تماما للمتطلبات الموضوعية للاقتصاد العالمي والمجتمع العالمي »(٢٢) .

وفي حين يكسو سترلنغ فكرة « التضامن العالمي » للاقطار الراسمالية بصيغ علمية موضوعية فان روبرتكلين يفضح بلغة سهلةجوهرها السياسي. واذ يأسى لواقع ان القدرة العسكرية الاميركية قد اخذت تتدنى ، متاملا فيما يجب اتخاذه لعلاج الوضع ، يقترح اقامة حلف عسكري جديد تحت جناح الولايات المتحدة تشمل كندا وانكلترا والمانيا الغربية وفرنسا وايطاليا ونيوزيلاند واسرائيل واليابان وتايوان واستراليا ونيوزيلاندا . ويعتقد كلين ان بالامكان ايضا ضم المكسيك واسبانيا وايران وتركيا ومصر والعربية السعودية والباكستان واندونيسيا وسنغافورة وكوريا الجنوبية والبرازيل

---

(٢٠) انظر « قوى جديدة في سياسة العالم » واشنطن ١٩٧٤ .

(٢١) « السياسات الضخمة : العلاقات العالمية في المجتمع العالمي » نيويورك ١٩٧٤ ص ١٠٩ .

(٢٢) المرجع السابق ص ٢٢٥ .

ونيجيريا وجنوب افريقيا . ولا نعرف سببا للتوقف عند جنوب افريقيا ولا يضيف عشرات من الاقطار الاخرى الى القائمة . ولكن الواضح انه يرغب في تمكين السياسة اليابانية أميركية من السيطرة العالمية لفترة الحرب الباردة .

وهكذا فان مفهوم « السياسات الضخمة » أو «التعاصد» في موضاعاته الاساسية يتطابق مع نماذج العالم « المتعدد الاقطاب » وما أمامنا هنا هو رغبة في اقامة مجموعة من الاقطار الراسمالية والدول المتحررة حديثا في ظل قيادة الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفياتي وكل العالم الاشتراكي .

## صراع ايديولوجي أم حرب نفسية ؟

من الواضح ان بعض ممثلي الفكر البرجوازي السياسي ، ممن لا يزالون يتمسكون بالافكار البالية ، يبحثون عن فرصة لاصلاح رمم الحرب الباردة . انهم يعارضون الانفراج الدولي مع الانظمة المختلفة للعلاقات الدولية . بينما منظرون غربيون وسياسيون آخرون يجاهدون للوصول الى اهدافهم عن طريق شعار الانفراج ذاته ، وهكذا يتابعون اتجاههم اللبرالي المزيف الذي ابتدأ من الخمسينات والستينات .

وفي ظل ذريعة الاتصالات الواسعة بين الاقطار ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة يحاول انصار هذا التيار شرح عملية الانفراج طبقا لمصالحهم الخاصة . والغرض هو اعطاء دفعة جديدة للمفاهيم السيئة السمعة السابقة مثل « الحتمية التكنولوجية » والتقارب بين النظامين » . الانفراج والتوسع من اي نوع كان للاتصالات العالمية والتعاون الدولي ليس سوى وسيلة لتغطية الخط الطبقي الفاصل بين العالم الراسمالي والعالم الاشتراكي ، ولممارسة التاثير في داخل الاقطار الاشتراكية .

وليام غريفي المساعد السابق للمستشار الالماني الغربي كونراد اديناور، الداعية الغيور للحرب الباردة يعلق : « عبر سياسة الانفراج هناك انطباع للانتقال الى اهداف وطرائق معدلة : رفض كل المجهودات لتحرير شعوب اوروبا الشرقية من الانظمة الشيوعية ... ومن الضروري الاهتمام بعمليات طويلة الامد للتغيير الداخلي في المعسكر الشرقي بطريقة أن كل مساعدة ممكنة

ستكون تأمينا تدريجيا لاعادة الاعتراف بالنظام الاجتماعي السياسي للدول الشرقية »(٢٣) .

ان الستراتيجيين الغربية ، حتى يتابعوا الخطط البعيدة لتشويه المجموعة الاشتراكية سياسيا ، وبالتالي نظام العلاقات الدولية كله ؛يعتمدون في الدرجة الاولى على القومية . فليس من المصادفة ان عدة مختصين في السياسة الخارجية في اميركا والاقطار الاخرى يعودون في السنوات الحديثة، المرة بعد الاخرى ، الى العامل القومي في العلاقات الدولية وبالضبط في ميدان الانفراج .

استاذ العلاقات الدولية هنسلي أصدر كتابا بعنوان « القومية والنظام العالمي » . ويعتبر المؤلف القومية على انها القوة المحركة الاساسية للتطور التاريخي ، وهي مفيدة في ان نرى منها كيف يشرح هذه الاطروحة في ضوء تخفيف التوتر العالمي .

وعلى غير ما تابع معظم الاساتذة البرجوازيين الآخرين ينظر هنسلي في القومية على انها بدهية تاريخية ، ولكنه مثل معظمهم في انكاره المطلق للطبيعة الطبقية الاجتماعية للقومية . وبالحاحه ان القومية وثيقة الصلة في اي مجتمع متقدم مهما كان النظام الاجتماعي ، فانه يوسع هذه الاطروحة لتشمل العلاقات الدولية . وفوق ذلك انه يصور القومية كعامل للسلم والامن الدوليين ، طالما تقدر المصالح القومية الخاصة تقديرا صحيحا ؛ فاذا امكن ايجاد قاسم مشترك ، فان بالامكان خلق « توازن قوى » وبذلك تتوطد العلاقات الدولية(٢٤) .

ان هنسلي يفضل الانفراج الدولي ولكن بطريقته الخاصة . انه يشير الى انه في المرحلة المعاصرة « ولاول مرة في التاريخ ليس ثمة خيار امام القوى الذرية الا تجنب العنف العشوائي عن طريق الامتناع عن الحرب فيما بينها »(٢٥) . ولكنه لا يعتقد ان هذا يمكن أن يتحقق من خلال التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة ويذهب الى ان حل

---

(٢٣) « النظرية والممارسة في الشؤون الدولية » دوسلدروف ١٩٧٠ ص ٦١٤ .

(٢٤) هنسلي « القومية والنظام العالمي » لندن ، سدني ، اوكلاند ، تورنتو ١٩٧٣ ص ١٢٧ .

(٢٥) المرجع السابق ص ١٥٤ .

القضايا انما يعتمد على أسمى اعتبار للمصالح القومية التي يعاملها على انها نوع من القوة المنفصلة والقائمة بذاتها .

وبالامعان الدقيق يظهر نموذج هنسلي في العلاقات الدولية انه محاولة اخرى لجعل الاوضاع الراهنة السياسية والاجتماعية مستمرة في العالم تحت شعار القومية .

اطروحة أخرى انتشرت في الغرب أخيرا انتشارا واسعا هي ان الانفراج الدولي و « نزع الصفة العسكرية من السياسة العالمية » مرتبطان ب « نزع الصفة السياسية » . عالج هذه المسالة سيوم براون في كتابه « القوى الجديدة في السياسة العالمية » . وينطلق المؤلف من فرضية ان النظام الجديد للعلاقات الدولية الذي يتخذ شكله تحت ظروف « تفتت الاسس الايديولوجية والجيوبوليتيكية للحرب الباردة » ، سوف يختلف اختلافا اساسيا عن سلفه ذي القطبين ، وفي الدرجة الاولى يختلف عنه في تعدد المركزية . يكتب : « لقد غدا واضحا لرجال الدولة على جانبي الاطلسي في اليابان أن نموذج الحلف الوثيق للخمسينات لا يمكن تدعيمه ، وحتى العلاقة المتراخية للستينات تصبح مفككة في عدة موضوعات . ويتحول التجمع اكثر فاكثر الى شبكة ضخمة من العلاقة المصلحية العدائية والتعاونية . وشكلها الاخير هو الذي يحددها ويضفي عليها شكل السياسة الدولية خارج المجال الشيوعي »(٢٦) . ويعتقد براون ان العالم الشيوعي أيضا يؤثر فيه الاتجاه المركزي النابذ ذاته الى هذه الدرجة او حتى درجة أعلى .

ما الذي اذن يحل محل النظام الثنائي الاقطاب في العلاقات الدولية لفترة الحرب الباردة ؟ لا ، لن يكون عالما مؤلفا من « مراكز قوى » ثابتة . في راي براون سوف يتالف من « تجمعات متعددة متقاطعة متشكلة حول نوع من « **تعدد الحكم** الذي يتنافس على دعمه وولائه ، الدول القومية والمجموعات العالمية والمصالح الخاصة والتجمعات العالمية ، وسوف ينحل الصراع على أساس عقد الصفقات بالذات في مضمون متغير من علاقات القوة » ان الانحياز الايديولوجي واضح في هذا التبرير . والواقع ان هذا نسخة جديدة من مفهوم « اللاادلجة » في العلاقات الدولية مع صبغة قومية .

وحتى يطمس ايديولوجيو البرجوازية الحاجز الطبقي الفاصل بين الراسمالية والاشتراكية ، غامروا بما يسمى القضايا الشاملة التي غالبا ما

(٢٦) مرجع سابق ١٨٦ .

أصبحت موضوع العواطف المثيرة المصطنعة . وهنا كل من معادي الشيوعية وممثلي الاتجاه اللبرالي النقدي في الفكر البرجوازي يلعبون دورا كبيرا كفاضحين لشرور « الحضارة الحديثة » . انهم يتذرعون انهم يحافظون على البشرية من الكوارث التي يمكن ان تسببها أزمة البيئة او انفجار التلوث وغلو التمدن ... الخ . هذه القضايا وقضايا اخرى مشابهة انتزعت من مضمونها التاريخي والاجتماعي ، وبولغ فيها وقدمتها الدعاية البرجوازية على انها كوارث طبيعية خارج حدود السمة القومية والاجتماعي .

والحجج ذاتها تستخدم على الصعيد العالمي لجعل الاشتراكية تتصالح مع الراسمالية ، الا انها هذه المرة تحت ذريعة انقاذ كوكبنا . ان الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الاخرى ، متهمة بانها « منحازة » ايديولوجيا و « مسؤولة » عن « انقسام » البشرية في الوقت الذي تقتضي الضرورة توحيدها بغض النظر عن الانظمة الاجتماعية المختلفة لمهاجمة الخطر المشترك الناجم عن التطور الفتاك للتكنولوجيا . ان ما نراه هو شكل آخر مختلف لنظرية « التقارب » ، لاستخدامه كحجة في دعم « اللاادلجة » . وربما ليس ثمة مظهر آخر للعلاقات الدولية يكون موضوع مثل هذه التأملات الدعائية الفخمة مثل توسيع الاتصالات الدولية وتبادل المعلومات . ويكفي عادة ان يعتقد معادو الاشتراكية ان القوى الغربية تفضل توسيع كل انواع الاتصالات مع العالم الاشتراكي والتبادل « الحر » للناس والافكار . ان وصف الاقطار الاشتراكية بانها « مجتمع مغلق » يكذب هذا . ولذلك كانت النداءات لزيادة الضغط على الاقطار الاشتراكية لجعل سكانها يتمثلون « القيم الايديولوجية » الغربية تحت شعار الانفراج الدولي .

ان الموقف السوفياتي من هذه المسالة واضح تماما لا يترك اي لبس . فقد قال بريجنيف بهذا الصدد : « يسمع المرء عادة ان الغرب يعلق اهمية على التعاون في الميدان الثقافي ، وعلى الاخص تبادل الافكار وتوسيع المعلومات والاتصالات بين الامم . فاسمحوا لنا ان نعلق هنا بكل جدية : نحن ايضا نؤيد هذا شريطة ان يكون مثل هذا التعاون بالطبع منسجما مع سيادة كل قطر وقوانينه وعاداته ، واذا كان يغني الناس اغناء روحيا متبادلا ، ويزيد الثقة بينهم ، وافكار السلم وحسن الجوار »(٢٧) .

---

(٢٧) بريجنيف « على طريق اللينينية » موسكو ١٩٧٥ ص ٦٠ – ٦١ .

هذا الموقف ينبع منطقيا من السياسة اللينينية في التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة . وانها بشمولها لكل ميادين الحياة الاجتماعية المعاصرة ـ الاقتصاد والسياسة والايديولوجيا ـ تعكس ايضا سماتها النوعية . ففي الميدان **الاقتصادي** نرى ان حجر الاساس في تطور التعاون الفعال هو المنفعة المتبادلة . والسمة الرئيسية في الميدان **السياسي** هي مبدا عدم التدخل في شؤون الدول الاخرى ، واحترام حق السيادة لكل أمة ، من غير اي ضغط خارجي ، في حل مشاكلها الداخلية . وفي الميدان الايديولوجي ، حيث لا مجال ثمة لاي مساومة ، فان التعايش السلمي يشمل تعاونا ثقافيا واسعا وتبادلا في المعلومات والاتصالات المختلفة على اساس الاحترام المتبادل لسيادة اي قطر وعادات كل الشعوب .

ان الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى ، لا تفرض ايديولوجيتها ولا ثقافتها على احد ، بل انها تفضل جعل القيم الثقافية في متناول كل انسانية وهذا هو الشرط الاساسي الذي لا غنى عنه للتقدم العالمي والامن الدولي ، لان الثقافة الحقيقية لا تعوق النشاط الثقافي ولا تقدم اي قطر وعاداته ، بل تغنيها ، انها تجمع الناس مع بعضهم ولا تفرقهم .

ليس ثمة قطر في العالم قدرت منجزات فكره السابق وثقافة شعبه في كل العصور الماضية اعلى تقدير مثلما قدرت في الاتحاد السوفياتي ، ولم تنتشر مثلما انتشرت فيه . ان مؤلفات الكلاسيكيين والكتاب المعاصرين تطبع وتنشر بملايين النسخ في الاتحاد السوفياتي . هناك العديد من المسرحيات لمؤلفين اجانب في ذخائر المسارح السوفياتية ، والسينما والتلفزيون يعرضان عروضا عالمية وشخصيات مرموقة . والاعلام الدولي المتبادل والاتصالات بين الشعوب تشجع باي وسيلة في الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى . وفي عام ١٩٧٥ وحده زار الاقطار الاشتراكية ٥٨ مليونا كما زار الاقطار الاجنبية زيارات سياحية ٣٥ مليون مواطن من الاقطار الاشتراكية . فكيف يمكن الحديث عن « المجتمع المغلق » ؟

قال بريجنيف في مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية في اوروبا حزيران ١٩٧٦ : « لا ، الاقطار الاشتراكية ليست مجتمعا مغلقا ، لقد فتحنا بابنا لكل ما هو شريف وحقيقي ونحن مستعدون ان نزيد الاتصالات باي وسيلة مستخدمين شروط الانفراج الملائمة . بيد ان ابوابنا سوف تكون دائما مغلقة للمنشورات التي تدعو للحرب وتروج للعنف والعنصرية والحقد . وفوق ذلك فانها ستكون مغلقة في وجه عملاء المخابرات الاجنبية السرية ومنظمات

المهاجرين المعادين للسوفيات . وعندما يجري الحديث عن « حرية » الاتصالات فان الناس في الغرب يحاولون أحيانا أن يطلقوا حرية اليد للاعمال الشنيعة »(٢٨) .

هكذا تكون الامور في ميدان الاتصالات الدولية والاعلام . بيد أن الدعاية البرجوازية رغبة في تشويش الموضوع الاساسي البسيط تناضل في الاغلب لخلط مفاهيم « النضال الايديولوجي » بمفاهيم « الحرب النفسية ». ان المسالة تعرض : اما رفض النضال الايدبولوجي او متابعة « الحرب النفسية » . مثل هذا العرض متهافت نظريا وهو عمليا يضر بقضية السلم والتعاون بين الشعوب .

ان النضال الايديولوجي كان دائما وسيظل الظاهرة الموضوعية للعملية التاريخية . انه امر محتوم ما دامت الطبقات موجودة . ولكن اذا لم يكن احد قادرا على الغاء الصراع الايديولوجي فان الحكومات والاحزاب السياسية الحاكمة هي التي تاخذ على عاتقها المسؤولية الذاتية لاختيار الوسائل والطرق الكفيلة بذلك . ان مقارنة الافكار واثبات فائدتها وانتشار التجربة العملية لاكتساب الراي العام ( الصراع الايديولوجي ) شيء ، وتضليل الراي العام وخداع الاقطار والاستخدام الايديولوجي لمناواة النظام القائم « الحرب النفسية » شيء آخر .

ان الانفراج لا يعني ابدا الانحدار في الصراع الايديولوجي . فليس ثمة حاجة ملحة لاستخدام المبادىء والاحكام الحسية التي تؤدي الى طرائق « الحرب النفسية » التي تسمم الوضع الدولي لعدة سنوات .

ان الانفراج الدولي لا يعدل طبيعة الموضوعات الاساسية للبرجوازية والطبقة العاملة . والصراع بين الراسمالية والاشتراكية امر محتوم .

لاحظ بريجنيف في المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي « ان التغيرات الايجابية في الشؤون الدولية والانفراج تخلق ظروفا ملائمة لانتشار الافكار الاشتراكية انتشارا واسعا . ولكن من جهة

---

(٢٨) « من اجل السلم والامن والتعاون والتقدم الاجتماعي في أوروبا » ص ١٦ .

اخرى يصبح التعارض بين النظامين حادا جدا ، والدعاية الامبريالية اكثر ذكاء »(٢٩) .

وعلى الرغم من المقاومة العنيدة للرجعية ، فان الظرف الايديولوجي والسياسي في العالم يتغير لصالح القوى الديمقراطية .

لقد رفع الاتحاد السوفياتي من قوة السلم على أساس قرارات المؤتمر الرابع والعشرين للحزب وبرنامج النضال الواسع من أجل السلم والتعاون الدوليين ، ومن أجل حرية الشعوب واستقلالها الذي أقره مؤتمر الحزب الخامس والعشرون ، وهذا ما يبطل أي حديث عن التهديد السوفياتي بالحرب . لقد هجر هذا الظرف واحدا من أهم الدعايات الايديولوجية المعادية للسوفييت ـ الاسطورة الافترائية حول الطبيعة العدوانيةللشيوعية.

وانه لهام جدا ان الطريق الذي يدعمه الراي العام الواسع نحو الانفراج يزيد من قوة النشاط السياسي في العالم . وكلما ازدادت القوى الشعبية ، اندمجت شتى الاتجاهات الايديولوجية والسياسية للنضال الواسع من أجل السلم . انهم يناضلون من اجل الوحدة على أساس البرنامج المشترك لبناء نظام ديمقراطي في العلاقات الدولية . وهذا يعد فعلا واحدة من أعظم مهمات الرجعية الايديولوجية والسياسية لمنع امكانية مساهمة الجماهير في حل القضايا السياسية المتازمة ومنع تجمع القوى الديمقراطية في جبهة معادية للامبريالية .

وفي الوقت نفسه تحققت الطبقة العاملة العالمية ان الامن الدولي لا ينفصل عن التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي . ان جماهير جديدة من الشعب في كل انحاء العالم باتت مقتنعة عمليا أن السلام الدائم لا يقوم الا على اساس ديمقراطي فعلي ، اي على الاسس التي كان يرفعها دائما الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية الاخرى . ان بروز هذه الحقيقة أحبط الاطروحات التي روجتها الدعاية البرجوازية واستغلتها لعدة سنين لتثبت الطبيعة « المتناقضة » لسياسة التعايش السلمي وعدم « انسجام » الشعارات السلمية والامور الثورية الطبقية .

---

(٢٩) « وثائق وقرارات المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي »ص٨٩

كل هذه الامور خلقت تغيرات جدية في الصراع الايديولوجي المعاصر . وحوله تتمركز قضايا الحرب والسلم والعلاقات الدولية ، وقضية التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة المختلفة ، وهي حقيقة يجب ان تعتبر ناظما للمرحلة المعاصرة . ان كل مرحلة في التطور العالمي تدفع الى المقدمة هذا الشكل او ذاك من اشكال النضال ، او تدفع قضية نوعية تحمل الى ابعد حد مصالح البشرية جمعاء . وفي الظروف القائمة تعتبر القضية الرئيسية هي النضال من اجل السلم التي تحدد في الدرجة الاولى آفاق التقدم الاجتماعي والوجود الفعلي للبشرية . ولهذا من الطبيعي ان المعارك الايديولوجية العنيفة تدور حول هذا الموضوع .

## بواسطة الانفراج

حققت سياسة الانفراج تجربة معينة في حل القضايا العالمية المعقدة . ان هذا يثبت حقيقة انه ليس بواسطة سباق التسلح وخلق « التوازن » العابر للاطراف المتنازعة ، او « لا ادلجة » العلاقات الدولية هي المهمة الكبرى التي تحافظ وتدعم السلم الذي يمكن تحقيقه ، ولكن فقط بواسطة مبادىء التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة . واذ يعكس هذا المبدأ التداخل الفعلي للقوى في العالم المعاصر فانه وحده يلبي المتطلبات الحيوية للتقدم التاريخي .

غالبا ما تسمع اصوات في الغرب تقول ان الاشتراكية تجني من الانفراج اكثر من الراسمالية .

ولكن سواء رغبوا ام لم يرغبوا فان هذه الدعوى في الدرجة الاولى تبين واحدة من الافتراءات التي ينشرها اعداء الشيوعية ان الاشتراكية نزعة عدوانية . ولعدة عقود تحدث ايديولوجيو البرجوازية كثيرا عن « التوسع » السوفياتي وعن « التهديد السوفياتي » . والواقع ان هذه الاطروحة هي التي استخدمت كحجة ايديولوجية لدعم سياسة مواقف القوة وعدد من المبادىء الحربية للامبريالية خلال فترة الحرب الباردة . والآن يدعون ان الاشتراكية مهتمة بالسلام لانها تجني مكاسب عظيمة منها اكثر من الراسمالية . ان التناقض واضح .

ان الشيوعيين لا يخفون نزوعهم الى السلم . في الوقت نفسه يعتقدون دائما ان السلم والانفراج الدولي ضروريان ومفيدان لجميع الامم . واعتمادا

على نتائج مؤتمر هلسنكي اكد بريجنيف ان تدعيم السلام هو القضية التي لا تعرف « غالبا ومغلوبا ، رابحا وخاسرا . انها انتصار للعقل . ان كل طرف قد كسب : اقطار الشرق واقطار الغرب ، شعوب الاشتراكية والدول الراسمالية ، سواء انضمت الى الاحلاف ام كانت على الحياد ؛ صغيرة ام كبيرة . انه مكسب لكل من يتعلق بالسلام والامن على كوكبنا » (٣٠) .

هذا التقرير يحظى بأهمية لان التطور السلمي للبشرية كبديل عن الحرب ليس مجرد رغبة ؛ بل هو ضرورة تاريخية وامر يمكن تحقيقه . لقد تجسد في خطة ملموسة من مقاييس محددة يمكن ، ويجب ان تؤدي الى تشكيلة من النظام الجديد للعلاقات الدولية .

لقد هدفت مقررات هلسنكي ، فعلا ، الى تحسين جو اوروبا . ان ما اتخذ في مؤتمر هلسنكي هو الاحترام المتبادل لحقوق السيادة ووحدة الاراضي للدول التي شاركت في المؤتمر ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية والخارجية واستنكار استخدام القوة او التهديد بها ؛ هذا لصالح تحسين الجو العالمي . ان دورا خاصا في تامين امن اوروبا لعبته اتفاقية عدم خرق الحدود للدول الاوروبية. وانتشار التعاون في شتى ميادين العلم والتكنولوجيا والثقافة والفن كان بالطبع مفيدا مثمرا .

وبعد هلسنكي اظهرت اوروبا ان بالامكان تكنيس بقايا الحرب الباردة.. ان تعميق هذه العملية سيجعل بالامكان ابعاد الغربة والشك في العلاقات الدولية ؛ وهذا ما سيفيد البشرية جمعاء .

ان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي يقر قبل كل شيء بالحاجة الى متابعة النضال من اجل الانفراج السياسي وانهاء مراكز التوتر المتبقية ، وتحقيق تسوية عادلة للصراعات الدولية .وتقوية التفاهم والثقة المتبادلين . قال بريجنيف من الضروري : « خلق مناخ في العالم ، يجابه فيه المعتدون ،

---

(٣٠) « على طريق اللينينية » موسكو ١٩٧٥ ص ٥٨٢ .

هؤلاء الذين تبهجهم المغامرات ، بموقف حازم باستمرار من قبل الشعوب في كل مكان ، وفيه سوف يصبح السلم والامن والثقة بالمستقبل السلمي ، واقعا لمزيد ومزيد من شعوب العالم »(٣١) .

ان حل هذه القضية هام جدا، ولكن في الدرجة الاولى يكون في تشكيل نظام جديد من العلاقات الدولية . والحاجة اليوم الى مرحلة جديدة نوعيا ، مع انفراج عسكري يكمل الانفراج السياسي ، تبدو ظاهرة للعيان بصورة متزايدة . ان كبح سباق التسلح ينقلب الى موضوع متأزم في الحياة الدولية، لان الانسانية لم تعد تتحمل متابعة التوسع في القاعدة المادية للحرب . ان مزيدا من التقدم في الانفراج يعتمد على تخفيض السلاح ، وبالتالي النزع الشامل والكامل للسلاح . قال بريجنيف في المؤتمر الخامس والعشرين : « هذا الموضوع اليوم حيوي اكثر من اي وقت مضى »(٣٢) .

ان التحركات الاولى في هذا الاتجاه قد تمت . ان توقيع معاهدة حظر تجارب الاسلحة النووية في المجالات الثلاثة ، واتفاقية حول عدم الاكثار منها، والاتفاقيات السوفياتية الاميركية حول الحد من الاسلحة الستراتيجية الدفاعية والهجومية وخطر الحرب الذرية ، واتفاقية التمهيد لمعاهدة جديدة حول الحد من الاسلحة الستراتيجية الهجومية وما شابه ذلك ... تعتبر بداية ناجحة على طريق نزع السلاح ، ومثالا طيبا عن كيفية حل هذه القضية الملحة والمعقدة ، التي لم تطرح نفسها من قبل على البشرية بمثل هذه الخطورة المخيفة .

واخيرا فان الانفراج السياسي والعسكري يجب على المدى الطويل ان يقود الى توطيد التعاون المثمر بين الاقطار ، القائم على المساواة والسيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى . ان هذا النوع من

---

(٣١) « على طريق اللينينية » ص ٥٤٧ .

(٣٢) وثائق وقرارات المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ص ٢٧ .

التعاون يؤلف المضمون الرئيسي للنظام الجديد في العلاقات الدولية التي يريد الحزب الشيوعي السوفياتي ان يراها موطدة .

ان المنظور البسيط يقدم فرصا فعالة للتعاون الاقتصادي والعلمي والتكنيكي ، ولتبادل القيم الثقافية ، وللجهود المتضافرة لحل القضايا العالمية سواء اليوم او في الغد .

هذا هو منظور السلم والتعاون الدولي . ولكن لا علاقة لذلك بالسلم الطبقي ولا يزيل أبدا الخلافات الاساسية في الايديولوجيات والانظمة السياسية للدولة . ولا اهمية لمضمونه في مصالحة الطبقة العاملة مع النظام الراسمالي الاضطهادي . على العكس ، انه يقدم للجماهير فرصا مواتية من اجل تحقيق هدفها في بناء مجتمع لا طبقات فيه ، وفي الوقت نفسه يزيل التهديد بالدمار في اتون الحرب النووية .

هذا المنظور لا يمكن نقضه ، لانه يعبر عن المضمون الرئيسي للمرحلة المعاصرة ، مرحلة انتقال البشرية من الراسمالية الى الاشتراكية .

# الفصل الحادي عشر

# على عتبة المستقبل ..

ثمة تاريخ لكل حياة الرجال يشخص طبيعة الازمنة التالفة التي شوهدت ، ان انسانا يمكن ان يتنبأ بهدف قريب عن فرصة كبرى للاشياء التي مع انها لا تعود الى الحياة،فانبذورها وبداياتها الضعيفة يكمن الكنز الدفين مثل هذه الاشياء تصبح بفقاسة الزمن .

ويليام شكسبير
« هنري الرابع »

## الغد يبدأ اليوم

ربما لم تعرف مرحلة سابقة تشابكا بين الامس واليوم وغدا كما في المرحلة المعاصرة من التطور السريع في التقدم العلمي والتكنولوجي والثقافي. ولم يحدثان تطور المستقبل من الحاضر وبني على اساس تقدير التجربة الماضية . والمرحلة الحاضرة وحدها تحتل اهتماما كبيرا في مثلث « الماضي ــ الحاضر ــ المستقبل » .

ومن هذا المنطلق فان نشاط الناس هذه الايام ذو معنى تاريخي عظيم ، وذو مسؤولية خاصة . وهذا هو سبب ان قضية مشاركة نشاط الناس هذه الايام ذو معنى تاريخي عظيم ، وذو مسؤولية خاصة . وهذا هو سبب ان قضية مشاركة نشاط الناس ونتائجها الممكنة امر هام جدا في عصرنا . ان الانسان بات سيدا لقوى الانتاج الضخمة واخضع قوى الطبيعة الجبارة ، بحيث ان نشاطه يمكن ان يجلب الكوارث في المستقبل اذا كانت النتائج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية لا تضبط ضبطا علميا . ان التقدم الاجتماعي لا ينفصل عما هو شامل ، اي عن التكهن العلمي . فمتى تتقدم لا بد من ان نتنبأ ونأخذ بالحسبان النتائج المحتملة الناجمة عما يجري اليوم .

هذا يعني ان عصر الثورة العلمية والتكنولوجية قد خلق وضعا وفرضه على الناس فرضا ليس فقط بفرض المستقبل على اساس الماضي والحاضر . بل ايضا تحديد الحاضر على اساس تنبؤات المستقبل . ان قدرات البشرية العلمية والتكنولوجية قد اصبحت من الضخامة بحيث ان تحقيقها بسلامة وتفاؤلية يصبح على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة اليها .

بالطبع ظهرت هذه المسالة في الماضي ايضا ، بيد انها لم تكن بمثل هذه الحدة اليوم ، لان الانسان لم يكن بمثل قوة اليوم . ومن جهة اخرى ، فان التغيرات الاجتماعية الاقتصادية السياسية اتسعت فشملت عقودا وقروناً . وشملت حياة عدد اجيال . هذا بدوره خفض المسؤولية الاجتماعية للافراد قبل سلالاتهم . ان الناس الذين عاشوا قبلنا في سعيهم لانتزاع الفوائد الاقتصادية لنشاطهم لم يابهوا بواقع ان الاجيال القادمة يمكن ان تدفع ثمن اخطائهم وسوء تقديراتهم . فيما بعد قرون وقعت نتائج نشاطهم على البشرية وقوع الكوارث البشرية . وقد قدم انجلز في « ديالكتيك الطبيعة » امثلة كثيرة للنتائج التي لم يجر التنبؤ بها لافعال الناس الذين عملوا في اللحظة القائمة ؛ فما استفادوا الا من النتيجة الفورية لاعمالهم .

« ان سكان ما بين النهرين واليونان وآسيا الصغرى ، واماكن اخرى ؛ اولئك الذين دمروا الغابات للحصول على اراض زراعية ، لم يحلموا مطلقا انهم كانوا يضعون الاساس لابراز دولة بائسة لهذه الاقطار ... واولئك الذين نشروا البطاطا في اوروبا ما كانوا على علم بأنهم في الوقت نفسه ينشرون داء التدرن ... وعندما تعلم العرب تقطير الكحول لم يدخل في اذهانهم انهم بعملهم هذا يخلقون احد الاسلحة الرئيسية للقضاء على سكان اميركا الاصليين قبل اكتشاف تلك القارة الاميركية »(١) .

ومن ذلك اننا اذا اخذنا بالحسبان نقط المبادهة والنتيجة الاشد وضوحا ، فان الناس في السعي لمصلحتهم المادية المباشرة كانوا يهتدون بالمبدا القائل « هناك ما يكفي لحياتي » ويقبلون بذلك غريزيا على ما هو مالوف .

المرحلة المعاصرة قلبت هذه الفلسفة الى الابد . ان الثورة العلمية والتكنولوجية بتسريعها تطور المجتمع الى اقصى درجة قد دفعت بالبشرية

(١) انجلز « ديالكتيك الطبيعة » موسكو ١٩٧٦ ص ص ١٨٠ – ١٨١ .

الى اعصار التغير ، كما اشار الى ذلك الاستاذ الاميركي الفين توفلر . وما كان يستوجب قرونا ليحدث لا يستغرق الآن اكثر من عقود ، بل لا يستغرق اكثر من سنوات . لقد اصبح الناس واعين لانفسهم وليس لخلفائهم الذين سيحصدون ثمار نشاطهم .

قدم هيغل مرة الفكرة التالية : « يجري في التاريخ العالمي ان النشاط البشري بشكل عام يؤدي ايضا الى نتائج مختلفة الى حد ما اكثر مما يسعى اليه هؤلاء الناس واكثر مما يحققون ، واكثر من النتائج التي يعرفونها مباشرة واكثر مما يرغبون ، انهم يسعون لتامين مصالحهم ، بيد ان ذلك يؤدي الى نتائج ابعد ، الى شيء كان خبيئا ، الى شيء ما كانوا على علم به وما كان ضمن خطة عملهم »(٢) . ان في هذه الفرضية معنى واضحا لاي اقتصادي ولاي عالم بيئة وعالم اجتماع .. الخ على ضوء المرحلة الديناميكية المعاصرة . وفي وجه التسارع الضخم للتطور العالمي وحيازة الانسان للقوة ، بدأ الناس يدركون في منجزاتهم ما هو « مخفي » ، شيء ما لم يكن موجودا في خططهم الاوليــة .

تحت هذه الظروف فان الاستفادة من المستقبل باعتباره حقلا لتحقق النشاط الحالي يكف عن ان يكون مسالة تأملية وينقلب فوق هذا الى موضوع اقتصادي ذي اهمية عملية للحياة اليومية . وبالوصول الى ذروة التنبؤ الاقتصادي والاجتماعي والعلمي للمستقبل في عالمنا ، يجعل الاجيال المعاصرة مسؤولة اجتماعيا عن كل من مصيرها الخاص ومصائر الاجيال القادمة .

كتب الاستاذان الالمانيان هاجن بنهوير وارنست شماك : « العالم الذي نعيش فيه لن يكون ارض الميعاد . فمن سوء الفهم الاعتقاد ان عدة مظاهر ايجابية للمستقبل الذي ينفتح امامنا على عتبة السبعينات يمكن ان يعفينا من مسؤولية اعمالنا وقراراتنا . ذلك يعتمد على ما اذا كنا سنقدر على الاستفادة من الفرص التي يقدمها التقدم في العلم والتكنولوجيا . ان المستقبل يجعل كل فرد وكل مجموعة ودولة ووطن متساويا في المسؤولية »(٣) . لذلك من الطبيعي ان نضيف ان مناقشة المستقبل تتطلب ابعادا اعمق في ايامنا . انها تشمل كل المظاهر الجديدة وتصبح اشد حدة . ويصدق هذا اكثر ما يصدق على القضايا الاجتماعية .

---

(٢) هيغل « فلسفة التاريخ » المؤلفات شتوتغارت ١٩٢٨ ص ص ٥٦ — ٥٧ .

(٣) خطط في المشروع العالمي . دوسلدورف ١٩٧٠ ص ١١ .

روبرت اوين(٤) ، الصناعي الناجح ذو الستة والاربعين عاما ، والذي تلقفته اعظم البيوتات في لندن ، بما في ذلك قصر باكنغهام ، عندما اعلن في عام ١٨١٧ على صفحات « التايمز » وفي اجتماع تم في العاصمة ، قلب عالم الصناعة ، فكرته الطوباوية الشيوعية ، لاقى شعبية واسعة ، الا ان المجتمع الصناعي اعتبر خطته عملا جنونيا .

من كان هذا الدون كيشوت الجديد ؟ ارجل نبيل وكريم ، ام متعطش متلهف للشهرة والسلطة في نفوس الناس ؟ اليس مجنونا من يتصور نفسه ربا او عرافا ؟ لقد وجدت دنيا العمل نفسها متحيزة . ولا عجب في ذلك . في تلك الايام كان الطبقة البرجوازية طبقة تتولد حين تستغل الطبقة البروليتارية . الانتاج الانتاج الانتاج . . هذا هو المبدأ الاساسي لرجال الاعمال الكبار في ذلك الزمن الذي كان غارقا في الحاضر بحيث لم يفكر في المستقبل . وبالتالي كانت كل التكهنات والتنبؤات تعتبر هدرا للوقت ، ولا تقدم اية منافع للمشروع الخاص . ومن هنا لم تؤخذ افكار اوين بعين الجد ، واعتبرت اضغاث احلام لخيالي او مجنون .

لكن الاشياء تغيرت ، ورجل الاعمال المعاصر يعتبر من الجنون ان لا يشغل باله بالتنبؤات سواء في النواحي العملية ام في ميدان الحياةالاجتماعية العريض . ان التنبؤ جزء من الصراع التنافسي الذي يحظى باهمية كبيرة في نشاطات الاحتكارات . فتقدير الاتجاهات والتوقعات الاقتصادية هي وسائل لاستغلال الفرص المناسبة والفرص غير المواتية قدر الامكان ؛ وهي اوضاع غير ثابتة ولا مستقرة .

يختلف الصراع التنافسي هذه الايام في عدة مجالات عن ذاك الذي وصفه انجلز في كتابه « ظروف الطبقة العاملة في انجلترا » . كتب : « مع أن

---

(٤) روبرت اوين مؤسس الاشتراكية الطوباوية ، وهي تعاليم تعتبر واحدا من مصادر الماركسية . وقد حاول ، كصناعي راسمالي ، ان ينفذ اصلاحات تقدمية معينة في مصنعه . ولكنه تحقق بالتالي ان تحسين ظروف العمال لا يقتصر على الاصلاحات المطلوبة ، بل اقامة نظام حياتي كامل .

الصناعي يعرف كم يستهلك كل قطر سنويا من هذه المادة ، فانه لا يستطيع ان يعرف كم يتوفر في اليد في لحظة معينة ، واقل من ذلك معرفته بعدد المنافسين حتى ذلك الوقت . انه يستطيع معرفة استنتاجات غير محددة من التذبذبات الدائمة في الاسعار ، بالنسبة الى الكميات الموجودة والحاجات المطلوب في تلك اللحظة . عليه ان يعتمد على الحظ في تصدير بضاعته . ان كل شيء يتم عشوائيا تحت رحمة المصادفة » (٥) .

الوضع اليوم يختلف كل الاختلاف عن تشخيص راسمالية ما قبل الاحتكار . فرجل الاعمال لا يوظف امواله عشوائيا ؛ تاركا كل شيء للحظ . ومن أجل الوصول الى القمة ، لا بد للمرء من ان يتنبأ بالانتاج ومتطلبات السوق التي يشارك فيها وتذبذباتها . ولحل تلك القضايا لا بد من اخذ عدة عوامل بالحسبان ، وليس فقط العوامل الاقتصادية الصرفة ؛ بل ايضا تلك العوامل ذات الطبيعة الاجتماعية الواسعة . وهذا يعني ان الاحتكارات تستفيد من كل من التنبؤ الاقتصادي والتنبؤ الاجتماعي .

هنا تتميز الراسمالية الاحتكارية الحديثة من راسمالية ما قبل الاحتكار التي كانت سمتها الاساسية الاتجاه نحو متطلبات اللحظة الراهنة ، بانها ؛ اضافة الى ذلك ، تحاول استشفاف المستقبل . ويتجلى هذا في المخصصات المتزايدة باستمرار التي تخصصها الدول البرجوازية للتنبؤ الاجتماعي ـ الاقتصادي . في الولايات المتحدة مثلا ينفق ٩٠ مليون دولار سنويا لهذا الغرض منذ عقد من الزمن . وبالطبع ليس من باب الصدفة ان مجموعات وارساليات ومؤسسات ووكالات عديدة تمارس كل انواع التنبؤات ؛ بما في ذلك التنبؤات الاجتماعية الاقتصادية ؛ انشاتها الاحتكارات في العصر الحديث .

ظهر التنبؤ الاجتماعي أول ما ظهر كواحد من المتطلبات العملية للاحتكارات ؛ وهذا هو السبب الاساسي في عودة العالم البرجوازي الحديث الى الاتجاه نحو المستقبل .

وبمواجهة المد المتعاظم للشيوعية الذي بدات الراسمالية تشعر اكثر فاكثر به ، والذي سيكنس كل انظمة علاقات الانتاج البالية، تبذل البرجوازية

---

(٥) ماركس ـ انجلز « المؤلفات الكاملة » جـ ٤ ص ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

جهودا بائسة حتما « تتنفس تحت الماء » ؛ ولتكون جاهزة لمواجهة المستقبل . لقد كان هاجس الثورة الاجتماعية هو الذي اجبر الراسمالية جديا على التفكير في مستقبلها ، وفيما اذا كان بالامكان شن « حرب مبادرة » ضد مستقبل الشيوعية لاطالة وجودها الخادس اطول ما يمكن .

من جهة فان سوسيولوجيي الغرب يبحثون بداب عن البديل المعقول للشيوعية العلمية ، وهو الشغل الشاغل للنظام البرجوازي في المستقبل . ومن جهة اخرى فانه سعي لاستعارة الافكار الشعبية للتقدم الاجتماعي من الشيوعيين ، واشاعة الايمان ان المجتمع البرجوازي يمكن ان يستخدمها .

ان بدعة المستقبلوجيا ظاهرة جديدة نسبيا في تكتيك اعداء الشيوعية . وغالبا ما اعتبر اتجاه التطور التاريخي شيئا لا يمكن معرفته ولا التنبؤ به ، كما اعتبرت فكرة الماركسية عن امكانية التنبؤ الاجتماعي فكرة طوباوية . بيد أن للمستقبلوجيا اليوم التي صخبوا بها حتى ماؤوا الفضاء دلالة مختلفة كل الاختلاف ؛ وهي موجهة مباشرة ضد « التفكير الماركسي الطوباوي » . وبهذا المعنى وضع الاستاذ الاميركي اوزيب فلشتيم مصطلح « المستقبلوجيا » . ويتهم مخترع مصطلح المستقبلوجيا كل محاولات التنبؤ للمجرى التاريخي للاحداث بانها « علمية زائفة » . كتب : « من اي زاوية يحاول المرء تفسير عملية التاريخ فان من المستحيل بناءها في نظرية كاملة الصحة . اقرب الى الصحة ان نصور حياة الانسان بملحمة الاوديسة التي لا نهاية لها للاجناس البشرية . يضرب في الارجاء هنا وهناك ، حينا يمكث في الارض وحينا في الشواطىء المجهولة »(٦) . ببساطة ان فيلشتيم لا يرفض فقط امكانية التنبؤ الاجتماعي بل يرفض حتمية العملية التاريخية .

لقد تغيرت الصورة بشكل اساسي منذ الستينات . ان المنجزات الاقتصادية للدول الاشتراكية وتفاقم التناقضات الراسمالية لم تفصح فقط عن قوة الاشتراكية المتزايدة وضعف الراسمالية الشديد ، بل اثبتت ايضا ان التنبؤ التاريخي للشيوعيين كان صحيحا . وعلى ضوء هذه الوقائع فان المنظور التاريخي للراسمالية يبرز بقوة واضحة . وبهذا الصدد يقول الاستاذ الالماني اريك فروم : « العالم الغربي في طريق مسدود . لقد حصل على الكثير من الامور الاقتصادية وفقد اي معنى وهدف في الحياة . وبدون هذا الهدف،

---

(٦) « التاريخ وعلم المستقبل » ١٩٦٦ ص ٦٠ .

فان المجتمع الغربي ، مثل اي مجتمع آخر في الماضي ، لا بد من ان يفقد حيويته وقوته الداخلية » .

وحتى يستعيد هذه « الحيوية والقوة » لجأ الايديولوجيون الغربيون الى المستقبلوجيا وتحويل العداء التاريخي بين الراسمالية والاشتراكية الى المستقبل . من قبل كان يقال أن مجرى التاريخ لا يمكن التنبؤ به ولذلك فان المنظور الشيوعي للعالم لم يكن اكثر من ابتكار حالمين ، ولذلك لا يمكن الركون الى الشيوعيين لان المستقبل لا يمكن التنبؤ به . والآن يؤكدون أن من الممكن التنبؤ بمستقبل البشرية شريطة ترك « الطوباويات الشيوعية » وتكون التنبؤات حسب المقاييس الراسمالية .

بهذه التحفظات تلعب المستقبلوجيا دورها في صياغة المفاهيم المناوئة للشيوعية . واذ كان استطلاع المستقبل من قبل مرتعا للخيالات الفردية فان الدراسات المستقبلية اليوم تقوم على أساس تنظيمي واسع وعريض . لقد اعلن مرة ريتشارد نكسون بهذا الصدد : « أن الحلم الاميركي أهم من ان نتركه للحالمين » .

والآن يخدم علم المستقبل ويلتهم عشرات الهيئات الحكومية والمؤسسات الخاصة ، في كل الاقطار الراسمالية تقريبا .

مثل هذه الدراسات يقوم بها في الولايات المتحدة : مؤسسة هدسون وجامعة ستانفورد والاكاديمية الاميركية للفنون والقومسيون العلمي لعام ٢٠٠٠ والسنوات الثلاثون القادمة وغيرها . وفي المانيا الغربية دراسة تاريخ المستقبل ومؤسسات المستقبلوجيا في ميونيخ وتيوبنجن .

وهناك مراكز دراسة قضايا المستقبل في روما وفينا وطوكيو واوسلو والمدن الاخرى . وفي الولايات المتحدة وحدها هناك اكثر من ٦٠٠ منظمة مستقبلوجية .

ان كل مصادر هذه المنظمات تقدمها الدولة والاحتكارات القوية تركز على البحث عن بديل المستقبل الشيوعي و « التبرير المستقبلوجي » للراسمالية . وقد قدم الايديولوجيون المناوئون للشيوعية نظريات عديدة تستخلص الدراسات العلمية للمستقبل ، بينما هيئت لتكون دعاية تدافع عن الراسمالية .

ان المستقبلوجيين البرجوازيين لا يخفون هذه الامور . احدهم مثلا ، وهو أوتيس دونكان يوضح هذا تماما : « عندما تتكامل قطعة من التحليل الاجتماعي مع صورة المستقبل ، فانها تتطلب ايمانا مطلقا ، انها تصبح ايديولوجيا ، فيكون لها من مؤمنيها سجناء ثقافتها واخلاقها »(٧) . وبعض تلك النظريات تتشبث بالامل ، واخرى تشوش الناس ، والثالثة توهن اخلاقهم ، بينما لا تزال نظريات اخرى ترعبهم . بيد ان الغرض من كل هذا تجريد الطبقة العاملة من سلاحها .

ان المستقبلوجيين البرجوازيين عمليون جدا اليوم ، على غير ما كان عليه بطل ويلز في « آلة الزمن » ، حيث يقوم برحلة خطيرة في الزمن من غير اهتمام مسبق . انهم في رحلاتهم الى المستقبل دائما يتخذون صيغة جاهزة لتساعد تفكيرهم المعادي للشيوعية . وتحت حجة التنبؤ العلمي بالمستقبل ، يتنبؤون اما بالاوضاع الاجتماعية القائمة حاليا ، أو باندحار المثل الشيوعية .

والعلم البرجوازي ، الباحث عن عزاء في الوهم الزاعم أن بالامكان تأخير حلول الثورة الاجتماعية بمعارضة الشيوعية بالدولة الراسمالية الاحتكارية التي تحل في المستقبل ، يتحدى التعاليم الماركسية الثورية عن المستقبل .

بهذه المجهودات بدأ الاساتذة البرجوازيون بمغامرة خطيرة سببت لبعضهم بعض الارباكات .

## التنبؤ بالعملية التاريخية

حاول بعضهم قراءة المستقبل . بضعة عقول كبيرة تمكنت من رؤيا الاحداث ، بينما عدد لا يحصى من أنواع التنبؤات ولدت ميتة .

يقدم لنا الفين توفلر بعض الامثلة في كتابه « صدمة المستقبل » :
« في عام ١٨٦٥ اخبر محرر صحيفة قراءه أن « الناس المطلعين يعرفون ان من المستحيل نقل الصوت عبر الاسلاك . . . » ولكن بعد عقد من الزمن انطلق التلفون من معامل « بل » وغيّر العالم .

« وفي اليوم الذي يبتكر الاخوان رايت جناحا ، ترفض الصحف ان تروي الحادث لان محرريها العقلاء الحكماء لم يصدقوا أن ذلك حدث . بعد ذلك فلكي اميركي مشهور هو سيمون نيوكومب ليس قبل ذلك بكثير اكد

---

(٧) الفين توفلر « صدمة المستقبل » نيويورك ١٩٧٠ ص ١٩١ .

للعالم ان من المستحيل معرفة المواد والاشكال الالية المعروفة وكذلك اشكال القوة التي يمكن ان تجمع في آلة عملية يمكن للانسان بواسطتها ان يطير مسافة طويلة .

« ليس بعد ذلك بكثير عندما اعلن خبير انه ليس سوى العقول الضعيفة تتوقع حركة عجلة بلا احصنة ، بعد ذلك بست سنوات قدم المليونير فورد اختراعه في اجتماع عام »(٨) .

ما الذي حال بين العلماء وبين التقدير الصحيح لتوقعات هذا الاتجاه او الاتجاه الآخر في العلوم الطبيعية او التكنولوجيا واستشفاف المستقبل .

اولا ، ذاتيتهم واهواؤهم فيما يتعلق بالمستقبل . انهم عادة ماخوذون بأفكار الماضي ، بالعقائد التي تفرضها الحياة اليومية فتحدد نماذج معينة من الذهنية .

وللتنبؤ لا بد من ان ننحي جانبا الاهواء الذاتية والممارسات القديمة . والا فان محاولات التنبؤ والاستشفاف تنتهي الى الفشل .

ينطبق هذا على العلوم الطبيعية وتطور التكنولوجيا والانتاج ، ولكن ايضا ينطبق على حياة المجتمع حيث ان اي محاولة للتنبؤ تستدعي ضرورة الاخذ بالحسبان اكبر عدد من العوامل وهي مهمة شاقة .

ان المستقبل لا ينفتح الا لاولئك الذين يستطيعون ان ياخذوا بعين الاعتبار كامل الميكانيكية المعقدة للواقع واركانها المرئية وغير المرئية .

بالنظر الى التقدم الاجتماعي فان هذه الطريقة تطورت على يدي ماركس وانجلز ولينين . ان التاريخ يميل الى تاكيد انتصار مفهوماتهم واثبات صحة طريقتهم . لقد كشفت ما كان دفينا خافيا عن الاعين حتى عن اعين اكبر كتاب الخيال العلمي .

كتب ويلز في ذكرياته عن لقاءاته مع لينين وافكاره عن المستقبل في كتابه « روسيا في الظل » : « انا لا استطيع رؤية اي شيء ، مما يحدث في هذا البلور القاتم من روسيا . ولكن هذا الرجل الصغير الحجم في الكرملين

---

(٨) ألن توفلر « صدمة المستقبل » نيويورك ١٩٧٠ ص ١٩١ .

يستطيع ذلك ، انه يرى سكك الحديد التالفة وقد حل محلها سكك جديدة من الكهرباء ، ويرى الطرق الجديدة منتشرة عبر الاراضي ، ويرى صناعة شيوعية جديدة تنهض »(٩) . ان قائد الثورة راي بعيدا : عشرون عاما فاذا الاتحاد السوفياتي يحتل المرتبة الثانية في العالم في الحجم العام للانتاج الصناعي .

ان قوة التنبؤ الماركسية اللينينية تنبع من الفهم العلمي العميق للقوانين الموضوعية واتجاهات التطور في الماضي والحاضر . يلاحظ ليون لافيل الذي يعتبر البيان الشيوعي مثالا على التنبؤ الاجتماعي ، ان « ماركس وانجلز صاغا تنبؤاتهما الاساسية على أساس دراسة المجتمعات السابقة ( الماضي ) وتحليل المجتمع الراسمالي الذي عاشا فيه ( الحاضر ) » . يتابع بعد ذلك فيقول : « على هذا الاساس اكتشفا القوانين المتحكمة بالانتقال من الحالة الاجتماعية الدنيا الى الحالة الاجتماعية العليا ، وبذلك انتقدا الراسمالية ، متنبئين ، التزاما بالطريقة العلمية للتطور الاجتماعي ، بالمرحلة التالية من التغير الاجتماعي وهي الشيوعية ( المستقبل ) »(١٠) .

ان ماركس وانجلز بتحليلهما العملية التاريخية والظواهر الاجتماعية للمجتمع الراسمالي في عصرهما ، كشفا الاتجاه العام لتطور القوى الانتاجية الذي سينهي عاجلا أم آجلا وبشكل حتمي العلاقات الراسمالية للانتاج . وهذا بدوره يعني ان الشيوعية محتومة تاريخيا .

ولهذا فان الاسس العلمية للتنبؤ الاجتماعي الماركسي هو في تطبيق الطريقة المادية الدياليكتيكية في معرفة الواقع مما يتطلب من الدارس اختبار الظواهر الاجتماعية في تطورها . كتب لينين : « من لا يعرف ان اي ظاهرة اجتماعية اذا درست في حالة تطورها ، فان بقايا الماضي واسس الحاضر وجراثيم المستقبل يجب دائما ان تكشف فيها »(١١) .

---

(٩) « روسيا في الظل » لندن ١٢٥ ـ ١٣٦ .

(١٠) « المفهوم الماركسي في المنظور » باريس ١٩٧٠ ص ٢٥ .

(١١) لينين « من اصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين » المؤلفات الكاملة جـ ١ ص ١٧٩ .

ان ماركس وانجلز ، لدى دراسة القوى الانتاجية التي راكمها مجتمع الراسمالية في عملية تطورها ، كانا اول من اظهر ان الشيوعية ليست طوباوية ولا حلما ، بل هدف نهائي ونتيجة لازمة لتطور هذه القوى .

لاحظ لينين ان « كل نظرية ماركس هي تطبيق نظرية التطور ـ في شكلها الاشد تماسكا واكتمالا ودقة وقوة ـ على الراسمالية الحديثة . بالطبع كان ماركس يواجه مشكلة تطبيق هذه النظرية سواء في الانهيار القادم للراسمالية ام في مستقبل الشيوعية القادمة »(١٢) .

على اي الاسس قدمت هذه المسالة بهذه الطريقة ؟ يرى لينين انها تكمن في ان الشيوعية تتطور تاريخيا من الراسمالية وتنجم عن فعل القوةالاجتماعية التي تولدها الراسمالية . ان ماركس لم يشغل نفسه في « حزر » المستقبل. انه طرح مسالة الشيوعية بطريقة العلوم الطبيعية فدرس نشأة النوع البيولوجي ليعرف كيف يظهر واي اتجاه يتخذ .

اكد كل من ماركس وانجلز ان مفاهيمهما عن المستقبل مرتبطة كل الارتباط بالتحليل العلمي للمادة التاريخية الفعلية والظواهر الاجتماعية بعصرهما . « ان آراءنا ، والسمات التي تميز المجتمع اللاراسمالي منالمجتمع المعاصر استنبطت نتائجها الدقيقة من الوقائع التاريخية ومن عمليات التطور، ولا قيمة نظرية أو عملية لها اذا انتزع المضمون من تلك العمليات »(١٣) .

تكمن قوة الماركسية اللينينية في انها تختبر الظواهر في حالة تطورها . والمثال التالي يوضح بشكل كاف هذه المسالة . لقد تحدث ماركس عن الثورة البروليتارية على الصعيد العالمي ، وقد كان هذا المفهوم صحيحا تماما في ظروف الراسمالية قبل الاحتكارية . ولكن عندما دخلت الاقطار الراسمالية المرحلة الامبريالية من التطور ، فان اتجاها اجتماعيا جديدا ، وهو التطور غير المتوازي لهذه الاقطار ، قد ظهر واضحا ، ولدى فحصه بدقة تنبا لينين بشجاعة : « ان التطور الاقتصادي والسياسي غير المتوازي هو القانون المطلق

---

(١٢) لينين « الدولة والثورة » المؤلفات الكاملة جـ ٢٥ ص ٤٥٧ ـ ٥٨ ) .

(١٣) ماركس وانجلز « المؤلفات » جـ ٢٦ ص ٢٩ ) .

للراسمالية . ولهذا فان انتصار الاشتراكية ممكن في عدة اقطار او في قطر واحد » (١٤) .

تستخدم الماركسية اللينينية طريقة معقدة في التنبؤ الاجتماعي . وهذا لا يجعل بالامكان فقط التنبؤ بالتغير الكمي لهذه الظاهرة او تلك ؛ بل بالتغير الكيفي . وبالنتيجة فان الظاهرة تدرس اثناء عمليتها ، وبينما لا تزال تتطور الى ذروتها العليا ، تنقلب الكمية الى كيفية وتنقلب الظاهرة الاجتماعية الى نقيضها . والفضل يرجع الى هذه الطريقة التي امكن بواسطتها التنبؤ عن الظاهرة الاجتماعية الجديدة .

ان الماركسيين لا يحصرون انفسهم باستقراء القوى المنتجة في المستقبل . فمع بعض التحفظات يمكن ان يتم هذا فيما يتعلق بالعمليات التكنولوجية والاتجاهات الاقتصادية ، ولكن ليس فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية . فمثلا عندما جرت دراسة تطور القوى المنتجة عالميا وتاريخيا ، لا يمكن رصد ذلك الى مالا نهاية كما يميل الى ذلك المستقبلوجيون . والمسألة هي انه في مجرى تطور القوى المنتجة تتداخل هذه القوى مع علاقات الانتاج التي يمكن ان تعوق تقدمها او ان توقفها نهائيا .

لذلك لا ماركس ولا انجلز ولا لينين حاول معرفة المستقبل في كل جزئياته وتفاصيله ( ولا اهمية لتلك التفصيلات ) ، ولا قام بوضع مفكرة تنبئية لمجرى الاحداث . ان الماركسية فكرت دائما في كشف الاتجاهات العامة ، والخطوط الرئيسية للتطور التاريخي . وبالنسبة الى الماركسيين فان انتصار المجتمع الشيوعي يحدد تاريخيا بصورة مسبقة وهو ينبع منطلقيا من تطور القوى المنتجة . ولكن كما كتب لينين : « باي مراحل وباي طرق وباي مقاييس عملية سوف تصل البشرية هذا الهدف العالي فاننا لا نعرف ولا نستطيع ان نعرف »(١٥) . وفي مكان آخر وسع لينين هذه الفكرة : « نحن لا ندعي ان ماركس او الماركسيين عرفوا الطريق الى الاشتراكية حتى آخر تفصيلاته . فمن العبث ادعاء اي شيء من هذا القبيل . ما نعرفه هو اتجاه هذا الطريق والقوى الطبقية التي تسير فيه ، والتفاصيل النوعية والعملية ستتضح فقط من خلال تجربة الملايين ، عندما تمسك الاشياء بايديها هي » .

اما بالنسبة الى الاتجاهات الرئيسية للعملية التاريخية فان كلاسيكي

---

(١٤) لينين « حول شعار الولايات المتحدة الاوروبية » المؤلفات ٢١ ص ٣٤٢ .

(١٥) لينين « الدولة والثورة » المؤلفات ج ٢٥ ص ٤٧٢ .

الماركسية اللينينة تنبؤوا بدقة مدهشة عن الاحداث الرئيسية الكبرى التي غيرت العالم : انتقال مركز الحركة الثورية العالمية الى الشرق ، والثورة البروليتارية التي تدشنت في روسيا ، وطابع الحرب العالمية الاولى ونتائجها، والحاجة الى مرحلة انتقالية من دكتاتورية البروليتاريا ، وتطور الراسمالية الى راسمالية احتكارية ، وانتقال العلوم مباشرة الى القوى الانتاجية ، وتنوع اشكال الانتقال الى الاشتراكية ، ووضع « الحرج الذري » وهلمجرا .

كانت كل هذه التنبؤات نتيجة للطريقة العلمية للتنبؤ الاجتماعي الذي قام به كلاسيكيو الماركسية وليست ثمرة خيال نبي او عبقري .

تدعي المستقبلوجيا البرجوازية انها ايضا تقوم على اساس علمي . انها تمتلك مراكز كومبيوترية كما طور المستقبلوجيون طرائقهم العديدة في التنبؤ الاجتماعي .

بشكل عام فان تجربة العلماء البرجوازيين في تطبيق تلك الطرق ( بالطبع طرق كمية ) ذات اهمية كبيرة في التنبؤ الاقتصادي والعلمي والتكنيكي . ففي هذا الحقل قدم المستقبلوجيون مادة ثمينة وطرحوا مسائل هامة ذات فائدة علمية كبرى . ومع ذلك فان الجهود لرفع هذه الطرق الى مستوى البناء القومي وصياغة تطور العلاقات الاجتماعية لا يصمد امام نقد . ولا يمكن لطرائق نوعية ان تعوض عن تقصير كل المستقبلوجيين البرجوازيين ، وعلى الاخص بؤس التفكير الذي ينطلقون منه دفاعا عن الراسمالية . وبالتالي فانه لا الاستعدادات ولا الطرائقية يمكن أن توضح التفاصيل الدقيقة وتصل الى نتيجة مرضية . وبالتالي فان المستقبلوجيين البرجوازيين ينتهون حتما اما الى التنبؤات الدفاعية ذات الطبيعة الدعائية ، متكهنين بـ « نهاية العالم » معلنين زوال كل توقعات ، أو بوضع نتائج مشعوذة مناوئة للعلم .

ان مأساة المستقبلوجيين الغربيين كعلماء هي ان عليهم تحقيق النظام الاجتماعي للطبقات وهو في طريق الزعزعة ولذلك تنهار تنبؤاتهم مثل بيت من كرتون عندما يواجه الحياة . انهار العديد منهم بظهور ازمة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ التي لم « يتصورها » المستقبلوجيون ولم يتنبؤوا بها . وفي وجه الازمة لم تبرهن المنظورات التكنولوجية التي وضعها بل وكاهن وغالبريت وتوفلر سوى انها قلاع في الهواء .

تحت هذه الظروف فقدت المستقبلوجيا كثيراً من الثقة التي تمتعت بها، وليس من العجيب ان يعدل خبراؤها تكتيكهم . ان تنبؤاتهم هذه الايام تجلت بكل انواع التقارير الغامضة . وما كان يعبر عنه بثقة وبطريقة صريحة يقدم اليوم بطريق قارئي الحظ .

ويفيدنا في هذا المجال كتاب المستقبلوجي الاميركي هيرمان كاهن وعنوانه : مئتا العام القادمة . ان كاهن ، مدير جمعية راند ومؤلف كتاب آخر بعنوان « عام ٢٠٠٠ » كان واعيا تماما لما حدث للتنبؤات السابقة فبعث في تنبؤاته تجديدا مفيدا . ولقد ظلت مبادئه الايديولوجية نفسها . وتفاؤليته بالمستقبل لم تهزها أزمة السبعينات . انه يعد الاميركيين انه في عام ٢٠٠٠ سوف يحصل « الازدهار » و « الرخاء » . بيد أن كاهن حريص كفاية في أن يقول ان هذه النبوءة لن تتحقق اذا لم يوضع حد للتضخم .

ويقدم المستقبلوجي الفرنسي ادموند ستلمان التحفظ ذاته في التنبؤ ان فرانسا ستقود اوروبا اقتصاديا عام ١٩٨٠ والاقتصادي البريطاني ريتشارد بيلي يقول ان نبوءته فيما يتعلق باستهلاك الطاقة في سنة ٢٠٠٠ انها ستنتهي اذا شهد العقدان التاليان ثباتا في الوضع السياسي ونمواً اقتصاديا لبريطانيا وبقية الاقطار (١٦) .

وامثال ذلك من طرق التنبؤات .

ومرة وصل زعم غريب من قبل المستقبلوجيين الغربيين . فالسوسيولوجي الامريكي بيكوزكتب ، على سبيل المثال ، مقالة ذات عنوان متخذلق : « الخمسمئة سنة القادمة. نبوءات علمية عن الاتجاهات الاجتماعية الكبرى » . انه يشعر بالراحة في التحقق انه لن يحمل المسؤولية الكاملة عن تنبؤاته ، ورفضه ان يضمن خمسمئة سنة .

مستقبلوجيون آخرون وجدوا طريقة اخرى لـ « ضمانة » تنبؤاتهم . وحسب تنبؤاتهم لعام ١٩٨٠ فسيكون امام البشرية احتمال الهلاك نتيجة مئة كارثة على الاقل ، بما في ذلك الطوفان العالمي ، واقتراب عصر جليدي آخر والحرب النووية وازدياد تلوث البيئة وهلمجرا . وبما ان احتمال اي واحدة منها هو بنسبة واحد من مئة ؛ وبما ان المئة قد اعلنت فلا اقل من ان تتحقق واحدة منها على الاقل (١٧) .

---

(١٦) مجلة فوتور المجلد ٤ رقم ٢ ، حزيران ١٩٧٢ ص ص ١٠٣ - ١١٤ .

(١٧) انظر مرب اوفلي « في دهشة التنبؤات » موسكو ١٩٧٥ ص ٢١٦ .

واحد قادة المستقبلوجيين في الغرب افلين توفلر يشك بهذه التنبؤات الحسية والواضحةويدعو جمعيته الى المزيد من الحذر . كتب : «الامستقبلي جدي يتعامل مع التنبؤات . ان هذه التنبؤات تترك للمعجزات التلفزيونية ومنجمي الصحف . فلا أحد لو كان يعرف هذه التنبؤات يسمح لنفسه ان يدعي انه يعرف الغد . . .

« هذا يعني ان كل تقرير عن المستقبل يجب ان يرافقه الشيء الكثير من الكلمات المريضة مثل لكن ، بيد أن ، ولذلك ، وبناء على وربما . . »(١٨) .

ان المجهودات التي بذلها الانبياء البرجوازيون لمعرفة احتمالات تنبؤاتهم اعتمادا على التحفظات الغامضة ، كشفت بوضوح تام ازمة المستقبلوجيا البرجوازية وعجزها عن اثبات المنظور التاريخي العالمي . ان المستقبلوجيا انقلبت الى شعوذة لا تختلف الا قليلا عن التنبؤات الدلفية .

ان العديد من الناس البسطاء يدفعون ثمنا باهظا للفشل في اكتشاف التنبؤات الغامضة لتلك التنبؤات وشرحها بصورة بدائية ومباشرة .

يسأل كروشوس ملك ليديا كهنة معبد ابولو في دلفي : « هل اخرج لقتال الفرس ؟ » ويتلقى جوابا واضحا : « اذا عبرت نهر هاليس فسوف تتدمر امبراطورية عظيمة » . وسعد كروشوس بالجواب . وبالفعل تحطمت امبراطورية عظيمة . الا انها كانت امبراطوريته هو . فهل يلومن أحد هذه النبوءة اذا أسيء فهمها ؟

## هل تنسجم الراسمالية مع الثورة العلمية التكنولوجية . . .

لقد وضعت المستقبلوجيا البرجوازية نفسها في طريق مسدود برفضها الاعتراف بحتمية التبدلات الاجتماعية مع أنها تبرز بشكل ساطع وكبير . لقد اشار جون برنال الى ان عصر العلم والكومبيوتر هو عصر الاشتراكية التي لا مناص منها .

واحد اكبر النتائج للتقدم الحالي هو انتقال العلم الى القوة الانتاجية .

---

(١٨) افلين توفلر « صدمة المستقبل » ص ص ٦ — ٧ .

ومع ذلك فتحت ظروف الملكية الخاصة لا يمكن استغلال هذه الصفة الجديدة تمـاما في الفـوائد الحيوية للبشرية . ان رعـاية المعرفـة ليس عملا يشبه تماما انتاج السلع الاستهلاكية للاستخدام الفردي . فمـا دامت المعرفـة في وظيفتها الاجتماعية ترتبط بالمجتمع ككل ، فان تراكمها وانجازها ممكن فقط على أساس القاعدة الاجتماعية التي تختلف مـن حيث الاسـاس عـن تلك المقاييس التي يقيمها المجتمع الراسمالي .

ان النفقات التي يخصصها المجتمع للعلم ضخمة جدا . وتبرر هـذه النفقات حتى عندما يظن انه لا فائدة عملية تجنى من بحث يمكن ان تتوخى فائدته في حياة جيل من الاجيال . وبالنظر الى النتيجة الاجتماعية المرجاة وليس الـى المكسب الخاص الفوري ، فان البحث عن الحقيقة مفيد حتى عندمـا تكـون فرص النجاح ضئيلة جدا . ان الصورة التقليدية للرجل العجوز الذي يغرس النبتات « التي تحمل ثمارا سوف يقطفها الآخرون » ترمز الى سمة أساسية في التقدم المعاصر للعلم ومتطلبات تطوره .

في عصر الثورة العلمية والتكنولوجية يحدد الموقف من العلم اكثر من اي وقت مضى تطور المجتمع ونظراته الى المستقبل . وبقدر ما ينظر المجتمع بعين التعظيم للعلم ، فانه سوف يجني أغنى الثمار التي تنضج غدا . ولذلك فـان الجهود التي يضعها المجتمع في العلم هي نوع التوظيف السليم الذي لا يصيبه التلف ، ونوع من ضمانة المستقبل .

ما موقف راس المال ؟ ان له قاعدته الخاصة من انفـاق التوظيفـات . والشكل الشائع هو « الداخل ـ الخارج » أي اسرع ما يمكن من تعـويض النفقات يسترد بأفضل الضمانات . ويوسع العمل هذه القاعدة الذهبية التي لم تدع البرجوازية تنهار ، الى التطور العلمي ويعتبر المعرفـة سلعة يمكـن تصنيعها وشراؤها وبيعها .

وعلى اي حال فان استرداد الاموال الموظفة في العلم يـستغرق فتـرة اطول بكثير جدا من التوظيفات العادية . والمخاطرة هنا قسطها كبير جدا طالما ان كل عالم لا يضمن لنفسه تجنب الخطأ في عملـه . ومـع ان الراسماليـة المعاصرة مضطرة الى قبول هذه المخاطرة ، لان الثورة العلمية والتكنولوجية جعلت ثمة تراكما من المعرفة كبداية اساسية لاي انتاج ، فان هدفها الملح في كل زمن هو الربح . ان تحقيق المنجزات في العلم والتكنولوجيا القائم قبل كل

شيء على أساس الصراع التنافسي يوقف في نهاية التحليل تطورها . هذه هي حقيقة البحث العلمي .

ان العسكرية بكل تشعباتها هي المحرض الاهم لتطور العلم والتكنولوجيا في ظل الراسمالية . ولكن كما اشار ماركس في زمنه الى ان نفقات سباق التسلح « في اتجاهها في الميدان الاقتصادي لتمثل الامة ترمي في البحر بقسم من الراسمال »(١٩) ان البواعث العسكرية لاتغني المجتمع بل تسرقه ، وعسكرة الاقتصاد توجه التطور العلمي الى جانب واحد وتشوه سمته ، وتسبب عدم توازن في نظام البحث العلمي بتحريضها على بعض الدراسات واهمالها الدراسات الاخرى . ان جني الارباح هو الباعث السائد في صناعة السلاح ، تماما مثلما هو سائد في بقية فروع الانتاج .

كتب نوربرت وينر : « هذا عصر تصاعد فيه دافع الربح بخيث غطى على كل الدوافع الاخرى . ان قيمة الافكار بالنسبة الى المجتمع تقدر بالدولارات والسنتات ، ومع ذلك فان الدولارات والسنتات هي تداول لا معنى له قياسا الى تلك الافكار الجديدة . إن الاكتشاف الذي يمكن أن يستغرق خمسين عاما قبل أن يثمر لا يعطي الا ادنى الغرض من الدعم لصالح اولئك الذين دفعوا لقاء عمل يعطي نتيجة فورية ، ومع ذلك ، اذا لم تصنع هذه المكتشفات ، وتابعنا الاعتماد على المكتشفات السابقة فاننا نبيع مستقبلنا ومستقبل ابنائنا وابناء ابنائنا » (٢٠) .

انها ملاحظة صحيحة . على اي حال لا بد ان نلاحظ ان الراسمالية المعاصرة لا تدفع العلم الى التوقف التام . على العكس ، انها تشجع كل الابحاث العلمية . ولكن في الدرجة الاولى هذا التطور غير متواز وفي الدرجة الثانية فانه يقابل باتجاه مناقض يفرزه نظام الملكية الخاصة . ان المؤسسة الكبيرة تسعى لاحتكار نتائج الثورة العلمية التكنولوجية واستخدامها في مجال جني الارباح . والاحتكارات تكافح ايضا لاخفاء المنجزات العلمية والتكنولوجية وتحنيطها ، وانتزاع القيمة الزائدة قدر الامكان وسحق منافسيها في السوق .

ان احتكار النتائج التي تحققت في البحث والتطور يؤدي الى نتيجة

---

(١٩) ماركس وانجلز « الارشيف » جـ ) ص ٢٩ ( بالروسية ) .

(٢٠) نوربرت ونير « انا عالم رياضيات » نيويورك ١٩٥٦ ص ص ١٦١ ــ ١٦٢ .

اقتصادية محلية وقصيرة . وهذه سوف تبطىء تقدم العلم وبالتالي التقدم الاجتماعي ككل . ان الراسمالية وقعت في مازق التناقض الذي لا حل له بين تطور العلم والقيم الاقتصادية الاجتماعية البرجوازية . ان النظام البرجوازي نفسه واقع بين العلاقات البالية للانتاج والحاجة الى تطور قوى انتاجية جديدة أوجدتها الثورة العلمية التكنولوجية .

يلاحظ الاستاذ الاميركي روبرت هلبرونر : « شيء واحد هو المؤكد . انه التنافر بين الفكرة الجديدة للاستخدام الفعال للعلم داخل المجتمع ، وفكرة الراسمالية كنظام اجتماعي . . . في النهاية سترجح الراسمالية في العلم وتجد ضالتها ، ليس كنظام بل كفلسفة »(٢١) .

ان تحول العلم الى قوة انتاجية مباشرة هو جانب واحد فقط من التقدم . والجانب الاخر في مستوى المتطلبات الجديدة للفرد . ان الثورة العلمية التكنولوجية تتدخل أكثر في العمل ، فلم يعد العامل ملحقا بالآلة ، لم يعد رجلا ميكانيكيا . وحتى يتم نظام السيطرة الاوتوماتيكية ، لا بد من ان يكون العامل اختصاصيا عالي المهارة ، بالاضافة الى انه يستفيد من نتائج عمله .

ولذلك فان الراسمالية تواجه مهمة اعادة تنظيم كل نظام التثقيف والتدريب للاداريين . وقد كتب عن ذلك عدة كتاب برجوازيين . وفي راي الاستاذ الاميركي بيتر دروكر ، ان الواقعة الجديدة هي ان تطور المجتمع والاقتصاد لن يكون كاملا اذا تلقى اي فرد تثقيفا دون مستوى قدراته . ان الانسان غير المثقف سرعان ما يصبح انسانا غير منتج . وعلى المجتمع اليوم ان يكون « مجتمعا مثقفا » لاحراز التقدم والتطور والانبعاث . ولكن هذا المطلب الذي صاغه دروكر يتعارض مع المقياس الراسمالي المعادي للانسانية. ان نظام الثقافة برز داخل اطار المجتمع الراسمالي التقليدي كنظام من الثقافة الاولية الضخمة . كتب افلين توفلر : « الثقافة الضخمة هي آلة مبدعة اقامتها الصناعية لانتاج نوع من الاشخاص البالغين الذين تحتاجهم »(٢٢) .

هذا يعني ان الانتاج الراسمالي مضطر ان يقدم للعمال كيفية العمل

---

(٢١) روبرت هلبرونر « حدود الراسمالية الامريكية » نيويورك ١٩٦٦ ص ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٢٢) الفين توفلر « صدمة المستقبل » ، ص ٣٥٤ .

الضرورية . ولا شيء أكثر تحتاج اليه في الحاضر . ولكن المزيد من العمل الفكري قد غير الوضع الآن . ان العامل الحديث لم يعد بحاجة الى قوة عضلية ، بل الى قدرة لحل قضايا الانتاج المعقدة . لقد حل محل العمل اليدوي الانظمة الاوتوماتيكية التي يشرف عليها العامل المدرب . وينتج من ذلك أن النظام القديم للثقافة الاولية غير كاف لتامين المزيد من تطوير القوى الانتاجية . ان « ثورة في الثقافة » تنقلب الى متطلب اقتصادي ملح والى ظرف متازم للانتاج المعاصر .

ان انتاج المستقبل سوف يتطلب التطور الشامل للشخصية وتحقيق قدرات الانسان وقابلياته العقلية ، ان ظهور امثال هؤلاء العمال في ظل الراسمالية امر اشكالي للغاية ، لانه لا يستطيع خلق الشروط لتطور الشخصية . والواقع أن هناك اتجاها معارضا ، وهو رغبة الاحتكارات في تدمير الفرد عن طريق اشاعة العنف والقتل واستخدام السيكولوجيا الاستهلاكية واحتضان ما يسمى بالثقافة الجماهيرية . ان التدمير والافساد المقصودين للشخصية الانسانية وحرفها عن جوهرها الروحي ، شكل للصراع الذي تقوم به الامبريالية المعاصرة ضد الثورة الاجتماعية ، شكل لنزع السلاح الثقافي من يد الطبقة العاملة . واذا كانت البرجوازية تغير هذا الاتجاه وتقوم بالتطوير الشامل للفرد فتكون بكل بساطة قد حكمت على نفسها بالموت . . ولذا ، في المنظور التاريخي نرى تثقيف العمل لا ينسجم ابدا مع الطريقة الراسمالية في الانتاج . ان الراسمالية عاشت ليس فقط كنظام اقتصادي ، بل ايضا كنظام من القيم الروحية ، غدا دمارها واضحا في وجه التغيرات الاجتماعية التي احدثتها الثورة العلمية التكنولوجية الحالية .

ان عقلنة العمل تتطلب حوافز اخرى أكثر من تلك التي ظهرت في النظام الراسمالي التقليدي . ان عمل الميكانيكي ، مثلا ، يترافق بتوتر عصبي وعقلي كبيرين . وهذا ، بدوره ، يجعل من الضروري خلق مصدر نفسي جديد قادر على ملء ما فقد النظام العصبي في مجرى الانتاج . ان قضية اعادة انتاج قوة العمل تبرز في ضوء جديد ، ويجب ايجاد حل مختلف للمسائل المرتبطة بالحوافز المادية والاخلاقية للعمل .

القيم الاجتماعية تحرك نشاطات الناس . ولكنم يتغيرون مع تطور القوى الانتاجية وانتقال البشرية من تشكيلة اجتماعية ــ اقتصادية الى تشكيلة اخرى . وكل انتقال من هذا القبيل يخلق عادات جديدة بين الناس.

كتب ماركس حول ثلاثة انماط من العلاقات : « علاقات الارتباط الشخصي، بدائية جدا في البدء ـ هكذا كانت الاشكال الاولى للمجتمع عندما تطورت انتاجية الناس الى مدى محدود وفي أماكن متفرقة . والاستقلال الشخصي القائم على الارتباط المادي ، هذا هو الشكل الثاني الذي في ظله قام أول نظام من التبادل الاجتماعي الشامل للبضائع ، من العلاقات الشاملة والمتطلبات الاجتماعية والقدرات العامة . والفردية الحرة القائمة على التطور العام للافراد ، على اخضاع انتاجيتهم الاجتماعية المتضافرة كخاصة اجتماعية لهم ـ هذا هو الشكل الثالث »(٢٣) . كل واحد من هذه الانماط له حوافزه المتطابقة المسؤولة عن نشاط الناس : القسر اللااقتصادي ، والتعويض المادي ، والحافز الاخلاقي .

لقد كان التعويض المادي الورقة الرابحة للراسمالية في صراعها مع الاقطاعية ، وهو الحافز الذي يجعل بالامكان رفع انتاجية العمل التي في التحليل الاخير ، كما أشار لينين ، اهم شيء واكبر برهان على انتصار نظام اجتماعي على نظام اجتماعي آخر . والآن لم يعد هذا الحافز كافيا . فكما ان الراسمالية لم تستطع ان تتطور اعتمادا على القسر اللااقتصادي ، فان الفعالية المفيدة اجتماعيا هذه الايام لن تكون فعالة تماما باعتمادها حصرا على القسر الاقتصادي .

هذه ليست حالة الاقطار الاشتراكية حيث تعزى الاهمية الكبرى للحوافز باعتبارها فرصة للتعبير الذاتي والقناعة بالعمل والمقام الاجتماعي للحرفة . ان هذه الحوافز تلعب دورا قياديا ، ليس فقط في العلم والثقافة والفن ، بل في كل الفروع التقليدية للانتاج المادي حيث تثقيف العمل يحرز تقدما . ان هذه الحوافز هي التي تجعل بالامكان الحصول على أعلى انتاجية حيث الحافز المادي وحده لا يكفي .

فقط مجتمع قائم على الانسانية والمبادىء العادلة ، يمكنه ان يخلق مثل هذه الحوافز . ان الراسمالية التي تعهدت لقرون فلسفة التراكم والميركانتيلية والنفعية أعجز من ان تخلق حوافز اجتماعية يحتاجها التقدم . مثل هذه القيم يخلقها فقط المجتمع الشيوعي .

---

(٢٣) ماركس ـ انجلز « الارشيف » ج ٤ ص ص ٨٩ ـ ٩١ ( بالروسية ) .

# المستقبل : لمـــن ؟

انها لمفارقة العصر ان البشرية ، وقد حققت سلطة جبارة على القــوى الاساسية في الطبيعة ، لا تزال خاضعة للقوى الاجتماعية الاوليــة في القسم الاعظم من الارض . ونتيجة لهذا التناقض فان اعظم منتجات العقل البشري التي أملتها الحوافز النبيلة انقلبت ضد البشرية نفسها ، كأنها رهن اشــارة الشيطان نفسـه . والسـبب الكامن خلف هذا هو النظام الراسمالي .

ان اكتشـاف الطاقة الذرية ادى الــى ولادة القنبلة الذريــة ، وتطـور الكيمياء أدى الى تطور غازات سامة جديدة ؛ وهندسة الصواريخ واكتشـاف الفضاء رافقتهما انتاج أسلحة القواعد الصاروخية ومحطــات الاستخبارات الفضائية المدارية . وهذه ايضا هي الراسمالية .

ان الملاحظة المريرة السـاخرة للكاتب الاميركي كورث فونيغوت ان العلماء مهما حاولوا فانهم لن ينتجوا الا السلاح ، قد أصبحت مثلا منذ امد طويل . كتب ماركس « كل شيء يحمل نقيضـه . فنرى ان الالات التــي تحــوز قــوة هائلة لتقليل العمل البشري وجعلــه مثمرا اكثــر ؛ جلبت للنــاس الجــوع والضنى . ومصادر الثروة المكتشـفة منذ زمن انقلبت الى مصادر البـؤس . كما لو أن انتصارات التكنولوجيا تمت على حـساب الانحطاط الاخلاقي »(٢٤). مع ان هذه الملاحظة متعلقة بموضوع معين فكأنها قيلت اليوم .

ولكن بينما هذه التحولات في الماضــي ، حتــى وان ازعجت النــاس ؛ لا تشكل تهديدا لحياتهم ، نراها اليوم ذات قوة ذاتيــة ؛ منفلتة من عقالها ؛ تهدد الوجود الفعلي للحضارة . من قبل كانت امــراض الراسماليــة ، وان حكمت على ملايين الناس بالعذاب والبؤس ، كانت عادة ذات طبيعة محلية . واليوم تحولت الى امراض واتخذت شكلا وبائيا خطيرا مهددة بقتل كل شيء حي علــى وجــه الارض .

فلناخذ مسالة الحرب والسلم . ان الذرة الداموكلينية بتهديدها ليست سوى تعبير ضخم عن السرطان المزمن للراسمالية ـ طبيعتها العدوانية . ان ازمة الذرة ، نتيجة الثورة العلميــة والتكنولوجية هي حــد تاريخي لسـباق التسلح يكمن خلفه الدمار الذاتي للراسمالية . وبفضل بعض القوة الســحرية

---

(٢٤) ماركس ـ انجلز « المؤلفات » ج ١٢ ص ٢ .

تستمر في ملء براميل دانيدس التي لا قعر لها بالمستحضرات المادية والتكنولوجية للحرب . وما امامنا الآن ليس سوى حقيقة مفارقة ولكنها واضحة : فكلما سارت خطوة في سباق التسلح ، دفعت بالبشرية باتجاه الكارثة النووية ، ولكنها في الوقت نفسه تمهد الطريق لتدمير نفسها .

ولناخذ ازمة البيئة ، وهي قضية اخرى معاصرة ذات اهمية عالمية . ان الاستغلال الاعمى للمصادر الطبيعية ، مثل النزعة العسكرية ، قانون من طبيعة الراسمالية . فستراتيجية الراسمالية فيما يتعلق بالارض قلبت ازمة البيئة الى تهديد حقيقي فعلي للبشرية . وثمة سبب يدفعنا الى القول ان نقص البرنامج العملي المخطط وتقديم مقاييس عالمية دقيقة يمكن اعتبارهما غير قابلين للحل .

حدث لغط كثير مؤخرا في الغرب حول الحاجة الى صيانة البيئة . وقد شجعت السلطات ذلك لتخفي الجوهر الاجتماعي والاسباب الفعلية للقضية طمعا في استخدامها في كل انواع المغامرات السياسية . والرئيس السابق نكسون ، في رسالته الاتحادية في ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٠ ( وبلاده تحمل العبء الاضخم من مسؤولية تلويث البيئة الحية ) قدم نداء خطابيا الى الشعب : « المسالة الكبرى للسبعينات هي : هل نستسلم لما يحيط بنا ، ام نحقق السلام مع الطبيعة ونبدا بتهيئة الاستعداد ـ للتلف الذي صنعناه لهوائنا وارضنا ومائنا ؟ » .

من الصعب قول اي شيء في هذا العرض للمسالة الا انه زائف . لا شك انالتلف الذي اشار اليه السيد نكسون كبير فعلا ويستمر في التزايد في خطوات نحو الكارثة . ولكن لا بد من ان نضع في اذهاننا أن الولايات المتحدة التي سكانها في بداية السبعينات يقدرون ٥ر٧ بالمئة من سكان العالم ، تستغل المصادر الطبيعية بنسبة ٤٠٪ . وحسبما يشير الاختصاصيون فان الولايات المتحدة قطعت نقطة التأزم عندما رممت المصادر الطبيعية الناضبة واتبعت طريقة طبيعية وحققت المعايير الخاصة .

قد يتوهم المرء ان هذا قد اقنع الدوائر الحاكمة الاميركية بكشف الاسباب الحقيقية المسؤولة عما يجري وشن نضال فعال لصيانة بيئة الاحياء .

ومع ذلك فان النتائج المطلوبة في هذا الميدان ، كما اقرت عالميا ، غير مرضية . ان كل النداءات البليغة لصيانة البيئة الطبيعية ظلت ميتة في

الاقطار الراسمالية . ومن الواضح انه لا يمكن توقع تقدم ما لم تتخذ معايير صارمة ضد الاحتكارات الراسمالية المسؤولة مباشرة عن جريمة تلويث البيئة . ان الدعاية البرجوازية مهيأة لتلوم اي شخص واي شيء ــ تلوم السكان والتصنيع والتقدم في العلم والتكنولوجيا ــ حتى تحلل الراسمالية الاحتكارية من مسؤوليتها . كتب غاي بيولات الذي درس هذه القضية : «اننا نتلوث بأي شيء : الدخان من مدافئنا ومن سياراتنا وفضلات طعامنا والماء من حماماتنا والغسيل في غسالاتنا والورق من صحفنا والزجاجات البلاستيكية والمعلبات . . . اننا نلوم كل ذلك لانها كلها مستهلكات . . . وفي الوقت نفسه يفعل الملوثون الكبار ما يحلو لهم محتجين بمنافع التصنيع »(٢٥) .

في « الداخل » ازمة البيئة بالنسبة الى القسم الاعظم فسرت على انها ورطة زائفة ــ اما المعايير الصارمة أو استنزاف المصادر الطبيعية ؛ اما تبطيء النمو الاقتصادي أو الوقوع في « نوعية الحياة » ان الايديولوجيين الامبرياليين يخفون الحقيقة أن الاقتصاد الراسمالي القائم على العمل الاختصاصي الضيق وعلى مبادىء الربح الفوري ، واقع في تناقض مستعص مع الاستغلال العلمي للثروة الطبيعية . ولهذا فان القاء تبعة تلوث البيئة تحول على التطور الصناعي . وبالنسبة الى « الخارج » فان استخدام اطروحة صيانة البيئة تستخدم لارجاء حل الموضوعات العالمية الاخرى وتحرف الجماهير عن المسائل الاجتماعية المحلية بحجة الاهتمام بهذه القضية العالمية .

ثمة شيء آخر يجب ان نشير اليه . فمع ان كل مقاصد الدعاية الاميركية واهدافها تبدو انها قلقة على الاذى الذي يسببه التطور الصناعي الحالي على البيئة ، فان البنتاغون ( وعلى الاخص خلال فترة حكم نكسون ) استخدم بشكل واسع المواد الكيميائية والسامة في الهند الصينية . وجاء في تقرير قدمه فريق من البيولوجيين برئاسة البروفسور ماتيو ميسلسون الذي قام بدراسة القضية في بقعة تزيد على ١٥٪ من ارض فيتنام الجنوبية ، وهي مساحة تزيد على مساحة ولاية ماساشوسيتس في الولايات المتحدة ، تعاني من آثار المواد الكيميائية .

ومن الطبيعي ان تحتفظ الدعاية الاميركية بهذه الوقائع ، وتناور لاستخدام قضية البيئة كعصا في وجه الصراع الطبقي . ان وكالات الدعاية

(٢٥) غاي بيولات « الماركسية والبيئة » باريس ١٩٧٢ ص ١٢٨ .

الامبريالية تطرح تلوث البيئة يجب ان تدفع التناقضات الاجتماعية ــ حسب مخططاتهم ــ الى الخلف .

وقد تم هذا على الرغم من حقيقة ان ازمة البيئة قد تطورت كقضية اجتماعية وسياسية جديدة متواشجة جدا مع القضايا الاجتماعية الاخرى ، التي تهدد النشاط الفعال للبشرية جمعاء ، والتي تسببت في اذى ملايين العمال وتظهر لا معقولية النظام الراسمالي .

هذه الحقيقة معروفة تماما في الغرب . يكتب البيئوي البريطاني باري كومونر : « لقد وصلنا الى المسالة المعقدة : من هو سليمان التكنولوجيا الحديثة الذي يرجح كفة المصلحة التي تنتجها ضد التكاليف البيئوية والاجتماعية ؟ » ويستخلص النتيجة التالية : « اننا نعرف الآن انالتكنولوجيا الحديثة التي هي مملوكة ملكية خاصة لا تستطيع ان تنتعش اذا هي دمرت المصلحة الاجتماعية التي تعتمد عليها ــ بيئة الاحياء .

« ولهذا فان نظاما اقتصاديا يقوم اساسا على الاجراءات الخاصة اكثر من الاجراءات الاجتماعية ليس ملائما على الاطلاق ، ولا تاثير له في ادارة هذه المصلحة الاجتماعية . ولذلك فان هذا النظام يحتاج الى تغير »(٢٦) . ان انتقال البشرية من الراسمالية الى الشيوعية تفرضه ايضا الاسباب البيئوية الحيوية .

لقد ناقشنا فقط موضوعين عالميين . ولكن اذا نحن اخذنا عددا من القضايا الاخرى ــ التطور الاقتصادي المتفاوت والبطالة المزمنة وانحطاط الثقافة وتحطيم الشخصية وازمة المدنية وبؤس الاقطار المتطورة وتخلفها وكثيرا مما يمكن ادراجه في القائمة ــ فسوف نصل الى النتيجة ذاتها وهيأن كل واحدة منها لا تنفصل عن الراسمالية. ان القضاء على الاسلوبالراسمالي في الانتاج هو بلا شك الطريقة الفعالة في حل هذه القضايا لمصلحة الجماهير والتقدم الانساني .

ان عجز الراسمالية في مواجهة قضايا الحاضر والمستقبل تثبت ازمة الايديولوجية البرجوازية الظاهرة في ياسها وتشاؤمها . ان الادب البرجوازي

---

(٢٦) باري كومونر « الدارة المغلقة : الطبيعة والانسان والتكنولوجيا » نيويورك ١٩٧٢ ص ١٩٧ .

والسينما والاذاعة والتلفزيون تتنبأ دائما بالنهاية المحتومة للبشرية نتيجة الهندسة الجينية والسيبرنيتيكية والاجتماعية وعدم السيطرة على العوامل البيولوجية للحرب الذرية والاختناق البيئوي وهلمجرا . وباختصار : البشرية عاجزة عن مواجهة قضاياها . انها في طريق مسدود ومحكوم عليها بالفناء .

كتب الاستاذ الاميركي واغار أن انسان القرن العشرين يشبه طفلا يعول في سلة قش على عتبة يوم القيامة . وفي براءته البغيضة القي الى رحمة القدر الذي هو ابعد من كل تخيل .

عواطف التشاؤم هذه نموذجية من ايديولوجيي العالم الراسمالي المدان الذين يعتبرون دمار الراسمالية دمارا للبشرية جمعاء . وكما كتب لينين : « الياس نموذجي لدى أولئك الذين لا يريدون ان يفهموا اسباب الشر ولا ان يروا طريق الخلاص منه ، وهم عاجزون عن النضال »(٢٧) .

ان الشيوعيين يرون المستقبل في ضوء مختلف . فمن تجربة النضال من اجل سعادة البشرية الكادحة ، والتجربة التي تجمعت في العقود الستة الاخيرة منذ ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى يتطلعون الى المستقبل بكل تفاؤلية . ان الشعب السوفياتي ينجز مهمة تاريخية عظيمة من أجل المزيد من التضامن لتحقيق السلم العالمي ، ولاحراز التقدم في النضال من اجل الحرية والديمقراطية والاشتراكية .

---

(٢٧) لينين : « تولستوي وحركة التحرر الحديثة » المؤلفات الكاملة جزء ١٦ ص ٣٢٢ .

# خاتمة

العالم الحديث متنوع جدا . والقضايا الاساسية ليومنا وعصرنا ومصير الاجيال القادمة ، يقررها النضال المعقد والمتناقض للنظامين الاجتماعيين المتعارضين ـ الراسمالية والاشتراكية ـ والطبقتين المتناحرتين ـ البرجوازية والبروليتاريا .

في المعركة الكبرى من أجل السلام والحرية والتقدم الاجتماعي يتعاظم الدور الكبير الذي يلعبه النضال الايديولوجي . والمحصلة ، وهي الانتصار النهائي للنظرة الشيوعية ، مقررة تاريخيا بشكل مسبق . ولهذا فان المقاومة الضارية للطبقات المحتضرة وعناءها ليس سوى محاولات عقيمة للهجوم المعاكس .

ان النشاط الثقافي كان وسيظل الميدان الاكثر تعقيدا ورهافة في الحياة البشرية . انه مباشرة أو من طريق غير مباشر يقع تحت تاثير شتى العوامل الثقافية والقومية والايديولوجية والسياسية والاجتماعية المتباينة جدا . وفي السلسلة المعقدة للآراء الايديولوجية لكل انسان أو مجموعة اجتماعية او طبقة ثمة تضافر لحتمية طبقية مشروطة وخاضعة للحظات عاطفية . وكل هذا يساعد على ظهور التجمعات ويلون الحياة الاجتماعية بحسب الفترة المحدودة من الزمن .

ومن هنا كانت الطبيعة التناقضية للصراع الايديولوجي المعاصر . ومع ذلك فان له منطقه الخاص الذي لا يتغير : يكسب معركة الافكار حتما اولئك الذين يلتزمون بالمتطلبات الفعلية للحياة ، ويفتحون أمام الجماهير الطرق الملموسة لحل مهماتهم العاجلة ، ليس بالاقوال ، بل بالافعال . هذه الحقيقة البسيطة تحدد مسبقا نجاح الايديولوجيا الشيوعية وديناميتها .

بالطبع لا يزال الكثير يجب عمله في هذا الميدان كما جاء في قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي « في المزيد من التحسين في الثقافة الايديولوجية والسياسية » (١٩٧٩) . وقد قراه كل الناس في البلاد . وهو ذو اهمية بالغة .

ومن الضروري بمكان التشجيع على العمل الايديولوجي والثقافي تمشيا مع المهمات الكبرى التي ظهرت في فترة الاشتراكية المتطورة تحت ظروف الديمقراطية السوفياتية التي وفرها الدستور الجديد للاتحاد السوفياتي .

ان موضوعة لينين ان الدولة تستمد قوتها من وعي الجماهير عندما تفهم الجماهير وتقدر كل شيء ، وتعمل دائما بوعي ، لم تظهر اهميتها اكثر من اليوم . ومن جهة اخرى فان التثقيف الايديولوجي والسياسي يجب ان يرتفع الى مستوى أعلى بسبب الاستفحال الشديد للصراع الايديولوجي في الصعيد الدولي . ان الدعاية الامبريالية تتقارب صراحة مع الساعين الى السيطرة في بكين ضد السوفيات . انهم يراهنون بجهودهم فيشنون حملة ضارية على عقول الشعب السوفياتي ، ويمعنون في غيهم فيشوهون صورة الواقع السوفياتي في اعين الرأي العام العالمي .

في مثل هذه الظروف فان التثقيف الايديولوجي يعتبر عنصرا أساسيا في المجهودات المبذولة لحل مهمات البناء الشيوعي ، في النضال من اجل السلم والتقدم في العالم . ان العمل الايديولوجي الناجح يحدد الى مدى بعيد مجرى التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي للاتحاد السوفياتي . وهذا يمكن الاتحاد السوفياتي بطرق شتى استغلال الامكانيات الاصيلة للاشتراكية المتطورة ومتابعة سياسته الخارجية المحبة للسلام ، وهذا ما تشاركه به الاقطار الاشتراكية .

لماذا تزداد الاشتراكية قوة على الرغم من التنبؤات البرجوازية حول فناء المجتمع الجديد ؟ لماذا تنجح الاشتراكية في بحثها عن حلول للمسائل الهامة بالنسبة الى الناس العاديين الذين ما كانت البشرية لتكتشف تاريخها لولاهم ؟ لماذا تنذر الراسمالية جميع الامم والاقطار بالتخلف والوجود المهمل ، بينما تقوذهم الاشتراكية الى طريق التقدم في فترة قصيرة من الزمن ؟ لماذا اثبتت البرجوازية عجزها عن اخماد الصراعات القومية بين الاقطار ، بينما خلقت الاشتراكية في فترة تاريخية قصيرة مجموعة من الناس يبنون مجتمعا شيوعيا ؟ واخيرا لماذا بالضبط السياسة الخارجية للاشتراكية في الصراع ضد قوى العدوان هي التي تاتي للشعب بالسلام وبفرص التعاون المثمر ؟

هذه الاسئلة هي تحد للراسمالية ، لان الممارسة الاجتماعية التي لا تدحض تثبت ان نظرية الشيوعية العلمية في عصرنا هي وحدها التي تبين للبشرية طريق الانعتاق الاجتماعي والسياسي ، وان الاشتراكية وحدها فقط قادرة على حل القضايا الاساسية للعالم المعاصر .

وفي ظل الراية الايديولوجية للماركسية اللينينية حقق الشعب السوفياتي في ستة عقود انتصارات تاريخية في ميادين النشاط الاقتصادي والسياسي والثقافي . ومنذ الحرب العالمية الثانية غدت الماركسية اللينينية الاساس النظري لتطور الدولة في عدد من الاقطار الاوروبية والآسيوية واميركا اللاتينية ، التي سارت في طريق الاشتراكية . ان الماركسية اللينينية هي أيديولوجيا الاحزاب الشيوعية في الاقطار الراسمالية ، التي تكافح من أجل السلم والديمقراطية والتقدم الاجتماعي . وفي الظروف الصعبة للواقع الحالي فان الحركة الشيوعية وحدها تتميز بطرح القضايا التي لا تستوجب تاخيرا في حلها ، اي تصفية نتائج الحرب العالمية الثانية ، ومؤازرة السلم العالمي ، وتوسيع المكتسبات الاقتصادية والاجتماعية والديمقراطية للطبقة العاملة . ويمكن ان نضع ضمن هذا السياق الموضوعات الاساسية لوحدة كل القوى الديمقراطية ، وتطور النضال الوطني التحرري وقضايا اخرى عديدة . وهذا هو السبب في ان نظرية الشيوعية العلمية وممارستها العملية، في معركة الافكار ، تكتسب اعدادا مضاعفة من الكادحين في العالم .

بالطبع ليس لدى الشيوعين اجابات جاهزة على جميع المسائل . لكن لديهم فكرة واضحة جدا عن الاتجاه الاساسي للتطور التاريخي . انهم يعتمدون على طريقة علمية في المعرفة ، على نظريتهم الثورية وعلى خبرة ما يزيد على ستين عاما في بناء عالم جديد . انهم يقولون بملء فيهم انهم يعرفون اين وكيف يقودون البشرية ، ولهم كل المسوغات لان يعلنوا ان هذا الطريق يقود الطبقة العاملة الى السلم والعدالة الاجتماعية .

كتب المفكر الفرنسي الكبير هنري سان سيمون : « لقـد جعلت مخيلة الشعراء العصر الذهبي في مهاو الانواع البشرية ، بين جهالة العصور الباكرة وجلافتها ، بيد ان هذا العصر احرى به ان يعتبر العصر الحديدي . ان العصر الذهبي للانواع البشرية ليس وراءها . انـه امامهـا . انه في كمـال النظـام الاجتماعي الذي لم يره آباؤنا ، وسوف يحققه ابناؤنـا ، ومـا واجبنا الا ان نمهد لهـم الطريق »(1) .

ان الشيوعيين يهيبون بكل الكادحين لبذل جهودهم من أجـل تحقيق هـذا الهـدف .

---

(1) هنري سان سيمون « نصوص مختارة » باريس ١٩٢٥ ص ١١٠

# فهرست

ص

يرى ماركس ان هناك ثلاثة مستويات في الانتاج : القسر الاقتصادي لمراحل ما قبل الراسمالية ، والتعويض المادي للراسمالية ، والحافز المعنوي للاشتراكية . وقد تولدت افكار كثيرة من هذه المستويات، وطفقت تتصارع في شتى الميادين .

والكتاب عرض لتلك الافكار في شتى المراحل . ولكن المؤلف يذهب الى ان صراع الافكار ينحصر الان في ايديولوجيتين متصارعتين هما الاشتراكية والراسمالية . وقد نجد في الساحة الكثير من الافكار • ولكنها ، في التحليل النهائي ، تنضوي تحت الايديولوجيتين المتصارعتين •

ويخصص المؤلف الصفحات الاخيرة للتنبؤ بالمستقبل . ويرى أن المستقبل في صالح الايديولوجية الاشتراكية ، لان النظام الاشتراكي هو الذي سيحل محل النظام الراسمالي •

السعر ٢٠ ل.ل

التوزيع في الأقطار العربية

بيروت : دار القلم . شارع الحمراء . بناية صيداوي وصالحة . ص.ب ٨٨٣٧

دمشق : دار دمشق . شارع بور سعيد . هاتف ٢٢١٠٣٢ ـ ١١١٠٤٨